



عصور ما قبل التاريخ



منشورات جامعة دمشق
كلية الآداب والعلوم الإنسانية

عصور ما قبل التاريخ

الدكتور
سلطان محيسن
أستاذ في قسم التاريخ

١٤٣٩ - ١٤٤٠ هـ
٢٠١٧ - ٢٠١٨ م

جامعة دمشق

فهرس المحتويات

مقدمة	١١
الباب الأول: الإطار الجيومورفولوجي والجغرافي لحضارات عصور ما قبل التاريخ	١٧
الفصل الأول: الرباعي والعصور الجليدية	١٩
١ - البليستوسن في نصف الكرة الشمالي	٢٢
أ - القسم الشمالي	٢٢
ب - القسم الجنوبي	٢٤
٢ - انتهاء العصور الجليدية	٢٥
٣ - التقلبات المناخية الرباعية والشواطئ البحرية القديمة	٢٦
٤ - أسباب التغيرات المناخية في الرباعي	٢٧
٥ - التشكلات الجيولوجية الرباعية وآثار إنسان ما قبل التاريخ	٢٩
الفصل الثاني: ظهور الإنسان	٣٣
١ - تعريف الإنسان	٣٧
٢ - أثر البيئة والعمل في الأنسنة	٣٨
٣ - الاستر الويترك والهوموهاييل	٣٩
٤ - الهومو اركتوس	٤٢
٥ - إنسان النياندرتال	٤٤
٦ - موقع إنسان النياندرتال في العملية التطورية للإنسان العاقل	٤٦
٧ - الإنسان العاقل	٤٨
٨ - فرضيات ظهور الإنسان والتمايز العرقي	٤٩
الباب الثاني: علم ما قبل التاريخ	٥٣
الفصل الأول: تاريخ البحث وتطوره في عصور ما قبل التاريخ	٥٥
١ - حضارات عصور ما قبل التاريخ والهدف من دراستها	٥٩
٢ - تقسيم عصور ما قبل التاريخ	٦٠

٦٣	الفصل الثاني : طبيعة مواقع وآثارها عصور ما قبل التاريخ
٦٦	١ - تمييز الأدوات الحجرية
٦٩	٢ - تقنيات وتقاليدها تصنيع الأدوات الحجرية
٧٣	الفصل الثالث : طرائق تنقيب مواقع عصور ما قبل التاريخ
٧٩	الفصل الرابع : العلوم المساعدة لعلم ما قبل التاريخ
٨١	١ - العلوم الطبيعية
٨٣	٢ - العلوم الإنسانية
٨٥	الفصل الخامس : الستراتغرافيا والكرونولوجيا في علم آثار ما قبل التاريخ
٨٧	١ - الستراتغرافيا
٨٨	٢ - الكرونولوجيا
٨٩	أ - الكرونولوجيا النسبية
٩١	ب - الكرونولوجيا المطلقة
٩٥	الباب الثالث: مجتمعات الصيد والالتقاط في العصر الحجري القديم (الباليوليت)
٩٩	الفصل الأول : حضارات الباليوليت الأدنى
١٠٠	١ - الأدوات الحجرية الأولى وحضارة الدوفاي
١٠٢	٢ - الحضارة الآشولية
١٠٤	٣ - الأدوات العظمية والحشوية
١٠٥	٤ - البناء
١٠٧	٥ - الحياة الاقتصادية والاجتماعية
١٠٩	٦ - المجتمعات الانتقالية من الهومو هكتوس إلى النياندرتال
١١٣	الفصل الثاني : حضارات الباليوليت الأوسط ، النياندرتاليون
١١٥	١ - النياندرتاليون وأدواتهم الحجرية
١١٧	٢ - النياندرتاليون في غرب أوروبا
١١٨	٣ - النياندرتاليون في المشرق العربي القديم
١٢٠	٤ - الواقع الاقتصادي والاجتماعي لإنسان النياندرتال

١٢٢.....	٥ - معتقدات النياندرتال
١٢٢.....	أ - دفن الموتى
١٢٥.....	ب - عبادة الدب
١٢٧.....	الفصل الثالث : حضارات الإنسان العاقل في الباليوليت الأعلى
١٢٩.....	١ - الميزات العامة لحضارات الإنسان العاقل
١٣١.....	٢ - الإنسان العاقل في أوروبا
١٣٤.....	٣ - الإنسان العاقل في المشرق العربي القديم
١٣٦.....	٤ - الإنسان العاقل في إفريقية
١٣٨.....	٥ - الإنسان العاقل في العالم الجديد، أمريكا وأستراليا
١٤٠.....	٦ - فنون الإنسان العاقل
١٤٢.....	٧ - مراحل تطور فن الإنسان العاقل
١٤٤.....	٨ - التشابه بين حضارات الباليوليت
١٤٥.....	٩ - الاختلاف بين حضارات الباليوليت
١٤٩.....	الباب الرابع: المجتمعات الانتقالية في العصر الحجري الوسيط (الميزوليت)
١٥١.....	الفصل الأول: قرى الصيادين الأولى في المشرق العربي القديم
١٥٤.....	١ - الحضارة الكبارية
١٥٥.....	٢ - الحضارة الكبارية - الهندسية
١٥٦.....	٣ - الحضارة الزارزية
١٥٧.....	٤ - الحضارة النطوفية
١٥٨.....	٥ - عين الملاحه
١٥٩.....	٦ - النطوفيون في سورية
١٦١.....	٧ - فنون النطوفيين ومعتقداتهم
١٦٣.....	الفصل الثاني: العصر الحجري الوسيط في أوروبا
١٦٧.....	الباب الخامس: المجتمعات الزراعية في العصر الحجري الحديث (النيوليت)
١٦٩.....	الفصل الأول: ظهور القرى الزراعية الأولى
١٧١.....	١ - الميزات العامة للنيوليتيين

١٧٣.....	٢ - فرضيات ظهور الزراعة
١٧٤.....	أ - فرضية بريدوود
١٧٥.....	ب - فرضية كوفان
١٧٧.....	ج - مناقشة
١٧٩.....	الفصل الثاني: القرى الزراعية في عصر النيوليت ما قبل الفخار في بلاد الشام
١٨١.....	١ - العصر الانتقالي بين الميزوليت والنيوليت
١٨٢.....	٢ - مجتمعات النيوليت ما قبل الفخار آ
١٨٤.....	٣ - مجتمعات النيوليت ما قبل الفخار ب
١٨٧.....	٤ - الفنون والمعتقدات في القرى الزراعية الأولى في بلاد الشام
١٨٧.....	أ - الفن
١٨٩.....	ب - المعتقدات
١٩٣.....	الفصل الثالث: منطقة زاغروس منذ عصر ما قبل النيوليت وحتى النيوليت ما قبل الفخار
١٩٥.....	١ - مجتمعات ما قبل النيوليت
١٩٨.....	٢ - مجتمعات النيوليت ما قبل الفخار
١٩٨.....	أ - جارمو
٢٠٠.....	ب - علي كوش
٢٠٣.....	الفصل الرابع: المجتمعات الزراعية الأولى في الأناضول
٢٠٦.....	١ - تشايونو
٢٠٩.....	الفصل الخامس: انتشار الزراعة في العالم
٢١٣.....	الفصل السادس: القرى الزراعية في عصر النيوليت الفخاري في بلاد الشام
٢١٥.....	١ - سورية
٢١٨.....	٢ - فلسطين
٢٢١.....	الفصل السابع: مستوطنات عصر النيوليت الفخاري في الأناضول
٢٢٣.....	١ - تشاتل - هويوك
٢٢٧.....	الفصل الثامن: الحضارات النيوليتية المتطورة في بلاد الرافدين
٢٣٠.....	١ - حضارة أم الدباغية

٢٣١.....	٢ - حضارة حسونة.....
٢٣٣.....	٣ - حضارة سامراء.....
٢٣٧.....	الباب السادس: المجتمعات الانتقالية في العصر الحجري النحاس (الكالكوليت)
٢٣٩.....	الفصل الأول: حضارة حلف.....
٢٤٣.....	١ - حلف الباكر.....
٢٤٤.....	٢ - حلف الأوسط.....
٢٤٦.....	٣ - حلف الأخير.....
٢٤٩.....	الفصل الثاني: حضارة العبيد.....
٢٥٢.....	١ - العبيد الأول والثاني.....
٢٥٣.....	٢ - العبيد الثالث والرابع.....
٢٥٧.....	الفصل الثالث: نشوء العمران وفجر التاريخ (ثقافة الوركاء).....
٢٦٠.....	١ - عصر الوركاء الباكر.....
٢٦١.....	٢ - عصر الوركاء المتأخر.....
٢٦٣.....	الباب السابع: سورية في عصور ما قبل التاريخ.....
٢٦٥.....	الفصل الأول: الرباعي السوري وخصائصه.....
٢٦٧.....	١ - تطور البحث.....
٢٦٩.....	٢ - المشكلات الرباعية وآثار ما قبل التاريخ.....
٢٧١.....	الفصل الثاني: حضارات العصر الحجري القديم (الباليوليت).....
٢٧٣.....	١ - الباليوليت الأدنى.....
٢٧٧.....	٢ - الانتقال من الباليوليت الأدنى إلى الأوسط.....
٢٧٩.....	٣ - الباليوليت الأوسط والأعلى.....
٢٨٥.....	الفصل الثالث: حضارات العصر الحجري الوسيط والحديث.....
٣٠٣.....	الفصل الرابع: حضارات العصر الحجري - النحاسي.....
٣٠٥.....	١ - حلف وعبيد (أم قصر، تل زياده، قوزاق شمالي).....
٣٠٩.....	٢ - نشوء العمران وفجر التاريخ (تل مشنقة).....

.....	الأشكال	٣١١
.....	المراجع الأجنبية	٤٣٥
.....	المراجع العربية	٤٤١
.....	فهرس الجداول والأشكال والصور	٤٤٥
.....	فهرس الخرائط	٤٥٩

ملاحظة:

الجداول والأشكال والصور والخرائط جزء أساسي من الكتاب يرجى دراستها والرجوع إليها كلما ورد ذكرها في النص .

مقدمة

أثارت الاكتشافات الأولى للهياكل العظيمة والأدوات الحجرية، التي حصلت منذ القرن الثامن عشر، الفضول لدى الكثيرين، واحتدم النقاش حول تقويمها ومدى علاقتها بالإنسان. فرفضها بعض الباحثين قائلين: إن الجماجم المتحجرة تعود لحيوانات منقرضة وإن الأدوات الحجرية التي رافقتها ما هي إلا من صنع الصواعق والعوامل الطبيعية الأخرى، بينما جعلها آخرون شواهد على وجود إنسان ما قبل التاريخ. واختلط الواقع بالخيال حول حقيقة ذلك الإنسان، فتصوره الكتاب والفنانون، من وحي خيالهم، إمّا كائنات متوحشاً متربصاً في مغارة مظلمة للانقضاض على أول فريسة حتى ولو كانت من أبناء جلدته، وإمّا مخلوقاً طبيعياً ومسالماً يعيش بكل بساطة وعفوية لا يعرف الجشع ولا الحقد أو القتل. ولكن مع تدخل البحث العلمي الجاد بدأت الصورة تتوضح؛ إذ أكد الرواد الأوائل، استناداً إلى الوثائق الأثرية الملموسة، حقائق كان من الصعب قبولها في ذلك الوقت أهمها أن عمر الإنسان أقدم بكثير من الألف الرابع ق.م، وهي التقديرات المستنتجة من التوراه، بدليل العثور على أسلحته وهياكله العظيمة الأولى في طبقات جيولوجية، ترافقها عظام حيوانات تعود إلى مئات الألوف من السنين. كما أثبت هؤلاء الرواد أنه عاش على امتداد ذلك الزمن بشر مثلنا في شكلهم وفي عقلهم وتفكيرهم، لم يكونوا مختلفين كثيراً عن بعض المجتمعات البدائية التي ما زالت موجودة بيننا حتى الآن، وأن هؤلاء الناس ما هم إلا أسلافنا الأوائل تربطنا بهم أوثق الصلات الفيزيولوجية والحضارية. ونحن نعثر على آثارهم الآن في كل مكان تقريباً على سطح الأرض، وفي باطنها، وننسبها إلى ما نسميه بعصور ما قبل التاريخ Prehistory أو العصور الحجرية، ونعني بها العصور التي سبقت معرفة الكتابة، وهي عصور لم تعد تعامل على أنها مراحل وحشية، متخلفة، بل صار الجميع يدركون بأننا ندين لها بالكثير من مظاهر حضارتنا الحديثة. وإذا علمنا أن الإنسان الأول قد ظهر منذ ما يزيد على

مليون سنة ، ولكنه لم يخترع الكتابة إلا في مطلع الألف الثالث ق . م ، لإدراكنا كم كانت عصور ما قبل التاريخ طويلة قياساً إلى العصور الكتابية التاريخية التي لا تمثل إلا الخمسة آلاف سنة الأخيرة من تاريخ الإنسان .

إن إنسان ما قبل التاريخ قد عاش في القسم الأول والأطول من تاريخه المسمى بالعصر الحجري القديم ، الباليوليت ، متنقلاً خلف الصيد والالتقاط للثروات الحيوانية والنباتية الطبيعية ، ثم أصبح في العصر الحجري الوسيط ، الميزوليت ، أكثر استقراراً وأكثر تنظيمًا وفعالية في الحصول على غذائه اليومي . وما إن حل العصر الحجري الحديث ، النيوليت ، حتى أقام هذا الإنسان القرى الثابتة الأولى وعرف الزراعة وتدجين الحيوانات وحقق بذلك انعطافاً جذرياً ، اقتصادياً واجتماعياً ، واضعاً الأسس المباشرة للحضارة البشرية الغنية .

ومن جهة أخرى فقد قابل هذا التطور الحضاري تطور فيزيولوجي للجنس البشري الذي تعود جذوره إلى عدة ملايين من السنين حين تطور من الرئيسيات العليا ، التي عاشت في الزمن الرابع من أشكال بدائية إلى أخرى أكثر تعقيداً وتطوراً فظهر على التوالي : الأوسترالوبيثك أو الهوموهاييل ، وهو الإنسان الأول ذو الصفات الفيوولوجية والذهنية البسيطة تلاه الهوموهاركتوس ثم النياندرتال وأخيراً الإنسان العاقل سلفنا المباشر صاحب القدرات المادية والفكرية الكبيرة . وقد حصلت هذه الخطوات في القسم الأول والأطول من الرباعي ، البليستوسن ، الذي تميز بحدوث تقلبات مناخية تباينت فيها عصور جليدية باردة فصلت بعضها عن بعض عصور أخرى جافة ، وجدت دلائلها الجيولوجية والمستحاثية في العديد من المناطق ، وكان لهذه التغيرات المناخية أكبر الأثر في الإنسان القديم وفي وسطه الجغرافي .

إن علم ما قبل التاريخ يهدف إلى دراسة ذلك الإنسان وتلك البيئة في الزمن الرابع ، وقد حقق هذا السياق استقلالية كبيرة وأصبحت له أهدافه الواضحة وتقدمت مناهجه وطرائق بحثه وأصبح يستفيد من التقدم التقني والعلمي الحديث في مجال البحوث والتحليل المخبرية أو في استخدام الأجهزة المعقدة والمتطورة كما وسع نطاق

تعاونه مع العديد من العلوم الطبيعية والإنسانية المساعدة . وهذا العلم في مادته آثاري بحث (صرف) ؛ لأنه يعتمد على دراسة البقايا الأثرية المباشرة ، سواء أكانت أدوات أم أسلحة أم فنوناً أم أبنية وهياكل عظمية ومستحاثات نباتية أو حيوانية أو غيرها ، وهي التي يستخلص منها كل المعلومات المتعلقة بذلك الإنسان : كيف كان شكله وكيف عاش وما هو واقعه الاقتصادي والاجتماعي وأفكاره ومعتقداته وما هي طبيعة بيئته وخياراتها ومناخها وما مدى التأثير المتبادل بينه وبينها وغير ذلك ؟ . ولحسن الحظ فإن هذه البقايا الأثرية عديدة ومتنوعة وعلى امتداد المعمورة كلها . ولكن ذلك لا يعني أننا نستطيع بسهولة قراءة تاريخ الإنسان القديم لأن ما نثر عليه لا يشكل إلا الجزء القليل جداً من الأصل . فقد حيث أتى الزمن على القسم الأكبر منها ، ولم تستمر إلا المواد الأكثر مقاومة لعوامل الفناء وبخاصة الآثار الحجرية . وهنا يكمن سر صعوبة العمل في عصور ما قبل التاريخ التي يعود الفضل في جلاء غموضها إلى أجيال عديدة من الباحثين الذين أخذوا على عاتقهم مهمة التفسير العلمي الصحيح للعديد من القضايا المتعلقة بأصل الإنسان وأصل الحضارة ، وطرق التطور وأشكاله على هذين الصعيدين فانتقل هؤلاء الباحثون بالدراسات التاريخية والإنسانية لجعلوها أكثر شمولاً وموضوعية بعد أن أصبحوا يعتمدون على العلوم الطبيعية التي تساعدهم في كشف حقيقة الواقع الجغرافي القديم الذي نشأت فيه الحضارة والإنسان . ويمكننا أن نقول أن دراسات ما قبل التاريخ هي الأكثر شعبية أيضاً وهي الأقدر على إعادة تصور حياة المجتمعات القديمة على كل مستوياتها ، فبينما تؤرخ الوثائق الكتابية للدول والملوك فإن باحثي ما قبل التاريخ يحددوننا عن الإنسان بمعناه الواسع وليس عن الأقوياء والمشهورين . وهذه الدراسات من أكثر العلوم تحريضاً على البحث والتفكير ، لأننا نجعل الكثير عنها ، فإذا كانت معلوماتنا عن الوضع الاقتصادي والتقني شبه مرضية فإنها عن الجانب الاجتماعي والروحي ليست كذلك ، وما زالت أماننا أسئلة كثيرة بحاجة للإجابة عليها . ونحن عندما نجد الرد على سؤال ما يطرح هذا الرد علينا

أسئلة أخرى مما يدفعنا إلى المزيد من التدقيق والتعمق طلباً للحقيقة التاريخية . علماً أنه يجب أن نتذكر بأن العديد من الحقائق الموجودة بين أيدينا الآن هي راهنة وليست أزلية ولا قاطعة ، وهي خاضعة للتعديل ، بل الإلغاء ، لأن البحث المستمر والمتطور يضعنا كل يوم أمام وقائع أو حقائق جديدة نعتمد عليها في تقدم معارفنا الراهنة . فقد نستبعد ما كنا نعتقد بأنه مؤكد كما أن الأمر الذي كنا نرفضه قد يدل البحث على أنه واقعي . ولكن المهم أننا لا نصدر أحكامنا قبل أن نقوم بالدراسات المنهجية الشاملة وفي كل الاتجاهات ، مع حفاظنا على الهدف الرئيسي وهو معرفة تاريخ الإنسان بل الماضي عامة . ونحن في سبيل تحقيق هذا الهدف نضحي بالكثير من الجهد الفكري والمادي لأننا جزء من الماضي . وحينما ندرس إنسان ما قبل التاريخ فإنما نتعرف إلى أنفسنا بالذات ، لأن الفضل في وجودنا ، باعتباراً جنساً بشرياً ، يعود إلى جدنا الأول في عصور ما قبل التاريخ الذي كافح وانتصر ضد عالم الطبيعة والحيوان وفي شروط بالغة الصعوبة . إن كل إنجازاتنا الحضارية الكبيرة ، كالنار والبناء والزراعة والتدجين والفن والدين واللغة والتنظيم الاجتماعي وغيرها ، ندين بها لذلك الإنسان ، كما أن مشاكلنا المعاصرة كلها ، كالحرب والظلم والجوع والمرض ، جذورها في الماضي ، وإذا كنا نريد أن نعرف أنفسنا علينا دراسة هذا الماضي كمدخل أساسي لفهم تاريخنا الشامل ثم تفسيره وتوظيفه بما يساعد على تحقيق أهدافنا في حياة إنسانية لائقة .

ولا غرابة أن نرى اليوم هذا التركيز الشديد ، في كل مكان ، على دراسة ما قبل التاريخ الإنساني . ونحن هنا في القطر العربي السوري لدينا أسباب إضافية وأساسية عديدة تدفعنا لإيلاء تلك العصور العناية المناسبة ، فقد أثبتت الاكتشافات الأخيرة أنه كانت لمنطقتنا العربية عموماً ولسورية خصوصاً مكانة متميزة ألفت ، ومازالت تلقي أضواء كبرى على عصور ما قبل التاريخ في العالم كله .

وكان المشرق العربي القديم بحكم موقعه الجغرافي على مفترق طرق بين القارات الثلاث ممراً ومعبراً للإنسان الأول الذي تشير كل المكتشفات أنه انطلق من أفريقيا نحو المشرق العربي ثم انتشر من هناك في كل الاتجاهات وقد أتت اكتشافات السنوات

الأخيرة، وبخاصة تلك التي حصلت في النصف الثاني لعقد الثمانينات وفي السبعينات لتضيف الكثير إلى معلوماتنا عن عصور ما قبل التاريخ في العالم بشكل عام وفي المشرق العربي وسورية بشكل خاص. فقد ظهرت مكتشفات جديدة في مختلف المناطق، أغنت الكثير من معلوماتنا عن تلك العصور. ونشرت الأبحاث الكثيرة التي أنارت الصورة أكثر من أي وقت. كما أعيد النظر بالعديد من الأفكار والفرضيات السابقة وطرحت آراء جديدة حول هذا الموضوع. ومن جهة أخرى فقد تطورت وسائل الدراسة والتحليل وبخاصة طرق التأريخ المخبرية المعقدة التي أدت إلى إعادة النظر بالسلم الزمني للعصور الحجرية ودفعته في العمق أكثر؛ فأوضحت الحضارات والمواقع أكثر قدماً مما كنا نظن كما طرحت فرضيات جديدة تتعلق بظهور وتطور الإنسان وعلاقة مختلف أنواع الرئيسيات أو الإنسان ببعضها البعض. فظهرت مكتشفات جديدة تتعلق بمكانة إنسان النياندرتال في العملية التطورية للبشر. كل هذه الأمور وغيرها دفعت إلى إعادة النظر بهذا المؤلف بشكل يغطي واقع البحث والمعرفة الراهنين عن إنسان ما قبل التاريخ وحضارته في مختلف المناطق.

المؤلف

دمشق - حزيران/ ٢٠٠٢

الباب الأول

**الإطار الجيومورفولوجي والجغرافي
لحضارات عصور ما قبل التاريخ**

الفصل الأول: الرباعي والعصور الجليدية

الفصل الثاني: ظهور الإنسان

الفصل الأول

الرباعي والعصور الجليدية

- ١ - البليستوسن في نصف الكرة الشمالي
- ٢ - انتهاء العصور الجليدية
- ٣ - التقلبات المناخية الرباعية والشواطئ البحرية القديمة
- ٤ - أسباب التغيرات المناخية في الرباعي
- ٥ - التشكلات الجيولوجية الرباعية وآثار إنسان ما قبل التاريخ

الفصل الأول

الرباعي والعصور الجليدية

إن المستحاثات القديمة (Fossils) هي المصدر الأساسي الذي يعتمد عليه الباحثون في دراستهم لكيفية ظهور مختلف أشكال الحياة وتطورها. وقد بقيت الآثار المباشرة، وغير المباشرة، لهذه المستحاثات في العديد من الصخور الرسوبية التي لم تتعرض للحرارة والضغط. ومن خلال دراسة البقايا النباتية والحيوانية المتحجرة في هذه الصخور توصل الباحثون إلى تحديد سلم زمني لتطور الحياة على الأرض على امتداد الأحقاب الجيولوجية المتتالية. كما تمكنوا من معرفة المفاصل الأساسية في تاريخ الأرض والإنسان. وبفضلهم أصبحنا نعلم أن الانفجار الطبيعي الأول قد حصل منذ حوالي ١٥ / مليار سنة، تبعه تكون المجموعة الشمسية منذ ٥ / مليار سنة، بينما تشكل كوكبنا الأرضي منذ ٤,٥ / مليار سنة. ومنذ ٣,٥ / مليار سنة توزعت المحيطات واليابسة، كما أن الخلية الحية نواة الحياة الأولى، قد نمت في المحيطات منذ ٣,٢ / مليار سنة. تبعهما، وفي المحيطات أيضاً، ظهور النباتات البحرية ثم الحيوانات اللافقارية البحرية. ومنذ حوالي ٥٠٠ / مليون سنة أي في الحقب الجيولوجي القديم الباليوزويك (Palaeozoic) ظهرت النباتات ثم الحيوانات الفقارية البرية الأولى. وفي الحقب الجيولوجي الوسيط الميزوزييك (Mesozoic) أي منذ حوالي ٢٠٠ / مليون سنة تفرعت الثدييات الأولى وبخاصة الزواحف، بينما في الحقب الجيولوجي الحديث السينوزويك (Cenozoic) منذ حوالي ٦٠ / مليون سنة، تفرعت الرئيسيات التي انتشرت في مساحة كبيرة من العالم ومن هذه الرئيسيات خرج أسلاف الإنسان ثم الإنسان نفسه الذي يعود أقدم ظهور له إلى القسم الثاني من الحقب الجيولوجي الحديث المسمى الزمن الرابع أو الرباعي (Quaternary) (الشكل : ١).

١ - البليستوسن في نصف الكرة الشمالي

أ. القسم الشمالي:

إن الرباعي هو الزمن الجيولوجي الذي يعنينا مباشرة في دراستنا لعصور ما قبل التاريخ لأنه عصر ظهور الإنسان، إذ إن قسماً من الدارسين يسميه «حقب الإنسان» (Anthropozoic) ويمثل الرباعي العصر الأخير من تاريخ الأرض والحياة وقد بدأ منذ ٣ / ملايين سنة وما زال مستمراً حتى الآن. ويقسمه الباحثون إلى قسمين، الأول: البليستوسن (Pleistocene): يتألف من (Pleistocene) (أي كثير)، و(Kainos) وتعني: الجديد، ويقصد من هذه التسمية الزمن الحديث أو الجديد كثير التقلبات المناخية. ويؤرخ البليستوسن من ٣ / ملايين سنة حتى ١٠ / آلاف سنة ق. م. ويقسم بطبيعته إلى: - البليستوسن الأدنى (Lower Pleistocene) ويؤرخ من ٣ / ملايين سنة حتى ٧٠٠ / ألف سنة خلت.

- البليستوسن الأوسط (Middle Pleistocene) ويقع بين ٧٠٠ / ألف سنة حتى ١٥٠ / ألف سنة خلت.

- البليستوسن الأعلى (Upper Pleistocene) ويمتد من ١٥٠ / سنة إلى ١٥ / آلاف سنة ق. م.

القسم الثاني في الرباعي هو الهولوسن (Holocene) وهو يتألف من (Holos) وتعني جداً و(Kainos) أي: حديث، ويقصد من هذه التسمية الزمن الحديث جداً وقد بدأ الهولوسن منذ ١٥ / آلاف سنة وما زال مستمراً حتى الآن.

إن أهم ما يميز البليستوسن أنه عصر بارد، عكس الهولوسن الدافئ، حصلت فيه تغيرات مناخية كبيرة وتتابعت على امتداده عصور جليدية وأخرى فاصلة. وقد دلت الأبحاث التي أجريت، في جنوب أوروبا، منذ مطلع القرن الحالي من قبل كل بنك وبروكنر الألمانين (A. Penck, E. Bruckner) على أن نصف الكرة الشمالي قد شهد في البليستوسن عدة عصور جليدية متتالية زحف فيها الجليد جنوباً إلى مسافات مختلفة وصلت في بعض الأحيان إلى وسط أوروبا حتى درجة عرض ٤٥ / درجة شمال خط الاستواء. والجليد هو ثلج متحجر ومتراكم على امتداد آلاف السنين في مناخ بارد،

ساد في المناطق الشمالية المرتفعة والجبلية العالية، وتصل سماكته أحياناً بين / ٢٠٠٠ - ٣٠٠٠ م. وقد زحف هذا الجليد من المناطق العالية إلى المنخفضة ومن الشمال إلى الجنوب وغطى مساحات مختلفة من اليابسة محدثاً أكبر الأثر في البيئة والإنسان لأنه عندما تقدم الجليد كان يتراجع الغطاء النباتي والحيواني ويتراجع معه الإنسان والعكس بالعكس فكلما انسحب الجليد كان تقدم الإنسان والحياة.

وتُعدّ الجيومورفولوجيا (Geomorphology) أي علم شكل الأرض في دراسة التضاريس الرباعية للأرض، حيث تظهر بوضوح آثار العصور الجليدية التي تركت دلائل مختلفة في المناطق التي حصلت فيها من أهمها الركاميات الجليدية أو ما يسمى بالمورينات (Morenes) وهي صخور كان يدفعها الجليد معه أثناء تحركه ويتركها حيث يذوب فتظهر عليها آثار النقل والهرس بسبب ضغط الجليد، كما تظهر أنها غريبة ومنقولة إلى المنطقة التي توجد فيها، وتدل على الجليد الوديان والبحيرات الجليدية والسطوح والأشكال الأخرى التي تكون واضحة في المنطقة التي تعرضت لهذا الجليد. وكما قلنا تعرض نصف الكرة الشمالي في البليستوسن إلى عدة عصور جليدية (Glacials) تم تحديد آثار أربعة منها في وادي نهر الدانوب وأخذت تسمياتها من روافد هذا النهر وهي من الأقدم: جينز، مندل، ريس، فيرم (Gunz, Mindel, Riss, Wurm) وهناك عصر خامس آثاره أقل وضوحاً هو دونو (Donau). وقبله بيبر Biber. هذه الجليديات بلغت أوسع امتداد لها في عصر جليد مندل، الذي وصل حتى وسط أوروبا. وقد فصلت العصور الجليدية بعضها عن بعض عصور فاصلة دافئة سميت ما بين الجليديات (Inter-Glacials) هي: دونو جينز، جينز- مندل، مندل- ريس، ريس- فيرم كما حصلت ضمن العصر الجليدي الواحد فترات تميزت بالبرد الشديد تسمى، طوراً (Stadial) فصلتها مراحل دافئة، أو طور فاصل، كان يذوب فيه الجليد (Inter-Stadial). وفي شمال أوروبا تم تحديد أربعة عصور جليدية في البليستوسن أيضاً هي بدءاً من الأقدم: الستر الأول (القديم)، الستر، سال، فيستول (Elster I, Elster, Saal, Vistule) فصلت بينها عصور جافة هي: التيجلي، الكروميري، هولشتاين، ايم (Tiglian, Cromerian, Holstein, Eemian).

سادت تسميات العصور الجليدية الأوربية في النصف الأول من القرن الحالي وحاول كثيرون تطبيق صفاتها على بقية المناطق في العالم ولكن الدراسات أثبتت أن كل منطقة قد شهدت تقلباتها المناخية المتميزة ، وقد درست هذه التقلبات سواء في شمال أوروبا أم إفريقية أو شمال أمريكا وأعطيت تسميات محلية خاصة بها ولكنها تتوازي عموماً مع النموذج المعروف في جنوب أوروبا وشمالها .

ب. القسم الجنوبي :

إن التقلبات المناخية التي حصلت في شمالي نصف الكرة الشمالي على شكل جليديات متتالية أثّرت في جنوب الكرة الجنوبي ، في المنطقة الواقعة بين خطي عرض 15° - 45° شمال خط الاستواء ، عصوراً مطيرة باردة (Pluvial) توافقت مع العصور الجليدية في شمال نصف الكرة الشمالي ، فصلت بين هذه العصور المطيرة ، فترات أخرى جافة سميت ما بين المطيرة (Inter-Pluvial) قابلت - هي الأخرى - العصور الدافئة أو ما بين الجليدية في شمال نصف الكرة الشمالي .

وقد شكلت الجليديات الشمالية منطقة ضغط شديد تهب منها رياح قارسة باتجاه نصف الكرة الجنوبي سببت هطول أمطار غزيرة في المنطقة الممتدة من شمال إفريقية حتى الشرق الأوسط وعلى القسم الأكبر من الهند وجنوب شرق آسيا . ولكن في العصور الدافئة ، ما بين الجليدية ، كانت تهدأ هذه الرياح وتسبب جفافاً مناخياً في العروض الدنيا . وعلى الرغم من التعقيدات الكبيرة للتقلبات المناخية الرباعية وصعوبة ربط بعضها ببعض يلاحظ أن العصر الجليدي في شمال نصف الكرة الشمالي قابله عصر مطير في جنوب نصف الكرة الشمالي وأن العصر ما بين الجليدي الدافئ في شمال نصف الكرة الشمالي قابله عصر جاف في جنوبه . علماً أن المناطق المرتفعة الجنوبية كجبال هيمالايا قد عرفت بعض العصور الجليدية المحدودة . ووجدت دلائل العصور المطيرة في هذه المناطق الجنوبية في وديان الأنهار الكبيرة على شكل ترسبات من الرمل والحصى جرفتها ورسبتها المياه أثناء الهطول الشديد للأمطار ، ثم قامت بحتها في العصور الجافة مشكلة منها مصاطب متتالية ومتدرجة في ارتفاعاتها ، وتعتبر هذه المصاطب دليلاً على

المجرى القديم للنهر . كما تظهر آثار العصور المطيرة في وديان الأنهار الموسمية وعلى شكل مصاطب ، هي أقل امتداداً وسماكة وتتابعاً من تلك التي توجد في وديان الأنهار الكبرى . أما دلائل العصور الدافئة سواء كانت ما بين جليدية (Inter-Glacials) حصلت في القسم الشمالي من نصف الكرة الشمالي . أم ما بين مطيرة (Inter-Pluvial) حصلت في القسم الجنوبي من نصف الكرة الشمالي فهي دلائل تجسدت على شكل شواطئ بحرية قديمة (Paleo-Shorelines) أكثرها وضوحاً وأهمية تلك التي وجدت في حوض المتوسط . (الشكل : ٢) .

٢ - انتهاء العصور الجليدية:

في نهاية البليستوسن يتحسن المناخ ويتراجع الجليد كلياً لينحسر إلى المناطق القطبية الحالية ، وتفتح مناطق جديدة في اليابسة أمام الإنسان وتأخذ المناطق شكلها الجغرافي ، الحاضر حيث ثبت توزيع المحيطات واليابسة مثل ما هي عليه الآن ويستقر الغطاء النباتي والحيواني الحالي . إن التشكلات الجيولوجية في الهولوسن أقل انتشاراً منها في البليستوسن وهي في معظمها سهول رسوبية ، من الطمي النهري الناعم ، تجاور مياه النهر الجاري أو الوديان والأنهار الموسمية المباشرة ، وبسبب قرب الهولوسن الزمني فإن دلائله أكثر ، وقد دلت الدراسات على أنه تعرض - أيضاً - لتقلبات مناخية مختلفة وانتقل فيه الطقس بين البارد والدافئ . وقد بدت آثار هذه التقلبات واضحة في التغيرات في طبيعة الترسبات الجيولوجية وأنواع النباتات والحيوانات المرافقة لها . كما خضع الهولوسن لتقسيمات مختلفة ، أوسعها انتشاراً التقسيم المستمد من مناطق شمال أوروبا . فقد درس عصر الهولوسن هناك بشكل جيد من خلال الترسبات والبقايا المستحاثية ، وأشكال الشواطئ البحرية القديمة ، وحددت خلاله خمسة عصور مناخية باردة ودافئة تتابعت من الأقدم كالتالي :

ما قبل البوريال ، وهو عصر ذاب فيه الجليد وبدأ الدفء في الطقس واستمر من / ٨٢٠٠ - ٦٨٠٠ / سنة ق . م تلاه عصر البوريال الدافئ الذي استمر بين / ٦٨٠٠ - ٥٥٠٠ / ألف سنة ق . م ثم عصر الأطلنطي الدافئ جداً والحار

والذي استمر من / ٥٥٠٠ - ٣٠٠٠ / سنة ق.م ، وعصر شبه البوريال الجاف والدافئ الذي استمر من / ٣٠٠٠ - ٨٠٠ / سنة ق.م وعصر شبه الأطلنطي الدافئ ما زال مستمراً حتى الآن (Pre-Boreal, Boreal, Atlantic, Sub-Boreal, Sub-Atlantic). وأما الزمن الواقع بين نهاية البليستوسن والبداية الكاملة للهولوسن أي بين حوالي / ١٣٠٠٠ - ٨٢٠٠ / سنة ق.م فقد حددت فيه أيضاً، في شمال أوروبا والعصور والمناطق التالية : درياس الأول، وهو عصر جليدي بارد جداً حصل بين / ١٣٠٠٠ - ١١٠٠٠ / سنة ق.م تلاه بولينغ، حيث ذاب الجليد وساد الدفء وذلك بين / ١١٠٠٠ - ١٠٠٠٠ / سنة ق.م، ثم عصر درياس البارد لواقع بين / ١٠٠٠٠ - ٩٥٠٠ / سنة ق.م تلاه عصر الرود الدافئ بين / ٩٥٠٠ - ٨٥٠٠ / سنة ق.م وأخيراً عصر درياس الثالث البارد جداً والواقع بين / ٨٥٠٠ - ٨٢٠٠ / سنة ق.م (Dryas I, Bolling, Dryas II, Allerod, Dryas III). (الشكل : ٣).

٣ - التقلبات المناخية الرباعية والشواطئ البحرية القديمة:

أثرت التقلبات المناخية في الزمن الرابع في المحيطات أيضاً التي تعرضت لحركات مد (Transgression) ارتفع فيها مستوى مياه البحار وغطت مناطق من اليابسة المحيطة، وحركات جزر (Regression) عندما تراجعت مياه البحار إلى الخلف، وانحسرت عن المناطق التي غطتها في مرحلة المد. وقد تركت هذه الحركات آثارها في شكل شواطئ بحرية قديمة متدرجة أيضاً في بعدها وارتفاعها عن مياه البحر الحالي يميزها الباحثون من طبيعتها الجيولوجية ومن بقايا المستحاثات البحرية النباتية والحيوانية التي تضمها. ويُعدُّ حوض البحر المتوسط من المناطق المدروسة بشكل جيد من هذه الناحية وقد كشفت في حوضه آثار خمسة شواطئ قديمة:

(Paleorivages) متدرجة في ارتفاعاتها وبعدها عن البحر، وهي من الأعلى والأقدم والأبعد كالتالي:

الشاطئ الكالابري يليه الصقلي ثم التريني والموناستري وأخيراً شاطئ الفلاندري الذي يمثل الوضع الحالي لمياه المتوسط (Calabrian, Sicilian, Tyrrhenian, Monastrian, Flandrian). وهناك علاقة وطيدة بين التغيرات المناخية الرباعية التي

حصلت على اليابسة بشكل جليديات أو عصور فاصلة ، وبين حركات مياه المحيطات في المد والجزر ، إذن كل عصر جليدي على اليابسة قابله تراجع (أي جزر) في مياه البحر ، بينما كل عصر فاصل ، دافئ ، على اليابسة ، قابله ، مد ، أي ارتفاع في سوية مياه البحر . هذا المد البحري يدل عليه سطوح من الرمل والحصى المصقولة التي كانت في الرباعي مغطاة بالمياه وبقيت تشير إلى هذا الشاطئ البحري القديم . وهكذا فإن كل شاطئ رباعي على سواحل البحار يدل على مناخ دافئ بينما تدل المصطبة أو السرير النهري ، في وديان الأنهار ، على عصر بارد . كما أن كل شاطئ بحري يفصل بين سريرين نهريين .

علماً بأن العلاقة بين المصاطب النهرية والشواطئ البحرية القديمة ، وبين العصور الجليدية ومد مياه البحر وجزرها هي من أعقد المواضيع التي تواجه الدارسين للزمن الرابع لأنه يتشابه فيها عوامل جيولوجية وجغرافية ومناخية وكونية متعددة ؛ ولاسيما خاصة أن التشكلات الجيولوجية في الزمن الرابع قليلة وخاصة في القسم الأول منه وهي في الكثير من الأحيان ذات طابع محلي ومتبدل من منطقة إلى أخرى ، وهذه التشكلات ، غالباً ، لا تضم بقايا مستحاثية نباتية وحيوانية كافية . وكذلك فإن طرائق التأريخ المخبرية الدقيقة قليلة لكون هذه الطرائق ما زالت في مراحلها التجريبية ولتكاليفها الباهظة .

إن التشكلات الجيولوجية والترسبات الرباعية سواء أكانت ذات أصل قاري أم بحري تقدم لنا أفضل المعلومات عن طبيعة البيئة والمناخ وأنواع نبات ذلك العصر وحيواناته . أي عن الوسط حيث عاش إنسان ما قبل التاريخ ، هذا الوسط الذي كان شديد التأثير بالمناخ فتبدل بتبدله ومعه تغير نمط حياة الإنسان الذي نعثر على الكثير من أدواته الحجرية وآثاره الأخرى ضمن التشكلات الجيولوجية الرباعية حيثما وجدت .

٤ - أسباب التغيرات المناخية في الرباعي:

كثرت الدراسات من أجل معرفة الأسباب التي أدت إلى التغيرات المناخية الرباعية وبخاصة التي حصلت في البليستوسن وتواجه هذه القضية صعوبات مختلفة ناتجة عن تداخل عدة علوم كالفلك والفيزياء والكيمياء والرياضيات والجغرافية

وغيرها . ويرى الباحثون أسباباً مختلفة أدت إلى هذا المناخ الرباعي ، ومن أكثر النظريات انتشاراً نظرية الباحث اليوغسلافي ميلانكوفيتس (Milankovitch) الذي قال : إن التباين في زاوية ميلان محور الأرض ، عند دورانها حول الشمس وحول نفسها ، هو الذي أدى إلى الاختلاف في كمية الأشعة الشمسية التي تتلقاها هذه الأرض ، وإنه في الأوضاع التي كانت كمية الأشعة الشمسية قليلة ، بسبب بعد الشمس عن الأرض ، كانت تزداد البرودة مما سبب حصول الجليديات أما عندما تقترب فإنها كانت تتلقى حرارة أكبر ؛ أدت إلى ذوبان الجليديات المتراكمة في العصر البارد . وقد رأى هذا الباحث أن كل دورة مناخية كبرى سواء أكانت جليدية أم دافئة استمرت حوالي ٨٠,٠٠٠ / سنة ، وهي المدة التقريبية التي تفصل بين كل عصر مناخي وآخر في البليستوسن . ويظن آخرون أن مقدار غاز الفحم في المناخ كان السبب في حصول الجليديات ، لأنه كلما ارتفعت نسبة هذا الغاز مال الجو نحو الحرارة والدفع بينما إذا قلت نسبته أدى ذلك إلى برودة الجو وتدني درجة الحرارة . وهناك طبيعة التضاريس كالجبال العالية التي تؤدي إلى برودة الجو ، وكذلك يمارس توزيع اليابسة ، التي غالباً ما تكون أكثر برودة ، والمحيطات ، الأكثر دفئاً ، دوراً معيناً في حصول العصور الجليدية . ومهما يكن فإننا لسنا قادرين الآن على تحديد الأسباب الحقيقية للتغيرات في مناخ الرباعي وربما وجد هناك غير ما سبب ، وقد يكون وراء ذلك اجتماع الأسباب الواردة أعلاه أو أسباب أخرى سيكشف عنها البحث . ولكن الذي يعنينا أكثر ليس أسباب هذه التغيرات المناخية بل أثرها في الإنسان وحضارته في عصور ما قبل التاريخ ثم علاقة التشكلات الجيولوجية الرباعية سواء أكانت قارية أم بحرية ، بآثار هذا الإنسان .

وتحظى الدراسات المتعلقة بالمناخ القديم باهتمام متصاعد لأن التبدلات المناخية كانت ذات أثر كبير في البيئة الطبيعية بما فيها الكائنات الحية ومن أهم الطرائق المتبعة في هذا المجال :

١- الحرارة القديمة للمحيطات (Paleotemperature Oceanique) التي تعتمد على قياس العلاقة بين الأكسجين O_{18} والأكسجين O_{16} من خلال عمليات السبر في أعماق المحيطات والتي أدت إلى تحديد تبدلات الحرارة في الكون على امتداد الزمن .

وقد بلغت تقلباتها حوالي أربعين دورة مناخية ، بين دافئة وباردة ، وذلك على امتداد عصر البليستوسن .

كما تم أيضاً تحديد التبدلات المناخية انطلاقاً من دراسة الجليديات في المناطق القطبية ، وقد أعطت هذه الدراسات نتائج متوازية مع تلك التي أعطتها دراسة أعماق المحيطات . وهكذا تعد هذه الطريقة من أهم الطرائق المستخدمة في دراسة المناخ القديم ويعود الفضل في اكتشافها إلى شاكلتون Shackelton واوبديك N.D.Opdyke .

ومن جهة أخرى تساعد دراسات غبار الطلع / Pollen / على تحديد التقلبات المناخية الرباعية وهي تعتمد على دراسات ترسبات المستنقعات التي تتجمع فيها بقايا غبار الطلع وهي طريقة تتكامل مع طريقة عنصر الأكسجين (Isotope de l'Oxygene) فضلاً عن معرفة الحيوانات القديمة وبخاصة الحيوانات الصغيرة كالقوارض - الأسنان خاصة - التي تساعد دراستها ، على تحديد التبدلات المناخية . وهناك طرائق أخرى لا زالت في طور التجربة والتحقيق .

٥ - التشكلات الجيولوجية الرباعية وآثار إنسان ما قبل التاريخ:

إن أهم التشكلات الرباعية سواء أكانت مصاطب نهريّة أم شواطئ قديمة ، تكمن في وديان الأنهار وعلى السواحل البحرية وهي المناطق الأهم التي قصدها الإنسان وأقام فيها منذ البداية . وكما ذكرنا فإن الأنهار قد غيرت ، خلال الرباعي ، مجاريها عدة مرات كما بدلت البحار شواطئها وكان الإنسان مرتبطاً بهذه التغيرات فتحرك حيثما تحركت المياه ، وأقام معسكراته وبيوته الأولى بقربها وقد أدت الدراسات الجيومورفولوجية إلى تمييز عدة مصاطب أو أسرة (Terraces) سميت رباعيات نهريّة ، أعلاها هي أقدمها وأبعدها عن مياه النهر ، بينما أدناها هي أحدثها وأقربها إلى مياه النهر وقد رمز لهذه المصاطب النهريّة ورقمت من الأحدث كالتالي :

١ - الرباعي النهري صفر ويرمز له (ر ن ٥) (QFO: Quaternary Fluvatile, O)

وهو سرير نهري يعود تشكله إلى عصر الهولوسن أي أنه أحدث التشكلات الرباعية زمنياً ويجاور مياه النهر مباشرة ولا يرتفع عنها إلا قليلاً جداً ، ويقابل هذا السرير

الشاطئ البحري أي الرباعي البحري صفر، الذي يرمز له (رن ٥) (QM 0: Quaternary Marine, 0) وتوجد ضمن التشكلات الجيولوجية - سواء كانت قارية أم بحرية، للهولوسن - أحدث آثار عصور ما قبل التاريخ وهي العائدة إلى العصر الحجري الوسيط والعصر الحجري الحديث .

٢ - الرباعي النهري الأول (رن I, I QF) وهو آخر التشكلات الجيولوجية في البليستوسن وأقلها قدماً ويقابل عادة فيرم الأوروبي، وأقربها إلى النهر وترتفع مصطبته عن مستوى مياه النهر بين ٦ - ١٥ / م وأحياناً يصل ارتفاعها إلى ثلاثين متراً، وتلي هذه المصطبة آخر شاطئ بحري في البليستوسن، وهو الرباعي البحري الأول، (رب I, I QM) والذي يقابل الشاطئ الموناستري القديم المتوسط ويوجد ضمن السويات الدنيا للرباعي الأول، النهري والبحري آثار تعود إلى إنسان النياندرتال الذي عاش فيه العصر الحجري القديم الأوسط (الباليوليت الأوسط) بينما توجد في السويات العليا لهذا الرباعي الآثار المنسوبة إلى الإنسان العاقل الذي ظهر في العصر الحجري القديم الأعلى (الباليوليت الأعلى).

٣ - الرباعي النهري الثاني (رن II, II QF) يقابل العصر الجليدي ريس، وهو أبعد عن مياه النهر من الرباعي النهري الأول وأكثر ارتفاعاً ويتراوح علوه بين ٦٠ - ٨٠ / متراً فوق مستوى مياه النهر وتلي المصطبة النهرية العائدة إليه الشاطئ البحري المسمى الرباعي البحري الثاني (رب II, II QM) أو الشاطئ التيريني القديم في سواحل المتوسط . وتوجد ضمن الطبقات الجيولوجية لهذا العصر آثار وأدوات حجرية تعود إلى القسم الثالث من العصر الحجري القديم الأدنى المسمى بالآشولي الأعلى .

٤ - الرباعي النهري الثالث (رن III, III QF) وهو يقابل العصر الجليدي مندل، ومصطبته أبعد عن مياه النهر من مصطبة الرباعي النهري الثاني كما أنها أكثر ارتفاعاً إذ يتراوح ارتفاعها فوق مستوى مياه النهر بين ٨٠ - ٩٠ / م وأحياناً يصل حتى ١٠٠ / م ويلي هذا الرباعي الشاطئ البحري الثالث أي الرباعي البحري الثالث أو الصقيلي (رب III, III QM) وضمن طبقاته نعر على أدوات حجرية تعود إلى القسم الثاني من العصر الحجري القديم الأدنى المسمى بالآشولي الأوسط .

٥ - المصطبة النهرية الرابعة والأقدم : هي التي تعود إلى الرباعي النهرى الرابع (ر ن QF - IV, IV) وهي الأكثر بعداً وارتفاعاً عن مياه النهر ويتراوح ارتفاعها بين / ١٠٠ - ١٢٠ م وتقابل العصر الجليدي جينز كما أنها تلي الشاطئ البحري القديم الرابع المسمى بالرباعي البحري الرابع (ر ب QM IV, IV) أو الكالابري وتوجد في طبقات هذا الرباعي آثار تعود إلى القسم الأول من العصر الحجري القديم الأدنى أو الآشولي القديم .

إن ارتباط آثار عصور ما قبل التاريخ بالتشكلات الجيولوجية الرباعية يُعدُّ من أهم المعايير التي تساعد على تأريخ هذه التشكلات ومعرفة تتابعها الزمني والمناخي ، فالأدوات الحجرية الأقدم تدل على مجرى النهر الأول (السرير الأول) والأقدم ، بينما تدل الأدوات الحديثة على مجرى النهر الأحدث (السرير الأحدث) وهكذا ، ولكن في السرير الواحد (المصطبة الواحدة) أو في الشاطئ البحري الواحد ، نجد عادة آثاراً من عدة عصور وفي هذه الحالة فإن الآثار الأحدث منها هي التي تعطي السرير أو المصطبة تاريخها ، شرط أن تكون في مكانها الأصلي (In-Situ) وتدل على الزمن الحقيقي لتشكل هذه المصطبة ، أما الأدوات الحجرية الأقدم فهي ليست ثابتة وإنما مجروفة من المصاطب العليا والأقدم عهداً . ونحن كثيراً ما نجد أدوات حجرية قديمة في مصاطب حديثة العهد لكن من المستحيل العثور على أدوات حديثة في مصاطب قديمة . فمثلاً في المصطبة العائدة لعصر الهولوسن الذي لا يزيد عمره الجيولوجي على خمسة عشر ألف سنة ، في هذه المصطبة توجد أحياناً أدوات حجرية يصل عمرها إلى المليون سنة وتكون هذه الأدوات مترافقة مع البقايا الفخارية المؤرخة على الألف السادس ق . م ولكنها وصلت إلى جوار البقايا الفخارية مجروفة من مصاطب أقدم بفعل عمل مياه النهر المستمر في الحت والترسيب . وفي هذه الحالة فإن الآثار الفخارية هي التي تدلنا على زمن تشكل المصطبة وليس الأدوات الحجرية . ويجب أن نعلم بأن تتابع المصاطب النهرية أو الشواطئ البحرية القديمة الرباعية ليس بهذا الوضوح والترتيب والبساطة التي نظن . بل ، في الكثير من الأحوال ، تغيب بعض هذه المصاطب أو يغيب الشاطئ القديم

كله ولا نرى إلا دلائل بسيطة جداً عليها قد لا تتعدى كومة من الرمال ، أو الحصى المتحجرة . لذلك يجب دراسة مساحات واسعة تمتد أحياناً على طول وديان الأنهار أو الشواطئ البحرية ، سعياً وراء فهم الطبيعة الجيومورفولوجية للمنطقة المعنية كما أن تشكل المصاطب والشواطئ الرباعية يخضع لعوامل عديدة منها طوبوغرافية المنطقة ونوعية صخورها وقوة جريان المياه وطبيعة العصر المناخي التي حصلت فيه التشكلات التي تكون عادة نادرة ورقيقة في توضعاتها الجيولوجية وتكون محتوياتها الأثرية والحيوانية والنباتية أقل ، وذلك كلما كانت هذه التشكلات أكثر قدماً وأصبحت سماكتها أكبر وامتدادها أوسع وآثارها أغنى اقترب بنا الزمن (الشكل : ٤) .

الفصل الثاني

ظهور الإنسان

- ١ - تعريف الإنسان
- ٢ - أثر البيئة والعمل في الأنسنة
- ٣ - الاسترالوبيثك والهوموهايل
- ٤ - الهومواركتوس
- ٥ - إنسان النياندرتال
- ٦ - موقع إنسان النياندرتال في العملية التطورية للإنسان العاقل
- ٧ - الإنسان العاقل
- ٨ - فرضيات ظهور الإنسان والتمايز العرقي

الفصل الثاني

ظهور الإنسان

إن من أهم الأمور التي تواجه الإنسان هو السؤال المتعلق بأصله ومصيره لأن البشرية تواقة لأن تعرف كيف ومتى ومن أين أتت وإلى أين هي ذاهبة؟. وقد جرت المحاولات الأولى لتفسير الوجود الإنساني من قبل فلاسفة اليونان منذ القرنين السادس والخامس ق.م مثل انكسمندر ثم سقراط وأفلاطون وأرسطو الذين خرجوا عن إطار التصور الميتولوجي وجعلوا الإنسان جزءاً من الطبيعة المحيطة، يتأثر بها وتنطبق عليه قوانينها المادية. وقد أسهم فلاسفة العرب المسلمون في العصور الوسطى، كابن سينا وابن رشد وابن مسكويه وإخوان الصفا، أسهم هؤلاء في تفسير سر الحياة وحاولوا فهم ذلك ضمن إطاره الطبيعي وبمعزل عن التعليل الفلسفي والروحي الذي كان سائداً في ذلك الحين. وما إن أتى عصر النهضة الأوروبية منذ القرن التاسع عشر حتى أعطي هذا الموضوع دفعةً جديدةً فظهر تيار علمي يعتمد على البحث الدقيق الهادف إلى تحديد مكانة البشر، في عالم الحياة والطبيعة. وبذلك بدأت الدراسات المختصة التي تقول بتطور الإنسان وارتقائه خلال ملايين السنين (Evolution) واشتهر باحثون كبار تبثوا هذه النظرية من أهمهم الفيلسوف وعالم الطبيعة الفرنسي لامارك (J. B. de Lamarck) الذي عاش بين ١٧٤٤ - ١٨٢٩ م وكان أول من طرح نظرية متكاملة تناولت أنواع الكائنات كلها بما فيها الإنسان مؤكداً أن التطور هو نظام الطبيعة الأساسي وأن الأنواع تتكيف مع محيطها وتكتسب صفات تنقلها بدورها إلى أحفادها وقال: إن وظيفة العضو الفيزيولوجي هي التي تحدد طبيعة تطوره. ولكن المأخذ الرئيسي على موقف لامارك هو اعتباره أن الصفات المكتسبة متوارثة، لأن أعمال وايزمن (A. Wiesemann) في نهاية القرن العشرين أظهرت أن هذه الصفات المكتسبة هي غير متوارثة كما قال لامارك. وعلى ضوء تأثيرات هذا المفكر الكبير، ظهر باحث عظيم آخر هو الإنكليزي شارل داروين (Ch. Darwin) الذي عاش بين ١٨٠٨ - ١٨٨٢ وأيد

نظرية التطور أيضاً وأعطاهما أبعاداً جديدة، وثنوية، مؤكداً أن الحياة غير ثابتة وإنما متحولة وباستمرار ويحكمها قانون الاصطفاء الطبيعي (Natural Selection) وبقاء الأفضل. وقال: إن الأنواع الحية خرج بعضها من بعض بفعل عمل قانون الاصطفاء الطبيعي وأن الإنسان ما هو إلا الفرع الأخير والأرقى في نظام التطور الطويل للفقاريات. وقد أخذ هذا الموقف أبعاداً أخرى في القرن العشرين وظهر ما يسمى بالداروينية الجديدة (Neo-Darwinism) التي تعتمد على بحوث نظامية ومخبرية صحت العديد من منطلقات النظرية الداروينية، وبخاصة أنها أثبتت أن الصفات المكتسبة ليست متوارثة كان يظن، ويقف وايزمن وليزلي وايت (L. White) على رأس مناصري الداروينية الجديدة. وقد حققت البحوث المتعلقة بعلم الحياة نجاحات متصاعدة على يد عديدين منهم؛ مثل دوبرزانسكي (Dobzhansky) وفاندل (A. Vandel) وكثيرين غيرهما، تمحورت دراساتهم حول تفاصيل دقيقة تتعلق بنظام الجينات أو المورثات (Genes) والكرموزومات، أو الصبغيات (Chromosomes) كاشفين العديد من خفايا عالم الحياة المعقدة.

ويصنف البيولوجيون الإنسان بأنه كائن ينتمي إلى المملكة الحيوانية التي تنفرع عنها تدريجياً شعبة الفقاريات (Vertebrata) صنف الثدييات (Mammalia) رتبة الرئيسيات (Primata) فصيلة الإنسانيات (Homonidae) جنس الإنسان، (Homo) نوع الإنسان العاقل (Homo-Sapiens). كما يحدد هؤلاء البيولوجيون لكل من هذه الكائنات صفات تبين درجة تشابه بعضها مع بعض ومع الإنسان وقد تبين أن أقربها له هي الرئيسيات. ومن أجل تحديد علاقتها معه يعمل المختصون على دراسة أوجه الشبه بين الإنسان الحالي من جهة وبين الرئيسيات الحالية، وبخاصة القروود، من جهة أخرى، كما يدرسون العلاقة بين الرئيسيات القديمة والإنسان القديم من خلال المستحاثات العائدة لكل منهما.

إن الرئيسيات المعاصرة تتشابه مع الإنسان بالعديد من صفاتها كحجم مخها المتطور وبنية أطرافها وفكيها وأسنانها وهيكلها العظمي، وجهازها العصبي وزمرها الدموية ونظام البويضة وبنية الرحم والحمل والولادة وغير ذلك. وبسبب هذا التشابه

الشديد اعتقد الباحثون بوجود أصل واحد قديم ومشارك لكل من الإنسان والرئيسيات على حد سواء . كما أدت أعمال التنقيب التي جرت بحثاً عن هذا الجذ المشترك إلى اكتشاف العديد من الكائنات الحفرية القديمة للرئيسيات التي تحمل الصفات المشتركة بين القرد والإنسان . وقد وجدت في مناطق عديدة من أوروبا وآسيا وإفريقية ، ضمن طبقات جيولوجية تتراوح أعمارها بين / ٣٠ - ٨ / مليون سنة . وأطلق عليها تسميات مختلفة مثل القرد المصري (Aegyptopithecus) المؤرخ على حوالي / ٣٠ / مليون سنة والذي عثر عليه في الفيوم بمصر ، الذي يعتقد أنه كان الجد الذي أتى منه القرد الشجري (Dryopithecus) الذي تفرعت عنه أنواع أخرى بعضها اتجه نحو القرد الحالي بينما تطور بعضها الآخر إلى الإنسان وقد دلت البحوث على أن النوع المسمى قرد راما (Ramapithecus) هو الذي تطور نحو الجيئون الأورانج اوتون وليس نحو الإنسان كما في السابق . لقد وجدت هياكل الراماييتك في العديد من المناطق : الهند ، الباكستان ، تركيا ، كينيا ، والمجر . ويعتقد حالياً أن نوع القرد الكيني (Kenyanthropus) هو الذي كان الجد المشترك للشمبانزي والغوريلا والإنسان . ولا بد من المزيد من الأبحاث والمكتشفات لتحديد هذه القضية .

١ - تعريف الإنسان:

إن تعريف الإنسان قضية معقدة تتداخل فيها معايير فيزيولوجية واجتماعية وفلسفية وحضارية . لكن الباحثين يتفقون على شروط أساسية تميز الإنسان من بقية الكائنات ، أهمها ، من الناحية الفيزيولوجية ، القامة المنتصبة أي قدرة السير على قدمين ، بدلاً من أربعة ، ثم حجم الدماغ الكبير الذي يتجاوز في حده الأدنى الحد الأعلى لحجم دماغ أي من القروء الشبيهة بالإنسان (Anthropoidae) وإذا علمنا أن حجم دماغ الغوريلا لا يتجاوز الـ / ٤٥٠ / سم^٣ فإن دماغ الكائن الإنساني يجب أن يزيد على هذا الرقم . ومن الشروط الحضارية للأنسنة (Homonisation) القيام بالعمليات الذهنية المعقدة ، أي الذكاء ، الذي مكن الإنسان الأول من التحكم بمحيطه

وإخضاعه لحاجاته . وقد تجسد هذا الذكاء بشكل تفكير هادف ومنظم قاده إلى صنع الأدوات والأسلحة الحجرية التي تعدُّ الدليل الإنساني الأهم . فالقدرة على صنع الأدوات هي التي ميزت الإنسان من الكائنات الأخرى التي تستعمل أحياناً، الأدوات الطبيعية كالعصي والأحجار لكنها لا تصنعها أبداً لذلك فإن بداية المجتمع الإنساني هي لحظة صنع الأداة الأولى . كما تؤدي اللغة والحياة الاجتماعية دوراً عظيماً في تعريف الإنسان على الرغم من أن هذه الصفات لا تنطبق فقط عليه بل إنها تخص الحيوانات أيضاً .

وإذا أردنا تتبع ظهور الشروط الإنسانية على مدى الزمن ، نلاحظ أن الصفات الفيزيولوجية قد تحققت في وقت سبق بكثير نضج الميزات الحضارية حيث عثر على هياكل كائنات عديدة كانت قادرة على أن تسير على قدمين وكان لها حجم دماغ كبير منذ حوالي ستة ملايين سنة ، لكنها لم تتوصل إلى صنع الأدوات إلا منذ حوالي ٢,٥ / مليون سنة . وبدءاً من هذا التاريخ فقط ، يتحدث الباحثون عن الإنسان بالمعنى الكامل علماً أن هناك تأثيراً متبادلاً بين كل الصفات الفيزيولوجية والحضارية لأن القامة المنتصبة وحجم الدماغ الكبير ساعدا على صنع الأدوات ، كما أن هذه الأدوات قد أدت إلى زيادة في مرونة الجسم والأطراف وإلى كبر حجم الدماغ الذي تضاعف مرتين تقريباً عما كان عليه وقت ابتكار الأداة الأولى .

٢ - أثر البيئة والعمل في الأنسنة:

كان للبيئة وللظروف الجغرافية والمناخية أثر هام في تطور عملية الأنسنة ودلت البحوث على أن منطقة جنوب القارة الأفريقية وشرقها التي ظهر فيها الإنسان الأول ، كانت في نهاية الثلاثي وبداية الرباعي ذات مناخ معتدل وصحي بعد أن جفت المستنقعات وتراجعت الغابات الكثيفة وسادت السافانا شبه الصحراوية مما هيأ الشروط الملائمة لنزول الرئيسيات من الشجر وساعد على تأقلمها التدريجي في العيش على الأرض . وقد كانت لحظة ترك الشجرة من العوامل الهامة التي أعقبتها تغييرات فيزيولوجية كبيرة في بنية تلك الكائنات لأن الانتقال بين الشجرة والأرض

أجبرها على اكتساب أوضاع جديدة تسهل حركتها كالوثب والركض والتأرجح والصعود والهبوط . هذه الأوضاع أدت إلى تغيير في بنية العمود الفقري بشكل أصبح فيه الرأس ومعه الجسم يركز على هذا العمود مباشرة ، مما ساعد على اكتساب القامة المنتصبة التي صارت إحدى شروط الإنسان الرئيسية . ورافق ذلك تغييرات فيزيولوجية أخرى إذ تسطح القدم وقصر الحوض وعرض وتسطح الصدر كما قويت فاعلية النظر والشم واللمس وكبر حجم المخ وتعقد تركيبه ، بينما صغرت عظام الفك والأسنان . وأدى انتصاب القامة ، والسير على قدمين إلى تحرير اليدين من الارتكاز عليهما أثناء المشي فأصبحت الأصابع ذات مرونة ؛ فقد اشتركت اليد في وظائف جديدة أكثر ارتباطاً بمراكز التفكير في الدماغ ، فكانت الأسلحة والأدوات الدليل الأكبر على التنسيق بين عمل اليد والمخ . إن الصفات الفيزيولوجية والحضارية للإنسان ما كانت لتنمو لولا شروط البيئة الجغرافية المواتية وقدرة الكائنات الأولى على التعامل مع هذه البيئة وإيجاد الوسائل التي مكنتها من تأمين حاجاتها منها .

وخلق الإنسان باختراعه السلاح أو الأداة الأولى اهتماماً اجتماعياً واقتصادياً جديداً . وكان لهذه الأداة ، وللعمل الذي نفذ بها ، أي للنشاط الإنساني الهادف إلى استغلال الطبيعة ، الأثر الأكبر في عملية الأنسنة وفي الخروج من الأفق الحيواني والانتقال إلى العالم الإنساني الذي تميز بالعمل الجماعي في الصيد واللقط من خيرات البيئة المحيطة . وبفضل هذا العمل المشترك استطاع الإنسان أن يحصل على غذائه ومأواه ومكسائه وأن يدافع عن نفسه . ولكم وجد إنسان ما قبل التاريخ نفسه في مواقف تهدده بالفناء ، فكان العمل خياره وخلاصه الوحيد . ولم تكتمل إنسانيته إلا ضمن إطار جماعة بشرية تكاثفت جهودها وتضامنت لأن الفرد وحيداً هو عبارة عن حيوان متوحش ولولا العمل المشترك والمجتمع لما أصبح سيداً لهذا الكون كما نصفه الآن .

٣ - الأوسترالوبيثك والهوموهابيل:

وجدت آثار هذا النوع لأول مرة في عام ١٩٢٤ على يد الطبيب الإنكليزي دارت (R. Dart) في موقع تاونغ (Taungs) في جنوب إفريقيا ، وكانت عبارة عن

جمجمة لطفل عمره يقارب ست سنوات . ثم دلت الأبحاث اللاحقة على أنه منذ حوالي ٦ / ملايين سنة ظهر نوع جديد من الكائنات كانت تسير منتصبية القامة ولها حجم دماغ كبير ثم تطورت وازداد عددها وأصبحت لها صفات فيزيولوجية قريبة من الإنسان لكنها لم تستطع صنع الأدوات الحجرية وبقيت بذلك خارج الشروط الإنسانية الكاملة .

وعثر في هذه الحقبة على كائنات تبين أنها كانت تسير منتصبية القامة لكنها لم تتمكن من صنع الأدوات الحجرية . لذلك لا يمكن أن ينطبق عليها تعريف الإنسان بشقيه الفيزيولوجي والحضاري . وإنما تقتصر على تحقيق الجانب الفيزيولوجي فقط من هذا التعريف . وهذه كلها كائنات ظهرت بين حوالي (٦ - ٣) ملايين سنة وجدت في إفريقية : أثيوبيا ، تانزانيا ، كينيا ، يطلق عليها بعض الباحثين اسم الأسترالوبيثك العفاري (Australopithecus Afarensis) أو ما قبل الأسترالوبيثك (Pre- Australopithecus) وإليها ينسب الكشف الشهير المسمى لوسي (Lucy) التي وجدت في موضع حضر / Hadar/ في إقليم عفار في جيبوتي ، وأرخ على حوالي ٣,٥ مليون سنة . وهي هيكل عظمي حفظت معظم أجزائه يعود لامرأة طولها حوالي ١,٣٠ م ، وزنها حوالي ٤٠ كغ وحجم دماغها حوالي ٤٥٠ سم^٣ . كانت تسير منتصبية القامة . كما وجدت بقايا طبقات أقدام كائنات سارت منتصبية القامة في موقع Laetoli في تانزانيا مما يدل على أن انتصاب القامة قد تحقق قبل اكتمال القدرة على صنع الأدوات .

وقد أتت في السنوات الأخيرة مكتشفات جديدة ومهمة على هذا الصعيد أشهرها النوع المسمى الأسترالوبيثك - راميدوس (Australopithecus Ramidus) الذي وجد في موقع آراميس / Aramis/ في حوض نهر أواش في إثيوبيا . وتبين أن بنيتة أكثر بدائية من لوسي فهو يعود لكائن طوله لم يتجاوز ٨٠ سم وحجم دماغه حوالي ٣٠٠ سم^٣ ، وقدر عمره بحوالي ٤,٤ مليون سنة . كما تم العثور في عام ١٩٩٣ في منطقة كورو - تورو (Koro - Toro) في موقع بحر الغزال ، في تشاد على فك وأسنان نسبت إلى نوع جديد

أطلق عليه ، أوسترالوبيثك بحر الغزال (Australopithecus Bahralgazali) وهو نوع قريب إلى الأوسترالوبيثك العفاري ، لكن وجوده في أقصى غرب إفريقية يطل النظرية التي طرحها بعض الباحثين وبخاصة ايف كوينس (Y.Coppens) حول أن شرق إفريقية هو المكان الذي توافرت فيه الشروط البيئية المناسبة لظهور الإنسان الأول .

في حوالي / ٣ / ملايين سنة أي مع بداية الرباعي دخل الأوسترالوبيثك العفاري مرحلة متطورة كبرى يميز الباحثون فيها نوعين : الأول يسمونه الأوسترالوبيثك الإفريقي أو النحيف أي القرد الجنوبي (Australopithecus Africanus) وهو نحيف القامة (Gracile) والنوع الثاني هو الأوسترالوبيثك الغليظ أو الخشن (Australopithecus Robustus) وقد عاش كل من هذين النوعين في تانزانيا وأثيوبيا وجنوب إفريقية ، في مناطق شبه صحراوية كانت تعيش فيها نباتات وحيوانات السافانا ، كالقروذ وحمار الوحش والزرافة التي لا تختلف عن تلك الموجودة هناك الآن . وتشير البحوث إلى أن النوع المسمى بالأوسترالوبيثك الإفريقي النحيف هو الذي قام بتصنيع الأدوات الحجرية الأولى ، وتطور نحو الإنسان ، فلقد عثر في موقع الدوفاي (Olduvai) في تانزانيا ، على كائن متطور عن الأوسترالوبيثك النحيف كانت ترافق عظامه أدوات حجرية ، في طبقة تؤرخ على حوالي / ٥ ، ٢ / مليون سنة خلت ، فأطلق على هذا الكائن اسم الإنسان الصانع (Homo-Habilis) وعُدَّ النوع الأول والأقدم من البشر . وكان هذا النوع منتصب القامة لكنه قصير طوله حوالي / ١٥٠ / سم ، وله حجم دماغ صغير يتراوح / ٦٥٠ - ٧٥٠ / سم^٣ جمجمته قليلة التدور وجبهته مائلة إلى الخلف ووجهه يبرز إلى الأمام ، وذقنه غير واضحة وفكاه وأسنانه غليظة وعظام حواجه بارزة ومتصل بعضها ببعض . وهو عادة يحمل صفات أكثر تطوراً من الأوسترالوبيثك ، جده الأول ، لكنه أقل تطوراً من الإنسان الحالي . ووجدت الهياكل العظمية التابعة للإنسان الأول ، ويوجد في معظمها أسنان وأجزاء من الجماجم فقط ، في العديد من المواقع الإفريقية في حوض نهر أومو في أثيوبيا وعلى شواطئ بحيرة تركانيا في كينيا وفي خانق الدوفاي المذكور . وكان آخر كشف في المجال الذي أتى من موقع

(Drimolen) دريمولن في جنوب إفريقية وهو يعود لطفل من نوع الهومو هابيل . وقد رافقتها أدوات حجرية بدائية عبارة عن حصى مطروقة من جانب واحد نسميها قواطع (Choppers) أو من جانبيين وتسمى أداة قاطعة (Chopping Tools) وتشكل هذه الأدوات الدليل الأول على الإنسان لأنها تعكس تفكيراً منظماً لهذا الكائن ميزه من بقية الرئيسيات الأخرى المعاصرة له . ولسوء الحظ فإننا لا نعرف الكثير عن ذلك الإنسان ، ولكنه يظن أنه أقام أكواخاً بسيطة وربما استفاد من النار الطبيعية كما لا نعلم شيئاً عن حياته الروحية والاجتماعية ولا عن لغته ، ولم نعثر على مواقع له خارج إفريقية مما يدل على أنه لم يغادر حدود هذه القارة أبداً حيث عاش فيها أكثر من مليون سنة ، قبل أن يظهر نوع إنساني آخر أكثر ديناميكية .

٤ - الهومو اركتوس:

ظهر منذ حوالي ١,٥ / مليون سنة نوع جديد من البشر أكثر تطوراً من الإنسان الصانع يسميه الباحثون الإنسان منتصب القامة (Homo-Erectus) وقد عثر على عظامه لأول مرة في حوض نهر سولو (Solo) في جزيرة جاوا ، منذ ١٨٩١ على يد الطبيب الهولندي أوجين دوبوا (E. Dubois) الذي أطلق عليها في حينها البيثكانتروب أي الإنسان القرد (Pithecanthropus) ثم تتابعت اكتشافاته منذ الثلاثينات من هذا القرن في العديد من المناطق في آسيا وأوروبا وإفريقية ومعظمها تؤرخ بين ٦٠٠ - ٢٠٠ / ألف سنة ق . م ولها تسميات مختلفة حسب مناطقها . من أحدث الاكتشافات التي أتت من منطقة بيلزنج ليبين Bilzingsleben في ألمانيا . ومن منطقة وادي نورمادا (Normada) من موقع هاتنورا Hatnora في الهند ودمانيزي (Dmanizi) من جورجيا وبينيتا (Pineta) في إيطاليا . وسانداليا (Sandalya) في كرواتيا وموقع ناريوخوتومي (Noriokotome) قرب بحيرة تركانيا في إفريقية . وهناك الإنسان الذي وجد في موقع العبيدية في حوض نهر الأردن بفلسطين وأرخ حوالي ٧٠٠ / ألف سنة ق . م . ولكن هذه اللقى غير كافية لتحديد صفات هذا الإنسان إذ إن ما عثر عليه من مكانه الأصلي كان عبارة عن سن قاطعة بينما أتت بقية اللقى من

سطح الموقع . ولكن هناك لقي متفرقة للهوموواركتوس بينها عظم فخذ من جسر بنات يعقوب وعظم فخذ آخر من موقع الطابون الطبقة E وجمجمة موقع الزطية التي تنسب إلى نوع متأخر من الهوموواركتوس حسب بعض الأنثروبولوجين وقد تكون نوعاً من الإنسان العاقل الباكر حسب آخرين ولكن أهم كشف معروف حتى الآن لهذا الإنسان هو العظم الجداري اليساري للرأس الذي وجد في الطبقة الثامنة من موقع الندويه في سورية وهذا ما سوف نتحدث عنه بشيء من التفصيل لاحقاً .

ويقسم الباحثون هذا النوع إلى صنفين : الأول آسيوي ويسمونه الهوموواركتوس والثاني أفريقي ويطلق عليه الهومووارغاستر Homo-Ergaster . ويحمل الهوموواركتوس صفات فيزيولوجية وحضارية أكثر تطوراً من سلفه ، فهو كائن منتصب القامة يتراوح طوله بين / ١٥٠ - ١٦٠ / سم وحجم دماغه بين / ٨٠٠ - ١٠٠٠ / سم^٣ جمجمته أكثر تدوراً وجبهته أقل ميلاناً إلى الخلف وعظام حواجه بارزة ومتصلة وذقنه ما زالت غير واضحة . وقد كان هذا النوع أكثر قدرة من السابق في السيطرة على بيئته الجغرافية لأنه دخل مناطق باردة جديدة ، في أوروبا وآسيا واستفاد بشكل أكبر من الملاجئ والمغائر الطبيعية ، كما اهتمدى لأول مرة إلى بناء الأكواخ البسيطة التي دلت عليها الاكتشافات من تانزانيا وسورية وفرنسا ويفضل هذه الأكواخ استطاع الإقامة في مختلف المناطق بغض النظر عن طبيعة الطقس ، بعد أن ارتدى أوراق الأشجار والنباتات وجلود الحيوانات ، كما أنه عرف مبكراً ، النار التي حققت له فوائد كبيرة من التدفئة والإنارة والطبخ وفي الدفاع عن النفس . وقد عثر على دلائل لهذه النار من كينيا في موقع شيسوانجا (Chesowanja) وفي غادب (Gadeb) في أثيوبيا تؤرخ على أكثر من مليون سنة . كما اكتشف آثار معرفة النار في مواقع أراغو (Arao) واريناز (Organaz) ومينز دراغان Menez Dragan وتيرا أماتا (Terra - Amata) في فرنسا وشوكوين في الصين (Choukutien) وفرتشسوليس (Vertesszolos) في المجر . لقد طور هذا الإنسان قدراته على الصيد فقلّ اعتماده على النباتات منتقلاً إلى ما يسمى بالوجبة اللحمية ، بينما كانت الوجبة النباتية هي المصدر الأهم في غذاء سلفه كما صنع أسلحة وأدوات حجرية أكثر فاعلية على رأسها

الفؤوس اليدوية (Handaxe, Biface) التي تنسب إلى الثقافة الآشولية، واسعة الانتشار، والتي استخدمها في قتل الحيوانات وحفر التربة وقطع الأشجار والدفاع عن النفس وغير ذلك. وصنع الأدوات العظمية والخشبية لكن لم يصل إلينا منها إلا النادر، ونعتقد بأنه أقام حياة اجتماعية منظمة وشكل الأسرة الأولى التي يقف على رأسها أب تتبعه زوجة أو عدة زوجات وأولاد، وعرف تقسيم العمل حسب الجنس والسن فاشتغل الرجال في المجالات الشاقة كالصيد بينما عملت النساء في اللقط وتدبير أمور البيت والصغار. ويقتنع الباحثون بأنه كان لدى الهوموراكتوس لغة واضحة المفردات والمعاني شكلت الرباط النفسي القوي بين مختلف أفراده وجماعاته التي تناقلت تجاربها ومعارفها بوساطة هذه اللغة، على مر الأجيال. وتخطت تلك الكائنات مرحلة العزلة الفردية وتطورت ضمن المجموعة الإنسانية الواحدة التي تعاونت في السراء والضراء فكانت تعيش متكافلة متضامنة، تدافع عن نفسها كجماعة، كما تجوع أو تشبع معاً، واستهلكت من موارد الطبيعة الحرة ما يكفي لسد حاجاتها فقط. ولم تشعر برغبة في التملك الخاص بل كانت خيراتها مشاعية فبقيت بعيدة عن متهات تجميع الثروة وصراعات الغني والفقير.

٥ - إنسان النياندرتال:

في حوالي / ٢٠٠, ٠٠٠ / سنة ق.م ظهر نوع آخر من البشر، أكثر تطوراً أيضاً سواء في شكله الفيزيولوجي أم في إنجازاته. وقد عثر على هياكل هذا النوع لأول مرة في وادي النياندر (Neander) قرب دوسلدرف في ألمانيا، من قبل يان فوهلروت (J. Fuhlrott) في ١٨٥٦. وأحدث هذا الاكتشاف في حينه ضجة كبيرة ترافقت مع نشر كتاب داروين عن أصل الأنواع، ما لبثت هذه الضجة أن خمدت بعد أن تابعت عشرات الاكتشافات من مختلف القارات لتؤكد وجود نوع بشري جديد سمي بإنسان نياندرتال (Homo-Neanderthalensis) من أحدث هذه الاكتشافات مواقع أتابوركا (Atapurca) في إسبانيا وبياش سان فاست في فرنسا (Biache- Saint- Vaast). ولهذا الإنسان حجم دماغ كسر / ١٠٠٠ - ١٢٠٠ / سم^٣، وجهه مسطح وأقل بروزاً إلى

الأمم حواجه أخف غلاظة من سلفه ، وجمجمته أكثر تدوراً ووجهته أقل تراجعاً نحو الخلف وله ذقن شبه واضحة . وأصبح لدينا معلومات أوسع عن حياته الاجتماعية والاقتصادية . فقد كان النياندرتاليون أكثر عدداً من سابقيهم وانتشروا على مناطق جديدة وباردة في نصف الكرة الشمالي ، لم تسكن من قبل ، فوصلوا حتى سيبيريا بعد أن أتقنوا صناعة الجلود الدافئة وارتدائها ، واستغلوا ، على أكمل وجه ، المغائر والملاجئ الطبيعية التي قاموا بتكييفها وإعادة تنظيمها وتقسيمها وإقامة المصاطب والجدران فيها أو توسيع مداخلها وتضييقها حسب الحاجة . وطوروا الاستفادة من النار التي عرفوا كيف ومتى يوقودونها وبطرائق مختلفة ، كالقذح والحك متحررين من الاعتماد على النار الطبيعية . ونحن نعثر على العديد من المواقع المنتظمة في المواقع التي أقام فيها هؤلاء الناس . وكان النياندرتال صياداً ماهراً قتل حيوانات قوية وخطيرة كالماموت ووحيد القرن مستفيداً من لحمها وجلدها وعظمها . كما ابتكر أسلحة حجرية ، وطرائق تصنيع جديدة فاستخدم ، لأول مرة النوى المحضرة بشكل جيد ليصنع منها مختلف أنواع المقاحف والسكاكين والمخارز التي تنسب إلى ما يسمى ، بالحضارة اللفلوازية - الموسترية . وصنع الأدوات المركبة ذات القبضات الخشبية أو العظمية والنصلة الحجرية الحادة ، والأدوات الخشبية والعظمية الخالصة . وكان النياندرتال أول من مارس المعتقدات الروحية والشعائر الدينية التي كرّست إنسانيته فهو لم يترك موتاه تنهشهم الوحوش والطيور الجارحة ، بل اهتم بهم ودفنهم بعناية . وقد عثر على القبور النياندرتالية ، ضمن المغائر والملاجئ أو في المواقع المكشوفة ، في العديد من المناطق كفلسطين والعراق وفرنسا والاتحاد السوفيتي معظمها قبور فردية منتظمة ، وأحياناً جماعية ، وضعت فيها الجثث مثنية أو جانبية أو مقلوبة وطلبت بالألوان وزودت بالأسلحة والأدوات والأطعمة وغير ذلك . مما يدل على أن النياندرتال كان إنساناً عميق المشاعر وقد تأثر بالموت واتخذ منه موقفاً محدداً واعتقد أن هذا الموت لا ينهي حياة إخوانه وأفراد أسرته فزودهم بكل ما يحتاجونه .

وقد خص جماجم موتاه ، أي رؤوسهم ، بعناية متميزة دفنها بشكل مستقل . بل إنه في بعض الأحيان ، إذا كان فعلاً قد أكل أجزاء من هذه الجماجم كالنخاع ، فإنه كان مدفوعاً باعتبارات دينية اجتماعية كالرغبة في اكتساب ذكاء الميت وقوته ، وليس إرضاء للجوع كما يحاول بعض الدارسين إقناعنا . ويسود الآن رأي آخر يقول : إن النياندرتال قد عبد الدب فقد عثر في بعض المغائر الجبلية المرتفعة في ألمانيا وشويسرا وفي فرنسا خاصة ، على العديد من جماجم الدببة المدفونة بعناية وفي قبور من الحجر مما يدل على أن هذا الحيوان المخيف والمفيد قد تمتع بمكانة خاصة لدى المجتمعات النياندرتالية التي كانت أيضاً أول من مارست الفنون البسيطة .

٦ - موقع إنسان النياندرتال في العملية التطورية للإنسان العاقل:

منذ مطلع هذا القرن يدور جدل عنيف حول مصير النياندرتال ففي حين يعتقد عدد من الباحثين أنه تطور نحو الإنسان العاقل يؤمن آخرون بانقراضه دون خلف ويجعلونه فرعاً جانبياً على هامش العملية التطورية . ويعتمد أنصار التطور على المكتشفات التي أتت من فلسطين خاصة حين وجدت ، في الكثير من المغائر مثل السخول ومغارة الطابون والأميرة والزطية في جبال الكرمل وجبل قفزة قرب الناصرة ومغارة العامود بجوار بحيرة طبرية ، هياكل عظمية نياندرتالية حملت العديد من الصفات المشتركة بين النياندرتال وبين الإنسان العاقل مثل حجم الدماغ الكبير ، حوالي / ١٥٠٠ سم^٣ ، والقامة الطويلة ، / ١٧٠ - ١٨٠ سم ، والذقن البارزة . وقد رافقت هذه الهياكل أدوات حجرية بينها نصال طويلة لها صفات متطورة ومشاركة بين أدوات النياندرتال وأدوات الإنسان العاقل مما يشير إلى تحول طبيعي وتدرجي للنياندرتال الفلسطيني نحو الإنسان العاقل . بينما يستند أنصار انقراض هذا الإنسان إلى المكتشفات التي أتت من أوروبا خاصة حيث لم يعثر هناك على أية هياكل ولا آثار نياندرتالية انتقالية ومتطورة تشابه المغائر الفلسطينية ولكن وجدت في فرنسا (Fontchevade) وانكلترا (Swanscombe) وألمانيا (Steinheim) وغيرها ، هياكل عظمية تعود لإنسان العصر السابق ، أي الهومو هاركتوس ، بعضها له صفات

تشبه الإنسان العاقل الذي يعتقد أنه - في أوروبا على الأقل - قد أتى من الهوموإركتوس مباشرة دون أن يمر بمرحلة النياندرتال . وأن كلا من النياندرتال والإنسان العاقل هما فرعان من الهوموإركتوس . الأول . أي النياندرتال ، انقرض بينما تابع الثاني وهو الإنسان العاقل طريقه التطوري . والواقع أن هذا الموضوع في غاية التعقيد لاسيما أن المكتشفات قليلة والطروحات النظرية سواء حول تطور النياندرتال أم انقراضه أكثر مما يحمله الواقع العلمي . ونحن إذا قبلنا بموضوع الانقراض فليس لدينا دليل قاطع على السبب ، هل هو تغيير مناخي مدمر أتاح بهذا الإنسان أم كوارث طبيعية أخرى أو وباء شامل أو مذابح جماعية مسحته عن وجه الأرض ؟ ومهما يكن من أمر فإن هناك من لا زال يقول : إن النياندرتال الفلسطيني هو الذي انتقل فيزيولوجياً وحضارياً نحو الإنسان العاقل الجد المباشر للإنسان الحالي وصانع الحضارة بمعناها الشامل . لكن هناك من يرفض هذه الفرضية ويصعب عليه أن يكون أصله من المشرق العربي القديم ، مدفوعاً باعتبارات عنصرية لا تمت إلى جوهر البحث العملي النزيه بصلة ، كما ويستند آخرون - في رفضهم لفكرة تطور الإنسان العامل عن إنسان النياندرتال - إلى الدراسات والمكتشفات الجديدة التي أتت من فلسطين أو من إفريقية . فقد أعيد تأريخ الهياكل العظمية التي وجدت مواقع السخول وجبل قفزة في فلسطين التي أرخت على حوالي ١٠٠,٠٠٠ سنة خلت ونسبت إلى نوع قديم من الإنسان العاقل القديم (Archaic Homo - Sapiens) الذي يعتقد أنه من أصل إفريقي وقد سبق ظهور إنسان الكرومانيون بحوالي ٦٠,٠٠٠ سنة خلت . وتشير المكتشفات إلى وجود النياندرتال في أوروبا منذ حوالي ٢٥٠,٠٠٠ سنة خلت . كل ذلك دفع إلى طرح فرضية حالية تقول : إن لا علاقة تطورية بين الإنسان العاقل وإنسان النياندرتال بل إن الاثنين قد تطورا من أصل مشترك هو نوع من الهوموإركتوس . الإنسان الأول ؛ أي الإنسان العاقل ظهر في إفريقية ثم هاجر إلى الشرق الأوسط في مرحلة مبكرة ، حوالي ١٠٠,٠٠٠ سنة خلت ، قبل أن ينتقل إلى أوروبا في وقت متأخر جداً منذ حوالي ٣٥ ألف سنة خلت . بينما الإنسان الثاني ؛ النياندرتال ، قد ظهر في أوروبا ومنها أتى إلى الشرق الأوسط في مرحلة لاحقة . وهكذا

حصل تعاصر وتعايش بين النوعين في منطقة الشرق الأوسط . وما مكتشفات السخول وجبل قفزة إلا الدليل على الإنسان العاقل الباكر الإفريقي الأصل . بينما مكتشفات الكبارا والكابون وشانيدار في العراق هي الدليل على النياندرتال ، الأوربي الأصل ، الذي لم يتطور إلى الإنسان العاقل وإنما انقرض لأسباب ، كما أشرنا ، مجهولة . ومهما يكن فإننا بحاجة إلى المزيد من البحث والمكتشفات التي سوف تساهم في توضيح هذا الموضوع الشائك والمعقد مع الإشارة إلى أن دراسات الحامض الأميني / A D N / الذي أجريت على النياندرتال أظهرت عدم وجود علاقة وراثية بينه وبين الإنسان العاقل .

٧ - الإنسان العاقل :

ظهر بين حوالي / ٤٠ - ٣٥ / ألف سنة ق . م نوع جديد وآخر من البشر محدثاً انعطافاً كبيراً في مسيرة التطور البيولوجي والحضاري للإنسان يسميه الباحثون الإنسان العاقل (Homo-Sapiens) . وقد عثر على هياكل هذا النوع لأول مرة منذ ١٨٦٨ في موقع كرومانيون (Cro-Magnon) في فرنسا ، مقاطعة الدردون (Dordogne) الشهيرة ، من قبل السيد برتميرو (M. Berthoumeyroux) ومن هنا أطلق عليه إنسان كرومانيون . ثم تابعت مئات الاكتشافات من مختلف المناطق وهي تدل على إنسان كرومانيون هو الجد المباشر لإنساننا الحالي وهو الذي امتلك الصفات الفيزيولوجية والاجتماعية الأقرب لنا ، لأنه لا يختلف عنا إلا بقدر ما تختلف العروق البشرية الحالية بعضها عن بعض . ومن أجل تمييز الأنواع القديمة منه من الحديثة يسميه الباحثون الإنسان العاقل الحفري (Homo-Sapiens Fossilis) . إن الإنسان العاقل طويل القامة بين / ١٦٠ - ١٧٠ / سم ، جمجمته مكتملة التدور ، جبهته عريضة ومستقيمة ، وجهه مسطح ؛ وذقنه بارزة ؛ وحجم دماغه يصل إلى مستوى دماغ الإنسان الحالي أي حوالي / ١٤٠٠ - ١٥٠٠ / سم^٣ ، وفكاه وأسنانته مثل الإنسان الحالي أيضاً .

إن ظهور الإنسان العاقل دفع الحضارة إلى الأمام بشكل لم يسبق له مثيل إذ بلغ بالمستوى الاجتماعي والاقتصادي درجة عالية من التقدم والتنوع . تجسد ذلك مع

العديد من الابتكارات الجديدة كالأسلحة والأدوات الحجرية والعظمية مروراً بالبناء والفن والمعتقدات وانتهاءً بالاستقرار والزراعة والتدجين . وانتشر هذا الإنسان في أرجاء المعمورة كلها ؛ ووصل إلى مناطق لم يدخلها أي نوع قبله وكان أول من سكن القارة الأمريكية والأسترالية وأصبح النوع الإنساني الوحيد السائد في القارات كلها .

٨ - فرضيات ظهور الإنسان والتمايز العرقي:

يدور بين الباحثين نقاش مستمر حول مكان نشوء الإنسان وكيفيته ويجري التساؤل: هل ظهر هذا الإنسان في مكان واحد ثم انتقل إلى بقية الأمكنة أم أنه وجد، في الوقت نفسه، في عدة مناطق من العالم؟ . وهنا تتنوع الآراء وتسود فرضيات يختلف بعضها عن بعض؛ تتبنى موقف المنشأ الواحد للإنسان بينما يؤيد آخرون نظرية تعدد المنشأ. أنصار الأصل الواحد يرون أن هذا الأصل هو القارة الأفريقية، أما الذي يعتقدون بتعدد الأصول فيرون جنوب شرق آسيا وجنوب إفريقية وغربها، مناطق أخرى نشأ فيها الإنسان بشكل مستقل . وعلى الرغم من أنه ليس هناك ما يمنع، من حيث المبدأ، من قيام شروط موالية لظهور الإنسان في هذه المناطق إلا أن الاكتشافات التي جرت حتى الآن تدل على أن جنوب القارة الأفريقية وشرقها هي التي أعطت أقدم الاكتشافات للجنس البشري وأولها، والتي وصلت في عمرها إلى ٣ / ملايين سنة، بينما لا تتعدى الاكتشافات من آسيا وأوروبا المليون سنة أي أنها أحدث بكثير من الهياكل الإفريقية . ونحن إذ نرجح أسبقية القارة السوداء في نشوء الإنسان فإننا لا نستبعد احتمال قيام حقائق جديدة ومكتشفات أخرى تبدل هذا الحكم الراهن .

طرح في السنوات الأخيرة تواريخ قديمة جداً لظهور الإنسان خارج القارة الإفريقية فهناك من يتحدث عن وجود الإنسان في الصين منذ حوالي ١,٨ مليون سنة وفي آسيا منذ حوالي ١,٣ مليون سنة وفي أورية منذ حوالي ١ / مليون سنة ولكننا لا يمكن أن نثق بدقة هذه الأرقام ويبقى ظهور الإنسان خارج إفريقية؛ ومنذ التواريخ المشار إليها أمراً مشكوكاً فيه . ولكن المؤكد أن الإنسان المنتصب القائمة قد ظهر خارج إفريقية في آسيا بخاصة منذ حوالي مليون سنة وربما أقدم من ذلك التاريخ بقليل .

كما تختلف الآراء حول كيفية نشوء الإنسان وحلقات التطور الرئيسية التي مر بها . وهنا أيضاً تسود نظريات مختلفة لكل منها حججها . بعضها يقول : إن الإنسان الحالي قد نشأ عن النياندرتال الذي تطور عن الهومو هابيل ؛ أي أن الإنسان قد تطور فيزيولوجياً وحضارياً خلال هذه الحلقات الأربع المتتالية . ويؤيد هذه النظرية القسم الأكبر من الباحثين بينما يقول آخرون مثل إيبير وفالو (G. Hebere, H. Vallois) بأن النياندرتال لم يكن بين الحلقات التطورية الرئيسية التي مر بها الإنسان وإن الإنسان الحالي قد انحدر من الهومو هابيل مباشرة الذي تطور - أيضاً - من الأوسترالوبيثك دون أن يمر بمرحلة النياندرتال الذي عُددَ فرعاً جانبيّاً ومنقرضاً ؛ كما دلت على ذلك الاكتشافات الأوروبية مثل فونتوشوفاد في فرنسا ، وسوانكوب بانكلترا وشتاين هايم في ألمانيا .

ونحن نعتقد بأنه على مستوى البحث الحالي لا يمكن قبول فرضية التطور عبر الحلقات الأربع الرئيسية أو رفضها وبضمنها النياندرتال ؛ لأن لهذه الفرضية كما ولعكسها شواهد أثرية وأنتروبولوجية عديدة ونأمل بأن البحث الدؤوب سوف ينير هذا الموضوع بشكل أفضل (الشكل : ٥) .

وتواجه الباحثين قضية تتعلق بأصل التمايز العرقي بين البشر فيقول بعض منهم بأن اختلاف العروق ، الأبيض ، والأسود ، والأصفر ، يعود إلى زمن ظهور الإنسان العاقل فقط أي حوالي / ٤٠ / ألف سنة خلت معتمدين في ذلك على هياكل عظمية لهذا الإنسان . وهي تحمل صفات عرقية ، بعضها قريب من العرق الأبيض كالتالي وجدت في موقع كرومانيون ، وبعضها الآخر يعود للعرق الأسود مثل غريمالدي في إيطاليا (Grimaldi) بينما نسبت هياكل شانسلولاد الفرنسية (Chancelade) إلى العرق الأصفر .

وتقول نظرية أخرى : إن التمايز العرقي قديم قدم الإنسان نفسه وإنه يعود إلى زمن ظهور الإنسان الأول منذ ما يزيد على مليوني سنة ؛ علماً أنه من الصعب الحكم القاطع في هذا الموضوع ؛ لأننا لا نملك معلومات عن العديد من الصفات المهمة التي تؤخذ بعين الاعتبار في تصنيف العروق والسلالات كلون البشرة ولون الشعر ونوعية

الدم وفصيلته ، إذ لم يبق ما يدل عليها . وتقتصر أحكامنا على دراسة البقايا العظمية ؛ وهي غالباً ما تكون مشوهة . لكننا نعتقد بأن التمايز العرقي بين الناس قد سبق ظهور الإنسان العاقل ؛ لأن التنوع العرقي الكبير القائم الآن لابد من أن يكون قد تشكل على امتداد زمن طويل جداً ؛ وإن كنا لا نملك على ذلك أدلة كافية ولا نستطيع الخوض بعيداً في تفاصيل هذا الموضوع ولا غيره لعدم اتساع المجال والخروج ذلك عن الهدف الرئيسي لهذا المقرر .

ومن جهة أخرى هناك دراسات مكثفة لتحديد درجة تطور لغة إنسان ما قبل التاريخ ، إذ إن اللغة هي أهم عنصر في تطور الحضارة البشرية وانتشارها . ويعتمد الباحثون في هذا المجال على دراسات مقارنة بين الإنسان والقرود والعليا الحالية لتقرير إمكانية هذه الكائنات على النطق والكلام ، كما ويدرسون تطور مراكز النطق على الجماعم القديمة (مركز بروسا Broca) فضلاً عن دراسة الأدوات الحجرية والبقايا الحضارية الأخرى التي يعتمد عليها في مواقع عصور ما قبل التاريخ . واعتماداً على نتائج هذه الدراسات يمكننا القول بأن إنسان الهوموهايل كان يملك إمكانيات بدائية لإطلاق الأصوات والتواصل مع الآخرين بينما أصبحت لدى الهوموارلتوس لغة بدائية أولية ثم غدا النياندرتال متمكناً من لغة مركبة وواضحة بينما أصبح لدى الإنسان العاقل لغة غنية بمفرداتها وقواعدها ولا تختلف كثيراً عن لغة الإنسان المعاصر .

الباب الثاني

علم ما قبل التاريخ

الفصل الأول : تاريخ البحث وتطوره في عصور ما قبل التاريخ

الفصل الثاني: طبيعة مواقع عصور ما قبل التاريخ وآثارها

الفصل الثالث: طرائق تنقيب مواقع عصور ما قبل التاريخ

الفصل الرابع: العلوم المساعدة لعلم ما قبل التاريخ

الفصل الخامس: الاستراتغرافيا والكرونولوجيا في علم

آثار ما قبل التاريخ

الفصل الأول

تاريخ البحث وتطوره في عصور ما قبل التاريخ

١ - حضارات عصور ما قبل التاريخ والهدف من دراستها

٢ - تقسيم عصور ما قبل التاريخ

الفصل الأول

تاريخ البحث في عصور ما قبل التاريخ وتطوره

لفت النظر إلى آثار ما قبل التاريخ بشكل متأخر نسبياً؛ إذ لم تنل هذه العصور الاهتمام الذي حظيت به العصور التاريخية التي شغلت الباحثين لسنوات طويلة؛ لأن الأدوات الحجرية لم تلفت النظر وفي أحسن الأحوال عُدَّت من صنع الطبيعة، كالصواعق أو من عمل الشياطين؛ حتى جاء منتصف القرن التاسع عشر وأثبت الكتاب والباحث الفرنسي بوشير دوبرت (J. Boucher de Perthes) أن هذه الأدوات هي أسلحة صنعها الإنسان القديم واستخدمها في قتل الحيوانات الكبيرة كالذب والفيل ووحيد القرن التي وجدت عظامها مقرونة بهذه الأدوات في موقع أبفيل (Abbeville) في حوض نهر السوم في فرنسا. وبين أعوام ١٨٤٧ - ١٨٦٠ قام دوبرت بنشر ثلاثة مجلدات عن آثار الإنسان في العصور الجليدية سببت موجة من الاحتجاج والرفض لكنها حركت نقاشاً حاداً، شدَّ إلى جانب المؤلف عدداً من المفكرين الإنكليز خاصة. وقد تدعمت استنتاجات دوبرت باكتشافات ثانية قام بها فرنسي آخر هو غودري (A. Gaudry) في الزمن نفسه والمنطقة نفسها، ولكن في موقع آخر هو سان اشيل (Saint - Acheul) حيث عثر على أدواته حجرية معظمها فؤوس متطورة الصنع وأكثر دقة من التي ظهرت من أبفيل. وبذلك أصبحت قضية قدم البشرية السحيق ووجود إنسان عصور ما قبل التاريخ حقيقة لا جدال فيها، ولكن صعب على الكثيرين قبولها، بعد أن ساد اعتقاد ديني مستمد من سفر التكوين في التوراء يؤرخ الظهور الأول للإنسان في الألف الرابع ق. م. وقد ترافقت اكتشافات حوض نهر السوم مع نشر كتاب شارل داروين الشهير حول أصل الأنواع في ١٨٥٩ (The Origine of Species) الذي غالج فيه تطور العالم النباتي والحيواني في إطار قوانين الاصطفاء الطبيعي وبقاء الأفضل ثم أتبعه بكتاب آخر في عام ١٨٧١ تعرض

فيه لموضوع أصل الإنسان (The Descent of Man) وتطوره في الرئيسيات العليا وعلى امتداد زمن طويل مما أثار في حينه نقاشاً حاداً حول قضية التطور ما زال مستمراً وإن كان بصيغ أخرى .

وبدأت مرحلة تنقيبات منهجية في الكثير من المواقع الأثرية العائدة للعصور الحجرية شارك فيها باحثون مختلفون معظمهم فرنسيون تذكر منهم إدوارد لارتيه (E. Lartet) الذي يُعدُّ مؤسس علم المستحاثات ، الباليونتولوجيا (Palaeontology) والذي قام منذ عام ١٨٥٠ بعدة تنقيبات في جنوب غرب فرنسا ، شاركه فيها الإنكليزي هنري كريستي (H. Christy) وخلص منها إلى التأكيد أن الإنسان قديم قدم الأحقاب الجيولوجية ؛ وأنه عاصر المستحاثات الحيوانية التي عثر عليها في الطبقات الجيولوجية القديمة كما قام بتقسيم عصور ما قبل التاريخ ، على أساس أنواع الحيوانات التي عاشت فيها . ومنذ مطلع القرن الحالي تابع الطريق جيل جديد من الباحثين يقف على رأسهم دونيس بيروني (D. Beyrony) والأب هنري بروي (H. Breuil) اللذان قاما بدراسة عدد كبير من مواقع ما قبل التاريخ في منطقة الدردون في جنوب غرب فرنسا واكتشفا ، في العديد من المغائر خاصة ، الفنون الباليوليتية الجميلة وآثاراً أخرى هامة تعود للباليوليت الأوسط والأعلى . حفظت كلها في متحف ما قبل التاريخ الذي أنشأ لأول مرة في تلك المنطقة . ولابد من ذكر غابرييل دي مورتيه (G. de Mortillet) الذي قام ومنذ نهاية القرن التاسع عشر بتقسيم شامل لعصور ما قبل التاريخ ، وما زال هذا التقسيم سارياً ، في جوهره ، حتى الآن . لقد كان لهؤلاء الرواد الفضل الأكبر في إرساء دعائم علم ما قبل التاريخ الذي تابع مسيرته على يد جيل آخر من العلماء الكبار أمثال فرانسوا بورد (F.Bordes) ولورا غوران (A.Leroi-Gouhran) وفرنسيس أور (F.Hours) وجاك كوفان (J.Cauvin) وفالدмир خميلفسكي (W.Chmielewski) وغيرهم ممن لا يزالون يتابعون البحث في تاريخ أسلافنا الأوائل ، الذين أصبحت بين أيدينا الآن عنهم آلاف المجلدات والكتب .

١ - حضارات عصور ما قبل التاريخ والهدف من دراستها:

يطلق الباحثون مصطلح الحضارة (Civilization) لوصف المجتمعات الزراعية المستقرة التي اخترعت الكتابة وأقامت مؤسسات الدولة الأولى ذات النظم الاقتصادية والاجتماعية المعقدة وذلك منذ الألف الثالث ق. م. وفي الواقع فإن الحضارة قديمة مثل الإنسان نفسه الذي خاض ومنذ البداية صراعاً مبرراً مع وسطه لإثبات وجوده وحفظ نوعه وما كان له أن ينتصر لولا قدرته على الفعل الذكي المبدع الهادف إلى تسخير هذا الوسط لخدمة حاجاته المادية والروحية، أي استطاعته صنع الحضارة. وانطلاقاً من فهم هذه الحضارة باعتبارها عملاً متكاملًا تعود جذوره إلى بداية الجنس البشري الذي شق طريقه صعوداً وارتقاءً متميزاً، من كل الكائنات الأخرى، فإن عصور ما قبل التاريخ هي عصور حضارية أيضاً، فيها بدأت الكثير من الابتكارات المهمة التي وضعت الأرضية الصلبة للتطور اللاحق. ولكننا نستخدم هنا اصطلاح حضارة بمعناه المبسط وذلك لتمييز إنجازات عصور ما قبل التاريخ عن العصور التاريخية الأكثر تقدماً. ونقصد بكلمة الحضارة التحدث عن الدلائل المباشرة أو غير المباشرة التي تؤكد قدرة إنسان ما قبل التاريخ على التكيف مع وسطه وتسخيرها لصالحه. إن الهدف المركزي في دراستنا للحضارة هو إعادة تركيب تاريخها وتحديد ظهورها وتحولها وتطورها على مدى الزمان والمكان من أجل فهم واقع الحياة القديمة الشامل.

إن الحضارة في عصور ما قبل التاريخ هي نظام متكامل ومركب من عدة عناصر يؤثر بعضها في بعض ضمن معادلة معقدة أحد أهم أطرافها الإنسان من جهة والبيئة من الجهة الأخرى. وهي متحولة بتحول الشروط المحيطة بها ومن الصعوبة بمكان إدراك حقيقتها خارج الإطار العام الذي تشكلت فيه، وهذه مهمة شاقة وحساسة ولاسيما أن الزمن قد خرب الكثير من المعطيات الأصلية.

ونحن في دراستنا لحضارات عصور ما قبل التاريخ نعتمد على المعطيات الأثرية كالأدوات الحجرية والعظمية وآثار البناء والفنون والبقايا النباتية والحيوانية القديمة التي نحاول استنتاجها من خلال تطبيق مناهج دراسة متقدمة، تساعدنا على إجلاء حقيقة تلك العصور الغامضة، علماً أن هذه المعطيات الأثرية تخضع لتفسيرات مختلفة يقدم فيها الموقع

الفكري للباحث ورؤيته الخاصة للتاريخ دوراً عظيماً؛ مما أدى إلى نشوء مدارس ومناهج مختلفة تبحث في التاريخ الحضاري للإنسان فمنذ القرن التاسع عشر سيطرت المدرسة التقليدية التي وقف على رأسها الأمريكي لويس مورغان (L. Morgan) الذي عاش بين ١٨١٨ - ١٨٨١، وأيدها الكثيرون وهي تجعل الحضارة، تطورية من الأبسط إلى الأعقد وأنها انتقلت خلال الزمان من البدائية إلى التقدم. وقسمت هذه المدرسة التاريخ الحضاري إلى مراحل متتالية أولها المرحلة الوحشية (Savagery) تلتها المرحلة البربرية (Barbarism) وهاتان المرحلتان ميزتا عصور ما قبل التاريخ. ثم بدأت مع اختراع الكتابة المرحلة الثالثة الحضارية (Civilization) كما قالت هذه المدرسة: إن الثقافة انتشارية (Diffusion) أي أنها ظهرت في بقعة محددة ثم انتشرت إلى بقية المناطق معتبرة الشرق الأدنى، البوارة الأولى بينما يسود الآن رأي آخر يقول بالتطور المتوازي للمجتمعات معتبراً أن كل منطقة وصلت إلى ابتكاراتها بشكل مستقل، وينفي أصحاب هذه الرأي (المدرسة) صفة التخلف والبدائية عن المجتمعات القديمة، في العصور الحجرية ويرون حضاراتها حالات قائمة بذاتها، وليست مرحلة بدائية في تاريخ الحضارة. وتعامل هذه المدرسة الحديثة إنجازات عصور ما قبل التاريخ مثل إنجازات المجتمعات المتقدمة في العصور التاريخية، وتراها دليل تحضر أيضاً لأنها تعبر عن تفاعل موضوعي وواع بين الإنسان ومحيطه، بغض النظر عن المستوى التكنولوجي أو الاقتصادي والاجتماعي العام لهذا الإنسان، ولكن ذلك لا ينفي طبيعة التطور الواضح للمجتمعات التي انتقلت باستمرار إلى درجة أرقى وأكثر تنظيمًا، على مدى عصور ما قبل التاريخ الطويلة ولا ينفي أيضاً حقيقة تميز مناطق معينة وعلى رأسها الشرق الأدنى وبخاصة بلاد الشام ومنطقة الرافدين ومصر التي شكلت الطليعة الحضارية في العصور التاريخية القديمة.

٢ - تقسيم عصور ما قبل التاريخ:

جمعت منذ القرن السابع عشر الآلاف من الأدوات الحجرية والمعدنية دون أن تكون لدى الناس أية فكرة عن عصرها أو تاريخها، أو طبيعة المجتمعات التي تركتها. ويعتد أمين المتحف الدانمركي في كوبنهاغن، كرسيتان تومسون (Ch. Thomson) أول من قام، منذ مطلع القرن التاسع عشر، /١٨١٦/ بتصنيف

الآثار الموجودة لديه حسب مادتها إلى أدوات حجرية وبرونزية وحديدية واضعاً أسس نظام العصور الثلاثة المتتالية زمنياً (Three Ages) وهي العصر الحجري ثم البرونزي وأخيراً العصر الحديدي . وفي عام ١٨٣٦ قام بنشر أول كتاب منهجي وعلمي عن عصور ما قبل التاريخ الأوروبية اعتمد فيه نظام العصور الثلاثة . وأكدت التنقيبات الأثرية صحة هذا النظام حيث ظهرت في الطبقات الدنيا والأقدم في العديد من المواقع الآثار البرونزية بينما في الطبقات العليا وجدت الآثار الحديدية الأحدث عهداً . وما زال هذا التقسيم ذا أهمية أثرية كبيرة ومعمولاً به حتى الآن وفيما يخص العصر الحجري فقد خضع أيضاً لتقسيمات أقدمها على يد عالم الآثار الإنكليزي جون لوبوك (J. Lubbock) الذي كتب مؤلفين هامين الأول في عام ١٨٦٦ عن إنسان ما قبل التاريخ والثاني في عام ١٨٧٠ عن أصل الحضارة ، واستخدم في هذا المؤلف الأخير ولأول مرة اصطلاح الباليوليت أو عصر الحجر المطروق ، يليه النيوليت أو عصر الحجر المصقول . ثم قادت أعمال الباحث الفرنسي ادمون بيت (E. Piette) في نهاية القرن التاسع عشر في منطقة البيرنية إلى تحديد عصر انتقالي بين العصرين السابقين أطلق عليه الميزوليت . وفي الوقت نفسه تقريباً قام الفرنسي مورتيه ، بتقسيم الباليوليت إلى العصر الشيلي يليه الآشولي فالموستيري فاللفوازي فالسولوتري وأخيراً المجدلاني . بينما قسم الميزوليت إلى العصر التاردنوازي ، وذلك نسبة إلى المواقع الأثرية الفرنسية النموذجية التي تحمل الأسماء نفسها والروبينهوزي نسبة إلى موقع روبنهوزن (Robenhausen) السويسري . بينما استخدم بعض الباحثين مثل (لارتيه) تقسيماً آخر يعتمد على نوع الحيوانات التي عاشت في ذلك الزمن فجرى الحديث عن عصر الدب يليه عصر الفيل ووحيد القرن وأخيراً عصر الغزال والثور أما الآن فقد استقر تقسيم عصور ما قبل التاريخ كالتالي :

أ. العصر الحجري القديم (الباليوليت) (Palaeolithic):

وأصل التسمية يونانية من (Palaaios) أي قديم و(Lithos) تعني حجر: إن الباليوليت هو أقدم العصور الحجرية وأطولها بدأ في العالم (إفريقية) منذ حوالي ٢,٥٠٠,٠٠٠ / سنة خلت ، وانتهى في حدود ١٥,٠٠٠ / سنة ق.م وهو عصر

عاش فيه الإنسان منتقلاً إلى الصيد والالتقاط . ونظراً لزمّنه الطويل والخصائص المميزة لكل فترة فيه فقد قسمه الباحثون إلى عدة عصور أصغر هي : الباليوليت الأدنى (Lower Palaeolithic) ويؤرخ على / ٢,٥٠٠,٠٠٠ - ٢٠٠,٠٠٠ / سنة ق.م^(١) الباليوليت الأوسط (Middle Palaeolithic) ويؤرخ على / ٢٠٠,٠٠٠ - ٤٠,٠٠٠ / سنة ق.م الباليوليت الأعلى (Upper Palaeolithic) ويؤرخ على / ٤٠,٠٠٠ - ١٥,٠٠٠ / سنة ق.م .

ب. العصر الحجري الوسيط (الميزوليت) (Mezolithic):

من (Mesos) وتعني وسط و (Lithos) أي حجر . وبدأ منذ / ١٥,٠٠٠ / سنة ق.م وانتهى في / ١٠,٠٠٠ / سنة ق.م وهو ذو صفات انتقالية بين العصر الذي سبقه والعصر الذي تلاه .

ج. العصر الحجري الحديث (النيوليت):

وأصلها (Neos) وتعني حديث و (Lithos) حجر وهو عصر الاستقرار والزراعة وتدجين الحيوانات . بدأ منذ حوالي ١٠,٠٠٠ سنة واستمر حتى حوالي ٥٠٠٠ سنة .

د. العصر الحجري النحاسي (الكالكوليت) (Chalcolithic):

من (Chalcos) نحاس و (Lithos) حجر ويمثل المرحلة الانتقالية بين عصور ما قبل التاريخ ومن العصور التاريخية القديمة ويسمى أحياناً عصر ما قبل الكتابة أو ما قبل العمران (Proto-History) ويؤرخ بين ٥٠٠٠ - ٣٠٠٠ سنة ق.م . انظر الشكل : ٢ والشكل : ٣ .

(١) إن التواريخ المذكورة في هذا الكتاب مدورة وعامة ، لأنها تختلف من منطقة إلى أخرى ومن موقع لآخر ، ولكن المقصود هو وضع التسلسل العام لتطور حضارات إنسان ما قبل التاريخ دون الدخول في تفاصيل عمر المواقع المدروسة . كما تم تعديلها على ضوء التواريخ الحديثة التي دفعت في العمق العديد من التواريخ القديمة وبخاصة فيما يتعلق ببداية الباليوليت الأوسط . وبداية الميزوليت والنيوليت أيضاً .

الفصل الثاني

طبيعة مواقع وآثارها عصور ما قبل التاريخ

١ - تمييز الأدوات الحجرية

٢ - تقنيات وتقاليدها تصنيع الأدوات الحجرية

الفصل الثاني

طبيعة مواقع عصور ما قبل التاريخ وآثارها

إن الموقع الأثري (Archaeological Site) هو كل مكان يوجد فيه آثار الإنسان القديم مهما صغرت أو كبرت هذه الآثار، سواء كانت أداة بسيطة أم أداة ضخمة. ومواقع ما قبل التاريخ هي الأماكن التي أقام فيها، أو مر بها إنسان تلك العصور وترك لنا دليلاً مادياً على ذلك. وهي تنتشر في المناطق التي توافرت فيها الشروط المساعدة على الحياة كالماء والنبات والحيوان وحجر الصوان (Silex) الذي صنع منه الإنسان أسلحته وأدواته الأولى. وهذه المواقع على أنواع فهي إما مكشوفة، وإما ملاجئ صخرية ومغائر سكنت في الفصول الباردة غالباً. كما تختلف مدة الإقامة فيها فمنها ما توقفت فيه الجماعات البشرية الأولى لبضع ساعات، أو أيام أو شهور ومواسم، ومنها مناطق تردد عليها الناس آلاف السنين بفعل ارتباطهم ببيئتها الغنية أو غير ذلك. وهذا النوع من المواقع الكبيرة يكون خاصة مغائر أو ملاجئ قريبة من مراكز المياه والخيرات الطبيعية. وهناك نمط آخر من مواقع عصور ما قبل التاريخ وهو التلال الأثرية برغم أن هذه التلال تعود في معظمها إلى العصور التاريخية القديمة وبخاصة العصور البرونزية، ولكن الطبقات الدنيا في بعضها تضم آثاراً من العصر الحجري الوسيط أو الحديث عندما استقر الإنسان وبدأ بالبناء وارتبط بمناطق محددة، لم يغيرها، في العصور اللاحقة.

وتختلف مواقع العصور الحجرية في درجة حفظها وسلامتها ومن ثم في أهمية المعلومات التي يمكن استنتاجها منها. ولكن الكثير منها قد خربته عوامل الطبيعة كالمياه والأمطار والرياح وأزاحتها من مكانه الأصلي. ونحن نعثر على آثارها متناثرة على مساحات متباعدة، مما أدى إلى تدني القيمة العلمية لها. بينما بقيت بعض الأماكن، بفعل ظروف جيولوجية ومناخية مساعدة سليمة على مرور عشرات بل مئات الألوف من السنين عليها، وهي تعد ذات قيمة علمية كبيرة ومتكاملة، لكنها قليلة جداً

ومعظمها مغائر مخفية . علماً أن عدد المواقع السليمة يصبح أكبر كلما اقترب الزمن حيث نعر على الكثير من آثار العصر الحجري الحديث وطبقاتها محفوظة بشكل جيد في باطن التلال الأثرية التي يمثل بعضها المدن القديمة المندثرة .

ومارس الإنسان الأوّل في مناطق سكنه أنشطة متعددة ، كالنوم والأكل وتصنيع الأسلحة والأدوات وإلقاء الفضلات والدفن وإيقاد النار وغير ذلك . ومهمة الباحثين هي كشف هذه الأنشطة ومعرفة طبيعة المواقع الأثرية ووظيفتها وانتشارها وعلاقة بعضها ببعض . وهم يستخدمون في سبيل الوصول إلى هذا الهدف طرائق مختلفة يطورونها باستمرار ، تبدأ بالاستطلاع السطحي السريع وتنتهي بالتنقيب النظامي الدقيق ، وتطبيق وسائل البحث المخبري الحديث . وتعد الأدوات الحجرية هي الآثار المادية المباشرة والأهم في العصر الحجري القديم خاصة ، لأنها قاومت كل عوامل الاندثار ، عكس العديد من الآثار العظيمة والخشبية أو الجلدية وغيرها من المواد القابلة للتلف . وإضافة إلى المواد الحجرية توجد مخلفات أخرى عديدة ومتنوعة نذكر منها : الأدوات العظمية ، البقايا النباتية والحيوانية القديمة آثار البناء والفنون والأواني الفخارية وغيرها ، وهي كلها تشكل مادة البحث الأولى في سبيل فهم مجتمعات ما قبل التاريخ وحضاراتها .

وباختصار فإن المواقع الأثرية تتشكل بفعل العامل الحضاري بخاصة ؛ أي استيطان الإنسان والآثار التي يتركها كما يؤدي العامل الطبيعي ، البيئي ، دوراً كبيراً وإن كان ثانوياً في تشكل المواقع . وهناك مواقع بقيت سليمة لم تتخرب (Primary Position وتكون في وضعية أصلية) بينما تعرضت مواقع أخرى لتبدلات مختلفة وتكون في وضعية ثنائية (Secondary Position) .

١ - تمييز الأدوات الحجرية:

يصعب في العديد من الحالات التفريق بين الآثار الحجرية ، وخاصة الأدوات والأسلحة التي صنعها الإنسان وبين تلك التي أنتجتها العوامل الطبيعية ولا علاقة لها به ولكنها تثير الالتباس أحياناً فتظهر كأنها مصنعة بشكل مقصود وواع . وللباحثين طرائقهم

الخاصة في التمييز بين الآثار الحقيقية والوهمية ولهم مصطلحاتهم الخاصة (Terminology) والغنية لوصف هذه الأدوات وتصنيفها. فالنواة (Nucleus) هي كل قطعة حجرية أو كل حجر يحمل آثار طرق، من قبل الإنسان القديم، هذا الطرق يهدف إلى استخراج أجزاء من الحجر وتحويلها إلى أدوات عاملة. والرقية (Flake أو Eclat) هي كل قطعة حجرية، مستخرجة من نواة، طول هذه القطعة أقل من ضعفي عرضها. عكس النصال (Lame أو Blade) التي طولها يساوي ضعفي عرضها أو يزيد عليه. والأداة (Outil) أو (Tool) هي كل رقيقة أو نصلة مصنعة بشكل إضافي ودقيق ومشذبة (Retouche) يهدف تحويلها إلى أداة لها وظيفة محددة كالسكين والمخرز والمكشط. وأما اسم الصنعية (Artifact) فيطلق على كل قطعة حجرية، سواء كانت نواة أم رقيقة أو نصلة أو أداة، تحمل آثار تصنيع هادف ومنظم مهما كانت درجة هذا التصنيع بسيطة أو متطورة.

إن كل قطعة حجرية، صناعية، أي تدخل الإنسان في طرقها، تحمل عدة صفات لا تتوافر في الأحجار التي صنعتها أو كسرتها الطبيعة. وبعض هذه الصفات يمكن تحديدها بالحقول مباشرة وبعضها الآخر يحتاج إلى عمل مخبري، وخاصة عندما تكون الأدوات منقولة من مكانها الأصلي ومهشمة، ومتآكلة. وبشكل عام فإن الطرقات المنتظمة التي تعطي الحجر شكلاً مقصوداً تبدو واضحة ومميزة من عمل الطبيعة، وإن كل قطعة حجرية مطروقة من قبل الإنسان تتوافر فيها الصفات التالية (الشكل: ٦ رقم ٣).

١ - سطح الطرق: لقد عمد الإنسان الأول إلى تحضير النواة الحجرية قبل أن يستخرج منها قطعاً أصغر لتصنيعها وكان هدف هذا التحضير هو تنظيم شكل النواة وإحداث سطح مستو تنتزع، انطلاقاً منه، القطع المطلوبة التي يحمل كل منها سطحاً صغيراً هو جزء من السطح الأكبر للنواة. هذا السطح الصغير نسميه سطح الطرق (Striking Platform).

٢ - نقطة الطرق: لكل قطعة حجرية أثرية وجه خارجي، أو ظهر، (Dorsal Face) وآخر داخلي، بطن، (Ventral Face) توجد على الوجه الداخلي، وتحت سطح الطرق مباشرة آثار تكسر في النقطة التي أتت عليها الضربة مباشرة، إن مكان نزول

الضربة المباشر نسميه نقطة الطرق وهو أيضاً دليل ضربة مقصودة باتجاه وزاوية معينين (Percussion Cone).

٣ - حذبة الطرق : يقوم تحت سطح الطرق على السطح الداخلي للقطعة الحجرية تحذب منتفخ (Bulb أو Conchoid) يقابله تقعر في الجهة المقابلة من جسم النواة وهو دليل آخر على الصنع المقصود وعلى هذا التحذب يوجد تكسر الطرق الذي يكون تحت نقطة الطرق (Splinter).

٤ - خطوط الطرق : على بطن القطعة الحجرية ، وعلى ظهرها ، إذا ، كانت ليست الأولى من النواة إنما الثانية وما بعدها ، تقوم خطوط عرضانية على شكل موجات نصف دائرية (Ondulations) تتجه مراكزها نحو سطح الطرق أي نحو الجهة التي أتت منها الضربة الأساسية والتي أدت إلى إزاحة القطعة المطلوبة من النواة الأم ، وخطوط أخرى طولانية أثلام (Striations) لكنها ليست نصف دائرية وإنما مستقيمة تتجه رؤوسها نحو سطح الطرق وهي أقل امتداداً من العرضانية ، وكل هذه الخطوط دليل تصنيع مقصود .

ويجب أن نشير إلى أنه ليس من الضروري أن تظهر على الأداة الحجرية ، كل هذه الصفات مجتمعة لأنه في حالة التشوه أو التآكل تغيب بعض الصفات المميزة ، أو كلها . وعندها لا بد من التحليل المخبري الذي يعطي معلومات أكثر دقة سواء حول حقيقة الأداة أو طبيعة استخدامها أي الوظيفة التي قامت بها . ومهما يكن فإن قطعة حجرية واحدة ، أو عدة قطع ، ليست دليلاً كافياً على وجود موقع لإنسان ما قبل التاريخ حتى لو كانت متوفرة فيها شروط التصنيع المقصود . ولا بد من توفر كمية أكبر وأكثر تنوعاً من الآثار التي تؤكد قيام نشاط إنساني واضح يتجلى ليس فقط في الأدوات الحجرية وإنما بالبقايا العظمية ، والبناء والمواقد والمستحاثات النباتية والحيوانية التي تدل كلها مجتمعة على وجود الإنسان في المكان المدروس الذي أصبح له ، عند ذلك فقط ، قيمة أثرية وتاريخية .

وتجدر بنا الإشارة إلى أن علم ما قبل التاريخ ما زال حديث العهد مقارنة ببقية فروع علم الآثار وأن تعريب مصطلحات هذا العلم لم يستقر كما أن الاختصاصيين

العرب في هذا المجال لا زالوا قلة . وقد قمنا بمحاولات تأليف وترجمة وتعريب مصطلحات تحتاج إلى متابعة . ونعتقد بأنه لا بد من تعاون وتنسيق بين المختصين العرب وغيرهم من أجل التوصل إلى اتفاق على تعريب المصطلحات الأجنبية مع اقترانها بمرادفها العربي والأجنبي حفاظاً على تواصلنا مع الأوساط العالمية أيضاً .

٢ - تقنيات تصنيع الأدوات الحجرية وتقاليدها:

استخدم إنسان عصور ما قبل التاريخ في أزمنة وأمكنة مختلفة ، أساليب وطرائق تصنيع متنوعة لأدواته الحجرية بسميها المختصون تقنيات بالمعنى المبسط للكلمة (Techniques) ومن المهم أن نعرف أن هذه التقنيات أتت نتيجة تراكم خبرات الناس ومعارفهم ، خلال العصور ، وأصبحت تقاليد مميزة توارثتها الأجيال وعلمها الآباء للأبناء . كما تخصصت فيها جماعات بشرية بعينها ، مما أعطى هذه التقاليد دلالة زمنية وحضارية كبيرة حتى غدت تميز كل جماعة من غيرها ، لأن الإنسان الأول لم يصنع أسلحته وأدواته بشكل اعتباطي أو عشوائي بل كانت في ذهنه معارف جاهزة وطرائق ثابتة طورها وغيرها حسب الحاجة . إننا بفضل الدراسات الحديثة والتجارب العلمية التي قام بها بعض الباحثين لتصنيع أدوات تشابه أدوات إنسان العصر الحجري إضافة إلى مقارنة الأدوات الأثرية مع تلك التي تستخدمها الشعوب البدائية الحالية ، أصبحنا ندرك التقنيات ، الطرائق ، الأساسية الموجودة في عصور ما قبل التاريخ ، ونحن نعلم الآن أن أكثرها شيوعاً كانت :

١ - طريقة ، تقنية ، التصنيع بالطرق . وتتم غالباً باستخدام المطرقة الحجرية القاسية ذات الشكل الدائري ، أو المطرقة الناعمة من العظم (القرون) أو الخشب (السنديان) . وقد عرفت هذه الطريقة في الباليوليت الأدنى وخاصة في تصنيع الأدوات الثقيلة كالقؤوس والقواطع والسواطير ؛ من خلال الضرب مباشرة (Direct Percussion) بالمطرقة على القطعة الحجرية المراد تصنيعها (الشكل : ٧) أو الطرق غير المباشر (Indirect Percussion) أي بوضع واسطة سندان ، تفصل بين المطرقة والقطعة الخشبية سعياً إلى المزيد من التحكم بعملية التصنيع (الشكل : ٦ رقم ١) .

٢- تقنية التصنيع بالضغط (Pressure Technique) وهي طريقة أكثر دقة من الأولى وتهدف إلى استخراج الأدوات وتشذيبها بغية تنظيمها وإعطائها الشكل المطلوب وذلك بضغط حوافها باليد الملفوفة بواقية من الجلد، أو غيره، أو بأداة عظمية أو خشبية ناعمة وقد استخدمت هذه التقنية خاصة في المراحل الأخيرة من الباليوليت وفي عصري الميزوليت والنيوليت (الشكل ٦ رقم ٢).

لقد عرفت مجتمعات العصور الحجرية تقاليد مميزة في صنع الأدوات الحجرية (Traditions) وهي تدل على ترسخ أفكار وخبرات متوارثة ومعروفة في كل عصر، أكثرها ثباتاً كانت التالية :

١- التقاليد الكلاكتونية ، نسبة إلى موقع كلاكتون (Clacton on Sea) في إنكلترا. وتميز بصنع القطع الحجرية الخشنة والغليظة التي لها سطح طرق عريض وتحدب كبير بفعل استخدام المطرقة الثقيلة.

٢- التقاليد الأبيلية ، نسبة إلى أبفيل ، وتشتهر بالفؤوس اليدوية البسيطة ذات الشكل غير المنتظم والحواف المتعرجة والقبضة ، الخام ، الدائرية.

٣- التقاليد الآشولية ، وهي متطورة عن الأبيلية صنع ممثلوها الفؤوس الحجرية الدقيقة ومنتظمة الأشكال المشذبة حوافها بعناية بواسطة المطرقة الناعمة. لقد سادت التقاليد، الثلاثة، المذكورة في العصر الحجري القديم الأدنى ، أقدمها الأبيلية بينما يتعاصر الآشوليون مع الكلاكتونيين لكنهم ، اختلفوا ، عن بعضهم بشكل جوهري لأن الكلاكتونيين لم يعرفوا تصنيع الفؤوس اليدوية في حين استخدم الأبيليون والآشوليون هذه الفؤوس بكثرة علماً بأن ممثلي كل هذه التقاليد ينسبون إلى نوع واحد من البشر هو الهومو هكتوس ، النوع الرئيسي الذي عاش في الباليوليت الأدنى . سادت في العصر الحجري القديم الأوسط (الباليوليت الأوسط) تقاليد أخرى تعود إلى إنسان النياندرتال الذي لم يتابع استخدام طرق الهومو هكتوس السابقة بل ابتكر أساليب جديدة من عنده إذ استعمل نوى لها شكل محدد اختارها بعناية وصنع منها بعد أن حضرها بشكل جيد، عدة أدوات، عكس إنسان

الباليوليت الأدنى الذي استخرج من القطعة الواحدة، أداة واحدة فقط . لقد انتشر في هذا العصر، في معظم المناطق، تقليدان، الأول ويسمى الفلوازي (Levalloisian) ويعتمد على استخدام نواة رقيقة بيضوية الشكل محضرة بشكل جيد، طرقت من هذه النواة قطعة حجرية واحدة فقط لكنها مختلفة الأشكال، ثم شذبت هذه القطعة لتأخذ الشكل النهائي للأداة المطلوبة. والتقليد الثاني هو المoustيري (Mousterian) الذي يقوم على طريقة الفلوازي نفسها ولكن المoustيرين استخرجوا من النواة عدة قطع حجرية حتى استهلكوها بالكامل . إن الباحث في العصور الحجرية يستطيع بسهولة نسبية أن يحدد، بشكل أولي، عصر الموقع الأثري المكتشف بعد التقاط الأدوات الحجرية منه ومعرفة تقاليد الجماعة البشرية التي سكنته . كما أن طريقة تشذيب الأداة، أي تحضير حوافها العاملة تساعد أيضاً على تحديد عصرها لأن إنسان العصر الحجري استخدم في أزمنة مختلفة طرقاً معينة في تشذيب أدواته، فالتشذيب المسطح العادي ساد في الباليوليت الأدنى والمدرج في الأوسط بينما عرف التشذيب المتوازي في الباليوليت الأعلى . (الشكل : ٨) .

The logo of Damascus University is a circular emblem. It features a central yellow lamp with a flame, set against a purple background. The lamp is surrounded by a circular border containing Arabic text. The text at the top reads 'وقل رب زدني علما' and the text at the bottom reads 'جامعة دمشق'. Below the Arabic text, the words 'Damascus University' are written in English.

الفصل الثالث

طرق تنقيب مواقع عصور ما قبل التاريخ

الفصل الثالث

طرق تنقيب مواقع عصور ما قبل التاريخ

إن التنقيب الأثري عملية بالغة الأهمية وهو علم وفن بالوقت نفسه يهدف إلى الاستخراج المنهجي المنظم للبقايا الأثرية التي تساعد على معرفة تاريخ المجتمعات القديمة بالشكل الصحيح . وتختلف طرق هذا التنقيب وتقنياته حسب طبيعة الموقع وعصره والهدف المطلوب تحقيقه والإمكانيات المتاحة للبعثة المنقبة، التي لا يجوز أن تتصدى لهذا العمل قبل أن تكون مجهزة بكل الوسائل العلمية والفنية والمالية اللازمة . وللنشاط الأثري مراحل قد تنفذ كلها أو يتوقف العمل عند إحداها . وفيما يخص مواقع عصور ما قبل التاريخ فإن التنقيب فيها يمر عادة بالمراحل التالية :

١ - اكتشاف الموقع : إن أماكن إنسان ما قبل التاريخ من أصعب المواقع الأثرية اكتشافاً فهي غالباً ما تكون مراكز مخفية لا تلفت النظر ولا تحدث أي تغيير ملحوظ في طبيعة المنطقة التي تقوم فيها بل تظهر كأنها جزء من تضاريسها . وهذا ينطبق سواء على المغائر والملاجئ أم على المواقع المكشوفة ، التي تنتشر بكثرة في وديان الأنهار وعلى شواطئ البحار والبحيرات . لذلك لا بد من أجل العثور عليها من الوصول إليها مباشرة ، ولا يتم ذلك إلا سيراً على الأقدام لأنها غالباً ما تكون في مناطق وعرة ولا تصل إليها الآليات . ويستعين الباحثون بالخارطة الجغرافية التي تدل على مراكز وجود المياه أو خامات الصوان التي قامت بجوارها مواقع إنسان العصور الحجرية . كما يستخدمون أجهزة كشف أكثر تطوراً كالصور الجوية وتقانات الاستشعار عن بعد . لكن كل ذلك لا يغني عن العمل الميداني المباشر المتمثل بتمشيط المنطقة المدروسة بدقة لأن مواقع العصر الحجري ليست مدناً أو أوابد واضحة تشير إلى نفسها بل هي نقاط مخفية يجب إزاحة الستار عنها والوصول إليها ، مهما كلف ذلك من مشقة ، مما

يتطلب توافر قدرات رياضية جيدة لدى الباحثين الميدانيين . ويبقى الدليل الحقلي الأهم على هذه المواقع هو الأدوات الحجرية التي تنتشر على السطح مباشرة خارجة من باطن الأرض بفعل عوامل الحت والتعرية .

٢- بعد اكتشاف الموقع تحصل الدراسة السطحية حيث تلتقط الآثار الموجودة على السطح ، كالأدوات الحجرية والعظمية والقطع الفخارية ، وتدرس بشكل أولي بهدف التعرف إلى خصائصها وزمنها ومكانتها العلمية ، ثم على ضوء ذلك تقرر المرحلة الثالثة .

٣- السبر الاختباري (Test Sondage) بعد أن تظهر الدراسة السطحية أهمية الموقع وامتداده العام تحفر آسبار اختبارية ، أي تنقيبات منهجية محدودة في عدة مناطق مختارة بهدف تحديد مركز أو مراكز النشاط الأساسي فيه والتأكد من توافق الطبقات الأثرية في باطنه ، مع المواد الموجودة على سطحه ويجب أن يكون هدف السبر هو الوصول إلى الأرض البكر التي حصلت عليها الإقامة الأولى للإنسان أي اختراق كل الطبقات الأثرية المتراكمة عبر الزمن . لذلك تختلف أعماق الأسبار الاختبارية ، حسب سماكة هذه الطبقات فهناك مواقع تقتصر الإقامة فيها على طبقة واحدة ، لا تتجاوز سماكتها عدة سنتيمترات بينما توجد أماكن أخرى وبخاصة المغائر والتلال ، تجمعت فيها الآثار بعضها فوق بعض بسماكة عشرات الأمتار . والسبر الطبقي يظهر لنا مراحل سكن الجماعات البشرية وصفاتها في مختلف العصور وله أهمية كبيرة في تحديد زمن تتابع التوضعات الأثرية المتراكمة وعلاقتها مع التشكلات الجيولوجية وهو ما يسمى بالستراتغرافيا والكرونولوجيا اللتان تعدان أهم أركان علم الآثار الحديث ، وعلى ضوء نتائج السبر يتوسع الباحث في كشف الطبقات المنشودة التي تأكد وجودها ، علماً بأن نتائج هذا السبر ، محدود المساحة ، قد تكون أحياناً مضللة لا تمثل حقيقة ما هو تحت الأرض ، وخاصة في المناطق التي لم يطلها الحفر ، ولكن التجارب الميدانية أشارت إلى أن الأسبار إذا غطت نسبة ٣٪ من مساحة الموقع الإجمالية فإنها تكون كافية لإعطاء فكرة صحيحة عنه .

٤ - وعلى ضوء نتائج الأسبار تأتي المرحلة النهائية ، والأهم ، وهي التنقيب المنظم (Excavation) الذي أصبحت له مناهج وأصول متعارف عليها وهي تختلف حسب المناطق وطبيعتها ، ووسائل المتقنين . ومهما يكن فإن العمل في مواقع ما قبل التاريخ يمتاز بالدقة العالية والتأني الشديد . وهو يبدأ بالمسح الطبوغرافي بهدف تثبيت الموقع ضمن إطاره الجغرافي العام ، في المنطقة الواسعة التي يقوم فيها ، وتبيان حدوده الدقيقة وتعيين خطوط للتسوية والارتفاعات ، ثم تقسيمه إلى شبكة من المربعات تتراوح أبعادها حسب الحاجة ولكن غالباً لا يتجاوز المربع الواحد منها متراً فقط ، عكس التنقيب في المواقع التاريخية كالمدين التي يصل ضلع المربع التنقيب فيها إلى عشرة أمتار . وتعطي هذه المربعات أرقاماً معينة انطلاقاً من خطين أساسيين ، خط أفقي ، يحدد بالحروف وخط آخر عامودي يرقم بالأعداد ، ويمكن عند الحاجة أن يقسم المربع الواحد إلى عدة أجزاء أصغر قد تصل مساحة الواحد منها إلى ١٠ سم^٢ فقط . بعد ذلك يبدأ التنقيب الأصولي وهو نزع منظم للطبقات انطلاقاً من الأعلى إلى الأسفل وبشكل أفقي وعلى سماكات بسيطة تختلف حسب المكان وغزارة المكتشفات وطبيعتها التي تفرض في بعض الأحيان استخدام أدوات دقيقة تشبه أجهزة طبيب الأسنان . لأن مرور الزمن الطويل على مناطق إقامة إنسان ما قبل التاريخ قد خرب القسم الأكبر من أثارها ولم يترك فيها إلا دلائل نادرة لذلك لا بد من التأني الشديد والانتباه المستمر ورصد كل أثر وكل ظاهرة مهما كانت ضئيلة ، وتوثيقها حسب الأصول وبدقة ، دون أي إهمال ، لأن قيمتها العلمية والتاريخية قد تكون كبيرة ، فذرات الرماد أو الفحم ، مثلاً ، تعدُّ شاهداً على معرفة النار وهذه حقيقة بالغة الأهمية في عصور ما قبل التاريخ . وغالباً ما تكون مناطق السكن ذات عدة طبقات أثرية أو جيولوجية لذلك يجب التمكن من تحديدها بشكل صحيح وملاحظة كل تغيير قد يدل على انتهاء طبقة وبدء أخرى حتى لا تختلط المراحل وتضيع الحدود بينها ، ومن أجل أن يتمكن المنقب من الربط بين المعطيات الأثرية والجيولوجية . كما ينبغي التنبيه على البقايا

المستحاثية النباتية أو الحيوانية أو الهياكل العظمية للإنسان ونقلها بعناية تمهيداً لإخضاعها للأعمال المخبرية اللاحقة .

وباختصار لابد من متابعة كل مراحل عملية التنقيب بدقة ، وتوثيق نتائجها بالصور والمخططات والشروح اللازمة مع أخذ العينات المطلوبة ، لأن أي تقصير في التنفيذ الميداني سوف يؤدي إلى نتائج خاطئة وغير علمية . علماً بأن نقل الحقائق بشكل دقيق وصحيح هو عملية أهم من تفسيرها وشرحها . لأن هذا التفسير قد يختلف بين باحث وغيره ومن عصر إلى آخر . أما الوقائع العلمية فهي ثابتة لا تتغير وهي التي نستطيع ، كلما تطورت وسائلنا أن نفهمها بدقة متزايدة . ومهما قلنا عن التنقيب الأثري فهو قبل كل شيء تدريب عملي لا يمكن تعلمه إلا من الحقل وعلى ضوء الممارسة الفعلية ، بعد الإعداد النظري الكافي بالطبع ، مما يعطي المنقب خبرة فنية وتاريخية واسعة حتى يعرف كيف يكتشف الآثار ويفهمها بالشكل الصحيح ، وإلا فإنه يكون قد هدم وطمس حقائق تاريخية تشكل الهدف المركزي للبحث الأثري . ونختتم كلامنا بقول معبر للباحث الفرنسي لوروا غوران ، واصفاً التنقيب بأنه : يشبه قراءة كتاب مرة واحدة فقط بحيث تتمزق كل صفحة فور الانتهاء منها ولا يمكن إعادة القراءة ثانية ، وكل ما لم يدرك من المرة الأولى ضاع وإلى الأبد....

The background of the page features a large, faint watermark of the Damascus University logo. The logo is circular, with the Arabic text "جامعة دمشق" (Damascus University) at the top and "Damascus University" at the bottom. In the center is a shield with a sunburst and a book.

الفصل الرابع

العلوم المساعدة لعلم ما قبل التاريخ

١ - العلوم الطبيعية

٢ - العلوم الإنسانية

الفصل الرابع

العلوم المساعدة لعلم ما قبل التاريخ

١ - العلوم الطبيعية:

إن لعلم ما قبل التاريخ مزية خاصة تجعله يتداخل مع العلوم الطبيعية من جهة والإنسانية من جهة أخرى . وهو يحمل صفات مشتركة بين كل من هذه العلوم ويشاركها البحث من أجل تحقيق أهدافه المركزة لمعرفة واقع حياة إنسان ما قبل التاريخ ضمن إطارها البيئي القديم . فهذا العلم شديد الصلة بالجيولوجيا (Geology) التي تفيدنا في تحديد التاريخ الجيولوجي للمواقع وطبيعة الترسبات الموجودة فيها وفيما إذا كان مصدرها مناخياً (Climatic) كالمياه والرياح أم بنائية (Structural) كالبراكين والزلازل ويهتم بها علم الترسبات (Sedimentology) . ويركز علماء ما قبل التاريخ على دراسة الزمن الرابع الذي ظهر فيه الإنسان واختلطت آثاره بتشكلاته التي تقع ضمن نطاق البحوث الجيومورفولوجية التي تهتم بأشكال الأرض الرباعية المنشأ كالمصاطب النهرية والشواطئ البحرية القديمة وعلاقتها بالأدوات الحجرية . وهو ما يأتي في إطار علم الجيومورفولوجيا (Geomorphology) . كما تفيدنا الجيولوجيا في تحديد المقالع الطبيعية للخامات الأولية وبخاصة حجر الصوان الذي كان له أهمية كبرى في حياة إنسان العصور الحجرية ؛ إذ اعتمد في إقامته على مدى توافره وصنع أسلحته وأدواته منه . ولما قبل التاريخ علاقة كبيرة بالالتولوجيا (Palaeontology) أي المستحاثات النباتية والحيوانية لأنه من خلال دراستنا لهذه المستحاثات نستطيع أن نحدد أنواع الأشجار والنباتات التي عاشت في تلك المناطق (Paleoenvironnement) ، ومدى اعتماد ذلك الإنسان في سكنه أو غذائه على أي منها ، ونتمكن أيضاً من إعادة تركيب الوسط الجغرافي القديم الذي كان كبير الأثر في الإنسان (Palaeocology) ومن خلال التحاليل المخبرية ، للعينات التي تحوي غبار الطلع (Pollens) وبقايا الأشجار والنباتات

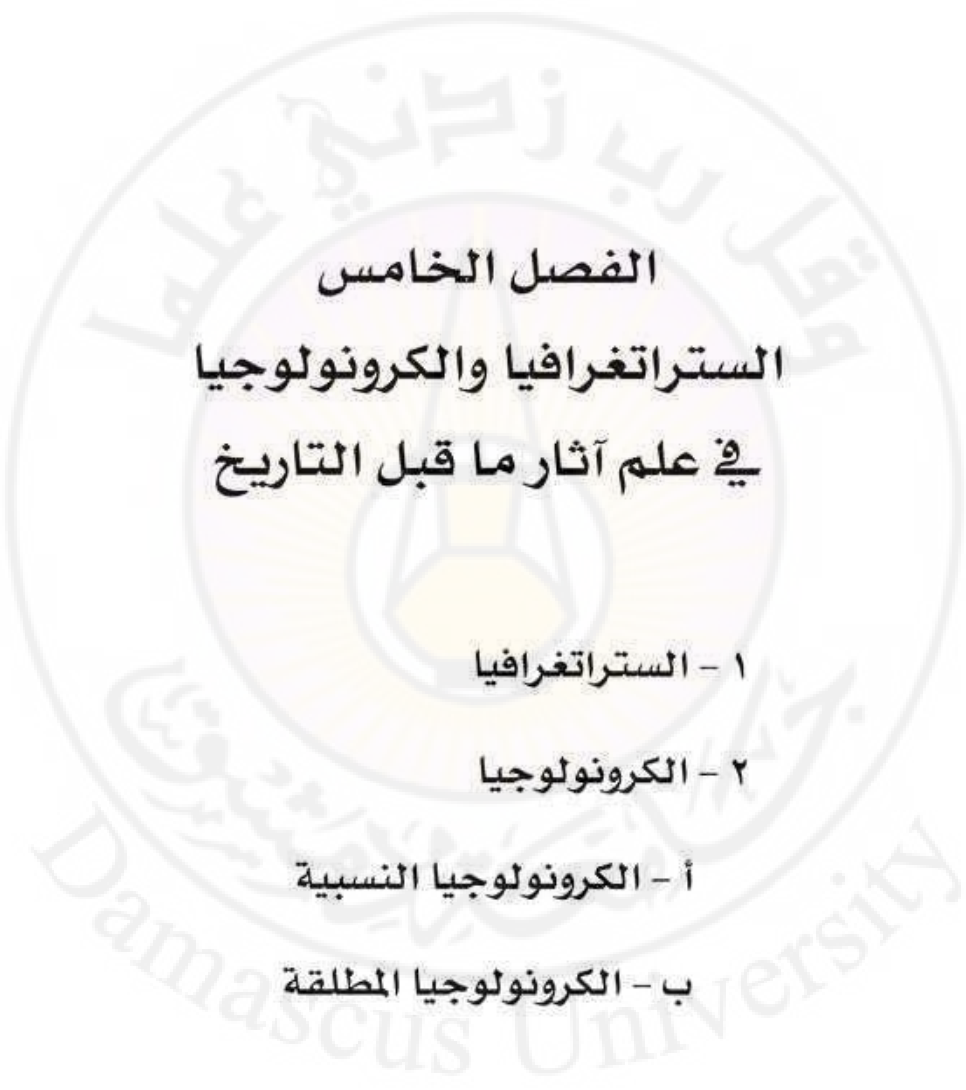
يمكن أن نتابع بدقة كل تغير حصل في المناخ خاصة (Palaeoclimatology, Palynology, Paleobotany) كما أن البقايا العظمية للحيوانات القديمة تعطينا فكرة جيدة عن الأنواع التي عاشت في ذلك الوقت. وبخاصة الأجناس الصغيرة (Microfauna) ذات الحساسية العالية التي تدل بصورة دقيقة على التقلبات المناخية، وتبدلاتها بين الباردة والدافئة. وبفضل الدراسات الاختصاصية في هذا المجال أصبحنا نعرف البيئة، في عصور ما قبل التاريخ، وعلاقتها بالواقع الحالي. فقد عاشت في تلك العصور أنواع من الحيوانات والنباتات انقرض بعضها بينما بقي قسم منها مستمراً، مما يدل على أن تلك البيئة في العديد من المناطق لم تكن تختلف كثيراً عما هي عليه الآن. كما تبين البحوث البالنتولوجية درجة اعتماد المجتمعات القديمة على الخيرات البرية والمائية وكيفية حصولها عليها ومستوى التأثير المتبادل بينها وبين وسطها الأول. وتشكل الأنتروبولوجيا، وبخاصة الأنتروبولوجيا القديمة (Palaeo-anthropology) أحد أهم العلوم المساعدة لما قبل التاريخ فهي تدرس ظهور الإنسان وتطوره، من خلال الهياكل العظمية التي توجد سواء في مواقع العصور الحجرية أم خارجها، وتحدد لنا الصفات العرقية للأنواع البشرية وعلاقة بعضها ببعض، ومكانها في عملية التطور ومدى ارتباطها بالطبقات الأثرية والجيولوجية التي توجد فيها. ويساعد علم الأثنوغرافيا (Ethnoarcheology) على استخدام معطيات المجتمعات البدائية المعاصرة في فهم المكتشفات الأثرية وتفسيرها، وهناك علوم أخرى كثيرة تتطور مع الأبحاث الحديث منها علم التربة القديمة Paleo-Pedology ودراسة البقايا المستحاثية للثمار والحبوب Paleo-carpology ودراسة الأخشاب القديمة (Antracology) ودراسة النباتات لتحديد المدجن منها وغير المدجن (Phytolithes) ودراسة الترسبات الدقيقة (Lame-mince) التي يُعنى علم الجيومورفولوجيا (Micro-geomorphology). ومعظمها دراسة مخبرية تجري باستخدام الميكروسكوب سواء البصري أو الإلكتروني. كما تقدم الأعمال المخبرية دوراً كبيراً ومتصاعداً في دراسات ما قبل التاريخ إذ يقوم علماء الكيمياء والفيزياء بالتحاليل المختلفة بهدف تحديد التركيب الكيميائي للتربة ونوعية الآثار ومصادرها. وإجراء التأريخات الحديثة، التي تعتمد في معظمها على البحوث والطرائق

الذرية والشعاعية من أجل معرفة عمر المواقع أو الطبقات المدروسة . ولهذا يجمع كل هؤلاء المختصين سواء كانوا جيولوجيين أم أنثروبولوجيين أم بالتولوجيين أو فيزيائيين ، العينات اللازمة والمأخوذة بدقة ، ويقوم كل واحد بالدراسة التي تخصه ثم ينسق الجميع بين نتائج أعمالهم وبين ما توصل له علماء ما قبل التاريخ (Pre-historians) الذين يهتمون بدراسة أشكال المكتشفات الأثرية ونماذجها (Typology) وتقنيات تصنيعها (Technology) ووظائفها كل ذلك بهدف تحقيق تضامن جميع العلوم ، سواء في الحقل أم في المخبر ، والحصول على نتيجة شاملة ومتكاملة تبين طبيعة الموقع المدروس ، من كل جوانبها ، وتجدد الإشارة إلى أن الأبحاث الحديثة أظهرت أن أشكال الأدوات الحجرية يمكن أن تتغير حسب الوظيفة المطلوب تنفيذها بهذه الأدوات فقد تبين مثلاً أن شظية لفلوازية صنعت أولاً على شكل مقحف له حد واحد ثم أصبحت مقحفاً له حدان ، ثم أصبحت حربة لها رأس حاد وأخيراً غدت جزءاً من مقحف مزدوج وهكذا فلم يعد ممكناً الاعتماد فقط على أنماط الأدوات الحجرية (Type) من أجل تحديد هويتها الحضارية لأن هذه الأدوات في تبدل جذري وسريع أحياناً .

٢ - العلوم الإنسانية:

ويُعدُّ ما قبل التاريخ شديد الصلة بالعلوم الإنسانية لأنه يدرس الإنسان ومنذ نشوئه ويعتمد على علم الآثار (Archaeology) في الحصول على الوثائق المادية التي تدل على حياة المجتمعات القديمة . وهذه الوثائق تشكل مادة البحث الرئيسية في علم آثار ما قبل التاريخ (Prehistoric Archaeology) الذي أصبح يشكل فرعاً مستقلاً من فروع علم الآثار . ولأن المكتشفات غالباً ما تدلنا على المستوى التقني للمجتمعات القديمة دون أن تحدثنا عن حياتهم الاجتماعية والروحية ومؤسساتهم فإن الباحثين في العصور الحجرية يهتمون بالأنثوغرافيا (Ethnography) وهو العلم الذي يدرس الشعوب البدائية الحالية التي تعيش على مستوى حضاري يشابه مجتمعات ما قبل التاريخ . فالكثير من الأدوات والأسلحة التي تستخدمها الشعوب البسيطة التي لا زالت تعيش في العديد من مناطق آسيا كالأسكيمو ، وإفريقية كالبجمن والبوشمن

والهوتنتوت وأستراليا كالفوجيين ، تشبه تلك التي نعثر عليها في المواقع الأثرية مما يساعد على تحديد وظيفة هذه الأدوات ومعرفة طبيعة النشاط الاقتصادي للجماعات البشرية الأولى . والأهم من ذلك أن الدراسات الأثنوغرافية التي تتناول المؤسسات الاجتماعية والدينية والأسروية والأنظمة والتقاليد السائدة في المجتمعات البدائية يمكن أن تقودنا إلى فهم مثيلاتها لدى جماعات ما قبل التاريخ ، التي لا نملك عنها أية وثيقة كتابية نحدثنا حول حياتها الروحية أو الاجتماعية . وقد خطت البحوث الأثنوغرافية المقارنة مع دراسات ما قبل التاريخ (Ethno-archaeology) خطوات كبيرة وتوضحت مناهج بحث مشتركة بين هذه العلوم . ونحن بالرغم من إقرارنا بأن الأثنوغرافيا ، أو الأثنولوجيا كما يسميها بعض الباحثين ، هي من أقرب العلوم الإنسانية لعلم ما قبل التاريخ ، لكننا يجب أن ننبه على ضرورة الحذر قبل إطلاق الأحكام السريعة على العصور القديمة ، لأنه ليس من الضروري أن تكون المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية واحدة لمجتمعات تفصل بينها آلاف السنين . ونشير إلى أنه هناك اتجاه جديد لا يرى الأقوام البدائية الحالية تشبه المرحلة الأولى في عملية تطور الحضارة البشرية التي حصلت في عصور ما قبل التاريخ وإنما ينظر لها بوصفها حالات ثقافية اجتماعية مستقلة ذاتها ، تنطبق عليها المفاهيم نفسها والمناهج التي تسري على المجتمعات المتحضرة . ويمثل الاتجاه الجديد عدد من الأنثروبولوجيين وعلى رأسهم الأمريكي لويس بينفورد (L.Binford) والإنكليزي ديزموند كلارك (D.L.Clark) وغيرهم من الذين يرفضون نظرية مورغان حول التطور بخط واحد (Unilinear) . أي لا يرون أن الحضارة نشأت في مكان واحد ثم انتشرت إلى بقية المناطق بل يؤيدون نظرية التطور المتوازي (Multilinear) على عدة خطوط وفي أماكن وأزمنة مختلفة . وأخيراً فإن لعلم ما قبل التاريخ علاقة بالجغرافية لأن البيئة الجغرافية الحالية تشكل مؤشراً عظيماً إلى البيئة القديمة ، وبالتالي أيضاً ؛ لأن مناهج البحث التاريخي لها أسس متشابهة يرتبط بعضها ببعض . وهناك من يسمي دراسات ما قبل التاريخ بالجغرافية التاريخية بمعناها الشامل ، وتهدف إلى دراسة أثر النشاط الإنساني في الطبيعة في عصور ما قبل التاريخ .



الفصل الخامس

الستراتغرافيا والكرونولوجيا

في علم آثار ما قبل التاريخ

١ - الستراتغرافيا

٢ - الكرونولوجيا

أ - الكرونولوجيا النسبية

ب - الكرونولوجيا المطلقة

الفصل الخامس

الستراتغرافيا والكرونولوجيا في علم آثار ما قبل التاريخ

١ - الستراتغرافيا:

إن الستراتغرافيا (Stratygraphy) هي إحدى أهم أعمدة علم الآثار عامة وعلم ما قبل التاريخ خاصة؛ لأن الكثير من مواقع العصور الحجرية قد سكن لآلاف السنين من قبل مجموعات بشرية مختلفة ترددت على المكان نفسه. وحتى نفهم المقصود من الستراتغرافيا، أو علم الطبقات يمكن أن نتخيل أن جماعة معينة من صيادي العصر الحجري القديم أقامت لزمن طال أم قصر في أحد الكهوف ثم غادرت هذا الكهف تاركة بقاياها من فضلات الطعام والأدوات والمواقد وغير ذلك. وفي الوقت الذي كان فيه هذا الكهف مهجوراً حصلت ترسبات جيولوجية، ناتجة عن تفتت الصخور داخله أو ترسبات قادمة من خارجه غطت مخلفات الجماعة البشرية الأولى. ثم أتى بعد ذلك جماعة ثانية وأقامت في الكهف نفسه ثم هجرته تاركة آثارها فوق أنقاض الأولى، هذه الآثار لا تلبث أن تغطيها طبقة جيولوجية قبل أن تأتي جماعة ثالثة. وهكذا يمكن أن تتكرر العملية حتى يمتلئ الكهف كله أو جزء منه بالطبقات الأثرية والجيولوجية. إن هدف الدراسة الستراتغرافية هو معرفة توضع هذه الطبقات خلال الزمن وعلاقة بعضها ببعض وعلاقتها بغيرها وعدم الخلط بينها. ولكي نصل إلى ذلك يميز الباحثون في المواقع الأثرية مراحل توضع ستراتغرافي كبرى يسمونها سووية (Level) وأخرى صغيرة تسمى طبقة (Layer). السويات تعبر عن تغيرات جذرية وحادة وكبيرة كانهاء حضارة وقدم أخرى جديدة ومعها شعب جديد كلياً، أو نهاية عصر مناخي بارد مثلاً وبداية عصر آخر دافئ أما الطبقات فهي تمثل تحولات ثانوية ضمن السوية الواحدة كالتغير في نمط البناء أو الأدوات، أو الفنون لجماعة أو جماعات تنتمي إلى الإطار الحضاري العام نفسه، أو التقلبات المناخية الطفيفة ضمن العصر

المناخي الواحد. وتضم السوية عادة عدة طبقات، ويمكن أن يتشكل في الموقع الأثري عدة سويات في كل منها عدة طبقات تختلف حسب كثافة الإقامة وطول مدتها ولكي يُحددّ ستراتغرافية الموقع يقوم المنقبون بالكشف عن طبقاته، وإزاحتها بشكل منهجي، وعلى مستويات أفقية، بدءاً من الأعلى حتى الأدنى وصولاً إلى الأرض البكر. وهذه العملية هي التي تمكن من تحديد سويات الموقع وطبقاته المتراكمة سواء أكانت أثرية أم جيولوجية. ولا بد للمنقب من أن يراقب بدقة شديدة كل تحول يطرأ على التربة والبقايا الجيولوجية والأثرية أثناء تنفيذ التنقيب كالتغيير في لون هذه التربة وشكلها وطبيعة ترسبها واتجاهها ونوعية المواد الأثرية فيها، سواء كانت أدوات حجرية أم بقايا فخارية أم عظمية أم أبنية حتى يتمكن من معرفة التوضعات ولحظ تتابعها. وتعطى الطبقات والسويات أرقاماً، وحروفاً حسب نظام مصطلح عليه، وترقم المستويات الأثرية منها من الأعلى إلى الأسفل أي من الأحدث إلى الأقدم بينما ترقيم المستويات الجيولوجية، يكون بالعكس أي من الأدنى والأقدم، إلى الأعلى والأحدث. وتساعد الدراسة الستراتغرافية على تحديد فترات الانقطاع والفراغ الحضاري الذي يحصل عندما يهجر المكان من سكانه لأي سبب كان، وعلى إجراء الدراسات المقارنة، بين المواقع المنتشرة على مساحة جغرافية كبيرة أو صغيرة لمعرفة علاقة بعضها ببعض نشوءاً أو تطوراً، وهذا ما يسمى بالستراتغرافيا المقارنة (Comparative Stratygraphy) التي تعد الآن من أهم أركان البحث الأثري التاريخي، والتي أغنت معلوماتنا كثيراً وأوصلتنا إلى تصورات شاملة ومتكاملة عن الواقع الحضاري العام لإنسان ما قبل التاريخ.

٢ - الكرونولوجيا:

أما الكرونولوجيا (Chronology) أو علم التأريخ، فهي ترمي إلى تحديد الزمن أو الأزمنة التي تشكلت فيها مختلف السويات والطبقات الأثرية أو الجيولوجية. وهي في الواقع العمود الفقري للبحث التاريخي لأنها تعرفنا إلى تتابع الشعوب على مدى العصور وتمكننا من صنع السلم الزمني لتاريخ الإنسان منذ بدايته. وهي تعتمد على وسائل ومناهج ميدانية ومخبرية بعضها يعطي تواريخ نسبية

فضفاضة بينما يقدم بعضها الآخر أرقاماً مطلقة ودقيقة، نستطيع على ضوءها استيعاب زمن الحوادث والظواهر المدروسة. لأننا من دون إدراك هذا الزمن لا يمكن أن نفهم التاريخ والحضارة وأصلها وتطورها وتغييرها خلال العصور. وهذه مهمة تصبح أكثر تعقيداً عندما تتعلق بعصور ما قبل التاريخ، إذ تغيب الوثائق الكتابية؛ وهي - غالباً - لا تخبرنا بأسماء الشعوب والملوك وسنوات حكمهم وبالحوادث المهمة. لذلك فإننا نستعين بعدة علوم، كالأثار، والجيولوجيا والفيزياء والكيمياء من أجل الوصول إلى تحديد عمر الظواهر أو المواقع المعنية. ويجب ألا نستغرب إذا رأينا حيزاً من الخطأ قد يصل إلى آلاف السنين لأن الزمن الطويل الذي استمرت فيه عصور ما قبل التاريخ، يجعل مثل هذا الهامش من عدم الدقة غير ذي أهمية ومسموحاً به ولا يؤثر في الإطار العام للتابع التاريخي للشعوب والحضارات.

ويجب أن نشير إلى أن الظواهر الحضارية الكبرى نفسها أو الصغرى في عصور ما قبل التاريخ قد حصلت في مناطق مختلفة وبأزمنة متفاوتة جداً. فالنار عرفت في إفريقية منذ مليون سنة وفي أوروبا وآسيا منذ نصف مليون سنة بينما مورست الزراعة في الشرق الأوسط في الألف التاسع ق. م ولكنها لم تصل إلى شمال أوروبا إلا في الألف الثالث ق. م. وهكذا فإن تاريخ حدوث ظاهرة ما في مكان معين لا يمكن تعميمه بسهولة على منطقة أخرى ولا بد من دراسة كل منطقة بعينها من أجل الوصول إلى كرونولوجيا محلية تساعد على إيجاد كرونولوجيا عامة، توضع فيها حضارات عصور ما قبل التاريخ في سلمها الزمني الصحيح وهذا ما يعمل به الآن عدد كبير من المختصين في كل المجالات مستفيدين من آخر إنجازات العلم الحديث.

أ. الكرونولوجيا النسبية:

كما أوردنا سابقاً فإن التاريخ هو جوهر البحث الأثري - التاريخي، ويستخدم المختصون لتحديد الزمن، طرائق مختلفة بعضها يعطي تواريخ نسبية أي يبين الأطوار الكرونولوجي العام، إذ يتبين فيه الأقدم من الأحداث ويتضح تتابع الظواهر أو تعاصرها دون إعطاء أرقام أو تواريخ دقيقة وهذه طرائق التاريخ النسبي

(Relative Chronology). ويمكن تطبيقها، أحياناً، في الحقل مباشرة من خلال الملاحظة والدراسة الميدانية. ولكنها تحتاج، في أغلب الأحوال، إلى أعمال مخبرية إضافية تجري على العينات والنماذج المأخوذة من الموقع أو السوية الأثرية المراد تحديد عمرها. وأهم هذه الطرائق النسبية هي الطريقة الأثرية، التي تحدد انتماء الآثار المكتشفة بالاعتماد على نماذج هذه الآثار ومادتها وأشكالها. لأن الأدوات الحجرية دليل على العصر الحجري والبرونزية على البرونزي والحديدية تؤرخ على عصر الحديد. كما أنه ضمن إطار العصر الواحد هناك أنماط معينة من المخلفات الأثرية لها دلالة تاريخية، لأنها استخدمت في زمن محدد فالفأس اليدوي يدل على الباليوليت الأدنى، والأدوات الميكروليثية الهندسية تؤرخ على الميزوليت بينما تنسب رؤوس النبال إلى العصر النيوليتي وهكذا. وكذلك يستدل على الزمن من دراسة شكل التوضع الستراتغرافي والجيولوجي في الموقع لأن الطبقات الأدنى تكون عادة أقدم من الأعلى، إلا في حالة اختلاط الترسبات والطبقات. ويمكن تحديد العمر التقريبي للآثار اعتماداً على الطبقة الجيولوجية التي تكون فيها، فالآثار التي تأتي من الطبقات الأحدث جيولوجياً تكون هي الأحدث أيضاً والعكس صحيح. وتمثل الجيولوجيا الرباعية، أي الجيومورفولوجيا قيمة كبرى في التأريخ النسبي لأن الأسرة النهرية والشواطئ البحرية التي تشكلت في الزمن الرابع تضم العديد من الأدوات الحجرية والمواد الأخرى التي تكون معاصرة زمنياً للسريز أو للشواطئ الذي تحتوي عليها ضمن طبقاته. وكما مر معنا فإن المصاطب والشواطئ الأبعد عن الماء والأكثر ارتفاعاً هي الأقدم، بينما تلك الأقرب إلى الماء والأقل ارتفاعاً تكون أحدث عهداً. كما أن التلال الأثرية، التي نشأت بفعل التراكم الطبيعي للقرى الأولى، لا تتجاوز عادة الألف العاشر ق. م وهو زمن بداية الاستقرار ونشوء المستوطنات الزراعية. ويمكن الحصول على التأريخ النسبي من دراسة المستحاثات النباتية والحيوانية، لأن لكل عصر بيئته الخاصة فالفيل ووحيد القرن ودب المغائر حيوانات عاشت في العصر الحجري القديم والماعز والغنم والبقر عاشت في العصر الحجري الحديث بينما نجد الحصان في عصر البرونز. كما أن أشجار اللوز والزعرور أقدم من التين والزيتون والكرمة والنخيل التي لم تظهر قبل العصر الحجري

النحاسي . علماً أن العديد من النباتات والحيوانات استمرت في معظم العصور وفي بيئات مختلفة لذلك يجب الحذر والاعتماد على الأنواع الأكثر تأثراً بالمناخ كالحشرات والقوارض أو الزواحف الصغيرة جداً والأعشاب والزهور التي تتبدل فور اختلاف المناخ . كما يجب مقارنة العديد من الطرائق في سبيل الوصول إلى نتيجة مضمونة .

بـ. الكرونولوجيا المطلقة:

تعتمد على تطبيق طرائق تعطي أرقاماً محددة بالسنوات ولكن لا يمكن استخدامها في كل المواقع وإنما في الأماكن التي يوجد فيها نماذج تصلح لأن تكون مادة للتأريخ المطلق (Absolute Chronology) وهذه الطرائق لا تنفذ إلا في المخابر وعلى يد مختصين بالفيزياء والكيمياء لذلك تسمى بالطرائق الفيزيائية - الكيميائية . ويقتصر دور الأثري فيها على أخذ العينات بشكل علمي وصحيح وتقديمها لهؤلاء المختصين ويتركز البحث الآن عليها وهي تخضع لتطوير مستمر وقد أدت إلى نتائج مهمة ودقيقة . وهذه الطرائق على الرغم من اختلافها في التطبيق لكن مبدأها متشابه أساسه معرفة كمية المواد المشعة المتبقية ، في الصخور البركانية والعينات المستحاثية . لأن هذه المواد تتحلل بنسبة ثابتة حسب الزمن ومن تحديد ما تبقى منها يمكن معرفة الزمن الذي انقضى على بداية تحللها . وتعدّ طريقة الفحم المشع C_{14} أو الكربون ١٤ إحدى أهم طرائق التأريخ المطلق وأوسعها انتشاراً وقد طبقت منذ الخمسينات على يد العالم الأمريكي لبيي (W.F. Libby) وأعطت نتائج ثورية في علم التأريخ الأثري . وهي تعتمد على قياس نسبة الفحم المشع ، المتبقي في المواد العضوية كالأخشاب والحبوب والعظام ؛ وهي غالباً ما يعثر عليها في المواقع الأثرية . لأنه توجد في كل الأجسام الحية ، من إنسان أو حيوان أو نبات ، نسبة واحدة من الفحم المشع C_{14} والفحم العادي C_{12} ومنذ لحظة موت هذا الجسم الحي يبدأ الفحم المشع بالتناقص والتحول إلى فحم عادي ، وذلك وفق مدة زمنية محددة ، وبانقضاءها تنتهي كل كمية الفحم المشع . ومن قياس النسبة المتبقية من هذا الفحم يمكن تحديد الزمن الذي مر على موت الجسم الحي . وبالتالي معرفة عمر السوية الأثرية التي أخذت منها العينة . وقد

أظهرت التجارب أنه خلال مرور الـ ٥٧٣٠ سنة الأولى على موت أي جسم حي يفقد هذا الجسم نصف مقدار المواد المشعة الموجودة فيه التي تتحول إلى مواد غير مشعة. ومع مرور الـ ٥٧٣٠ سنة الأخرى تتحلل أيضاً نصف الكمية المتبقية، أي ربع الكمية الأصلية وهكذا حتى تتحلل كل الإشعاعات من الجسم الميت. ولا تصلح هذه الطريقة للمواقع التي يزيد عمرها على ٥٠ - ٦٠ ألف سنة لأنه بمرور هذا الزمن تكون قد انتهت كل المواد المشعة وتصبح العينة غير صالحة للتأريخ. ومع ذلك فإنها تطول قسماً هاماً من مواقع عصور ما قبل التاريخ، وهي تعطي أدق النتائج في مواقع العصر الحجري الوسيط والحديث، ذات البقايا العضوية الكثيرة التي لا يزيد عمرها على ١٢ ألف سنة ق.م. ولهذه الطريقة هامش من الخطأ يعادل ١٢٠ سنة لكل ألف سنة و ٢٧٠٠ سنة لكل ٣٠ ألف سنة. أي أن الموقع الأثري الذي يؤرخ على ٣٠ ألف سنة يمكن أن يكون عمره الحقيقي أقل أو أكثر من هذا الرقم بـ ٢٧٠٠ سنة، وهكذا كلما تناقص عمر الموقع المدروس كانت نسبة الخطأ أقل، فالموقع المؤرخ على ١٠٠٠ سنة تصبح نسبة الزيادة أو النقصان هي ١٢٠ سنة فقط. وقد كان لطريقة الفحم المشع أثر كبير في تصحيح الكثير من التواريخ السابقة المتعلقة بعصور ما قبل التاريخ مثل بداية العصر الحجري الحديث التي اتضح أنها في المشرق الأوسط تعود إلى الألف الثامن ق.م وليس السادس كما كان يظن.

وخضعت طريقة الفحم المشع لتطوير مستمر وأصبحت اعتماداً على الوزن الذري للفحم تطول مواقع يصل عمرها إلى ٧٠ ألف سنة كما أنها تطبق الآن إلى جانب الطريقة الشجرية (Dendrochronology) وصولاً إلى التواريخ المعيرة (Calibrated dates) إذ تبين أن السنة الحقيقية الزمنية (Calendar Year) هي في الواقع أطول من سنة الفحم المشع وهذا ما أدى إلى دفع تواريخ عديدة طالت العصر الحجري الحديث بخاصة حوالي ألفي / ٢٠٠٠ / سنة.

وهناك طرائق فيزيائية كيميائية أخرى منها اليورانيوم - ثوريوم (Uranium/Thorium) وهي تقوم على مبدأ حساب الكمية المتبقية من اليورانيوم المشع

U234 الذي يتحلل إلى ثوريوم عادي Th230 حسب زمن ثابت أيضاً. ولكن ببطء أكبر من تحلل الفحم المشع، لذلك فهي تصلح لمواقع أثرية أقدم يتراوح عمرها بين ٧٠ - ٧٠٠ ألف سنة ق.م، وهي تكمل بذلك طريقة الفحم المشع. وأما طريقة البوتاس - آرغون (Potassium / Argon) فهي تعتمد على قياس كمية البوتاس المشع K 40 الذي يتحلل إلى آرغون غير مشع A40 ولكن خلال زمن طويل جداً، لذلك فهي تطول المواقع التي يزيد عمرها على الـ ٧٠٠ ألف سنة ويصل حتى ٥ - ٦ مليون سنة. وهكذا نلاحظ أن هذه الطرائق الثلاث تكمل بعضها بعضاً وتغطي مجتمعة مرحلة طويلة جداً تشمل كل عصور ما قبل التاريخ.

كما يطور الباحثون طرقاً جديدة أخرى وكثيرة نذكر منها طريقة التآلق الحراري (Thermoluminescence) التي تصلح على العينات المحروقة التي تعرضت لدرجة حرارة عالية، كالفخار مثلاً. وتعتمد على مبدأ قياس كمية المواد المشعة المشكلة في هذه العينة منذ لحظة احتراقها، وهناك الطريقة المغناطيسية القديمة (Palaeo-magnetism) التي تدرس تغيير الشمال المغناطيسي على مدى الزمن وتؤرخ مواقع تصل إلى ٥ ملايين سنة. إن الباحثين كثيراً ما يجمعون أكثر من طريقة في تأريخ الموقع الأثري بهدف الحصول على نتائج أكيدة ومضمونة فالكربون المشع يستخدم بالتعاون مع الطرائق النسبية أو مع الطريقة الشجرية (Dendro-Chronology) التي تقوم على أساس حساب عدد الدوائر التي تشكلت في جذوع الأشجار خلال الزمن. وغالباً ما تدقق الطريقة المغناطيسية والبوتاس - آرغون بعضها ببعض. وتلقى وسائل التأريخ الحديثة استجابة كبيرة وتطبق بتصاعد مستمر في كل مناطق العالم رغم كلفتها العالية وحاجتها إلى تقنيات متطورة جداً. وفي قطرنا نستخدم طريقة الفحم المشع على نطاق واسع في تأريخ مواقع العصر الحجري الوسيط والحديث خاصة، واليورانيوم - ثوريوم، والطريقة الحرارية في تأريخ مواقع الباليوليت الأدنى والأوسط وقد تم الحصول على نتائج دقيقة ومشجعة.

ومن الطرائق الحديثة في التأريخ طريقة الانشطار النووي (Trace de Fission) التي تعتمد على قياس إنشطار اليورانيوم 238، في الصخور الاندفاعية وهي طريقة تتكامل مع طريقة البوتاسيوم أرجون.

وهناك طريقة الرنين المغناطيسي الإلكتروني RSE Resonance de Spine Electronique، وهي تقوم على مبدأ الطريقة الحرارية نفسه، ولكن تطبيقاتها تواجه مشاكل معقدة. ولا ننسى طريقة مرازمة الأسيد الأميني (Racemisation des Acides Aminés) وتعتمد على تحديد توجيه الأسيد الأميني الذي يكون يساري الاتجاه الضوئي أثناء الحياة ثم يصبح، بالتدرج، يميني الاتجاه الضوئي بعد الموت. وعلى الرغم من الآمال التي عُلقت على هذه الطريقة فقد اتضح أنها ليست دقيقة لأن عملية المرازمة Racemisation يمكن أن تتأثر أيضاً بالحرارة وبالمياه والبكتريا وغيرها. كما تطبق طريقة L'hydratation de L'obsidienne، تمييه الأوسيديان لأن الصخور الأوتسيديانية، والتي استخدمت في تصنيع الأدوات الحجرية أيضاً، تشكل عندما تتعرض للمياه، طبقة تزداد سماكتها مع مرور الزمن. ويمكن أن يصل مدى هذه الطريقة حتى / ١ / مليون سنة. وفي السنوات الأخيرة بدأت في الصين استخدام طريقة جديدة القابلية المغناطيسية (La Susceptibilite Magnetique) التي تعتمد على قياس المغناطيسية في الترسبات الطمي /Loess/ ويمكن أن يصل مدى هذه الطريقة إلى ٥, ٣ مليون سنة.

الباب الثالث

**مجتمعات الصيد والالتقاط في العصر الحجري القديم
(الباليوليت)**

الفصل الأول: حضارات الباليوليت الأدنى

الفصل الثاني: حضارات الباليوليت الأوسط، النياندرتاليون

الفصل الثالث: حضارات الإنسان العاقل في الباليوليت الأعلى

الفصل الأول

حضارات الباليوليت الأدنى

- ١ - الأدوات الحجرية الأولى وحضارة الدوفاي
- ٢ - الحضارة الآشولية
- ٣ - الأدوات العظمية والخشبية
- ٤ - البناء
- ٥ - الحياة الاقتصادية والاجتماعية
- ٦ - المجتمعات الانتقالية من الهومو هابيتس إلى النياندرتال

الفصل الأول

حضارات الباليوليت الأدنى

مر معنا أن فرنسا كانت السبّاقة في مجال دراسات عصور ما قبل التاريخ؛ إذ أتت منها الاكتشافات الأولى ولذلك استخدمت أسماء المواقع الفرنسية الرئيسية التي اكتشفت في مقاطعة الدردون، للإشارة إلى حضارات هذه العصور وإلى التقسيمات الفرعية المختلفة لها. كما صارت الصفات الحضارية لهذه المواقع والتسلسل الطبقي والزمني فيها أساساً للمقارنة مع نظائرها في بقية أجزاء العالم. وعلى الرغم من أن النموذج الفرنسي صادف النجاح لمدة تزيد على قرن من الزمن إلا أن الدراسات الحديثة أثبتت أن حضارات إنسان ما قبل التاريخ في العالم لم تكن متشابهة ولا متجانسة إلى الحد الذي كان يظن سابقاً، بل اختلفت في مناطق عديدة وبلغت في الخصوصية والتنوع حداً مدهشاً جعل من المتعذر الاستمرار في التطبيق الميكانيكي للتقسيمات الفرنسية دون توضيح الميزات المحلية لكل منطقة وخصائصها. ولكننا في هذا الكتاب نستخدم التسميات الفرنسية من أجل الحفاظ على وحدة اللغة العلمية والتواصل مع بقية الباحثين، ثم لتسهيل المقارنة والربط بين المناطق، لأن هذه التسميات منتشرة بشكل واسع بين الأوساط العلمية في كل الأرجاء ومتعارف عليها من الجميع. إلا أننا نؤكد أن ذلك لا يعني، بأي حال من الأحوال، كون فرنسا أصل هذه الحضارات ومنشأها، بل على العكس فقد دلت الدراسات على أن إنسان الباليوليت عاش زمناً طويلاً في إفريقيا وآسيا قبل أن ينتقل إلى القارة الأوروبية، وما استخدام المصطلحات الفرنسية إلا لأن الاكتشافات وأعمال التنقيب الأولى أتت من هناك. علماً أننا نسعى، قدر الإمكان، إلى تعميم مصطلحات محلية أكثر موضوعية وسلامة تنبع من خصوصية كل منطقة وميزاتها المستقلة، التي بدأت تتوضح منذ عصر الباليوليت الأدنى. هذا العصر الذي يمثل المرحلة الأولى والأقدم في تاريخ الإنسان الذي بدأ مع تصنيع الأداة الحجرية الأولى

في الزمن الرابع، قبل حوالي ٢,٥ مليون سنة وانتهى في حدود /٢٠٠ / ألف سنة ق.م. وقد ظن سابقاً أن أول الأدوات الحجرية تعود إلى الزمن الثالث ولكن اتضح أن تلك الأدوات المزعومة ما هي إلا من صنع الطبيعة، وطرقاتها (Eolithes). بينما الأدوات التي عثر عليها في حوض نهر أومو في إثيوبيا، هي التي صنعها الإنسان بشكل أكيد وقد كانت عبارة عن حصى صغيرة من حجر الكوارس مطروقة من جوانبها، من أجل تأمين حد قاطع لها لاستخدامها عند الحاجة. وقد وجدت، هذه الحصى ضمن التشكلات الجيولوجية الرباعية للنهر لكنها لا تنتمي إلى موقع واحد بل كانت منتشرة في عدة مناطق وبشكل منعزل، اقتصر أحياناً على عدة أدوات فقط مما يحول دون إعطائها صفة مميزة أو اسماً محدداً. ثم اختلفت الصورة فيما بعد حيث نشأت مواقع السكن الأولي التي أتت منها مواد متنوعة، وبخاصة الأدوات الحجرية، ذات التصنيع المنظم، والتجمع الكثيف مما يخولنا بالتحدث عن حضارات محددة وواضحة المعالم.

١ - الأدوات الحجرية الأولى وحضارة الدوفاي

إن الأدوات الحجرية من أهم الدلائل التي نستطيع من خلالها تتبع التطور التقني وأحياناً الاجتماعي والاقتصادي، لإنسان الباليوليت. إن أقدم أدوات حجرية اكتشفت حديثاً أتت من مواقع كادا غونا (Kada Gona) وكادا حادار (Kada Hadar) وهي تؤرخ بين ٢,٦ - ٢,٥ مليون سنة وهي عبارة عن حصى مكيفة (Pebble Tools) وفؤوس ذات وجهين أو وجه واحد وشظايا مختلفة بلغ عددها حوالي الألف / ١٠٠٠ /. وهناك مواقع أعطت فؤوساً يدوية قدر عمرها بين ٣,٢ - ٢ مليون سنة. بعضها مواقع وجدت فيها كل بقايا عمليات تصنيع الأدوات بدءاً من إحضار النوى وحتى إنجاز الأداة المطلوبة وهذه كلها مواقع سبقت مرحلة الدوفاي. وتُعدُّ منطقة الدوفاي (Olduvai) في شمال تانزانيا في إفريقيا، إحدى أهم المناطق التي توافرت فيها دلائل التطور التقني، والفيزيولوجي، للإنسان الأول. وهذه المنطقة مضيق جغرافي طوله ٥٠ كم وعرضه ١٠٠ م فقط. في نقاط مختلفة منه تقوم مجموعة مواقع شهيرة عرفت منذ مطلع القرن الحالي واستمر التنقيب فيها طويلاً على يد الباحث الإنكليزي لويس ليكي

(L. Leakey) وزوجته ماري ليكي حيث تم تحديد خمس سويات سُميت أسرة (Beds) تُمثل تطوراً مستمراً لحضارات الباليوليت الأدنى وهي بدءاً من الأقدم :

- السرير الأول (Beds I) وتبلغ سماكة طبقاته الجيولوجية - الأثرية ٤٠ متراً معظم ترسباته رماد بركاني وبازلت . وضمن هذا السرير ميزت أربع طبقات أثرية ضمت الأدوات الحجرية التي نسبت ، فيما بعد ، لما نسميه الآن حضارة الدوفاي (Olduvian Culture) وهي حصى حجرية بازلتية ، مطروقة من جانب واحد من أجل تحضير حدها العامل ، تسمى قواطع (Chopper) ، أو من جانبيين وعندها تكون أكثر فاعلية وتطوراً ونسُميها الأدوات القاطعة (Chopping Tool) . (الشكل ٩ ، الشكل ١١ ، ٢) لقد عثر في هذا السرير أيضاً على نوعين من البشر ، الأول يمثل الأوسترالوبيثك وقد أسماه المنقب ، الإنسان الزنجي (Zinjanthropus) والثاني أكثر تطوراً أطلق عليه الهوموهايل وهو الذي صنع الأدوات الحجرية الأولى في الدوفاي أي القواطع والأدوات القاطعة . وقد أرخ هذا السرير بطريقة البوتاس آرغون على حوالي ١,٩ مليون سنة خلت .

- السرير الثاني : (Bed II) وتبلغ سماكته من ٢٠ - ٣٠ م وتوضع الجغرافية مختلفة ذات أصل بركاني أو نهري أو بحري . القسم الأدنى منه يؤرخ على ١,٧ مليون سنة وفيه عثر على القواطع والأدوات القاطعة المنسوبة للهوموهايل بينما في قسمه الآن نلاحظ عملية انتقال شائعة ومعقدة ، أصبحت فيها هذه الأدوات أكثر انتظاماً وتطورت نحو القؤوس اليدوية (الشكل ١٠) التي ترافقت في هذا القسم في السرير الثاني مع بقايا إنسان الهوموواركتوس المؤرخ هنا على ١,٣ مليون سنة خلت ، وهو أكثر تطوراً من الهوموهايل الذي وجدت عظامه في السرير الأول . ونحن نعني في هذا المكان السرير الأول والنصف الأدنى من السرير الثاني ، لأن ما تبقى من أسرة الدوفاي ينسب إلى الحضارة الآشولية اللاحقة ويعد الهوموهايل صانع حضارة الدوفاي ، وهي الأولى في عصور ما قبل التاريخ . لقد عاش هذا النوع على شكل جماعات بشرية صغيرة العدد ، اعتمدت على الصيد (Hunting) والالتقاط

(Gathering) من الطبيعة التي كانت غنية بالحيوانات المتنوعة ، كالفيل ووحيد القرن والدب والغزال والحمار الوحشي وبالثمار والنباتات البرية الأخرى . لكن الدليل الأهم على المستوى المتطور له هو الأدوات الحجرية التي حضرها بوعي وتخطيط مسبق ليستخدمها في وظائف محدودة في ذهنه سلفاً . ونحن لا نعلم فيما إذا كان الهوموهايل قد عرف البناء ، لكن التجمع الكثيف للأحجار الكبيرة منتظمة التوزيع ، والأدوات المصنعة وبقياء عظام الحيوانات التي اصطادها ووجدت ضمن مساحة محددة ، يجعلنا نخمن أنه أقام المعسكرات ونظمها كأن بنى جدراناً واقية للريح ومصابط جلوس أو غير ذلك . إن نمط الدوفاي يمثل المرحلة الأولى والأقدم في تطور الحضارة البشرية ، وقد عثر على مواقع أثرية تنسب لهذا النمط في العديد من مناطق أفريقية خاصة ، حيث استمرت هذه الحضارة حوالي مليون سنة قبل أن تصل إلى مفترق طرق وتعيش تحولاً تقنياً مهماً أو انتقالاً أنثروبولوجياً إلى نوع جديد من البشر هو الهوموهاركتوس الذي تابعت بعض جماعته طريق مجتمعات الدوفاي وبقيت تعتمد على القواطع والأدوات القاطعة . بينما ابتكرت جماعات أخرى أدوات جديدة أكثر تطوراً ننسبها إلى ما نسميه بالحضارة الآشولية .

٢ - الحضارة الآشولية:

مع ظهور الهوموهاركتوس منذ حوالي ١, ٥ مليون سنة حققت البشرية خطوة تطويرية ثانية نجد أفضل تعبير عنها في الأدوات والأسلحة الحجرية . وتطورت آنذاك القواطع والأدوات القاطعة بعد أن شملها التصنيع بالكامل وأصبحت أكثر فاعلية ولها حدان عاملان ورأس حاد وقبضة مستديرة ، نطلق عليها الفؤوس اليدوية ، ونسمي عصرها بالحضارة الآشولية (Acheulian Culture) نسبة إلى الموقع الفرنسي الذي وجدت فيه هذه الفؤوس لأول مرة . وقد رأينا كيف أن أول ظهور للفؤوس اليدوي أتى من إفريقية ، لكن هذه الأداة بقيت منتشرة ومسيطر على عصر الهوموهاركتوس كله ؛ إذ مرت بمراحل تطويرية عديدة . إن الفؤوس اليدوية الأولى هي أداة بسيطة بدائية التصنيع

حواها متعرجة ، وتغطي القشرة قسمها الأكبر ، وتسمى الفؤوس الأفيلية^(١) نسبة إلى موقع أبفيل في حوض نهر السوم بفرنسا ، حيث وجدت لأول مرة . فقد ظهرت هذه الفؤوس في شرق إفريقية منذ حوالي ١,٣ مليون سنة ثم انتقلت إلى شمالها قبل حوالي مليون سنة ق. م كما دلت على ذلك مواقع عين حنش في الجزائر وسيدي عبد الرحمن في المغرب . ومنذ ما يقارب ٩٠٠ ألف سنة وصل الآشوليون ومعهم الفؤوس اليدوية إلى جنوب غرب آسيا والشرق الأوسط كما أكدت مواقع ست مرخو في سورية والعبيدية في فلسطين ، وجب جنين في لبنان ، وأبو هابيل في الأردن . وقبل حوالي ٨٠٠ ألف سنة وصل هؤلاء إلى أبفيل وسان أشيل في فرنسا . ومنذ ٥٠٠ ألف سنة ق. م كانت الحضارة الآشولية قد انتشرت على مساحة واسعة في القارات الثلاث وامتدت من شمال أوربا إلى جنوب إفريقية وشرقها ومن سواحل الأطلسي غرباً حتى الهند شرقاً . بينما سادت في بقية المناطق من العالم جماعات بشرية أخرى لم تعرف الفؤوس اليدوية بل تابعت صنع أدواتها حسب تقاليد العصر السابق ؛ أي وفق نمط حضارة الدوفاي . وسيطر الآشوليون على هذه المنطقة الواسعة حتى ظهور إنسان النياندرتال أي خلال زمن زاد على المليون سنة ، وتميز بعدة مراحل تطورية ، تعبر عنها بشكل جيد صناعة الفؤوس التي يحدد الباحثون على أساسها ما يسمى بالآشولي الأدنى أي الأقدم ذي الفؤوس البدائية ، يليه الآشولي الأوسط الذي صنعت مجتمعاته فؤوساً أكثر تطوراً ثم الآشولي الأعلى فالآشولي الأخير ، إذ بلغت هذه الفؤوس اليدوية غاية الدقة (الشكل : ١١ ، ١) . وقد قدمت سورية أحد الأمثلة وأكملها وأندرها على تطور الآشولي في العالم ، ولكننا سنتناول ذلك فيما بعد .

إن الفارق الوحيد بين جماعات الباليوليت الأدنى الآشولية أو غير الآشولية هو وجود الفؤوس اليدوية أو عدم وجودها . فكل الجماعات التي عرفت الفؤوس نسميها

(١) استخدم سابقاً اصطلاح الحضارة الأفيلية أو الشيلية ، نسبة إلى موقع شيل (Chelles) في حوض نهر السوم أيضاً لوصف المجتمعات التي صنعت الفؤوس اليدوية الأولى ولكن كثيرين يجعلون الأفييلي والشيلي يمثلان المرحلة الأولى من الحضارة الآشولية المسماة بالآشولي القديم .

أشولية . علماً بأنه ، وكما أشرنا ، عاشت في هذا العصر جماعات أخرى لم تستخدم هذا الفأس ، وإنما استمرت في صنع القاطع والأدوات القاطعة ، وانتشرت على مناطق واسعة في جنوب أوروبا وجنوب شرق آسيا والصين خاصة ، حيث يقوم موقع شوكوتين (Choukoutien) قرب بكين الذي لم يعثر فيه - على الرغم من آلاف الأدوات الحجرية - على فأس يدوي واحد . لأن سكانه الأوائل صنعوا قواطع صغيرة ، من حجر الكوارتز واستطاعوا بواسطتها قتل حيوانات كبيرة كالفيل والدب والغزال وتقطيعها . مما يجعلنا نستنتج أن الهوموهاركتوس الذي وجدت عظامه بكثرة في هذا الموقع الصيني الهام كان قادراً على تأمين حاجاته بأدوات مختلفة حضرها وفق تقاليده وذوقه ، دون أن يكون بمعزل عن تأثيرات البيئة المحيطة وبخاصة طبيعة الأحجار الموجودة فيها . وتنسب الجماعات التي لم تصنع الفؤوس في هذا العصر إلى الحضارتين الكلاكتونية والتياسية (Tayacian) اللتين اشتهرتا ، في أوروبا خاصة ، بالأدوات المصنعة من الرقائق الغليظة والأدوات المستننة والمفروضة .

كشفت في السنوات الأخيرة عن موقع متميز للبالوليت الأدنى في منطقة دمانيزي /Dmanisi/ على ضفة نهر كورا في جورجيا حيث وجدت فيه صناعات حجرية بلا فؤوس وبقايا جمجمة إنسان الهوموهاركتوس قدر عمرها بين ١ - ١,٥ مليون سنة خلت .

٣ - الأدوات العظمية والخشبية:

مرزمن اعتقد فيه بعض الباحثين أن الإنسان الأول استخدم الأدوات العظمية بأشكالها الطبيعية أو بعد تصنيعها ، قبل أن يعرف الأدوات الحجرية . وتحدث هؤلاء عن عصر العظم (Osteodontokeratic) الذي سبق ، حسب رأيهم ، عصر الحجر ، معتمدين في ذلك الحكم على الكميات الكبيرة من العظام التي وجدت في بعض مواقع جنوب إفريقيا من قبل ريموت دارت R. Dart وحملت آثار تكسر ، يبدو كأنه مقصود بواسطة الإنسان ؛ لكن هذا الرأي لم يلق القبول لأنه محفوف بالمخاطر العلمية وغير مؤكد . فشواهد التصنيع على العظم لا تظهر واضحة مثل الحجر ، وليس من الممكن

التحقق فيما إذا كانت مثل هذه الشواهد من صنع الإنسان أم الطبيعية . كما أن التحاليل المخبرية لا تؤدي غالباً إلى نتيجة مُوثَّقة ، لذلك يفضل الأخذ بالرأي القائل : إن الإنسان استخدم ، ومنذ الباليوليت الأدنى ، إلى جانب الأدوات الحجرية ، الأدوات العظمية والخشبية التي اندثرت بسبب ضعف مقاومتها ولم يصل إلينا منها إلا اليسير جداً . فقد عثر على أدوات صنعت بشكل واضح أكثرها أهمية هو الرمح الخشبي الطويل (٢, ٤٠ م) ذو الرأس الدقيق ، والمحروق ، طلباً للقساوة ، حيث وجد مغروساً بين أكتاف فيل كبير وقع في بحيرة أثناء مطاردته من قبل مجموعة من صيادي هذا العصر ، في منطقة لرنجن (Lehringen) في ألمانيا . وكذلك وجد في تورالبا (Torralba) بإسبانيا كميات من العصي والرماح الخشبية ذات الرؤوس المحروقة ، والحادة . وانتشرت هذه الأسلحة الخشبية بين البقايا العظمية لآلاف الفيلة التي اصطيدت وقطعت في هذا المكان . وقد أتت أدوات خشبية وعظمية مشابهة من كرابينا (Krapina) في يوغسلافيا وكلاكتون في إنكلترا ، وكالامبوفالس (Kalambo Falls) في زامبيا ، ويبرود واللطامنة في سورية . إن ذلك كله يدل على أن إنسان الباليوليت الأدنى قد أتقن تصنيع العظم والخشب ، إلى جانب الحجر . وسواء استخدم الأدوات العظمية في الصيد أم حفر الأرض أم تحريك النار أم غير ذلك فإنها أدت دوراً مفيداً في حياته ، لكن هذا الدور بقي ثانوياً بالمقارنة مع الأدوات الحجرية ، وعلمنا أن نتظر حلول عصر الباليوليت الأعلى وظهور الإنسان العاقل الذي ترك لنا تراثاً مهماً من الآثار العظمية والخشبية كما سنرى .

٤ - البناء :

أقامت الكائنات الأولى ، التي تطور منها الإنسان في العراء ، ولم تعرف - ابتداءً - العيش في المغائر والملاجئ الطبيعية . وهي إن فعلت ذلك فعلى الأرجح بدافع غريزي دون أن يكون لديها إحساس بقيمتها وما توفره من مزيات في الدفء والأمن ، ولم تشعر بارتباطها بهذه المغائر أو برغبة في الرجوع إليها بعد مغادرتها . لكن الإنسان الأول الهومو هابيل سرعان ما أدرك أهمية الكهوف الطبيعية فسكن في مداخلها المنيرة دون أن يجرؤ على الدخول إلى أعماقها المظلمة . ثم قام بتكييفها حسب حاجته كتقسيمها

بجدران من الأغصان والجلود وإنشاء المواقد والمصاطب فيها . أما الخطوة الحضارية الأبرز فقد أتت عندما استطاع الإنسان التحرر من الاعتماد الكلي على الملاجئ الطبيعية وأقام بنفسه بيوته الخاصة التي مكنته من العيش في العديد من المناطق الجغرافية المكشوفة . وكانت بيوت الإنسان في الباليوليت الأدنى عبارة عن أكواخ بسيطة من الأحجار والأغصان والجلود ، وبنيت في المناطق الغنية التي أمنت الصيد واللقط كوديان الأنهار وشواطئ البحيرات والبحار . وقد عثرنا في عدة مواقع على الأحجار الكبيرة التي دعمت بها هذه الأكواخ بينما اندثرت بقية مواد البناء الأخرى وبخاصة الجلود . إن الدلائل الأقدم للدعائم الحجرية التي وضعت على شكل دائري منظم قطرها حوالي ٤ م أتت من الدوفاي من السرير الأول وهي تؤرخ على ٨ ، ١ مليون سنة . وفي غاربا (Garba IV) في منطقة ملكتا كونتوري (Melka Kunture) ، الغنية بمواقع عصور ما قبل التاريخ في اثيوبيا عثر على مجموعة من الأحجار الكبيرة المنقولة إلى الموقع وهي تدل على كوخ يعود عمره إلى ٤ ، ١ مليون سنة . كما قدمت سورية أحد دلائل البناء الأول البكر ، حيث كشف في حوض العاصي في اللطامنة ، عن كوخ أقيم على ضفة النهر ، منذ حوالي نصف مليون سنة دلت عليه الأحجار الكبيرة التي نقلت من مقلع قريب ، من أجل تدعيم الجدران ، حيث وجدت منتشرة بانتظام على أرضية سكن المعسكر . وفي مكان آخر إلى الجنوب من اللطامنة ، هو القرماشي ، وجدت آثار بناء مشابهة لكنه أحدث زمناً ويعود إلى حوالي ٣٠٠ ألف سنة ق . م ؛ وفي أوروبا ظهرت أبنية أخرى لإنسان الباليوليت الأدنى ؛ أقدمها مغارة أراغو في منطقة توتافيل (Tautavel, Arago) في جبال البيرنيه الفرنسية التي وجدت داخلها أحجار رصفت بها أرضية المغارة التي سكنت بين ٤٠٠ - ٥٠٠ ألف سنة ق . م . ومن تيرا أماتا (Terra Amata) قرب نيس في جنوب فرنسا اكتشفت أكواخ بيضوية الأشكال تراوحت أبعادها بين ٨ - ١٥ × ٤ - ٦ م ، كانت محفورة في الأرض بأعماق بسيطة لكل منها مدخل واحد وعلى جوانبه آثار أعمدة خشبية قطرها يبلغ ٧ سم ، كانت تسند الجدران وفي منتصفه عامود مركزي كان يحمل السقف . وفي العديد من الأكواخ وجدت مواقع وفضلات وآثار متنوعة كثيرة تركها السكان الأوائل ، وتراكم بعضها فوق بعض منذ حوالي ٣٠٠ ألف سنة مشكلة

٢١ طبقة أثرية، حافظت فيها هذه الأكواخ على الشكل نفسه؛ مما يدل على أنها تعود لجماعات بشرية واحدة. وفي لازاريه (Lazaret) قرب نيس أيضاً لدينا نمت آخر من البناء أقيم منذ حوالي ١٥٠ ألف سنة داخل هذه المغارة الكبيرة (٤٠ × ٢٠ م). وهو كوخ بلغت أبعاده ١٠ × ٣,٥ م ودلت عليه الأحجار والأعمدة الخشبية الموزعة بانتظام وبقايا موقدين صغيرين ومصاطب، وكثير من الأدوات الحجرية والعظام البشرية لنوع من الهومو أركتوس المتطور.

٥ - الحياة الاجتماعية والاقتصادية:

عاش إنسان هذا العصر على خيرات الطبيعة الحرة التي وفرتها له المنطقة التي سكنها. في القسم الأول من الباليوليت الأدنى تغذى الهومو هابيل بالنباتات البرية من الثمار أو الخضار التي جمعها ببساطة مستخدماً يديه فقط ودون الحاجة إلى أدوات خاصة. فكانت وجبته نباتية في معظمها مع أنه تغذى باللحوم بالقدر الذي سمحت به الظروف (Omnivorous) واصطاد حيوانات متنوعة وكبيرة كالفيل ووحيد القرن، إذ عثر على عظامها بكثرة في مواقعه. ونعتقد بأنه نظم اصطيادها بشكل فردي وجماعي وهاجمها بالأسلحة والأدوات وبالأحجار العادية أيضاً. ولكن لا توجد لدينا معلومات أكثر عن الحياة الاجتماعية لهذا الإنسان وتدل المقارنات الأنتوغرافية على أنه عاش كجماعات صغيرة ١٠ - ١٥ فرداً يربطها نظام اجتماعي ولغة تفاهم فيما بينها، وكانت هذه الجماعات سريعة الحركة بحثاً عن الغذاء المناسب.

في القسم الثاني للباليوليت ومع ظهور الهومو أركتوس ازدادت معارفنا عن الواقع الاقتصادي والاجتماعي لإنسان الباليوليت الأدنى، الذي كان صياداً ماهراً صنع أسلحة أكثر قوة وتأثيراً، أهمها الفؤوس اليدوية، واستطاع قتل حيوانات قوية كدب المغائر وحمار الوحش والحصان البري والفيل، بعضها كان يعيش على شكل قطعان بشرية منظمة ومسلحة بشكل جيد وباستخدام أساليب قنص متنوعة كالمطاردة أو نصب الأفخاخ أو المحاصرة في المغائر والمستنقعات أو المهاجمة بالأسلحة القاتلة والحرب والحجارة والنار. ولما تطور فن الصيد أصبح اللحم يشكل الوجبة الأساسية

لهذا الإنسان ، الذي أدرك مبكراً القيمة الغذائية العالمية للحوم فأكلها بعد أن عرف تحضيرها بشكل جيد عن طريق الشي أو الطبخ (Carnivorous) . ونستطيع أن نخمن بأن ازدياد مردود اللحوم من خلال الصيد الجماعي قد قاد إلى توزيع الغنائم وإلى ظهور قيم جديدة حول المشاركة في الغذاء وتقاسم الخيرات كل حسب حاجته وفي جو اجتماعي هادئ . وبذلك أصبحت السمات الإنسانية أكثر وضوحاً ، بعد أن انفصل الإنسان عن العالم الحيواني بسلوكه ومفاهيمه . ولكن حتى الآن ما زال البشر قلة تعيش على شكل جماعات صغيرة ومنظمة مع أننا لا نستطيع الدخول في تفاصيل هذا التنظيم لعدم وجود الأدلة ومهما يكن ؛ علينا أن نتصور تلك الجماعات وقد اتضحت لديها مفاهيم العمل والأسرة وتربية الأطفال وما إلى ذلك من العلاقات الإنسانية المتقدمة . ونحن لا نستطيع أن نحكم على مدى التطور الذي وصلت إليه لغة هؤلاء الناس لكننا نخمن أنهم تفاهموا بشكل واضح ، فقد يكون الهوموهايبل استخدم الحركات والأصوات من أجل إيصال ما يريد ، إلا أن الهوموواركتوس كان يملك لغة صوتية كافية للتخاطب ونقل معارفه . وتجري الآن دراسات على الجماجم العائدة لهذه الإنسان لتحديد مدى تطور مراكز النطق في المخ مع أننا لا نعتقد بأن مثل هذه الدراسات سوف توصلنا بسرعة إلى نتائج مفيدة . وفي كل الأحوال تُعدُّ الأدوات والأسلحة الحجرية ذات الأشكال المتعددة والمنظمة ، الدليل المادي الأبرز على وجود لغة تعلم بوساطتها الأبناء من الآباء فكرة تصنيع الأدوات وطريقتها وتناقلها الناس من جيل إلى آخر . ونحن لا نستطيع قول الكثير حول الحياة الروحية لإنسان الباليوليت الأدنى ، فهناك شكوك بأن الهوموواركتوس قد أكل اللحم البشري بسبب العثور على جماجم أطفال وعظامهم ، وعليها آثار عض وقرض وكسر مقصود في موقع شوكوتين الصيني . ولكن من الصعب أن نقبل بحكم من هذا النوع . إننا نتساءل ما مُسَوِّغ أكل لحم الإنسان في بيئة غنية بكل مصادر الطعام الحيواني والنباتي . ونحن نعتقد بأن هذا الإنسان ، إن أكل فعلاً لحم أخيه ، فلم يكن ذلك بدوافع غريزية وإرضاء للجوع ، وإنما لاعتبارات دينية واجتماعية ، علماً بأن بعض القبائل البدائية

الحالية تمارس عادة أكل نخاع القادة فيها، بعد موتهم، كسباً لجرأتهم وذكائهم، ولا نستبعد أن يكون الهومواركتوس قد طبق عادات من هذا النوع. لأننا نرفض أن نلصق بهذا الكائن، الذي قطع شوطاً طويلاً على طريق الأنسنة والتطور، تهمة أكل بعضه بعضاً.

مواقع جديدة من عصر الباليوليت الأدنى:

أتت في السنوات الأخيرة مكتشفات لمواقع من عصر الباليوليت الأدنى من مختلف الأرجاء من بين أهمها تلك التي عرفت من أوربة وبخاصة من فرنسا وإسبانيا. فيما يخص المواقع الباكورة جداً والتي يقدرها الباحثون بعصر هو أقدم من حوالي ٥٠٠,٠٠٠ سنة خلت وأهمها مواقع شيلاك / Chilhac / وفالونييه (Vallonnet) وويمرو (Wimereax) في فرنسا، وكاتالونيا (Catalogne) في إسبانيا. بينما هناك مواقع أخرى موثوق بها أكثر من الأعلى من جهة تاريخها الذي يقع بين حوالي ٧٠٠,٠٠٠ - ٤٠٠,٠٠٠ سنة خلت أتت من إيطاليا وإسبانيا وفرنسا ويوغسلافيا وتشكسلوفاكيا قبل موقع La Pineta في إيطاليا وسوليياك Soleilhac في فرنسا والكولاديرو في إسبانيا (El Culadero). وهي كلها تتغير من أبكر المواقع الأوربية التي لا تلبث أن تصبح أكثر ومعطياتها أغنى، في العصر اللاحق، أي مع بداية الآشولي منذ حوالي ٤٠٠,٠٠٠ سنة خلت، ومن أهم مواقع هذا العصر مغارة باغليتشسي (Paglicei) وتوران بتر (Torre in Pietra) في إيطاليا وأريدوس (Aridos) في إسبانيا. وهي مواقع مهدت لاستيطان أكثر كافة وأهمية في العصور التالية، التي توضحت فيها الشخصية الحضارية لإنسان الباليوليت الأدنى.

٦ - المجتمعات الانتقالية من الهومواركتوس إلى النيامرتال

في العصر الانتقالي الواقع بين حوالي ٢٥٠ - ٢٠٠ ألف سنة ق.م حصلت تغييرات مهمة وكبيرة في مجتمعات ما قبل التاريخ، نلمس آثار هذه التغييرات على الصعيدين الأثروبولوجي والحضاري. إذ اختلفت البيئة الفيزيولوجية للهومواركتوس

وظهر نوع جديد يسمى الهومو أركتوس المتطور أو إنسان ما قبل النياندرتال (Pre-Neanderthal) الذي عثر على بعض هياكله في غرب أوروبا خاصة ، وهو يحمل الكثير من صفات الإنسان العاقل والقليل من الصفات النياندرتالية ، مما دفع إلى الاعتقاد بأن هذا النياندرتال كان فرعاً منقرضاً لم يتطور نحو الإنسان العاقل الذي اعتبر متطوراً عن الهومو أركتوس مباشرة . وقد سبق أن أشرنا إلى هذه النقطة في صفحات سابقة .

وتمايزت في هذا العصر الجماعات البشرية بشكل أوضح من السابق وأصبح لكل منها صفاته المحلية الواضحة . ولم تعد الحضارة الأشولية هي المسيطرة بل ظهرت أنماط حضارية عديدة ومختلفة تعايشت في نفس الزمان والمكان نفسها وأطلق عليها الباحثون تسميات مختلفة . في أوروبا ، الميكوكي نسبة إلى الموقع الفرنسي ميكوك (Micoque) الذي اشتهر بالفؤوس الرائعة (الشكل : ١٢ ، ٢) وفي إفريقية الستلنبوشي وفاورسميث نسبة إلى مواقع في جنوب إفريقية (Stellenbosch / Fauresmith) وفي الشرق الأوسط تسمى البيرودية ، من يبرود في سورية أو العامودية ، من مغارة العامود في فلسطين .

لقد تم التعرف إلى هذا التحول في تصنيع الأدوات الحجرية في العديد من المواقع الإفريقية والأوروبية والآسيوية التي ضمت سويات أثرية توضع بعضها فوق بعض ، وجدت في أدناها الأدوات العائدة للبالوليت الأدنى وبخاصة الفؤوس اليدوية وفي أعلاها أدوات للبالوليت الأوسط ، أي اللفلوازية - المسترية . ولكن بين السويات الدنيا والعليا توضع سويات انتقالية وسطى وفيها الأدوات المميزة لهذا العصر حيث ظهرت الفؤوس اليدوية الصغيرة والأدوات اللفلوازية جنباً إلى جنب . علماً أن درجة التغيرات لم تكن واحدة في كل المناطق ففي وسط آسيا وشرقها حصل الانتقال ، بشكل هادئ ودون انعطافات حاسمة . وفي إفريقية وأوروبا اقتضرت التحولات على تصنيع الأدوات الحجرية أما في الشرق الأوسط فلقد كان الانتقال عميقاً وشاملاً في كل الميادين ، بشكل اختلطت فيه الصورة الحضارية إلى حد يجعلنا نفقد أحياناً رأس الخيط في محاولتنا لتتبع الثقافات القديمة والجديدة ، المتراجعة منها والمتقدمة . كما تختفي عنا

أحياناً الأسباب المؤدية إلى تمايز هذه الحضارات والدوافع التي قادت إلى موت بعضها وازدهار بعضها الآخر .

أما في الشرق الأوسط فقد ظهرت حضارات انتقالية متنوعة أهمها حضارة ما قبل الأورينياس / Pre-Anrignacian / والهملي / Hammalian / والبيرودي وهناك سحنات أخرى كالآشولي الأخير ، انبثقت كلها من خلفية الآشولي الأعلى لكنها تراجعت في نهاية هذا العصر الانتقالي فاسحة المجال أمام الحضارة الفلوازية - الموستيرية وحدها .

وكما كان الحال في السابق تبقى الأدوات الحجرية دليلنا المهم في تمييز حضارات هذا العصر الانتقالي أيضاً . لقد تناقصت الآن الفؤوس اليدوية ، أدوات الآشولين الرئيسية ، ووصلت هذه الفؤوس إلى شوطها الأخير ، كما تراجعت القواطع والأدوات القاطعة كلها والأدوات الثقيلة التي انتشرت في العصر السابق كلها . واستخدمت المجموعات البشرية الجديدة الأدوات الصغيرة كالقواطع والسكاكين والفؤوس . كما ظهرت تقنية جديدة نسميها الفلوازية تعتمد على التحضير الجيد للنواة الحجرية قبل استخراج الأدوات منها ، ولكن هذه التقنية ازدهرت في العصر اللاحق . إن تطور تصنيع الأدوات الحجرية وتنوعها في العصر الانتقالي يدل على أن الإنسان أصبح يملك صورة واضحة عما يريد أن يصنع ، وما الخامات التي سيستخدمها وكيف ؟ وماذا ستكون وظيفة الأداة المصنعة ؟ . كما أصبحت أدواته غاية في الدقة واستعملت في تحضيرها المطرقة الخشبية والعظمية الناعمة ، بدل المطرقة الحجرية القاسية التي استخدمت في العصر السابق ، حتى إن أسلحة معينة وصلت إلى درجة عالية وبذل فيها جهد منظم يتجاوز الحاجة الفعلية لها ، ويرى بعض الباحثين أن مثل هذه الأسلحة الجميلة تجسد حساً مرهفاً وتدل على إدراك واسع للقيم الجمالية والحلول الهندسية التي تجلت في الآلاف من الأدوات ذات الأشكال المثلثة ، المغزلية ، المربعة ، المستطيلة ، اللوزية ، والقلبية ، وهي تمثل الفن الأول لإنسان الباليوليت (الشكل : ١٢) . وقد ازداد في هذا العصر استخدام الأدوات الخشبية والعظمية ، وإن كنا ما زلنا نعثر على القليل منها ،

ومعظمها حراب لصيد الحيوانات التي عاشت في ذلك الوقت كفرس الماء والفيل والثور البري ، والتي تأكد لدينا أن الإنسان قد ارتدى جلودها كما دلت طبقات هذه الجلود في أكواخ موقع تيرا أماتا الفرنسي .

وعلى الرغم من أن الناس ما زالوا متنقلين خلف الالتقاط والصيد فقد بدأ ينمو لديهم حس أكبر بالارتباط بأرضهم التي أدركوا قيمتها وطبيعة خيراتها وأحسنوا الاستفادة منها ، ونجد العديد من المواقع التي ترددت فيها الجماعات البشرية لأجيال طويلة وتركت فيها بقايا أثرية وصلت سماكتها إلى عشرات الأمتار مما يدل على أنها أصبحت مراكز سكن دائمة لم تهجر إلا لظروف قاهرة ثم ما لبث الإنسان أن عاد إليها عندما سنحت له الفرصة الأولى . لذلك أصبح بمقدورنا أن نتحدث باطمئنان ، عن حضارات وتقاليد محلية تميز كل جماعة من الأخرى (Cultural Provinces) . هذه الجماعات ، برغم تعاصرها وتجاورها حافظت كل منها على شخصيتها ، وفي إطارها الخاص ، فسكان الجبال أصبحوا يختلفون عن سكان السواحل الذين اختلفوا أيضاً عن سكان البوادي . هذا التمايز المحلي قاد أيضاً إلى تمايز آخر على مستوى أوسع ، فازدادت الحضارات الأوربية استقلالاً عن الإفريقية التي ابتعدت هي الأخرى عن حضارات الشرق الأوسط .

الفصل الثاني

حضارات الباليوليت الأوسط، النياندرتاليون

- ١ - النياندرتاليون وأدواتهم الحجرية
 - ٢ - النياندرتاليون في غرب أوروبا
 - ٣ - النياندرتاليون في المشرق العربي القديم
 - ٤ - الواقع الاقتصادي والاجتماعي للإنسان النياندرتال
 - ٥ - معتقدات النياندرتال
- أ - دفن الموتى
- ب - عبادة الدب

الفصل الثاني

حضارات الباليوليت الأوسط «النياندرتاليون»

١ - النياندرتاليون وأدواتهم الحجرية:

بعد انتهاء العصر الانتقالي بدأ عصر آخر هو الباليوليت الأوسط الواقع بين ٢٠٠ - ٤٠ ألف سنة ق.م، أي في النصف الأول من عصر فيرم الجليدي الأخير، ومعه حضارة جديدة وإنسان جديد هو النياندرتال. إن معلوماتنا عن هذا العصر، أكثر وضوحاً وأوفر بسبب اقترابه الزمني، مما ساعد على حفظ بقايا أوضح من السابق، وبخاصة الهياكل العظيمة التي أظهرت أن النياندرتال كان أقرب لنا فيزيولوجياً من سلفه. فقد مد النياندرتال دائرة انتشاره إلى مناطق أوسع في العالم لم يدخلها أحد من قبله، فوصل إلى شمال أوربا وشرق آسيا، وإلى جوار المناطق الاستوائية في إفريقيا. وغاب في هذا العصر التنوع الكبير الذي شهده العالم سابقاً، والذي وصل أحياناً إلى حد التضارب وفساد التشابه والانسجام متمثلاً بما نسميه «الحضارة المoustيرية» (Mousterian Culture) التي أخذت اسمها من الموقع الفرنسي لومستير (Le Moustier)، الذي نقب فيه منذ القرن التاسع عشر؛ وعُدَّ «الموقع المفتاح» لحضارات هذه المرحلة في العالم. وحقق النياندرتال تقدماً على الصُّعد كلها؛ الاقتصادية والاجتماعية مستفيداً من تراث سابقه ومضيفاً إنجازات أخرى، فكان أكثر تجهيزاً وتطوراً. وكما فعلنا حتى الآن، فإن الأدوات الحجرية تبقى الشاهد الأكبر على حضارة هذا الإنسان الذي طور تقنية جديدة تعود جذورها إلى العصر الانتقالي السابق، لكنها بلغت أوجها الآن، هي التقنية اللفلوازية، وهي تؤكد ترسيخ تقاليد وخبرات تصنيع الحجر؛ إذ أصبح الإنسان يختار نوى حجرية، نوعها واضح في ذهنه سلفاً، ولم يلتقطها بشكل عشوائي لا على التعيين؛ بل انتقى أحجاراً رقيقة، دائرية، أو بيضوية الشكل يسميها المختصون النوى السلحفائية (Tortoise Core) لأنها تشبه السلحفاة. وحضر هذه النواة بالطرق المنظم على وجهيها واستخرج من الوجه الأفضل قطعة حجرية واحدة، مختلفة الأشكال،

حولها فيما بعد ، وعن طريق التشذيب إلى الأداة المنشودة (الشكل : ١٣) . وكثيراً ما تختلط التقنية اللفلوازية بتقنية أخرى طبقها النياندرتاليون أيضاً هي المستيرية ، التي تقوم على المبدأ نفسه ، ولكن بدل استخراج قطعة حجرية واحدة من النواة المحضرة استخراج المستيريون عدة قطع حتى استهلكوا النواة كلها . وكانوا بذلك أكثر اقتصاداً في الاستفادة من خام الصوان الثمين والمطلوب في ذلك العصر . وهناك فارق آخر وكبير بين اللفلوازي والمستيري لأن الأول هو طريقة في تصنيع الأدوات الحجرية وليس حضارة ترتبط بزمن محدد وبشر محددين . هذه الطريقة استخدمتها جماعات مختلفة ، وبينها المستيريون ، وظهرت منذ زمن طويل سبق الباليوليت الأوسط كما أشرنا . وأما الثاني ، المستيري فهو فضلاً عن تقنيته في صنع الأدوات الحجرية ، لكنه يرتبط بجماعة محددة وزمن محدد . إذ ابتكر هذه الطريقة النياندرتاليون وفي الباليوليت الأوسط فقط . وهكذا فالمستيري حضارة (Culture) وتقنية بينما اللفلوازي تقنية (Technique) تصنيع أكثر من كونه حضارة باليوليتية . لكننا نلاحظ في العديد من المناطق وبخاصة في الشرق الأوسط تلازماً بين اللفلوازي والمستيري اللذين يتعايشان جنباً إلى جنب ؛ وفي إطار الجماعات البشرية نفسها ويشكلان حضارة واحدة نسميها اللفلوازي - المستيري (Levallois - Mousterian) . وسواء طبق النياندرتال التقنية اللفلوازية أم المستيرية فقد قادته هذه الطريقة في تحضير خامات الصوان إلى إستخراج أدوات حجرية جديدة . وقد غابت الآن الأدوات الثقيلة وتراجعت ثم اختفت الفؤوس اليدوية التي سادت في العصر السابق وظهرت أدوات مصنعة من الرقائق الصغيرة ، أهمها المقاحف متعددة الأشكال والأنواع (Side Scrapers) . هذه المقاحف كانت أسلحة النياندرتال الأساسية ، مثل الفؤوس بالنسبة للهومو هكتوس ، وقد استخدمت في وظائف عديدة كتقطيع اللحم وتحضير الجلود والخضار والثمار وغير ذلك . إلى جانب المقاحف اشتهر النياندرتاليون بتصنيع رؤوس الحراب القصيرة (Points) ذات الشكل المثلاثي غالباً ، وهي أداة فعالة في الصيد ، إذ ثبتوا هذه الحراب على قبضات من العظم أو الخشب . وهاجموا فيها بمهارة فرائسهم ، وكانوا بذلك أول من صنع الأدوات المركبة من الحجر والعظم والخشب ؛ ومن ثم انتشرت بسرعة كبيرة في العصر اللاحق .

٢ - النياندرتال في غرب أوروبا:

تُعدُّ فرنسا أفضل منطقة مدروسة بشكل أعطى الصورة الأكمل عن هذا العصر. وعلى الرغم من أن النياندرتال قد أقام حضارة متشابهة في المناطق كلها التي سكنها لكن التدقيق القريب في مختلف المناطق أظهر بأن لهذه الحضارة أشكالاً مختلفة بين منطقة وأخرى، على انتماء هذه الأشكال بشكل واضح إلى الحضارة المoustيرية. والدليل الأعظم على هذا القول أتى من فرنسا حين حدد فرانسوا بوردا أربع حضارات فرعية عاشت متزامنة أو متتالية على امتداد الباليوليت الأوسط لكنها اختلفت في أدواتها الحجرية وهي:

— الحضارة المoustيرية ذات التقاليد الأشولية (Le Mousterien de Tradition Acheuléenne) ومن اسمها نعرف أنها متأثرة بالحضارة الأشولية السابقة التي اشتهرت بتصنيع الفؤوس اليدوية. وفي المرحلة الأولى من عصر النياندرتال بقيت هذه الفؤوس تشكل نسبة عظيمة تتراوح بين ١٠ - ٤٠٪ من مجموع الأدوات. وصنعت إلى جانبها، وينسب متساوية تقريباً، المقاحف. وينسب أقل صنعت أدوات أخرى مختلفة بعضها يعود إلى جماعات استخدمت التقنية اللفلوازية بينما لم تطبق جماعات ثانية هذه التقنية الجديدة.

— الحضارة المoustيرية النموذجية (Le Moustérien Typique) وهي تمثل الصفات المoustيرية الخالصة كما ظهرت في الموقع النموذجي لومستير، تندر فيها جداً الفؤوس اليدوية. بينما تزداد نسبة المقاحف التي تتراوح بين ٢٥ - ٥٠٪ من مجموع الأدوات، كما تكثر الحراب والسكاكين. وهي أيضاً مثل سابقتها عرفت في بعض مواقعها التقنية اللفلوازية بينما غابت هذه التقنية في مواقع أخرى.

— الحضارة المoustيرية من نوع كينا أو فراسي: (Le Mousterien Type Quina) ولا يختلف هذان النوعان بعضهما عن بعض كثيراً إلا في التقنية اللفلوازية التي لم تستخدمها مجتمعات كينا عكس فراسي (La Ferrassie). وأبرز ما يميز هذه الثقافة غياب الفؤوس اليدوية والأدوات المسننة، والنسبة العالية للمقاحف التي تصل إلى ٨٠٪.

أحياناً ولا تقل عن ٥٠٪ في كل الأحوال . وهي مقاحف من نوع خاص ؛ شذبت حوافها العاملة بوساطة طرقات عالية ومتدرجة في ارتفاعاتها على شكل حراشف السمك وهو تشذيب يميز هذا العصر فقط . ويطلق عليه تشذيب من نوع كينا .

٢- الحضارة المoustيرية المستنة : (Le Mousterien Denticulés) وسميت كذلك بسبب ارتفاع نسبة الأدوات ذات الحد العامل المصنع على شكل أسنان المنشار التي تتراوح بين ٣٠ - ٥٠٪ من مجموع الأدوات ، بينما تقل المقاحف كثيراً لتصل بين ٥ - ٢٥٪ في أحسن الحالات . ولا وجود هنا إطلاقاً للفؤوس اليدوية ولا للحراش القصيرة المثلثة كما أن ممثلي هذه الحضارة لم يستخدموا ، إلا نادراً ، طريقة التصنيع اللفلوازي .

٣ - النياندرتاليون في المشرق العربي القديم:

حاول كثير من الباحثين تطبيق النموذج الفرنسي على حضارات النياندرتال في المشرق العربي القديم ، ولكنهم لم يحققوا النجاح الكامل . لأن الدراسات المحلية أثبتت وجود خصوصية حضارية مستقلة قد تلتقي في خطوطها العامة مع المoustيري الأوربي لكنها تحتفظ لنفسها بالكثير من الصفات الخاصة وعلى رأسها الاستخدام المتلازم والكثيف للتقنيتين اللفلوازية والمoustيرية إلى درجة يصبح معها اللفلوازي هنا حضارة وليس تقنية تصنيع كما كان الحال في أوربا . وهكذا مقابل الحضارات المoustيرية المتعددة التي عرفتها أوربا سادت المشرق العربي القديم حضارة واحدة «الفلوازية المoustيرية المشرقية» (Levantine Levollloiso - Mousterian) . ووجدت آثارها بغزارة في المناطق كلها ؛ في فلسطين وسورية ولبنان والعراق ، حيث اكتشفت ، مواقع ثم نُقِبَ فيها فأصبح لها شهرة عالمية مثل بىرود وبثر الهمل وجرف العجلة والدوارة في سورية ، وشانيدار في العراق والمسلوخة في لبنان ومغائر جبال الكرمل في فلسطين . أعطى بعض هذه المواقع فضلاً عن البقايا الأثرية الغنية ، هياكل عظمية نياندرتالية هي الأولى من نوعها ، تحمل صفات فيزيولوجية متطورة تشبه الإنسان العاقل كالقامة الطويلة والدماغ الكبير والذقن البارزة ، مما دفع بعض الباحثين إلى الاعتقاد بأن صانعي حضارة الباليوليت الأوسط المشرقي هم الذين تطوروا نحو الإنسان العاقل الجدد المباشر لنا ، في

حين انقرض النياندرتال الأوروبي فيزيولوجياً وحضارياً ولأسباب ما زالت غائبة عنا .
لقد صارت مغارة الطابون في جبال الكرميل بفلسطين الموقع الأفضل الذي أظهر تطور
تصنيع الأدوات الحجرية على امتداد هذا العصر ، ونقبت هذه المغارة منذ الثلاثينات ثم
أعيد تنقيبها في السبعينات وحددت فيها عدة سويات أثرية ، الدنيا منها تعود إلى
الباليوليت الأدنى تعلوها ثلاث سويات من الباليوليت الأوسط سميت (B.C.) أقدمها
السوية (D) ، وفيها وجدت الأدوات اللفلوازية المستيرية الطويلة التي ضمت المقاحف
والحراب ؛ وهي تمثل المرحلة الأولى والأقدم في أدوات النياندرتال في هذه المنطقة . وفي
السوية التي تليها (C) عثر على الأدوات العريضة والقصيرة ذات الشكل البيضوي ، أما
في السوية العليا والأخيرة والأحدث زمناً (B) فقد ظهرت الأدوات ذات الشكل المثلاثي
والقاعدة العريضة . وقد عُدَّت هذه الأنواع الثلاثة المتتالية من الأدوات الحجرية ،
النموذج العام الذي تطورت حسب الأدوات الحجرية في المنطقة في هذا العصر . ولكن
التنقيبات الحديثة دلت على أن هذا النموذج لا ينطبق بدقة على بلدان المنطقة كلها ، كما
أن النموذج الفرنسي لا ينطبق على كل أوربا ، لأن الأدوات ذات الشكل البيضوي
العريض العائد للمرحلة الوسطى في الطابون قد ظهرت على السواحل السورية —
البنانية بوقت أبكر من فلسطين وهي تمثل في هذه السواحل صناعات الباليوليت
الأوسط الأولى . كما أنه في أكثر المواقع النياندرتالية السورية لا يوجد تتابع المراحل
الثلاث التي وجدت في الطابون ، ففي قسم منها تتطور الأدوات النياندرتالية على
مرحلتين فقط هما (C.B) المعروفتين من الطابون ، وفي أماكن أخرى لا تظهر إلا مرحلة
واحدة هي (D) . وأما المواقع السورية المشابهة للطابون تماماً فهي نادرة ويلاحظ عموماً
بأن المواقع اللبنانية أقرب إلى السورية منها إلى الفلسطينية بينما المواقع الأردنية مثل عين
الدفة شرق البحر الميت وطور صبيحة وطور فرج في جنوب الأردن هي أقرب للمواقع
الفلسطينية . بينما في العراق يختلف الوضع تماماً لأن النياندرتاليين هناك لم يطبقوا
التقنية اللفلوازية المستيرية إطلاقاً بل صنعوا أدواتهم بوساطة تقنيات عادية وغير
متميزة مما يجعلنا نتخيل أن نهر الخابور هو الحد الشرقي الأقصى للحضارات اللفلوازية
المستيرية في الباليوليت الأوسط في المشرق العربي القديم .

واتخذت بحوث السنوات الأخيرة اتجاهاً جديداً في دراسة حضارة النياندرتال وتنوعها، فقد أشار الباحث الفرنسي جاك جوبير (Jacques Jaubert) إلى ضرورة الأخذ بعين الاعتبار حين ندرس المواقع النياندرتالية عدة عوامل، من أبرزها طبيعية المواد الأولية وتوافرها؛ لتصنيع الأدوات الحجرية، وتحول أشكال الأدوات من خلال عمليات إعادة تشذيبها وتكييفها المتتالية، فضلاً عن العوامل البيئية الأخرى التي تؤدي دوراً كبيراً في تشكل السحنات الحضارية المختلفة... وبالرغم من الارتباط الواضح بين حضارة العصر الحجري القديم الأوسط، أي الحضارة الفللوأزية المستيرية وبين إنسان النياندرتال، فقد تبين أن هذه الحضارة ترتبط في الشرق الأوسط بنوع من الإنسان العاقل الباكر كما أشار إلى ذلك السيد برنارد فاندرميرش (B. Vandermeersch) اعتماداً على مكتشفات مغارتي القفزة والسخول في فلسطين، كما ظهرت حالة مشابهة إلى فلسطين في جبل أرهود في المغرب حين عثر على هياكل عظمية ذات صفات ليست نياندرتالية وهي قريبة من الإنسان العاقل بالرغم من أنها من عصر الباليوليت الأوسط.

ومن الإضافات الجديدة لدراسات العصر الحجري القديم الأوسط ما أصبح يسمى «السلاسل العملية» / Les Chaines Operatoires التي تبدأ بمرحلة الحصول على المواد الخام الأولية، ثم نقلها إلى الموقع والبدء بتحضيرها وتصنيعها، مواد نصف خام، لتكون مؤهلة لاستخراج الأنواع المطلوبة من الأدوات كالتصال والشظايا... وصولاً إلى مرحلة تصنيع الأدوات الحجرية بشكلها النهائي مع تثبيتها، أحياناً، إلى قبضات عظمية أو خشبية، باستخدام مواد لاصقة نباتية أو غيرها.

٤ - الواقع الاقتصادي والاجتماعي لإنسان النياندرتال:

كان النياندرتاليون أكثر عدداً من سابقيهم ونحن نجد آثارهم في كل مكان تقريباً، سواء في المناطق الساحلية أم الجبلية والصحراوية. اعتمد هؤلاء في تأمين عيشهم على الصيد والالتقاط فقتلوا الحيوانات الكبيرة والمتوسطة كالماموت ووحيد القرن والثور كما جمعوا الثمار البرية، ومارسوا هذه الأنشطة بكثافة وتنظيم أفضل من السابق بعد أن ازدادت خبرتهم بخيرات بيئتهم على مر الفصول واكتشفوا مناطق جديدة ووسعوا

محيط انتشارهم إلى الشمال والشرق حتى تخوم المناطق الجليدية في سيبيريا وحوض
نهر الدنيبر وجنوب روسيا . وقد استطاعوا التكيف مع مناخ هذه المناطق القارس بفضل
مهارتهم في تحضير الجلود التي نظن أنهم أخاطوها وفصلوها بعناية وارتدوها ليس فقط
دفعاً للبرد وإنما لاعتبارات نفسية وجمالية أيضاً بهدف ستر أجسادهم والظهور بالشكل
الحسن . وبالرغم من أننا لم نثر على الآثار المباشرة لهذه الملابس التي أفناها الزمن ،
لكننا وجدنا الكثير من المقاحف الحجرية والمخازن العظمية ، وهي أدوات جيدة في
تحضير الجلود ، في مواقع المجتمعات النياندرتالية كلها . وقد كان النياندرتال أكثر تمسكاً
وارتباطاً بأرضه ، وأقام فيها مراكز استيطان رئيسية ، معسكرات قاعدة (Base - Camp)
يتبعها العديد من المراكز الثانوية ، أي المعسكرات المؤقتة . وفي معسكرات القاعدة بنى
بيوتاً قوية من الأحجار والعظام والجلود ، وأفضل دليل عليها هو البيت المكتشف في
موقع مولودفا (Molodova I) في حوض نهر الدنيستر في روسيا ، إذ دلت التنقيبات على
أنه سكن على امتداد العصر الحجري القديم حتى بلغت سماكة طبقاته الأثرية ١٢
متراً . في السوية الدنيا والأقدم من الموقع ، المؤرخة على نهاية الباليوليت الأوسط عثر
على بيت شكله بيضوي أبعاده ١٠ × ٧ م ؛ له مدخلان متقابلان الأقسام الدنيا من
جدرانه بنيت من عظام الماموت الكبير ومن الأحجار ، والأقسام العليا من الأغصان
والجلود ، في داخله وجدت بقايا عظمية وأدوات حجرية وفضلات أخرى كما عثر فيه
على آثار خمسة عشر موقداً منتشرة بلا انتظام (الشكل : ١٤) .

وأتقن النياندرتال استخدام النار وإيقادها عند الحاجة وأصبح الموقد جزءاً
أساسياً ومهماً في مسكنه . وعلى الرغم من الإشكالات التي تواجه الباحثين في تحديد
طبيعة مواد الفحم والرماد التي كثيراً ما توجد في المواقع الأثرية ولكنها غير مقرونة مع
حفر أو أبنية موقد واضحة ، على الرغم من ذلك ، لوحظ وجود نوعين من الموقد في
مناطق سكن النياندرتال الأول : جماعية كبيرة في مراكز الإقامة الأساسية التف حولها
الناس ، كلما دعت الحاجة ودارت بقربها الجلسات والسهرات والمناسبات وتبادل فيها
هؤلاء خبراتهم ومعارفهم مما كان له أكبر الأثر في تطور الحضارة والتقاليد الاجتماعية ،

وأما النوع الثاني فهو مواعد صغيرة وجدت خارج معسكرات الإقامة الكبيرة، في محطات توقف مؤقت لشخص أو لمجموعة أشخاص من الصيادين الذين أشعلوا النار لحاجة دفء أو طعام، وذلك أثناء توقفهم واستراحتهم وقبل عودتهم محملين بغنائم الصيد واللفظ إلى قواعدهم الأصلية.

ولم يكن لدينا - حتى الآن - أي دليل قاطع على معرفة الفنون ومع النياندرتال ظهرت الفنون البسيطة الأولى على شكل حزوز متنوعة على الأدوات العظمية ولم يكن لهذه الحزوز من وظيفة إلا إعطاء الأداة شكلاً جميلاً. ونعثر في مواقع هذا الإنسان على العديد من الأحجار النادرة والصدف البحري والنهري المجلوبة من أمكنة بعيدة وربما حملها الناس كأطواق أو حلق أو غير ذلك كما سنرى فيما بعد. وقد وجدت في العديد من المناطق آثار صباغ أحمر أو أسود ونحن لا ندري بالضبط كيف استخدمت هذه الألوان هل دهنوا بها أدواتهم أم أجسامهم أو بيوتهم ولأية دوافع؟ ومن أطرف المكتشفات في هذا المجال ما عثر عليه في موقع ديفجي بابي (Divji babe) في سلوفاكيا حيث وجد عظم فخذ دب صغير عليه أربعة ثقوب تدل على استخدامه مزماراً، وذلك منذ حوالي ٤٥ / ألف سنة خلت. ومهما يكن فمن الواضح أن الألوان الزاهية قد شددت إليها النياندرتالين وتركت عليهم تأثيراً وانطباعاً معيناً. ومن المؤكد أن العلاقات الاجتماعية أصبحت أكثر تنظيماً؛ ومن ثم اتضحت مفاهيم الأسرة وربما العشيرة ولا بد من أن عدد أفراد الجماعات البشرية غدا أكبر؛ مما دعا إلى وجود شخص أو عدة أشخاص يشرفون على إدارة أمور هذه الجماعات التي نظمت حياتها الاقتصادية والاجتماعية بشكل أفضل من السابق.

٥ - معتقدات النياندرتال:

أ. دفن الموتى:

إن حياة الروحية للنياندرتال تبدو كأنها على مستوى أعلى من حياته الاقتصادية؛ لأنه مع قدوم هذا الإنسان ظهرت لأول مرة شعائر ومعتقدات روحية تدل على درجة عالية من التقدم لم يصل إليها أسلافه من قبل. فقد كان النياندرتال

أول من دفن موتاه لذلك عثرنا على الكثير من الهياكل العظمية محفوظة بشكل جيد ، في العديد من المواقع التي يعود اكتشافها إلى مطلع القرن الحالي . ففي الموقع الفرنسي الشهير لافراسي La Ferrassie في جنوب فرنسا كشفت مقبرة كبيرة . ففي قبر مبني بالحجر وجدت جثتا رجل وامرأة وضعتا بشكل مثني لكن رأس الرجل مفتول نحو الغرب ورأس المرأة نحو الشرق وكانت ترافق الجثتين أدوات حجرية هي حرا ب وسكاكين على غاية في الدقة والروعة ، وفي قبر آخر دفن طفلان في حفرة بلا غطاء حجري . وفي منطقة أخرى وجدت مجموعة حفر ؛ في واحدة منها جثة طفل ثني جسده وفُصل رأسه ودفن في قبر مستقل . كما عثر في حفر أخرى على عظام حيوانات كثيرة معظمها يعود إلى البقر ، وكانت ترافقها أدوات عظمية جميلة . وقد فسرت هذه العظام على أنها دلائل الولا ئم الدينية التي أقيمت أثناء شعائر الدفن . وقد وجدت القبور النياندرتالية في الاتحاد السوفيتي وإيطاليا وفي فلسطين أيضاً وبخاصة مغارة الطابون ومغارة الكبارا حيث عثر على هيكل لفتاة يافعة من دون الرأس ، وفي السخول بـجبال الكرمل دفن في قبر جماعي عشرة هياكل بينهم ثلاثة أطفال . وفي مغارة قفزة حدد دفن مقصود ترافقه بقايا عظام حيوانات وهناك موقع الديدرية في سورية الذي سنتحدث عنه لاحقاً . وقد أحاط هذا الإنسان موتاه بعناية لم نكن نتصورها ، ودليلنا على ذلك الرجل البالغ من العمر حوالي الأربعين عاماً والذي عاش منذ طفولته نصف مشلول ودفنه أهله بعد موته في قبر فرشت أرضه بالورود . وعثر على ذلك في موقع شانيدار في شمال العراق . وفي موقع آخر هو تشيك تاش (Teshke - Tash) في جمهورية أوزباكستان وجدت جثة طفل في قبر قليل العمق كانت تحيط بالجثة ستة أزواج من قرون الماعز الجبلي (الشكل : ١٥ ، ٢) . والأمثلة عديدة لا مجال لاستعراضها كلها . وبغض النظر عن التفسيرات المختلفة لهذه القبور لكنها في مجملها تدل على إنسان عميق المشاعر فـكر بالموت مثلما فـكر بالحياة وكان له موقف فلسفي من هذا الموضوع الخطير واعتقد بأن الموت لا ينهي حياة أهله وأبنائه ، فتابع الاعتناء بهم وزودهم بالأدوات ، وربما بالأطعمة والألبسة ، التي ظن أنهم سيحتاجون إليها في العالم الآخر ، بل إنه أقام لهم الاحتفالات والولا ئم

رافضاً القبول بأنهم غادروه إلى الأبد . مع الإشارة إلى اعتراض بعض الباحثين على اعتبار بعض المواقع مثل لا كينا (La quina) ريغوردو (Regourdou) هي عملية دفن مقصود . والكلام نفسه ينطبق على تشيك تاش . .

وقد تأكدت الآن عقيدة أخرى آمن بها النياندرتال وهي أكل اللحم البشري ، بدوافع دينية واجتماعية . فقد عثر في مغارة غوتاري Guattari في مونت سيرسو بإيطاليا (Monte-Circeo) (الشكل : ١٥) ، وفي أورطوس في فرنسا (Hortus) وفي كراينا في يوغسلافيا خاصة (Krapina) على جماجم ، منزوع دماغها ، وعلى العديد من الهياكل العظمية لنساء إما صغيرات في السن وإما كهلات وقد قطعت عظامهن وقرضت بالأسنان وألقيت بقرب الموقد الذي جرت حوله هذه الشعائر الدينية «للولاثم المقدسة» . وسبق أن أشرنا إلى أن مثل هذه المعتقدات وخاصة أكل الدماغ البشري ، ما زالت سائدة عند بعض القبائل البدائية ، الأسترالية الحالية ، التي تعتقد أنها عندما تأكل لحم المتميزين فيها فهي تكتسب صفاتهم وقدراتهم الخارقة (Anthropophagy) . ولا بد من أن النياندرتال قد مارس هذه العقيدة بدوافع مماثلة ؛ إذ لم يكن هناك سبب يجبره على أكل لحم إنسان مثله في بيئة غنية بكل أنواع الغذاء . ثم كيف يمكن أن نتهمه بهذه الوحشية وقد لمسنا رعاية كبيرة لأفراد جنسه حتى المعوقين ؛ أمثال إنسان شانيدار الذي وصل إلى سن الأربعين على الرغم من شلله النصفي . وما كان ليصل إلى هذا السن ، في بيئة صعبة ، لولا وجود من يساعده ويحيطه بكل الحب والرعاية ، وكذلك صنعوا مع القاصرين ، ليتمتعوا بحقهم المقدس بالحياة . وإنني لأجد نفسي متساءلاً ألاست البشرية بحاجة اليوم إلى مواقف إنسانية مشابهة إلى تلك التي اتخذها النياندرتاليون حيال بعضهم بعضاً . ونشير هنا أيضاً إلى الخلافات القائمة بين بعض الباحثين بشأن اعتبار بعض المواقع المعنية نتيجة عوامل طبيعية وليست بشرية مع صعوبة البت في هذا الموضوع ضمن معطياتنا الراهنة وهناك تساؤل وشكوك حول حقيقة أكل اللحم البشري من قبل النياندرتال .

ب. عبادة الدب:

قليل الكثير وكتب الأكثر عن عبادة النياندرتال للدب وغالباً ما شك الباحثون فيما إذا كان هذا الإنسان قدس دب المغائر فعلاً. وسوف نحاول الإجابة هنا عن هذا الجانب بقدر ما لدينا من وثائق أثرية مباشرة ودون الخوض في تحليلات نظرية طويلة قد لا يكون لها أساس واقعي. وقد عثر في عدد من المغائر الجبلية العالية في جبال الألب السويسرية والألمانية على جماجم دبية وعظام أخرى محفوظة في حفر على شكل صناديق حجرية، بعضها ممدد على بلاط حجري بينها جمجمة دب صغير وضعت فوق عظام دب أكبر سناً. وهذه الاكتشافات دفعت إلى الاعتقاد بأن الإنسان قد دفن الدبية في هذه المغائر وبشكل مقصود إرضاء لعقيدة آمن بها تقوم على تقديس هذا الحيوان ولكن رفض آخرون، وعلى رأسهم لوروا غوران، هذا الرأي ورأوا أن تجمع الجماجم والعظام في تلك المغائر، حالة طبيعية بحتة، لأن الدبية قصدت هذه المغائر وعاشت وماتت فيها ونبشت على مر الزمن عظام بعضها بعضاً مما أدى إلى تدرج الجماجم أو تجمع العظام في نقاط معينة تبدو للناظر وكأنها دفن مقصود. وفي كل الأحوال هناك اكتشاف واحد يتفق الباحثون بأنه دليل على تمتع الدب بمكانة خاصة لدى إنسان النياندرتال يمكن أن تكون قد وصلت حد التقديس، إذ عثر في مغارة روغردو (Regourdou) في مقاطعة الدردون بجنوب غرب فرنسا على عشرين جمجمة لدب المغائر مدفونة في حفرة مستطيلة الشكل في قبر من الحجر تغطيه بلاطة حجرية واحدة. وبجانب هذا القبر دفن هيكل عظمي كامل لأحد الدبية وهذا الاكتشاف، بالرغم من اعتراض بعض الباحثين يمكن أن يُعدّ شاهداً على دفن مقصود وواضح للدبية مع الاهتمام الخاص بجماجمها مما يؤكد الظن بأن الدب كان يحتل جزءاً عظيماً في العالم الروحي للنياندرتاليين، ويجب أن لا يشير ذلك استغرابنا الشديد لأن بعض الشعوب البدائية الحالية ما زالت تقدس هذا الحيوان المخيف.

الفصل الثالث

حضارات الإنسان العاقل في الباليوليت الأعلى

- ١ - الميزات العامة لحضارات الإنسان العاقل
- ٢ - الإنسان العاقل في أوروبا
- ٣ - الإنسان العاقل في المشرق العربي القديم
- ٤ - الإنسان العاقل في إفريقية
- ٥ - الإنسان العاقل في العالم الجديد، أمريكا وأستراليا
- ٦ - فنون الإنسان العاقل
- ٧ - مراحل تطور فن الإنسان العاقل
- ٨ - التشابه بين حضارات الباليوليت
- ٩ - الاختلاف بين حضارات الباليوليت

الفصل الثالث

حضارات الإنسان العاقل في الباليوليت الأعلى

١ - الميزات العامة لحضارات الإنسان العاقل:

بين حوالي ٤٠ - ٣٥ ألف سنة ق. م أي في النصف الثاني من عصر فيرم الجليدي دخلت البشرية في عصر جديد يطلق عليه علماء الآثار الباليوليت الأعلى الذي يستمر حتى ١٥ ألف سنة ق. م. وقد مر معنا أنه في مطلع هذا العصر اختفى النياندرتال الأوربي بشكل مفاجئ وظهر نوع بشري جديد يسميه المختصون الإنسان العاقل تأكيداً على صلته المباشرة والقريبة بإنساننا الحالي. ولكن الأمر الذي يبعث على التساؤل، إن لم نقل الاستغراب، هو أن هذا الإنسان لم يزدهر في منطقة ظهوره الأولى في المشرق العربي القديم وفي فلسطين تحديداً. بل هاجر شمالاً إلى أوروبا مدفوعاً بأسباب لا نعلم حقيقتها، وأقام هناك حضارة غنية ورفيعة المستوى، لذلك تبدلت في هذا العصر الأدوار فبعد أن كانت آسيا وإفريقية تشكلان مركز النشاط الإنساني الرئيسي، انتقل هذا الدور إلى أوروبا التي حصلت فيها الإنجازات الكبيرة للإنسان الجديد وفي الميادين كلها.

وقد صنع الإنسان العاقل أسلحة حجرية جديدة محققة على نصال طويلة، طولها أكثر من ضعفي عرضها، واستطاع بفضل إتقانه العالي لتقنيات تصنيع الحجر، استخراج هذه النصال من نوى موشورية الأشكال، وصنع منها، بعد أن شذبتها وجعل لها رأساً حاداً، حراب صيد قوية قذفها بالقوس، وليس باليد كما كان في العصر السابق. وكذلك اختفت الأدوات اللفلوازية - الموسثيرية وحلت مكانها أخرى على رأسها المكاشط وهي أدوات لها حد عامل على ضلعها العرضاني، أي على جبهتها (Endscraper) والأزاميل (Burin) التي تشبه تماماً ما نستخدمه الآن؛ ترافقها السكاكين والمخارز (الشكل: ١٦). كما أتقنت، ولأول مرة، تقنيات تصنيع الأدوات والأسلحة العظمية من قرون الرنة خاصة، بل إن بعض الباجثين يسمون هذا العصر بعصر الرنة

(L'age du Renne) وأصبحت الآثار العظمية، مثل الحجرية سابقاً، من الدلائل الزمنية، والحضارية الكبرى على الجماعات البشرية المختلفة. وصنعت من العظم الرماح والسنانير والخطاطيف ذات الصف الواحد أو الصنفين من الأسنان، السنارة (Harpoon) والإبر والمخارز والأدوات المركبة من العظم والحجر وحصل تخصص أكبر في صيد حيوانات معينة كالرنة في أوروبا والماغز الجبلي في الشرق الأوسط والبقر الوحشي في إفريقيا. وبالمقابل تراجع صيد حيوانات أخرى كانت مرغوبة في السابق كدب المغائر والماموت والحصان البري، بينما أصبحت الثروات المائية السمكية والطيور على أنواعها، تشكل قسماً كبيراً ومهماً في الوجبة الغذائية. كما بدأ تطور نوعي وكمي في مجال البناء فقد أقيمت المساكن الكبيرة ذات الأشكال البيضوية والدائرية، التي رصفت أراضيها بالحجارة وقسمت من داخلها إلى مناطق للسكن والنوم وأخرى لإلقاء الفضلات وثلاثة لتصنيع الأدوات. وزودت بالمواقد الضرورية والمبنية بانتظام. وبلغ بعض هذه البيوت مساحات كبيرة، اتسعت لعدة أسر مما يجعلنا نتكلم على علاقات اجتماعية تخطت الجماعة الأولى (Band) وأصبحت على مستوى «القبيلة» (Tribe) أو ما شابه ذلك. وبالرغم من القدرة العالية على البناء فقد استمر الإنسان العاقل يسكن المغائر والملاجئ التي كيفها حسب ما أراد وأقام فيها المواقد والمصاطب بل دخل مغائر عميقة ومعتمة بعد أن أتقن الاستفادة من النار والضوء. فصنع السرج التي أنارها من دهن الحيوانات وصمغ الأشجار. وتعدُّ الفنون بكل أنواعها كالنحت والحفر والرسم إحدى أكبر إنجازات هذا العصر وهي تدل على حياة روحية وميتولوجية معقدة، عبرت عنه الأشكال والرموز المتنوعة. وقد دفن هذا الإنسان موته بعناية أكبر مما فعل النياندرتال، وفي قبور فردية أو جماعية وبأوضاع مختلفة. ودهن الجثث بالمغرة الحمراء، رمز الدم وتجدد الحياة، وزودها بالأسلحة وأدوات الزينة والطعام واللباس ومارس السحر الذي تدل عليه إشارات غامضة تركها على جدران مغائره، وعرف تقديم الأضاحي نستنتج ذلك من الحيوانات المرجومة بالأحجار دون أن تأكل، وربما عمل بالتجارة وتبادل الخامات الحجرية خاصة. وتدل المزامير العظمية على معرفة

الغناء والرقص والموسيقا . وباختصار فإن الإنسان العاقل أقام ثقافة ذات ارتباط وثيق
بحاجات مادية وروحية هي حاجاتنا اليوم نفسها .

٢ - الإنسان العاقل في أوروبا:

لما درست أوروبا بشكل جيد أصبح معه ممكناً إعادة تصور الواقع الجغرافي
القديم بكل معطياته النباتية والحيوانية ومعرفة التغيرات المناخية التي حصلت في ذلك
العصر ، كما طبقت طريقة التأريخ بالفحم المشع على نطاق واسع مما جعل التقديرات
الزمنية أكثر دقة من السابق ، وساعد على تتبع حضارات الإنسان العاقل ، على
امتداد الباليوليت الأعلى التي ظهرت في فرنسا بشكل أكمل وأغنى منها في أي بلد
آخر لذلك أخذت تسمياتها في المواقع الفرنسية التي تنتشر بغزارة في منطقة الدردون
خاصة ؛ وهي تعطي فكرة واضحة عن غرب أوروبا عامة في ذلك العصر ، حيث
عاشت الحضارات التالية :

- الحضارة الشاتلبيريونية (Chateauperron) وتسمى أحياناً البريغوردية القديمة (Périgord)
أو البريغوردي الأدنى نظراً لتشابه آثار الموقعين وتؤرخ على بداية الباليوليت الأعلى
أي بين ٣٠ - ٣٥ ألف سنة ق . م ، وتدل آثارها على أنها متطورة من الحضارة
الموستيرية الأخيرة . من أبرز أدواتها النموذجية الحربة الشاتلبيريونية وهي مصنعة على
نصله ؛ ظهرها محدّب ومشذب تشذيباً حاداً . (الشكل : ١٧ ، ١) . وترافق هذه
الحربة أدوات حجرية أخرى كثيرة تشبه الأدوات الموستيرية مما يدل على أن هذه
الحضارة قد تطورت محلياً ، كما ظهرت فيها بكثرة الأدوات العظمية وبخاصة المخارز
والحراش . ومع الشاتلبيريونين بدأت فنون الإنسان العاقل على شكل خرز مصنوع من
الأسنان والعظام المثقوبة والصدف وأحجار غريبة تحمل آثار حزوز تزيينية . وتمتاز هذه
الحضارة بالمواقع الكبيرة كما في أرسى سور كور (Arcy-Sur-Cure) في جنوب فرنسا
حيث كشفت العديد من البيوت ذات الأشكال البيضوية ، أساساتها من الأحجار ومن
عظام الماموت وأرضها مطلية بطبقة سميكة من المغرة الحمراء المنقولة من مكان بعيد مما
يؤكد أنها سكنت لمدة طويلة من قبل جماعات شديدة الارتباط بالمكان .

- الحضارة الأورينية (Aurignac) ومعها اكتمل الظهور الحقيقي لحضارات الإنسان العاقل في الباليوليت الأعلى وتؤرخ على ٣٠ - ٢٥ ألف سنة خلت. تدل مواقعها على أنها وصلت إلى فرنسا من الخارج ولم تتطور من حضارات محلية كالشاتلبيرونية أو الموستيرية؛ إذ لم يعثر فيها على آثار تشبه تلك الحضارات. إن الأدوات الحجرية النموذجية للأورينية هي المكشط والمخرز العاليان (Canted) أي اللذان لهما حد عامل سميك (الشكل: ١٦، ١) ومعهما النصلة الأورينية وهي رقيقة، سطحها ضيق مقطوعها الجانبي مائل، ومشذبة على جانبيها تشذيباً مائلاً متدرجاً (الشكل: ١٧، ٣) كما صنع الأورينيون نصالاً ذات فرضات متقابلة، تضيق في وسطها (الشكل: ١٧، ٤) وتؤدي الأدوات العظمية وبخاصة الحراب دوراً كبيراً في هذا العصر وعلى أساس هذه الحراب حددت خمس مراحل تطورية للأورينية تقدمت خلالها الفنون فظهرت لأول مرة أشكال حيوانات مبسطة وخطوط وإشارات رمزية متنوعة. إن الهياكل العظمية البارزة المؤرخة على هذا العصر تدل على أن الإنسان العاقل لم يكن عرقاً واحداً متجانساً في المناطق كلها؛ وإنما اختلفت أنواعه كما تختلف العروق الحالية. فقد نسبت بعض هذه الهياكل للعرق الأبيض (كرومانيون) وبعضها الآخر للعرق الأسود (غريمالدي) أما هياكل شانسلاند فقد جعلت ممثلة للعرق الأصفر.

إن الحضارة الأورينية واسعة الانتشار في آسيا وأوروبا وإن التشابه بين مواقعها الباكورة في سورية (يبرود) ولبنان (كسار عقيل) وفلسطين (مغارة الأميرة) ومواقعها الأحدث في فرنسا يجعلنا نعتقد أن الأورينية قد انتقل من المشرق العربي القديم إلى أوروبا.

- الحضارة الغرافيتية (La Gravette): ظهرت منذ حوالي ٢٥ ألف سنة ق. م واستمرت حتى ٢٢ ألف سنة ق. م. أدواتها النموذجية الحربة الغرافيتية وهي مصنوعة على نصل؛ ظهره مشذب بشكل حاد لكنه مستقيم (وليس محدباً مثل الحربة الشاتلبيرونية) (الشكل: ١٧، ٢). إن الغرافيتي نمط معقد يتداخل في الأورينية وفي البريغوردي ويسمى أحياناً بالبريغوردي الحديث وتشتهر المجتمعات الغرافيتية بفنونها وبخاصة

الدمى المصنعة من العاج والطين التي تمثل المرأة العارية ، أو رمز الخصوبة ويسميتها بعض الباحثين «فينوس العصر الحجري» . أو «الربة الأم» الأولى .

- الحضارة السولوترية (Solutré) : حينما انقطع شمل فرنسا وبعض مناطق غرب أوروبا واستمر بين ٢٢ - ١٨ ألف سنة ق. م ظهر السولوتيري المؤرخ بين ١٨ - ١٥ ألف سنة ق. م ، وهو نمط حضاري قصير الأمد وضيق الانتشار إذ اقتصر على فرنسا وشمال إسبانيا وقد تطور السولوتريون على ثلاث مراحل : دنيا ، ووسطى ، وعليا ، دلت عليها أدواتهم الحجرية وبخاصة الحراب الرائعة على شكل أوراق الغار والصفصاف ، ولها تشذيب منظم ومسطح يشبه حزوز البرتقال . ولم يعثر حتى الآن على مثل هذه الحراب النادرة لا في المواقع الأقدم ولا الأحدث عهداً (الشكل : ١٨) . وكان السولوتريون قد اشتهروا بالنحت الجداري الرائع وبالأبنية الكبيرة المحفوظة بشكل جيد ، وبعمامة يصنف الأورينياسي والغرافيتي في مرحلة البريغوردي الأعلى .

- الحضارة المجدلانية (La Magdeleine) وهي آخر حضارات الباليوليت الأعلى الأوربي وأغناها وأهمها . ظهرت منذ حوالي ١٥ ألف سنة ق. م واختفت منذ حوالي ١٠ آلاف سنة ق. م وانتشرت على مساحة أوسع من غيرها ، واحتلت فيها الأدوات العظمية مكانة متميزة وبخاصة الخطاف وهو الأداة المخصصة لصيد السمك والحيوانات البحرية الأخرى (الشكل : ١٩) . واعتماداً على هذه الأدوات العظمية تم تحديد سبع مراحل تطورية للمجدلانيين ، تناقص خلالها دور الأدوات الحجرية لصالح الأدوات العظمية . ولدينا من المواقع المجدلانية مكتشفات تدل على سكن كثيف مستمر للمغائر والملاجئ وعلى أبنية منظمة في العراء ترقى إلى مستوى «القرى الأولى» وفنون رائعة بلغت القمة ، ولكننا سنتحدث عن ذلك في عنوان منفصل .

وأخيراً فإن حضارات الباليوليت الأعلى تختلف بشكل كبير عن حضارات الباليوليت الأوسط والأدنى ولا يلاحظ في أوروبا وجود استمرارية واضحة بين الباليوليت الأوسط والأعلى وإنما نشهد وصول حضارات جديدة على امتداد المرحلة الواقعة بين ٤٠ - ٣٠ ألف سنة ق. م ، هذه الحضارات حلت مكان الحضارة الموسستيرية دون أن يعني ذلك

عدم وجود حالات استمرارية كما ظهرت في موقع سان سيزير /Saint Cezaire/ الفرنسي في منطقة الدردون حيث عثر على صناعات شاتليبرونية عائدة لإنسان النياندرتال وهذا بطبيعته يدل على عدم إمكانية الاستمرار في اقتصار ربط الشاتليبروني بالإنسان العاقل فقط . وكذلك مر معنا أيضاً حالات معاكسة إذ ارتبط الإنسان العاقل بصناعات موسستيرية في فلسطين . وفي مختلف الأحوال فإن موقع سان سيزير يدل على تعاصر النياندرتال والإنسان العاقل في المرحلة الواقعة بين نهاية الباليوليت الأوسط وبداية الباليوليت الأعلى ، وهذا ما يشير إليه العثور على هياكل عظمية نياندرتالية مع صناعات موسستيرية في مواقع معاصرة زمنياً مثل موقع زافارايا (Zafarraya) في إسبانيا الذي أرخ على / ٣٤ / ألف سنة خلت . وموقع لاغورفالو Lagor Valo في البرتغال الذي وجدت فيه أيضاً صناعات موسستيرية مع إنسان النياندرتال ومن عصر متأخر مثل الموقع الإسباني . تبقى قضية أخرى مثيرة للنقاش تتعلق بأصل حضارات الباليوليت الأعلى الأوربية . فإذا رأينا الحضارة الشاتليبرونية تطوراً عن الموسستيري فإن الأمر ليس كذلك فيما يخص الحضارة الأورينية؛ فهي إما أن تكون ذات أصل مشرق كما دلت عليه مكتشفات موقع كسار عقيل في لبنان أو موقع هوافتيح في الساحل الليبي كما ويظن بعض الباحثين وإما أنها تعود في أصولها إلى جنوب وشرق أوروبا دون أن ندخل في موضوع آخر أكثر تعقيداً يتعلق بالانتشار الجغرافي لحضارات الباليوليت الأعلى الأوربية وسحناتها المختلفة في أوروبا وفي إفريقية وآسيا أيضاً .

٣ - الإنسان العاقل في المشرق العربي القديم:

مر معنا أن الإنسان العاقل قد وصل إلى المشرق العربي القديم قبل أن ينتقل إلى أوروبا؛ ومع ذلك فإن حضارات الإنسان العاقل في هذه المنطقة لم تكن على الدرجة نفسها التي وصلت إليها في أوروبا التي حصل فيها النشاط الحضاري الأبرز بينما بقي دور الجماعات البشرية المشرقية متواضعاً وهامشياً . وقد اكتشف العديد من مواقع الباليوليت الأعلى في فلسطين كمغارة الواد والكبارا والأميرة ومنها أتنا المعلومات الأولى عن هذا العصر ، ثم تابعت الاكتشافات في سوريا ولبنان والأردن . وعلى ضوء

الوضع الراهن نستطيع أن نوجز الصفات العامة للبالوليت الأعلى الشرقي ، بالمواقع الصغيرة التي كان معظمها مراكز سكن مؤقتة لجماعات قليلة العدد من الصيادين تركت آثاراً قليلة التنوع اقتصرت على الأدوات الحجرية ذات الأشكال المحدودة والثابتة ، ولا وجود للأدوات والآثار العظمية أو الخشبية والأبرز من ذلك لا وجود فيها للفنون ولا للبناء . ولكن يجب التذكر بأن هذا الواقع قد يكون مؤقتاً وقد يكشف المستقبل عكس ذلك . ولو ثبت هذا الأمر فهو يحد ذاته يشكل حقيقة علمية تستحق الدراسة ومعرفة الأسباب الحقيقية للتفاوت الثقافي بين أوروبا والمشرق القديم ، وفيما إذا كانت هذه الأسباب ذات أصل متاخني أو عرقي أم ماذا؟

إن الأدوات الحجرية هي المعيار الوحيد الذي يمثل تطور حضارات الإنسان العاقل في منطقتنا وهي تدل على أن الصناعة الحجرية قد تطورت خلال المراحل الثلاث التالية :

المرحلة الأولى: وهي الأقدم ولها طابع انتقالي تتداخل فيها التأثيرات اللفلوازية -الموسستيرية في أدوات العصر الجديد ؛ إذ حيث بقيت المقاحف تؤدي دوراً كبيراً ، ولكن ازداد إلى جانبها المكاشط والمخارز والحراش الصغيرة والسكاكين ذات الظهر المعوج التي تشبه السكاكين الشاتليبرونية المعاصرة من أوروبا ، وهذه المرحلة واضحة بشكل جيد في مغارة الأميرة (الشكل : ٢٠ ، ٤) بفلسطين وفي موقع كسار عقيل اللبناني .

المرحلة الثانية: وفيها حصل الدخول الكامل بالبالوليت الأعلى وظهرت الأدوات النموذجية لهذا العصر وبخاصة المكاشط والمخارز ذات الجبهة الغليظة والنصال الطويلة التي تشبه الأدوات الأورينية الأوربية وتسمى هذه المرحلة أحياناً بالأورينياسي الشرقي كما يطلق عليها محلياً الأنطلياسي ، نسبة إلى مغارة أنطلياس في لبنان ، أو الأحمري نسبة إلى مغارة عرق الأحمر بفلسطين . وقد تميز كل من الأنطلياسي والأحمري بصناعة حجرية مختلفة ولكننا لا زلنا نجهل طبيعة العلاقات بين مختلف أنواع هذه الصناعات المشرقية في هذا العصر .

المرحلة الثالثة: بدأت في حوالي ١٨ ألف سنة ق.م وظهر فيها العديد من الصناعات الحجرية الغامضة ؛ وهي لم تدرس حتى الآن بالشكل الكافي ، وأطلق عليها أسماء مختلفة حسب المناطق فسميت السكفتي من وادي اسكفتا في يبرود بسورية ، الذي اشتهر بالنصليات الصغيرة ذات الظهر المشذب ، والعتلتي من عتليت في فلسطين ، وفيه النصليات الصغيرة جداً والمكاشط ذات الجبهة السميكة والأدوات الميكروليثية التي شكلت المرحلة الانتقالية إلى الصناعات الكبارية (نسبة إلى مغارة الكبارا) التي مثلت حضارة واحدة متجانسة امتدت من سيناء حتى الفرات شرقاً ، ومن فلسطين حتى الأناضول شمالاً . وكانت الكبارية أول حضارة تنتشر بهذا الاتساع وتخلق وحدة حضارية باكرة في المشرق العربي القديم كله ؛ وأعظم ما يميزها الوجود الكثيف للنصال الصغيرة جداً ، الميكروليثية ، التي بلغت نسبها حوالي ٨٥٪ من مجموع الأدوات الحجرية ، رافقتها العديد من الأدوات الميكروليثية الأخرى التي ازدادت كثيراً في العصر اللاحق . وكذلك وجدت آثار هذه المرحلة في بعض المناطق في وادي الحمة ووادي الحسا في الأردن .

أما في العراق فقد أخذت صناعات الباليوليت الأعلى شكلاً آخر مختلفاً وأطلق عليها «البارادوستي» نسبة إلى جبل بارادوست في زاغروس وظهرت هذه الصناعة في الطبقة (C) ، من موقع شانيدار في كردستان العراق وأرخت هناك ، بطريقة الفحم المشع ، بين ٣٣ - ٢٥ ألف سنة ق.م حيث ساد مناخ بارد وماطر اختفت فيه حيوانات كانت معروفة في العصر السابق كوحيد القرن وفرس الماء . ويتميز البارادوستي بالأدوات الحجرية المختلفة عما هو معروف من سورية وفلسطين أهمها السكاكين ذات الظهر المائل والمكاشط ذات الجبهة الغليظة والمخارز التي تذكر بالصناعات الأوريناسية المشرقية .

٤ - الإنسان العاقل في إفريقية:

لاحظنا أن الصناعات الحجرية للإنسان العاقل في أوروبا والمشرق العربي القديم قد مرت بثلاث مراحل تطورية الأولى فيها تأثيرات اللفلوازي - الموستيري وفي المرحلة الثانية سادت أدوات الإنسان العاقل الجديدة وبخاصة النصال بعد أن اختفت أدوات النياندرتال الموستيرية ، ثم في المرحلة الثالثة والأخيرة ظهرت

الأدوات الصغيرة جداً، الميكروليثية، أما في إفريقيا فإن الصناعات الحجرية لم تشهد إلا مرحلتين تطورتين فقط، الأولى وتؤرخ على ٣٥ - ٢٠ ألف سنة ق. م وفيها تأثيرات الباليوليت الأوسط أي اللفلوازي - المستيري (Middle Stone Age) ثم المرحلة الثانية وتقع بين ٢٠ - ١٠ ألف سنة ق. م (Late Stone Age) وفيها تنتشر الأدوات الميكروليثية.

هذه لغة خطابية وكلنا يتذكر بأن تقسيم العصور الحجرية في أوروبا وآسيا، الذي يعتمد على أسس أثرية وكونولوجية لا ينطبق تماماً على إفريقيا. فالحضارة العظرية، المنسوبة إلى موقع بئر العطر في الجزائر هي من النوع العائد للباليوليت الأوسط، ولكنها في إفريقيا تؤرخ على حوالي ٢٥ ألف سنة ق. م وهو زمن الباليوليت الأعلى في أوروبا وآسيا، بل إن هذه الحضارة استمرت في الصحراء الأفريقية حتى مطلع العصر الحجري الحديث. وقد شملت الصناعات العظرية المغرب العربي كله ووصلت شرقاً إلى ليبيا ووادي النيل. اشتهرت بتصنيع الحراب المذنبة وهي أدوات صيد ناجعة (الشكل: ٢٠، ٣) وفي وادي النيل تميز هذا العصر بتعدد الصناعات الصوانية وتنوعها الكبير، بعضها يعود إلى القسم الأول من الباليوليت الأعلى كالخرمسي والأدفي والفاخوري وبعضها يؤرخ على القسم الثاني كالسبيلي وصناعة القاضي. وأبرز ما يميز بين هذه الصناعات ليس التفاوت بين أدواتها الحجرية إنما الاختلاف في نمط الحياة واستغلال البيئة لكل منها فبينما أقامت بعض الجماعات البشرية في السطوح العليا لوادي النيل نزلت أخرى إلى الوادي نفسه وربما مارست زراعة القمح والذرة والشعير، ولأول مرة منذ حوالي ١٤ ألف سنة ق. م. لكن هذه الخطوة الكبيرة لم تستمر إنما تراجعت ولم تعرف مصر الزراعة الدائمة ثانية إلا في الألف السادس ق. م. إن معلوماتنا عن شرق إفريقيا وجنوبها قليلة حيث أقامت في تلك المناطق جماعات عديدة صنعت أدوات حجرية متنوعة. لها تسميات مختلفة، ولكن الباليوليت الأعلى استمر هناك حتى الألف الثامن ق. م. وهو زمن متأخر دخلت فيه بقية المناطق في العالم العصر الحجري الحديث.

٥ - الإنسان العاقل في العالم الجديد (أمريكا وأستراليا):

ليست لدينا أية معلومات ولا اكتشافات تؤكد وجود الإنسان في كل من قارتي أمريكا وأستراليا ، قبل ظهور الإنسان العاقل من نوع كرومانيون ، مما يدل على أن هذا الإنسان كان أول من دخل إلى هاتين القارتين ومنذ مطلع الباليوليت الأعلى . وقد أظهر البحث أن الجماعات الأولى للإنسان العاقل قد وصلت إلى منطقة ألاسكا في أمريكا قادمة من سيبيريا من خلال مضيق برينج (Bering) الذي كان في ذلك الوقت برأ مكشوفاً بسبب انخفاض مياه البحار في عصر جليدي ساد في حينه . إن أقدم آثار للإنسان العاقل وجدت من شمال القارة الأمريكية في موقع أولد كرو (Old Crow) في ألاسكا وهي أدوات حجرية تشبه ما يستخدمه سكان مناطق سيبيريا الحاليون ، رافقها بقايا عظام حيوانات أرخت كلها على ٣٨ ألف سنة ق. م . كما أتت آثار أخرى مشابهة من مقاطعة تكساس ، علماً بأن هذه المواقع الباكورة ما زالت تثير الجدل بين الباحثين . ولكن مواقع أحدث تعود إلى حوالي ١٨ ألف سنة ق. م ، في وادي أوهايو وفي جبال الأنديز وهي تدل على وجود أكيد للإنسان في هذه المناطق . ثم حصل انقطاع في استيطان القارة الأمريكية استمر حتى مطلع الألف العاشر ق. م ، وبعد ذلك سكنت هذه القارة بشكل واضح وبلا انقطاع . وفي الألف الثامن ق. م توضحت معالمها الثقافية بظهور ما يسمى بالحضارات الهندية القديمة (Palaeo-Indians) التي أخذت تسمياتها من منطقة نيو مكسيكو جنوب الولايات المتحدة الأمريكية من مواقع سانديا ، فولسوم ، كلوفيس ، لكي ، (Sandia, Folsom, Clovis, Lucy) وهي حضارات متشابهة ولكن أعظم ما يميز بعضها من بعض هو أنواع الرماح في كل منها (الشكل : ٢١) . وفي الألف السابع ق. م قامت ، على خلفية الحضارات الهندية القديمة حضارات أخرى أكثر تطوراً وتخصصاً مهدت لنشوء المجتمعات الزراعية الأولى في أمريكا الوسطى .

ووصل الإنسان العاقل إلى القارة الأسترالية ، قادماً من منطقة جنوب شرق آسيا على الأرجح . ولكننا لا نعرف الآن كيف انتقل هذا الإنسان خلال الجزر المنتشرة في تلك المنطقة إلى أستراليا وهناك احتمالان : إما أن سوية البحر كانت منخفضة وإما

اتصالاً برياً كان يربط بين جزر غينيا الجديدة الحالية وأندونيسيا وأستراليا، والاحتمال الثاني هو معرفة هذا الإنسان لوسائل نقل بحري بسيطة ركبها في طريقه إلى تلك القارة. إن أقدم آثار للإنسان عثر عليها في أستراليا هي أدوات حجرية وعظام لحيوانات تعود إلى حوالي ٣٧ ألف سنة خلت (مغارة الماموت) ومنذ حوالي ٣٠ ألف سنة ق.م أصبحت دلائل الاستيطان أكثر غزارة فظهرت الأدوات الحجرية، بدائية التصنيع كالسواطير والمكاشط، يرافقها هياكل عظمية للإنسان العاقل كما في مواقع مانغو وكوسوامب (Mango, Kow Swamp) وقد تبين أن بعض هذه الهياكل حمل صفات الإنسان العاقل المتطورة وهي تؤرخ على حوالي ٣٣ ألف سنة ق.م وبعضها الآخر أحدث عهداً ويتراوح عمره بين ٢٠ - ١٠ ألف سنة لكنها بدائية الصفات. وهذا بدوره يثير التساؤل حول العلاقة بين سكان أستراليا الأوائل وسكان مناطق جنوب شرق آسيا وبخاصة جاوا، وفيما إذا كان هؤلاء يمثلون عرقاً واحداً أم عروقاً مختلفة.

إن القارة الأسترالية تعدُّ من أفضل مناطق العالم لإجراء الدراسات الأثنوغرافية المقارنة. ويمضي الباحثون الآن السنوات الطويلة بين القبائل البدائية التي ما زالت تعيش في أجزاء مختلفة من هذه القارة للتعرف إلى حياتها الاجتماعية والاقتصادية والدينية وفهم اقتصادها وفنونها مما ساعد على تفسير بعض مظاهر حياة مجتمعات ما قبل التاريخ. لأنه عندما دخل الأوروبيون لأستراليا، في القرن السابع عشر، كان سكانها الأصليون يعيشون حياة اللقط والصيد، ويستخدمون الأدوات الحجرية المشابهة لأدوات مجتمعات ما قبل التاريخ. ولكي نأخذ فكرة عن مدى استمرار تقاليد العصر الحجري هناك يكفي أن نعلم أنه عثر على أدوات حجرية تؤرخ على حوالي ٢٥ ألف سنة وهي تشابه الأدوات التي يستخدمها الأستراليون البدائيون حالياً. كما أن فنون القبائل الأسترالية المعاصرة، تشبه كثيراً فنوناً أخرى وجدت في مواقع تؤرخ على حوالي ٢٠ ألف سنة ق.م. هذه الاستمرارية كانت واضحة أيضاً على امتداد الباليوليت الأعلى؛ إذ بقيت بعض الجماعات البشرية تستخدم الأدوات نفسها على امتداد زمن استمر بين ٣٠,٠٠٠ - ٤٠٠٠ سنة ق.م. باختصار ليس هناك

تجديدات تقنية كبيرة للإنسان العاقل في أستراليا لأن الأدوات نفسها استخدمت لآلاف السنين ولكنها كانت كافية لتأمين متطلبات الناس في بيئتهم الغنية .

وبشكل عام يمكن أن يقسم استيطان الإنسان العاقل للعالم إلى أربع مراحل متتالية زمنياً . المرحلة الأولى : تتعلق بظهور هذا الإنسان في إفريقيا منذ حوالي ١٢٠ ألف سنة خلت . المرحلة الثانية : تتعلق بوصوله إلى آسيا منذ حوالي ١٠٠ ألف سنة . المرحلة الثالثة : هي وصول هذا الإنسان إلى أوروبا منذ حوالي ٤٠ ألف سنة . وأخيراً المرحلة الرابعة : تتعلق باستيطان هذا الإنسان لقارات العالم الجديد ، أمريكا وأستراليا ، منذ حوالي ٣٠ ألف سنة خلت .

٦ - فنون الإنسان العاقل:

جسد الإنسان العاقل مشاعره ومعتقداته بوساطة الأنواع الفنية المعروفة لدينا كلها كالنحت والرسم والحفر . وصار الفن من أكبر إنجازات هذا الإنسان ، وتعود المعلومات الأولى عنه إلى منتصف القرن التاسع عشر . بعدها تابعت الاكتشافات حتى أصبحنا نعرف حوالي ١٥٠ موقعاً أثرياً قدمت لنا دلائل فنون مختلفة ، انتشرت من الأورال في الشرق حتى سواحل الأطلسي في الغرب ، لكن مركزها الرئيسي والأبرز كان منطقة جنوب غرب فرنسا وشمال إسبانيا (المنطقة الفرنسية - الكانتيرية) (Franco - Cantabrique) .

وكانت هذه الفنون إما على شكل قطع منقولة كالتماثيل والدمى ، والأسلحة وأدوات الزينة (الفن التطبيقي) وإما آثاراً ثابتة كالنحت والرسم على جدران المغائر والملاجئ التي سكنت (الفن الجداري) . وقد صنع الإنسان العاقل من العظم أو الطين تماثيل للمرأة العارية «الربة الأم» عُدَّت الدليل الأول على عقيدة الخصب التي استمرت عصوراً طويلة فيما بعد ، وأخرى لحيوانات شددت اهتمامه كالثور والغزال والماعز الجبلي ، كما حفر على القبضات العظمية لأسلحته صوراً حيوانية وإنسانية مختلفة ترك لنا في مواقعها العدد من الخرز وأدوات الزينة الأولى . فضلاً عن هذه الفنون «المتحركة» أبدع الإنسان العاقل فنوناً ثابتة بينها مشاهد حيوانية وإنسانية ترافقها العديد من الرموز

والإشارات نحتها أو رسمها على جدران كهوفه وملأه سواء في فرنسا، مثل لاسكو، لاموت، لومستير (Lascaux, La Moute, Le Moustier) أم في إسبانيا مثل التامير (Altamira) أو غيرها. وقد استخدم الفنانون في الباليوليت الأعلى الألوان، الأسود والأبيض والأحمر، التي استخرجوها من الصخور والمعادن الطبيعية كالمغرة الحمراء والمنغنيز والصلصال والليمونيت والهيمايت، بعد أن طحنوا هذه المواد وخلطوها بالماء والشحوم، لتصبح أفضل تحضيراً، ورسموا مشاهد ذات مضامين ميتولوجية عميقة، اختاروا لتصويرها الأماكن الأكثر رهبة وتأثيراً في أعماق المغائر التي دخلوها بعد أن عرفوا إيقاد السرج من الشحوم الحيوانية، مما خول بعض الباحثين بتسمية هذه المغائر «المعابد الأولى» وقد لوحظ التركيز على تصوير الحيوانات وبخاصة الحصان والثور والأيل والماعز البري وأحياناً الرنة بينما ندر تشخيص الدب والماموت ووحيد القرن والطيور والأسماك. وكذلك وجدت أشكال بشرية غريبة وإشارات غامضة ترمز إلى الجنس أو النار. وقد خضعت فنون هذا العصر لدراسات وتفسيرات مختلفة، فقليل من الباحثين يعتقد أنها مورست لمجرد الفن ويرى آخرون أنها تحوي مضموناً سحرياً من أجل تسهيل عمليات الصيد بينما آخرون معاني جنسية تدور حول الخصب. وفي دراسة علمية متكاملة يرى لوروا غوران أن فنون الإنسان العاقل في الباليوليت الأعلى تبرهن على وجود نظام ميتولوجي - اجتماعي متطور تحكمه عقائد معينة آمنت بها تلك المجتمعات، وهي تجسد فكراً شاملاً ومترسخاً في ذهن حامله يحدد موقفهم من قضايا الموت والحياة والجنس. ويعتقد هذا الباحث بأن الأنوثة والذكورة كانتا من جوهر معتقدات ذلك الإنسان وفنونه لأنه رأى فيهما نفسه واستمرار جنسه أي رأى فيهما عالمه الداخلي الذي ربطه بعالمه الخارجي أي بيئته، فصور هذه البيئة وحيواناتها جاعلاً الثور رمز الذكورة بينما الفرس رمز الأنوثة لأنه كثيراً ما ترافق هذان الحيوانان في العديد من الأعمال. ومهما يكن فإن الفن في هذا العصر يمثل عقيدة قد لا نفهمها بسبب غياب الكتابة، وإن كنا نرى في الأشكال المرسومة والمنحوتة نوعاً من الكتابة التصويرية التي أراد ذلك الإنسان من خلالها أن يدون أفكاره ومعتقداته ويعطيها المعنى الرمزي الذي لا يدركه أحد غيره.

٧ - مراحل تطور فن الإنسان العاقل:

تشكلت فنون الإنسان العاقل بالتدرج وعلى مدار زمن طويل ومرت خلال مراحل انتقلت فيها من البساطة والتجريد إلى الواقعية والتعقيد، فكانت في البداية أدوات زينة من الخرز ثم أصبحت لوحات فنية حقيقية متنوعة الأشكال والمضامين. ظهرت مع الحضارة الشاتليبرونية ثم تطورت مع الأورينياسية والسولوترية وبلغت أوج ازدهارها في العصر المجدلاني وقد تمكن الباحثون من تتبع فنون هذا العصر وفق خمس مراحل متتالية:

- المرحلة الباكورة: وهي الأقدم وسميت ما قبل التصويرية (Pre-Figurative) أي قبل معرفة رسم الأشكال والصور الطبيعية ونحتها، وبدأت مع ظهور أدوات الزينة الأولى، مثل الخرز، والخطوط الزخرفية على الأدوات العظمية، واستعمال الألوان البسيطة وهي تتعاصر مع الزمن الشاتليبروني في (٣٥ - ٣٠ ألف سنة ق.م).

- المرحلة الأولى: وتؤرخ على العصر الأورينياسي ٣٠ - ٣٥ ألف سنة ق.م وفيها ظهرت الأشكال المختزلة والمبسطة لحيوانات غير واضحة الأنواع ترافقها إشارات جنسية مؤنثة ومذكورة.

- المرحلة الثانية: وتعود إلى العصر الغرافيتي وإلى القسم الأول من العصر السولوتري، أي من ٢٥ - ١٨ ألف سنة ق.م. ظهرت فيها أعمال أوضح لحيوانات يمكن تمييزها كالماموت والثور والحصان، وأول الأشكال الإنسانية المبسطة، وفي هذه المرحلة صنعت التماثيل النسائية العارية الأولى «فينوس العصر الحجري» (الشكل: ٢٢).

- المرحلة الثالثة: وتعاصر القسم الثاني من الزمن السولوتري، ١٦ - ١٥ ألف سنة ق.م وفيها تطورت الأشكال الحيوانية والإنسانية السابقة لكنها بقيت في معظمها غير كاملة وغير واقعية، وتقدم النحت وعرف الرسم بالألوان، على جدران المغائر.

- المرحلة الرابعة: وفيها وصلت فنون هذا العصر إلى القمة على يد المجدلانيين، وخاصة القسم الأول من عصرهم أي بين ١٥ - ١٣ ألف سنة ق.م؛ إذ امتازت الفنون بحيوية ودقة وواقعية كبيرة سواء في الرسم أم النحت وكما قال أحدهم

«تنظر إلى الحصان فتظنه يكاد أن يصهل» (الشكل : ٢٣). ولكن في نهاية المجدلاني تراجع الفن بشكل مذهل ومفاجئ، وتراجع بالتالي الدور الحضاري المتميز لأوروبا، دفعة واحدة وحتى نهاية عصور ما قبل التاريخ، وانتقل هذا الدور إلى منطقة أخرى، هي المشرق العربي القديم، كما سنرى في فصل لاحق.

وهنا نضيف بأن الدراسات الحديثة أظهرت أن تاريخ مراحل تطور فن الباليوليت الأعلى وفق أنماط متتالية (Style) لم يعد واقعياً. فقد بدأت تظهر وسائل تأريخ مباشرة مخبرية حديثة أرخت الرسوم، الألوان، التي ظهرت على جدران المغائر والتي احتوت على بقايا من الفحم أو على بقايا معدنية. وبهذه الطريقة أرخت المغارة التي اكتشفت في منطقة الأرديش (مغارة شوفيه Chauvet) ومغائر أخرى غيرها مثل كوسغير (Cosquer) وكوناك (Cougnac) وكلها دلت على أن جدران هذه المغارة، شوفيه، استخدمت في رسم أشكال مختلفة لعشرات الآلاف من السنين. ومنذ العصر الأورينياسى. وكذلك يمكن الحصول على تواريخ غير مباشرة للرسومات الجدارية من خلال الربط بينها وبين الطبقات الأثرية في الموقع أو الربط بين مختلف مستويات ومعطياتها الطبقات الأثرية نفسها؛ فضلاً عن المقارنات الفنية والشكلية للموجودات الفنية. ونشير أخيراً إلى التيارات الحديثة في تفسير الفنون الباليوليتية، التي ترفض التفسير الذي ظهر في مطلع القرن والذي يربط هذا الفن بعمليات الصيد والخصوبة، لأن الحيوانات التي صيدت كانت غير الحيوانات التي رُسمت، كما ولا وجود تقريباً لتمائيل نساء تشير إلى الخصوبة. وهناك من يتحدث عن الثنائية: (Dualism) في الفن الباليوليتي وذلك بتأثير أفكار لوروا غوران في إشارة إلى معاني الموت والحياة، الأنوثة والذكورة. ويطرح حالياً، هنري دلبورت (H. Delport) دور الفن في الاتصال (Communication) لأن المعارف والخبرات لا تنقل فقط شفهاً بل بالتدوين. وهكذا فقد مارست الفنون دوراً في نقل المعتقدات والمعارف والخبرات. ومهما يكن فإنه يستحيل علينا تحديد وظيفة حقيقة واحدة لهذه الفنون لأننا نعيش خارج الإطار الحضاري والتاريخي الذي نشأت فيه. وكل ما تقوم به من تفسير يبقى في إطار الفرضيات وإن اختلفت درجة قرب هذه الفرضيات من الواقع أو بعدها عنه.

٨ - التشابه بين حضارات الباليوليت:

كثيراً ما لاحظنا تشابهاً بين جماعات بشرية باليوليتية كان تعيش في الزمن نفسه ولكن في مناطق مختلفة وبعيد بعضها عن بعض سواء في آسيا أو أوروبا أو إفريقيا . إن هذا التشابه هو من أهم المشاكل التي تواجه الباحثين الذين يحاولون إيجاد تفسير منطقي له . وقد جعل ، في البداية ، ناتجاً عن الاحتكاك المباشر أو غير المباشر بين الجماعات الباليوليتية ، لكن هذا التفسير يسط الأمور أكثر مما هي عليه في الواقع ، فنحن نعلم أن هناك صناعات حجرية شديدة الشبه فيما بينها ظهرت في مناطق يتباعد بعضها عن بعض ، كجنوب إفريقيا وشرق آسيا ، وليس هناك في ذلك الزمن إمكانية لأي اتصال بينها بأي شكل كان ولا يمكن اعتبارها من أصل واحد . لذا يجب علينا التريث والحذر قبل التحدث عن انتشار الحضارات والناس في عصر الباليوليت (Diffusion, Migration) بل ينبغي أن نبحث عن أسباب أخرى لهذا التشابه بين الحضارات . ولا أريد هنا الخوض في تفاصيل نظرية قد لا تكون قائمة على أساس مادي ملموس . لكننا إذا انطلقنا من وحدة البنية النفسية للبشر ومنذ الأزل ، توصلنا إلى الإقرار بأن الحاجات المادية والروحية لهؤلاء البشر كانت واحدة ، لكنهم استطاعوا إشباع تلك الحاجات بأشكال مختلفة بفعل قدرتهم على الاختيار الثقافي والحلول الحضارية العديدة . فصنعوا أدوات متشابهة في بيئات مختلفة وأخرى مختلفة في بيئات متشابهة . لكن كل هذه الأدوات تحقق الغرض نفسه . مما يدل على أن القاعدة السابقة التي أخذ بها زمننا طويلاً والتي تقول : إن الإنسان قد أنتج أدوات مختلفة في بيئات مختلفة وأخرى متشابهة في بيئات متشابهة هذه القاعدة ليست صالحة تماماً . وعلى هذا الأساس توصل الناس في الباليوليت إلى حلول حياتية واحدة وبشكل عفوي ودون الحاجة إلى اتصال بعض ببعض فتشابهت فنون الصيد واللقط . لأن الحربة ضرورية لقتل الحيوان سواء كان بقرراً وحشياً ، في إفريقيا أم رنة في أوروبا أو ماعزاً جبلياً في آسيا . والمنجل ضروري لقطع الرز في الصين والكتان في فرنسا والقمح والشعير في الشرق الأوسط . كما تشابهت طرائق تصنيع الأدوات الحجرية ، فالصوان أثار اهتمام الناس حيثما وجد كخام قاس وسهل التصنيع وطبق هؤلاء عليه عملية تحضير ، تشابهت عفوية أيضاً لأن الفأس ، في أي

مكان بحاجة إلى قبضة ورأس عامل ، والخربة يلزمها رأس حاد أيضاً والسكين لها حد قاطع والخطاف تلزمه الأسنان . والمقحف وهو أداة صنع الجلود والملابس عشر عليه في أوربا الباردة وإفريقية الحارة ، ولذلك صنع هؤلاء الناس أدوات واحدة ، على تباعدهم ، ووصلوا إلى النتائج والحلول نفسها دون الحاجة إلى الاتصال فيما بينهم . وهذا يسمى بظاهرة الالتقاء العفوي (Convergence) . لكن ذلك لا يبطل حقيقة وجود الاتصال بين الناس البعيدين وبالتالي حصول التأثيرات الحضارية المتبادلة ؛ إلا أننا لا نعتقد بأن هذا الاتصال قد تجاوز حدود القارات والمناطق الجغرافية الكبيرة بل بقي في إطار الأقاليم الأصغر والمتجاورة ؛ لأن إنسان الباليوليت لم يكن سريع التحرك ولا منفتحاً على غيره كثيراً . وكما يقول فرانسوا بورديان العديد من صيادي العصر المoustérien عاشوا وماتوا دون أن يعلموا من هو الذي كان يشعل النار على الضفة الأخرى من النهر .

٩ - الاختلاف بين حضارات الباليوليت:

وتعترض الباحثين أيضاً مشكلة الاختلاف بين حضارات الباليوليت ، فكثيراً ما تصادف جماعات بشرية عاشت في الزمان والمكان نفسها ومع ذلك استخدمت كل من هذه الجماعات أدوات حجرية تختلف بعضها عن بعض كثيراً جداً . ونحن كثيراً ما نتساءل لماذا صنع هؤلاء هذا النوع من الحراش بينما استعمل جيرانهم حراشاً أخرى لقتل الحيوان نفسه . أو لماذا استخدم هؤلاء الصوان وجيرانهم البازلت أو العظام . وهكذا تصبح الأسئلة أكثر إلحاحاً مع دخولنا في العصر الانتقالي الأول بين مجتمعات الهومو إركتوس والنياندرتال ، عندما تعايشت أنماط حضارية عديدة ومختلفة في مناطق جغرافية واحدة وفي عصر واحد . وكنا نتساءل هل سبب تباين هذه الأنماط يعود إلى واقع جغرافي ومناخي جديد ، حاولت فيه كل جماعة التكيف وعلى طريقته الخاصة أم أن ذلك مرده إلى اختلاف عرقي بين الناس . وتكرر الأسئلة نفسها في عصر النياندرتال ، فنلاحظ في منطقة ضيقة واحدة مثل جنوب غرب فرنسا (الدوردون) تعايش جماعات عديدة ومختلفة لا نعلم فيما إذا كانت تجسد حضارة

واحدة أم عدة حضارات ولا فيما إذا كانت كل من هذه الجماعات تمثل مراحل متتالية للحضارة الموسستيرية الأم أو أنها حالات مستقلة ليس بينها أية علاقة تطورية . ويسود الآن تفسيران لهذا الواقع :

التفسير الأول: ويمثله ، عادة ، الأنثروبولوجيون وعلى رأسهم الأمريكي لويس بينفورد (L.Binford) مؤسس ما يسمى بعلم الآثار الجديد (New Archaeology) . ويرى هؤلاء أن سبب الاختلاف بين حضارات الباليوليت الأوسط يعود إلى تعدد وظائف المواقع الممثلة لهذه الحضارات أي إلى التباين في طبيعة النشاط الاقتصادي الذي مورس في هذا الموقع أو ذاك . هذا النشاط الذي فرضته نوعية البيئة وخيراتها خلال الفصول فالحراب في موقع ما تشير إلى أن سكانه عملوا بالصيد ، وتدل الأدوات المستننة أو المقرضة على العمل في قطع الأخشاب والعظام ، كما أن الأدوات البسيطة غير المحضرة بشكل جيد تعبر عن إقامة مؤقتة عكس الأدوات الدقيقة المتقنة التي تبرهن على سكن دائم . وهكذا فإن أنصار هذا التفسير يذهبون إلى أن النشاط الاقتصادي وتنوع الأعمال ، للجماعات البشرية ذات الحضارة الواحدة هو السبب في اختلاف الأدوات الحجرية . ولا يقبلون بوجود عدة جماعات موسستيرية ، معزولة فيما بينها ، ولها تقاليد حضارية مستقلة على الرغم من أنها متعاصرة . بل يؤكدون أن الموسستيريين كانوا يمثلون حضارة واحدة اختلفت أشكالها بسبب اختلاف الواقع الاقتصادي لمختلف المجموعات .

التفسير الثاني: ويمثله خاصة ، علماء الآثار وعلى رأسهم فرانسوا بورد . ويرى هؤلاء أن تنوع الصناعات الحجرية الموسستيرية يعود إلى اختلاف الجماعات واستقلالها الحضاري حتى الجغرافي ؛ وأن نمطاً معيناً من الأدوات والأسلحة يدل على حضارة جماعية بعينها ولا علاقة له بطبيعة النشاط الاقتصادي ، لأن السكين أو المقحف أو الحربة يمكن استخدام أي منها في عدة وظائف وعلى مر الفصول . ويقول أنصار هذا الرأي : إن الجماعات البشرية الأولى كانت شديدة الارتباط بتقاليدها ، وطرائقها في

تصنيع الأدوات ولو احتكت بجماعات أخرى فإن ذلك لم يكن ليغير كثيراً من جوهر هذه التقاليد . ويضرب السيد بورد مثلاً طريفاً فيقول : إذا تزوجت امرأة من جماعة كينيا المستيرية من رجل ينتمي إلى الجماعة المستيرية ذات التقاليد الأشولية فإن هذه الزوجة قد تستمر في تحضير ملابس أسرتها باستخدام مقحف « كينيا » السميكة ولكن بعد موتها لن يتابع أحد استعمال هذا المقحف بل سيعود أولادها إلى أدوات قبيلة والدهم ، التي يعيشون في كنفها .

وإذا كان لنا تعليق فإننا نعتقد بأن الأمر أعقد مما يظن لأننا نحكم على زمن بعيد ولدينا جزء يسير من المعلومات ، فنحن ، غالباً ، لا نقب إلا في مساحة صغيرة لا تتجاوز ربع الموقع الأثري الذي تصدر حكمنا على أساسه . فإذا عثرنا في هذا الربع على أدوات لتحضير الخشب نقول : إن الموقع كان « منجرة » أما إذا وجدنا أدوات أخرى لتقطيع اللحوم نقول : إنه « ملحمة » ولكن حتى يكون رأينا صحيحاً لا بد من تنقيب كامل الموقع ؛ وهذه عملية شبه مستحيلة فهي تكلف مالياً ووقتاً كبيرين . لذلك تبقى أحكامنا ناقصة لأن المعلومات التي نحصل عليها من القسم المنقب ليس من الضروري أن تكون هي نفسها في بقية الموقع . وفضلاً عن ذلك فنحن نميل أكثر إلى قبول رأي السيد بورد ونظن أن الاختلاف بين الأدوات الحجرية في الباليوليت الأوسط له سبب حضاري وليس اقتصادياً ، وهو دليل على اختلاف التقاليد بين الجماعات البشرية التي عاشت في ذلك الوقت والتي أصبحت لها طرائق ثابتة ومتناقلة في تصنيع الأدوات . ونعتقد بأن إنسان ما قبل التاريخ كان شديد الحرص على تقاليده ، لا يتنازل عنها بسهولة ؛ فقد توارث هؤلاء الناس بعضهم عن بعض أفكاراً وخبرات معينة لم يتركوها ما دامت تحقق لهم الفائدة والهدف المطلوب . فلم يهجر الصياد الذي يعيش في منطقة ما مثلاً الخبرة التي تعلم طريقة صنعها من جده ويأخذ بحربة منطقة أخرى غيرها ما دامت حربة جده الموروثة تخرق جسد أضخم خنزير .

ولكن هذا القول لا يعني أننا نرى إنسان الباليوليت رجعيًا ومحافظًا ونهمل أهمية الجانب الاقتصادي في حياته، وتأثيره في تقاليده وأفكاره. بل على العكس فإننا نرى أن هذه التقاليد بقيت مستمرة بقدر ما كانت تلبي حاجاته الروحية والمادية، وإلا فسرعان ما كان قد تخلى عنها، لأن الأفكار من الصعب أن تستمر ما لم تكن تؤمن بعمل نظام اقتصادي ناجح. هذا هو الحال الآن وكان كذلك منذ الأبد.



الباب الرابع

المجتمعات الانتقالية في العصر الحجري الوسيط

(الميزوليت)

الفصل الأول: قرى الصيادين الأولى في المشرق العربي القديم

الفصل الثاني: العصر الحجري الوسيط في أوروبا

الفصل الأول

قرى الصيادين الأولى في المشرق العربي القديم

- ١ - الحضارة الكبارية
- ٢ - الحضارة الكبارية . الهندسية
- ٣ - الحضارة الزارزية
- ٤ - الحضارة النطوفية
- ٥ - عين الملاحه
- ٦ - النطوفيون في سورية
- ٧ - فنون النطوفيين ومعتقداتهم

الفصل الأول

قرى الصيادين الأولى في المشرق العربي القديم

ذاب في نهاية البليستوسن ، الجليد وتراجع عن نصف الكرة الشمالي إلى المناطق القطبية الحالية وهاجرت الحيوانات والنباتات الباردة إلى الشمال باتجاه المناطق الجليدية واختفت من غرب أوروبا الحضارة المجدلانية الغنية ومعها حيواناتها المفضلة ، وبخاصة الرنة . وكذلك انتهت العصور الباردة في جنوب نصف الكرة الشمالي ومال الجوانح نحو الدفء وظهر غطاء نباتي وحيواني جديد وتغيرت الأدوار مرة بعد مرة ، فعاد مركز الأحداث الأبرز إلى جنوب غرب آسيا عامة وإلى المشرق العربي القديم خاصة إذ استغل سكان هذه البلاد الظروف المناخية الجيدة على أحسن وجه فخرج الناس من المغائر ، الكهوف ، إلى السهول ووديان الأنهار حيث نمت النباتات البرية كالقمح والشعير وعاشت حيوانات تحب المناخ الدافئ كالبقر والغنم والماعز . وبذلك بدأت أول عملية احتكاك قريب ومباشر بين إنسان هذا العصر الحجري الوسيط ، الميزوليت وبين النباتات والحيوانات الجديدة . ثم نظم الإنسان عملية الاستفادة من هذه الخيرات الطبيعية بشكل واعي ومتطور وأفضل من السابق ، حيث اكتشفت مناطقها الطبيعية الأم ومارس فيها الصيد والالتقاط ولكن بكثافة وتخصص عاليين ، شمالاً أنواعاً محددة ومختارة . ومن ثم أقام فيها بيوتاً سكنها بشكل شبه مستقر فنشأت بذلك قرى الصيادين الأولى التي ازداد عدد سكانها وتحسن تنظيمهم وارتقى مستواهم الاقتصادي والاجتماعي ، بعد أن صنعوا الأسلحة والأدوات المركبة والأدوات الزراعية الأولى ، من الحجر البازلتي خاصة ، والأدوات العظمية . كما دفنوا موتاهم بعناية وعرفوا الفنون والمعتقدات .

وقد انقضى الآن عصر الحضارات ذو الانتشار العالمي الواسع كالآشولية والموسيرية والأوريناسية ونشأت أخرى محلية في أصلها وفي فروعها استفادت من ميزات الخاصة وتوضحت استقلاليتها أكثر من أي وقت مضى . فأقام الكباريون والنطوفيون في بلاد الشام بينما سكن الزارزيون في بلاد الرافدين .

١ - الحضارة الكبارية:

سميت كذلك نسبة إلى مغارة الكبارا في فلسطين حيث كشفت آثارها لأول مرة في الربع الأول من القرن العشرين . وهي تعود في جذورها إلى العصر السابق لأن الكباريين تطوروا على مرحلتين رئيسيتين :

المرحلة الأولى: بدأت في نهاية الباليوليت الأعلى بين ١٧ - ١٢ ألف سنة ق . من في ذلك الزمن كان الناس لا يزالون يسكنون المغائر والملاجئ التي انتشرت في مناطق بلاد الشام الساحلية والداخلية ذات الأمطار الكافية . ثم بدؤوا في نهاية هذه المرحلة ، أي في آخر الباليوليت ومطلع الميزوليت ، ببناء البيوت الأولى التي سكنوها أثناء مواسم الصيد والالتقاط خاصة ، وكانت معزولة فيما بينها ، على شكل حفر دائرية صغيرة مغروسة في السفوح والمنحدرات جدرانها وأرضها من الطين والحجر وسقفها من الجلود والأغصان . وقد اكتشفت البيوت الكبارية الأولى في فلسطين على الضفة الشرقية لبحيرة طبريا ، في موقع عين جيف (I) الذي وجد فيه أقدم بناء معروف في بلاد الشام حتى الآن ، أرخ بطريقة الفحم المشع على / ١٣٧٥٠ / سنة بزيادة أو نقصان / ٤١٥ / سنة . وكذلك عثر على مواقع هذه المرحلة في مناطق وادي الحمير ووادي الحسا ومنطقة الحسمى والصحراء في الأردن . وعلى الرغم من أن سكان قرى الصيادين الأوائل قد استخدموا الأدوات الحجرية التقليدية المعروفة من العصر السابق كالمكاشط والمخارز ، لكنهم صنعوا ، ولأول مرة ، الأدوات الميكروليثية الصغيرة وبخاصة النصيلات المظهرة والمطروقة في أحد جوانبها القصيرة المسماة (النصيلة الكبارية) ، والقليل من الأدوات الهندسية على شكل مثلث أو شبه منحرف ، والأدوات الزراعية البازلتية كالأجران والرحى . وبالرغم من هذه التجديدات لا يمكننا التحدث عن تغيير كبير في نمط حياتهم إذ لا زال الصيد واللقط المكثفان مصدر رزقهم الأول . فجمعوا حبوب القمح والشعير واصطادوا الغزلان ، والأياثل والثيران البرية خاصة .

٢ - الحضارة الكبارية الهندسية:

دخل ، بدءاً من / ١٤ / ألف سنة ق . م الكباريون مرحلة جديدة ، وضعتهم في قلب العصر الميزوليتي . حينئذ أعطى التحسن المناخي ثماره الأفضل ، فازدادت الحبوب والحيوانات البرية وارتقت بعد ذلك وتيرة استهلاكها من قبل الكباريين الذين تضاعفت أعدادهم واتسعت مناطق انتشارهم من ميناء العقبة في الجنوب حتى البادية السورية في الشمال . وبنوا في معظم هذه المناطق قرى نصف مستقرة ؛ بيوتها ، كما في السابق ، صغيرة دائرية أو بيضوية الأشكال ، موادها وتنظيمها تشبه قرية عين جيف في فلسطين . ولكن الناس لم يتركوا المغائر كلياً بل كثيراً ما أقاموا في مداخلها وفي المساحات الخارجية المحيطة بها . ففي مغارة الكبارا نفسها بلغت المنطقة المسكونة أمام المغارة حوالي / ٥٠٠ / م^٢ ووصلت هذه المساحة إلى / ١٠٠٠ / م^٢ في مغائر شقبة وهايونيم في فلسطين . وهناك مواقع مشابهة أتت من المناطق نفسها التي وجدت فيها مواضع الحضارة الكبارية وذلك في وديان الحمة والحسا ومنطقة الحسمى والصحراء في الأردن . وقد أتقن سكان هذه القرى تصنيع الأدوات الميكروليثية الصغيرة ذات الأشكال الهندسية (Microlithic-Geometric) (الشكل : ٢٤) التي ارتبطت باستخدام الأدوات المركبة من العظم والخشب (قبضة) والحجر (الحد العامل) ومن هنا أتت تسمية هذه المرحلة بالكبارية - الهندسية (Kebaran-Geometric) ؛ إذ كانت أدواتها في معظمها هندسية على شكل مثلث أو شبه منحرف أو نصيالات ، وKebaran كلها صغيرة جداً استخدمت في صيد الأسماك والطيور التي أصبحت من مصادر الغذاء المهمة في هذا العصر كما ازدادت الأدوات البازلتية الكبيرة كالمجاريش والأجران وظهرت المناجل الصوانية وهي الأداة الرئيسية في قطع نباتات القمح والشعير البرية ، وابتكارات أخرى أكملت كلها الاستعدادات للمرحلة المقبلة ومهدت لنشوء الزراعة والتدجين ، في العصر اللاحق .

٣ - الحضارة الزارزية:

في الوقت الذي أقام الكباريون - الهندسيون ، في بلاد الشام ، أي في النصف الأول من العصر الحجري الوسيط كانت موجودة إلى الشرق منهم في شمال بلاد الرافدين مجتمعات نصف مستقرة أيضاً نسميها الزارزية ، نسبة إلى موقع زارزي في كردستان العراق . وقد دلت الدراسات في كهف شانيدار على أن الزارزيين قد تطوروا بشكل محلي عن أسلافهم البار دوستيين الذين عاشوا في الباليوليت الأعلى . حيث وجدت آثارهم في الطبقة (B₂) التي تعلو مباشرة الطبقة (C) البار دوستية في ذلك الكهف المهم . وقد انتشر الزارزيون ليس فقط في شمال العراق وإنما وصلوا حتى وادي خوارم باد في لورستان إيران وشواطئ بحر قزوين في الشرق . واستخدم هؤلاء الأدوات الميكرو ليتية - الهندسية بكثافة كبيرة ، وبخاصة الحراب والسكاكين والمثاقب وبنوا البيوت البسيطة لكنها تختلف عن مساكن جيرانهم الكباريين التي كانت مغروسة ، أي محفورة ، في الأرض ، بينما أقام الزارزيون بيوتهم على سطح الأرض مباشرة بالرغم من أن الدلائل على ذلك ليست قاطعة ، وبنوا بقربها الصوامع العميقة التي استخدموها ، لتخزين الحبوب والأطعمة الأخرى مما يشير إلى درجة عالية في تنظيم اقتصادهم وجمع ثروتهم للاستفادة منها عند الحاجة . وقد عاش هؤلاء على صيد الغزلان والبقر الوحشي والماعز والغنم وجمعوا ثمار اللوز والزعرور وحبوب القمح والشعير ويعتقد أنهم دجنوا الكلب منذ ذلك الزمن الباكر . وتدل قبور موتاهم المنتظمة على تطور شعائر الدفن لديهم .

ووجدت في المواقع الزارزية بعض الأدوات المصنوعة من الحجر البركاني ، السبج ، الأوبسيديان (Obsidian) الذي تبعد مقالعه الأصلية بضع مئات من الكيلو مترات إلى الغرب منهم . مما يدل على اتصالات وتبادلات ، ربما تجارية ، بين الزارزيين وشرق الأناضول ، وبخاصة مناطق بحيرة فان الغنية بخامات السبج . وكما كان الكباريون الممهدين للزراعة والتدجين في بلاد الشام فلقد شق الزارزيون الطريق نحو المجتمعات الزراعية في مناطق زاغروس العراقية - الإيرانية .

٤ - الحضارة النطوفية:

في النصف الثاني، في العصر الحجري الوسيط، أي بين / ١٠ - ٨ / ألف سنة ق. م، ١٢ - ١٠ ألف سنة حسب التاريخ المعير، ظهر في بلاد الشام النطوفيون، نسبة إلى وادي النطوف (مغارة شقبة) في فلسطين، متطورين عن أسلافهم الكباريين - الهندسيين وتبلور تجانس حضاري واحد هو الأوضح من نوعه حتى الآن. امتد من وادي النيل في الغرب حتى الفرات في الشرق مثلته الحضارة النطوفية التي يقسمها الباحثون، معتمدين على أسس مناخية وحضارية إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى: وهي قديمة تؤرخ على الألف الثانية عشرة ق. م سادها مناخ رطب وبيئة غنية بالغابات، وصنعت فيها أدوات ميكروليثية هندسية مشدبة من خلال طرق مائلة تقوم على وجهي الأداة ويلتقي بعضها ببعض عند الحافة العاملة، أطلق على هذا النوع من التشذيب «حلوان» حيث عثر عليه في مصر لأول مرة.

والمرحلة الثانية، وتؤرخ على الألف العاشر ق. م وتميزت بمناخ جاف ارتفعت فيه الحرارة وتراجعت الغابات. وقد ترك النطوفيون المغائر بالكامل تقريباً، وأقاموا قرى الصيادين الحقيقية الأولى، بنوا فيها بيوتاً أكثر كثافة لكن موادها وأشكالها هي نفسها كما كانت في العصر الكباري الهندسي، سكنت في هذه القرى أعداد أكبر من الناس. وتدل المساحة الكبيرة لقسم منها - وهي التي وصلت إلى / ٢٠٠٠ / م في عين الملاحه بوادي الأردن وإلى / ٣٠٠٠ / م في روش هوريشا بفلسطين - على أن متوسط سكان القرية الواحدة تراوح بين / ١٠٠ - ٢٠٠ / شخص، وهذا تجمع بشري كبير لم نصادفه قبل الآن، يرى الباحثون مرحلة الانتقال من مستوى الجماعة إلى مستوى القبيلة ونشوء علاقات اقتصادية أكثر تطوراً وتعقيداً.

وقد اصطاد النطوفيون الحيوانات البرية التي اختاروها بتركيز واضح كالغزال والبقر والماعز، كما تغذوا بالطيور والثروات المائية وبخاصة السمكية منها. والتقطوا الثمار البرية وجبوب القمح والشعير من وديان الأنهار التي أقاموا فيها، وهم يمثلون المرحلة الأخيرة في اقتصاد الصيد واللقط قبل معرفة الزراعة والتدجين. وعن أدواتهم

الحجرية ، فقد استمروا في صنع الأدوات الميكروليثية الهندسية المركبة كالسكاكين والمخارز والمناجل ولكن أنتجوا أدوات هندسية جديدة على شكل هلال أو نصف دائرة (Lunet) (الشكل : ٢٥) كما صنعوا الأدوات العظمية وبخاصة المخارز والأدوات البازلتية الزراعية الثقيلة . وظهرت لديهم ، لأول مرة في بلاد الشام ، الفنون الأولى على شكل تماثيل صغيرة ، دمي (Figurine) ، مختزلة حيوانية وإنسانية وأدوات زينة ، كالحرز ، من العظام والأسنان والصدف . وهم أول من بنوا المقابر الكبيرة بجوار قراهم حيث دفنوا موتاهم بشكل فردي أو جماعي ، بأوضاع ممددة أو مثنية ولكن دون توجيه خاص وزودوهم بأشياء مختلفة كأدوات الزينة من الحرز والصدف الذي جلبوه من مناطق بعيدة . وبفضل هذه المقابر أصبحنا نعرف الكثير حول صفاتهم العرقية التي لا تختلف كثيراً عن سكان بلاد الشام الحاليين المنسوبين إلى العرق المتوسطي .

وكذلك لقد اكتشفت عشرات القرى النطوفية وهي تلتقي كلها في وجود سمات عامة مشتركة فيما بينها كالبناء ، والفن ، والدفن ، والأدوات الميكروليثية الهلالية والأدوات الزراعية البازلتية ، على وجود الاختلاف أحياناً في التفاصيل من موقع إلى آخر . وعثر - أيضاً - على مواقع الحضارة النطوفية في مختلف مناطق بلاد الشام بما فيها تلك التي أتت من وادي الحمة وعين راحوب في الأردن . ويعد موقع عين الملاحه في وادي الأردن أحد أفضل النماذج لهذه القرى في بلاد الشام ، فلا بأس أن نقول عنه بعض التفاصيل .

٥ - عين الملاحه:

تقع عين الملاحه في حوض الحولة في وادي الأردن قرب نبع ماء يحمل الاسم نفسه ، وهي قرية كبيرة تبلغ مساحتها حوالي / ٢٠٠٠ م^٢ . اكتشفت منذ الخمسينات من هذا القرن . تقب منها حوالي / ٢٥٠ م^٢ ، وكشفت فيها ثلاث سويات أثرية (قرى) تعود كلها إلى المرحلة النطوفية القديمة . وعاش سكان هذه القرية في بيوت متقنة الصنع ، مغروسة قليلاً في الأرض أساساتها من الحجر ، جدرانها من الطين بقيت محفوظة بارتفاع بلغ حوالي المتر ، وسقفها من الخشب ، وأشكالها دائرية ويتراوح

قطرها بين / ٨-٥ م^٢. أرضيتها مرصوفة بالحجارة، في وسطها موقد وبقيها مخازن للحبوب محفورة بعمق في الأرض، وجدرانها من الطين القاسي جداً (الشكل: ٢٦، ١) وجدت ضمن بيوت السكن آثار كثيرة بينها أدوات زراعية كبيرة وحجرية صغيرة تجاوز عددها الـ / ٥٠ ألف قطعة. معظمها نصال متنوعة وأدوات ميكروليثية - هندسية ومناجل وأدوات عظمية كالمخارز والإبر وخطاطيف صيد الأسماك (الشكل: ٢٦، ٢) وآثار فنية أخرى بينها لوحتان من الحجر نحت على كل منها رأس إنسان مختزل الملامح، وقبضات عظمية عليها إشارات ورموز ولها شكل رؤوس غزلان أو حيوانات غير محددة (الشكل: ٢٧، ١-٣) وأوان حجرية تحمل حزوزاً زخرفية، إضافة إلى أدوات الزينة، كالخرز والصدف التي وضعت مع العديد من الهياكل العظمية المدفونة في داخل بيوت السكن، كما يعتقد أن الناس قد دجنوا الكلب الذي عثر على قبر له أيضاً. لكنهم بقوا يعتمدون في غذائهم على صيد الغزلان والأياثل والثور والخنزير والطيور والتقطوا القمح والشعير، ودلت الدراسات على أن عين الملاحه ضمت حوالي / ٣٠٠ شخص وهذا عدد كبير هو الأول من نوعه في ذلك العصر ويمثل القرية بكل معنى الكلمة.

٦ - النطوفيون في سورية:

وجدت في سورية الأدوات الحجرية النطوفية، وبخاصة الميكروليثية - الهندسية ذات الأشكال الهلالية، منذ الثلاثينات في الملجأ الثالث بوادي سكفتا في سبرود. ثم تابعت الاكتشافات من الكوم في منطقة البادية السورية ونهر الحمر في وادي الفرات قرب دير الزور والطيبة في منطقة درعا وجبرود قرب دمشق. وكلها تعود إلى المرحلة النطوفية القديمة والوسطى، وعثر فيها على الأدوات الحجرية الصغيرة والزراعية الكبيرة كالرحى والمدقات والأجران وأدوات الزينة وخرز من الأسنان والصدف. لكن التنقيبات الأخيرة في حوض الفرات أدت إلى اكتشاف مواقع مهمة، في المريط وأبو هريرة، وهي تعود إلى المرحلة النطوفية الحديثة وتشابه في غناها وتنوعها القرى الفلسطينية. ووجدت في الطبقة الأولى (IA) من تل المريط آثار قرية تعود إلى منتصف الألف الحادي عشر ق.م عاش

سكانها في بيوت دائرية صغيرة لا يتجاوز قطرها متراً واحداً مما أثار الشكوك حول كونها مستودعات حبوب وليست بيوتاً للسكن . وفي الطبقة التي تليها (I B) لا تلبث هذه البيوت أن تصبح أكبر ويصل قطرها حتى / ٦ / م وتغرس في الأرض بعمق / ٥٠ / سم مما يدل على أنها سكنت بلا شك . كما وجد في داخلها آثار مختلفة بينها خرز من الحجر المصقول ، وهذه أول مرة يصقل فيها الحجر في عصور ما قبل التاريخ وأدوات من السبج ، الأوبسديان ، المستورد من الأناضول ، وأخرى ميكروليثية نطوفية نموذجية وهيكل مدفونة داخل بيوت السكن . (الشكل : ٢٨) .

وكشف في الطبقات الدنيا من تل أبو هريرة المجاور عن بيوت دائرية محفورة في الأرض الصخرية ، عمقها / ٧٠ / سم وقطرها / ٢ , ٥ / م ، فيها آثار أعمدة خشبية ومواقد ، وأوان حجرية ، هي الأقدم من نوعها في قطرنا أيضاً وأدوات زراعية وميكروليثية هلالية ومواد للزينة تعود إلى نهاية العصر النطوفي . وقد أوردنا هذه التفاصيل لنؤكد أنه في سورية ، أيضاً ، توجد الحضارة النطوفية التي لها كل الصفات المعروفة في فلسطين كالبناء ، والفن ، والمقابر ، والأدوات العظمية ، والأدوات الزراعية الكبيرة ، والميكروليثية الصغيرة ، حتى نرد على موقف بعض الباحثين ، اللاعلمي ، الذي لا يرى النطوفي إلا في حضارة فلسطينية بحتة ، ولا يعترف بوجوده في مكان آخر . وإذا وجد فعلاً فلا يسمونه باسمه وإنما «كبارى هندسي (B)» وهذا يدفع إلى الاستغراب ؛ فكيف يمكن أن يجعل الموقع الذي له الصفات نفسها في فلسطين نطوفياً ، بينما في سورية ، أو لبنان ، ليس كذلك . هكذا سقطت بعد اكتشافات الفرات ادعاءات هؤلاء ؛ وقد رفضها باحثون كبار وحذروا منها أمثال جاك كوفان الذي وصف عدم الاعتراف بالنطوفي السوري بأنه «العنصرية الثقافية» غير المقبولة (Discrimination Culturelle) إذ لا يختلف المربط عن الملاحية بل إنه يمتاز بالحجر المصقول ، وبنوع من الأدوات الفاعلة في قطع الأخشاب «قدوم المربط» وهذا تجديد لم تعرفه المواقع الفلسطينية (الشكل : ٢٠ ، ٢) كل ذلك يؤكد وجود حضارة نطوفية واحدة امتدت من النيل إلى الفرات وإن اختلفت صفاتها المحلية من مكان إلى آخر .

٧ - فنون النطوفيين ومعتقداتهم:

ليست لدينا من بلاد الشام القديمة أية آثار تدل على فنون أو معتقدات دينية سبقت العصر النطوفي؛ علماً أننا لا نستبعد أن تكون مجتمعات العصر الحجري القديم، قد عبرت عن مفاهيمها الروحية بأشكال لم يصل إلينا منها شيء. ولكن الوثائق الأثرية أثبتت أنه منذ مطلع الألف العاشر ق.م بدأت تتوضع الخطوط العريضة التي تمثل فنون النطوفيين ومعتقداتهم وموقفهم من بيئتهم ومن مجمل القضايا التي كانت تثير اهتمامهم، وتتفاعل في أعماق نفوسهم. ونستنتج ذلك من الأعمال التي رسمها أو نحتها هؤلاء في قراهم الأولى وأهمها التماثيل الصغيرة التي نستمدها منها القسم الأكبر من معلوماتنا. وهي تدل على أن الفن النطوفي كان تصويراً وتشخيصاً مبسطاً، تناول خاصة الحيوانات التي عاشت في الوسط المحيط ولكن نادراً ما جسد البشر. وعلى وجود الصعوبات الكبيرة التي تواجهنا في تحديد أنواع الحيوانات التي عالجها الفنانون، نلاحظ أن الغزال والأيل قد احتلا الصدارة. وقد أتت الفنون النطوفية الأولى من فلسطين، سواء من المواقع المكشوفة أم من الكهوف وهي دمي حيوانات صغيرة، مصنوعة إما من الطين وإما الحجر وإما من قرن الغزال، بعضها واقعي وبعضها الآخر مختزلة ومبسطة. نذكر منها قبضات مناجل عظمية تنتهي على شكل رأس غزال وجدت في السوية النطوفية في مغارة الكبارا ووادي فلاح. ومن الأعمال التي صورت البشر لدينا نماذج صغيرة، كالرأس المبسط المنحوت على لوحة حجرية من موقع الواد، ودمية بلا رأس ولا أطراف من عين الملاحه، وتمثال صغير وجد في عين صخري بفلسطين يصور شخصين رجلاً وامرأة في احتضان حميم وهو يمثل بلا شك العملية الجنسية التي كانت مجتمعات ما قبل التاريخ تنظر إليها بقدسية كما تفعل بعض الشعوب البدائية الحالية (الشكل : ٢٧، ٤).

وفضلاً عن ذلك فقد وجدت في معظم المواقع أدوات زينة كالخرز والأطواق أو الحلق المصنوع من الصدف والأسنان المثقوبة والفقرات، وزخارف أخرى على شكل طيور أتت من موقع رأس زين بفلسطين.

وكذلك تندر الوثائق حول أفكار النطوفيين ومعتقداتهم علماً بأنها يمكن أن تكون موضع تفسيرات مختلفة، ومتناقضة أحياناً، لكننا نلاحظ أنهم اصطادوا الغزال أكثر من أي نوع آخر إذ بلغت نسبة عظامه ٦٥٪ من بين الحيوانات التي اصطادها النطوفيون في سورية، بينما وصلت هذه النسبة إلى ٩٧٪ في فلسطين. مما يبعث على التساؤل لماذا خص الغزال بهذا الاهتمام واحتل تلك المكانة العالية بين حيوانات الصيد على وجود أجناس أخرى كثيرة، عاشت إلى جانبه وكانت أكثر فائدة منه، كالبقر والغنم والماعز؟ ثم لماذا كان الغزال الموضوع الرئيسي الذي جسده الأعمال الفنية؟ لذلك نخمن بوجود موقف نفسي معين ربط الإنسان بهذا الحيوان الذي وقع عليه الاختيار أيضاً دون غيره مما أعطاه طابعاً روحياً ودينياً وفنياً في الوقت نفسه، ونحن نعلم من خلال المقارنات الأنتوغرافية أن الحيوان الذي تصطاده المجتمعات البدائية الحالية أكثر، يكون هو «المقدس» لديها ويتمتع، إضافة إلى فوائده الاقتصادية، بمكانة روحية خاصة. وسوف نرى كيف أن المركز المتميز للغزال، احتله في العصر اللاحق الثور حيوان المجتمعات الزراعية المفضل. وكذلك حظي الكلب بعناية واضحة، حيث عثر عليه مدفوناً باهتمام بقرب جثة رجل في موقع عين الملاحه ونحن لا نقول: إنهم قدسوا الكلب لكن نؤكد أن هذا الحيوان الاجتماعي المخلص كان قريباً جداً إلى نفوس المجتمعات النطوفية التي يعتقد بأنها دجنته قبل كل الحيوانات الأخرى.

ومن قبل مر معنا كيف أن النطوفيون دفنوا موتاهم في قبور منظمة، وبشكل فردي أو جماعي وبأوضاع مختلفة أغلبها القرفصاء، التي تشبه شكل الجنين في الرحم، ولكننا نلاحظ، في بعض القبور أن الجمجمة (الرأس) فصلت عن الجسد ودفنت منفردة، داخل بيوت السكن وأحياناً وضعت عدة جماجم مع هيكل واحد كما في عرق الأحمر بفلسطين وهذا الواقع يجعلنا نعاود التساؤل لماذا حظيت الجماجم بهذه العناية ودفنت منفصلة وداخل البيوت؟ ونظن أنها قدست وعبدت لأنها كانت عندهم تجسداً لموتاهم في بيوت أحيائهم. إذ آمنوا بحياة أخرى ورفضوا اعتبار الموت نهاية الإنسان لذلك فإننا نستطيع التحدث في هذا العصر عن وجود عقيدة «عبادة الأجداد» أو «تقديس الأموات» وهو اعتقاد أخذ في العصر اللاحق شكلاً أكثر وضوحاً وتعبيراً كما سنرى.



الفصل الثاني

العصر الحجري الوسيط في أوروبا

الفصل الثاني

العصر الحجري الوسيط في أوروبا

اختفت بعد تراجع الجليد في نهاية البليستوسن حضارات الباليوليت الأعلى الأوربية الرائعة وتحرك مركز النشاط البشري إلى الشمال حيث المناطق الأكثر برودة التي بقيت تعيش فيها أشجار التوندرا وحيوان الرنة. وبدأ في حوالي مطلع الألف الثامن ق. م عصر الميزوليت الأوروبي متأخراً عن الشرق العربي القديم بحوالي أربعة آلاف عام. وقد عاشت في هذا العصر في إسكندنافيا وإنكلترا جماعات متنوعة؛ حفظت أفضل مواقعها على شواطئ البحار والبحيرات ووديان الأنهار وعثر فيها على مواد أثرية وعضوية مهمة، وأكثرها أهمية المواقع الدانمركية التي أعطيت أسماءها للحضارات الميزوليتية في شمال أوروبا وأولها حضارة لينغبي (Lyngby) التي ابتدأت في مطلع هذا العصر واستمرت حتى الألف السابع ق. م وكان مركزها الرئيسي الدانمرك لكنها وصلت إلى السويد واشتهرت بتصنيع الفؤوس، من قرون الرنة، وبالنبال العريضة ذات الساق القصيرة (الشكل : ٢٠ ، ١). إلا أن الدخول الكامل في الميزوليت حصل بقدوم حضارة ماغلاموزي (Maglemose) التي استمرت حتى الألف الخامس ق. م وشغلت منطقة واسعة من إنكلترا حتى جنوب إسكندنافيا وشمال غرب روسيا. ويوجد الآن قسم كبير من مواقعها تحت مياه البلطيق وبحر الشمال لأنه عندما أقام الناس على هذه الشواطئ كانت مياه البحر أدنى من مستواها الحالي. وقد تطور المغلاموزيون من اللينغبيين، وعاشوا على صيد الخنازير والأبقار والطيور والأسماك والتقاط الجوز والعليق. وقد وفرت مستنقعات الخث (Peat) أفضل الشروط لحفظ العديد من الآثار سريعة التلف، كالأقواس الخشبية وشباك صيد السمك والقوارب والخطاطيف، وأدوات أخرى من العظم أو من قرون الوعل؛ كما وجدت الفؤوس والبلطات الحجرية التي استخدمت في قطع الغابات الكثيفة التي نمت

هناك . ومن فنون الماغلوموزيين ، الأدوات العظمية التي نقشت عليها أشكال شبه إنسانية وخطوط هندسية ورمزية والخرز من الأسنان والصدف ، وهي تذكرنا بالفن الباليوليتي في جنوب أوروبا وغربها (الشكل : ٢٨ (أ) ، ١) . الحضارة الثالثة هي أرتبولي (Ertebole) التي استمرت بين الألف الخامس والثاني ق . م ، وقد تطورت من سابقتها لكنها انتشرت على مساحة أكبر منها ، ومعظم مواقعها تحاذي شواطئ البحر مباشرة وهي على شكل أكوام ضخمة من الفضلات استخرجت منها عشرات الآلاف من القطع الأثرية بينها أوان فخارية كبيرة ومتميزة (الشكل : ٢٨ (أ) ، ٢) .

أما في جنوب ، أوروبا ، وغربها فقد ظهرت في هذا العصر الحضارة الأزيلية (Azilien) المنسوبة إلى الموقع الفرنسي أزيل وتوافق ظهورها مع مطلع الألف الثامن ق . م عندما حل هناك مناخ دافئ وانتشرت الغابات مكان التوندرا والأياثل بكثرة في تصنيع أدوات صيد الأسماك وبخاصة الخطاف ذي القاعدة المثقوبة لتثيته ، ورؤوس السهام والحراب وعلى فنون الأزيليين تدلنا بعض الحصى والأدوات الحجرية التي تحمل رسوماً بالمغرة الحمراء ، على شكل خطوط وأشكال رمزية ما زلنا نجهل معانيها (الشكل ٢٨ (أ) ، ٣) . وظهرت في الألف السادس ق . م حضارة تاردونواز (Tardenoisien) التي انتشرت بشكل أوسع من سابقتها ووصلت إلى جنوب إنكلترا وشرقها وألمانيا وإسبانيا ، ومعظم مواقعها مكشوفة في العراء في مناطق رملية قرب مراكز المياه . وقد مرت هذه الحضارة بثلاث مراحل تطورية ، يميزها بشكل أساسي نوع صغير جداً من الأزاميل (Microburin) استخدم في تصنيع الأدوات العظمية الدقيقة ، (الشكل : ٢٨ (أ) ، ٤) . ومنذ الألف الرابع ق . م دخل قسم من المجتمعات التاردونوازية في العصر الحجري الحديث بينما تابع قسم آخر غمط الحياة الميزوليتي الذي استمر إلى العصر البرونزي الأوروبي أي حتى النصف الأول من الألف الثاني ق . م وهو زمن قطعت فيه منطقتنا شوطاً بعيداً على طريق الحضارات التاريخية .

الباب الخامس

المجتمعات الزراعية في العصر الحجري الحديث (النيوليت)

- الفصل الأول: ظهور القرى الزراعية الأولى
- الفصل الثاني: القرى الزراعية في عصر النيوليت ما قبل الفخار في بلاد الشام
- الفصل الثالث: منطقة زاغروس منذ عصر ما قبل النيوليت وحتى النيوليت ما قبل الفخار
- الفصل الرابع: المجتمعات الزراعية الأولى في الأناضول
- الفصل الخامس: انتشار الزراعة في العالم
- الفصل السادس: القرى الزراعية في عصر النيوليت الفخاري في بلاد الشام
- الفصل السابع: مستوطنات عصر النيوليت الفخاري في الأناضول
- الفصل الثامن: الحضارات النيوليتية المتطورة في بلاد الرافدين

الفصل الأول

ظهور القرى الزراعية الأولى

١ - الميزات العامة للنيوليتين

٢ - فرضيات ظهور الزراعة

أ - فرضية بريدوود

ب - فرضية كوفان

ج - مناقشة

الفصل الأول

ظهور القرى الزراعية الأولى

١ - الميزات العامة للنيوليت:

في حوالي نهاية الألف العاشر ق. م وصلت التحولات الاقتصادية الاجتماعية، التي بدأت منذ العصر الميزوليتي في بلاد الشام إلى قمته، بعد أن بلغ منظوفيون درجة عالية من التقدم وضعت الأساس المادي والفكري المباشر للانعتاف الجذري والأهم في تاريخ البشرية، الذي حصل في هذا العصر وتمثل في الانتقال من الصيد واللقط إلى الزراعة (Agriculture) والتدجين (Domestication). فقد تحول الإنسان من مستهلك سلبي لخيرات الطبيعة الحرة إلى منتج إيجابي، وبذلك تحول من الاقتصاد الاستهلاكي (Consumptive Economy) إلى الاقتصاد الإنتاجي (Productive Economy) وكان الشعير والقمح، بأنواعهما المختلفة أول ما زرع الإنسان بعد أن جمع هذه الحبوب في العصر السابق من مختلف أرجاء المنطقة المسماة بالهلال الخصيب، الموطن الطبيعي لها. كما انطلق التدجين من تربية الحيوانات التي اصطادها، برة سابقاً، وبخاصة الصغيرة منها ذات الطبع الاجتماعي التي لديها استعداد فطري لمعايشة الإنسان ووجدت في مناطق الحبوب البرية نفسها. ودجن في البداية الكلب لأهميته في الحراسة والصيد، وتلاه الغنم والماعز ثم البقر للفائدة من لحمها وحليبها وجلدها ومع ابتداء الزراعة والتدجين تحولت قرى الصيادين السابقة إلى قرى المزارعين وكان هذا التغيير كبيراً إلى درجة أطلق عليه اسم الثورة النيوليتية (Neolithic Revolution) التي لم تكن انقلاباً مفاجئاً أطاح بالقديم وألقاه جانباً، كما يفهم من المعنى لأول وهلة، بل حصيلة جهد مادي وفكري طويل؛ جذوره في الماضي البعيد ولكن قطفت ثماره الآن. لأنه بحلول الزراعة والتدجين مكان الصيد والجمع أصبح الإنسان سيداً للقمّة عيشه ينتجها متى وكيف أراد ولم يعد مرهوناً

بالطبيعة وتقلباتها . وقد تلا ذلك تقدم شامل في كل مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية والروحية فتطورت القرى النطوفية السابقة وأصبحت أكبر وأفضل تنظيماً، وسكنت مجتمعات العصر الحجري الحديث في بيوت قوية وكبيرة، ومربعة أو مستطيلة الأشكال متلاصق بعضها ببعض ويمكن توسيعها كلما دعت الحاجة . وبنيت في البداية من الطين والحجر ثم من اللبن المكيف وطلبت أرضها بالملاط الأبيض القاسي أو رصفت بالحجارة، وزودت بالمواقد والتنانير، للتدفئة وطبخ الطعام وبالصوامع لجمع الحبوب . وعاشت في هذه البيوت مجموعات أكبر قامت بينها علاقات أكثر تنظيماً تنازل فيها الإنسان عن فرديته لينقاد إلى الجماعة وقوانينها بعد أن سيطر على غرائزه ونمت ثقافته وتفكيره وترسخت قيمه ومعتقداته ؛ إذ حصل حينئذ تغير كبير في المجال التقني، فظهرت الأدوات الحجرية المصقولة الأكثر مضاء وفاعلية، ومن هنا نسميه (عصر الحجر المصقول) واتسع استخدام الأدوات الزراعية الثقيلة التي أنتجها المجتمعات الميزوليتية السابقة، والأدوات الصغيرة وبخاصة مناجل الحصاد (Sickle-Blade)، وتحسنت الأسلحة فظهرت لأول مرة رؤوس النبال (Arrowheads) دليل استخدام القوس في الصيد . وتنوعت المشاقب والمكاشط والسكاكين وغيرها وصنعت بكثرة الأدوات المركبة والعظمية والخشبية كالمخارز والملاعق . إن نمط الحياة الزراعية الجديدة دعا إلى ضرورة تخزين الطعام والشراب فاخترت الأواني الحجرية في نهاية الألف السابع ق . م . ثم تلتها بعد قليل وفي مطلع الألف السادس الأواني الفخارية التي صنعت من الطين المحضر والمجفف أو المشوي والتي استعملت على نطاق كبير وأصبحت بدءاً من النصف الثاني للعصر الحجري الحديث أي النيوليت الفخاري أهم سمة تميز الشعوب والحضارات، التي قامت بينها علاقات إنتاجية وتجارية واسعة وعرفت تبادل السلع، والنسيج وصناعات الملابس، والسلال، والحصر وغير ذلك . كما حصل تقدم بارز على صعيد المعتقدات والفنون فظهرت الرسوم الجدارية والتماثيل الحجرية والطينية بأشكال حيوانية وإنسانية تبرهن على ترسيخ عقيدة «الثور المقدس»، «الربة الأم»، «وعبادة الأجداد» التي استمرت زمناً طويلاً في أيديولوجيات الشعوب الشرقية .

٢ - فرضيات ظهور الزراعة:

من المتفق عليه بين أكثرية الباحثين ، أن الزراعة الأولى قد نشأت في بلاد الشام القديمة وفي سورية - وفلسطين على وجه التحديد ثم انتقلت إلى مناطق أخرى في العالم . ولكن يدور نقاش حاد حول العوامل والأسباب التي أدت إلى ظهور الزراعة ، التي جعلت بعد النار وقبل الثورة الصناعية الحديثة أهم خطوة حضارية حققها البشر . وقد تعددت التفسيرات حول أسباب الزراعة واستفادت بعض الفرضيات من معطيات علمية وفرها البحث الأثري المباشر بينما سيطر على قسم منها الطابع الفرضي والنظري الذي لا يستند إلى دليل مادي مقنع وتباينت مواقف الدارسين فركز بعضهم على أهمية البيئة أو المناخ وأثرهما ؛ إذ حسب رأيهم ، حصل في نهاية البليستوسن وبداية الهولوسن جفاف مناخي هدد وجود النباتات والحيوانات البرية التي عاشت على الأمطار وكان على الإنسان ، حتى يحافظ على غذائه ، واجب الرد على هذا الواقع فابتكر الزراعة والتدجين ليؤمن مردوداً اقتصادياً كافياً ويتحرر من الاعتماد على الطبيعة ويمثل هؤلاء نظرية التحدي والرد (Challenge and Response) التي قال بها المؤرخ الشهير أرنولد توينبي (A. Toynbee) فقد أتى التحدي بسبب شح في الخيرات وكان الرد عليه هو إيجاد وسائل إنتاج إضافية تعوض ذلك النقص . وأولى بعض الباحثين الجانب السكاني الديمغرافي الأهمية الأكبر وقالوا : إن عدد الناس في هذا العصر قد تزايد بشكل كبير ولم تعد موارد الطبيعة تسد حاجاتهم وأصبح لا بد من إنتاج كميات أكبر من القوت ، لإطعام الأفواه الجديدة المتزايدة ، وكانت الزراعة والتدجين الحل الوحيد . وهناك من يعطي البيئة الفضل الأول لأنها هي التي وفرت الحبوب والحيوانات البرية ومنها اكتسب الإنسان خبرة الزراعة والتدجين . وهناك من يقول : إن المستوى التقني «العالي» الذي وصل إليه إنسان هذا العصر هو الذي مكّنه من تحسين وسائل الاستفادة من خيرات بيئته بابتكار الزراعة . بينما يميل آخرون إلى اعتبار السوية الاجتماعية ، والحضارية المتطورة لإنسان النيوليت هي التي أوصلته إلى اختراع طرائق الإنتاج الجديدة المتمثلة بالعمل الزراعي المنظم وكبير المردود .

ومهما يكن فإننا نلاحظ في هذه المواقف كلها وجود عنصرين أساسيين الأول البيئة والثاني الإنسان . ونحن لو أعطينا الأفضلية واحداً على الآخر فإن ذلك لا يقلل من أثرهما مجتمعين ؛ كما دلت على ذلك الاكتشافات الأثرية التي أكدت أهمية كل من البيئة والإنسان ودعمت إلى حد كبير مكانة فرضيتين تلتقيان حول هذه النقطة سوف نتناولهما بإيجاز .

أ. فرضية بريدوود:

انطلق هذا الباحث الأمريكي ، روبرت بريدوود ، (R. Braidwood) من تطبيق منهج علم الآثار الجديد الذي يعتمد المنهج الاستدلالي (Deductive) الذي يقوم بطرح أفكار وفرضيات حول الحضارة القديمة ومحاولة التحقق من هذه الفرضيات من خلال التنقيب والبحث الميداني عكس المنهج الاستقرائي (Inductive) الذي يطبقه علم الآثار التقليدي - والذي يركز على استنتاج المعلومات كما تظهر أثناء البحث الأثري غير الموجه بفكر أو فرضية مسبقة . وقد افترض بريدوود أن الزراعة نشأت في المناطق التي نمت فيها بالأصل الحبوب البرية أي الموطن الأصلي الطبيعي لهذه النباتات (Nuclear Zone) وليس في منطقة الواحات الغنية بالمياه كما ظن غوردن شيلد (G. Childe) وغيره إثر اكتشافات أريحا في فلسطين ، في الخمسينات من هذا القرن . وحتى يتأكد الرجل من فرضيته اختار عدداً من المواقع في سفوح جبال زاغروس في شمال العراق . ونقب خاصة في جارمو بمشاركة بعثة أثرية عمل فيها لأول مرة مختصون في البيئة القديمة وكان بذلك أول من أدخل الدراسات البالتولوجية ، النباتية والحيوانية ، في علم الآثار . وقد عثرت هذه البعثة على حبوب مزروعة تعود إلى مطلع الألف السابع ق. م وبذلك تأكدت فرضية «الموطن الطبيعي» (Natural Habitat) التي انطلق منها ووجد دليلها المادي في جارمو التي تقع في منطقة جبلية مرتفعة تهطل فيها أمطار كافية للزراعة البعلية . ولكن لم يعثر فيها على دليل لجفاف مناخي أو غيره بل

بقيت هذه الحبوب تنمو هناك على امتداد الزمن النيوليتي وهذا بدوره أبطل أهمية فرضية الواحات (Oasis Hypothesis) كل ذلك دعا بريدوود إلى أن يصوغ فرضيته التي تلخص بأن الزراعة قد نشأت لسببين أساسيين: الأول، البيئة التي وفرت الحبوب، القمح، والشعير، بشكل طبيعي والثاني الإنسان الذي توصل خلال الزمن إلى مستوى تقني أفضل ساعده على تنظيم الاستفادة من خيرات بيئته، الطبيعية والانتقال من التقاط الحبوب البرية إلى زراعتها. ولكن نقطة الضعف في هذه النظرية هو السؤال الآتي: لماذا في هذا الوقت بالذات، أي الألف السابع ق. م، مارس سكان جارمو الزراعة وليس قبل ذلك أو بعده، ما دام أن العاملين الأساسيين في نشوئها وهما الحبوب الطبيعية والتقنية المتطورة كانا موجودين قبل أن يزرع هؤلاء السكان القمح والشعير؟.

ب. فرضية كوفان:

ينطلق السيد جاك كوفان أستاذ ما قبل التاريخ الفرنسي من منهج مغاير لبريدوود فهو لا يطرح أفكاراً أو افتراضات مسبقة حول الزراعة؛ ويرفض القبول بالفرضية الجاهزة كما يفعل أنصار علم الآثار الجديد وإنما يترك المكتشفات المادية الملموسة تتحدث عن نفسها أي يتبع المنهج الاستقرائي. وهو يحاول تفحص الفرضيات المتعلقة بنشوء الزراعة كلها من خلال المكتشفات الأثرية انطلاقاً من أن نتائج البحث العلمي المدعم بالأدلة الموضوعية هي مقياس نجاح الفرضية أو إخفاقها وقد توصل هذا الباحث بفضل تنقيباته المهمة في موقع المربيط السوري إلى رأي مفاده أن الفكر الإنساني أولاً والبيئة ثانياً كان لهما الأثر الأهم في نشوء الزراعة والتدجين وأن الفضل في حصول هذا التحول يعود إلى الإنسان الذي بلغ سوية اجتماعية فكرية عالية مكنته من تنظيم الاستفادة من خيرات بيئته. وكذلك اتضح أن منطقة جنوب غرب آسيا، وضمنها الهلال الخصيب قد عرفت في مرحلتين زمنييتين متتاليتين تحسناً في المناخ الذي أصبح مائلاً ودافئاً مما سمح بظهور

الحبوب البرية وبخاصة القمح والشعير. التحسن الأول حصل في مطلع الألف العاشر ق. م وساعد على نشوء قرى الصيادين ، النطوفية الأولى ؛ والثاني في مطلع الألف الثامن ق. م وأدى إلى ظهور قرى المزارعين الأولى. إن تزامن هذه التحسنات في المناخ مع ظهور قرى الصيادين والمزارعين يدل على أن أثر البيئة في الانعطاف الاقتصادي الجديد كان أكبر مما ظنه بعض الباحثين.

ومن جهة أخرى فقد أثبتت تنقيبات المربيط أن السكان هناك عرفوا زراعة القمح والشعير منذ النصف الأول من الألف الثامن ق. م. كما بينت السوية الثالثة على / ٧٧٠٠ ق. م أن هذه الحبوب عاشت بشكل طبيعي في حوض الفرات الأوسط والتقطتها المجتمعات النطوفية قبل أن تزرع في هذا العصر مما يشير إلى صحة فرضية نشوء الزراعة في الموطن الطبيعي للحبوب البرية. ولكن لم يثبت حصول أي شح في الخيرات بل على العكس ساد مناخ دافئ وأمطار كافية ساعدت على استمرار وجود النباتات والحيوانات البرية، مما يدل بدوره على عدم دقة الفرضية التي تربط نشوء الزراعة بالجفاف المناخي أي التحدي المناخي والرد على هذا (فرضية الواحات). وكذلك لم يثبت في المربيط حصول أي زيادة غير عادية في السكان وإنما بقي هذا التزايد ضمن حدود الطبيعة، مما يشير إلى عدم صحة فرضية الضغط السكاني ونقص الخيرات واختراع الزراعة كتعويض من أجل إطعام الأعداد الجديدة من الناس. وبناء على هذه المعطيات يؤكد السيد كوفان أن العامل الإنساني كان له الأثر الأكبر في نشوء الزراعة. ويرى أن الناس وصلوا في ذلك العصر إلى مستوى فكري -روحي متطور مكنهم من التخلص من الاستفادة العشوائية لموارد البيئة وتنظيم العلاقة بينهم وبين وسطهم بشكل أرقى وأفضل عن طريق تطوير وسائل إنتاج القوت وتحسينها بواسطة الزراعة، التي لم يمارسها سكان المربيط من أجل تعديل الخلل الحاصل في خيرات البيئة، لأن البيئة بقيت غنية ووفيرة الغذاء، ولا للرد على أزمة سكانية وإنما لتفادي الاضطراب الحاصل في داخل المجتمع نفسه وضرورة تنظيم هذا المجتمع وتفادي تفككه وانفجاره الداخلي، عن

طريق تطوير علاقة مع نفسه أولاً ومع وسطه ثانياً من خلال إحداث أنماط اقتصادية جديدة تؤكد سلامة الفكر الإنساني وقدرته على حل الصراعات الاجتماعية الداخلية التي يواجهها .

ج . مناقشة:

إذا كان لنا من تعليق حول موضوع الزراعة الأولى ، وأسباب ظهورها فإننا نشير بأن أحداً لا يستطيع الآن أن يقرر سبباً واحداً حاسماً دفع إنسان ما قبل التاريخ إلى ابتكار الزراعة والتدجين ، ولا بد من أن نأخذ بعين الاعتبار أكثر من جانب . ونعتقد بأن الثورة الزراعية كانت حصيلة تفاعل عدة أسباب من أهمها مناخ وبيئة مواسم وتدخل إنساني واع ومنظم . ووجد ذلك أفضل تعبير له في المواقع الأثرية السورية . ولكن يصعب تحديد الوقت الذي بدأت فيه الزراعة فعلاً ، لأنها لم تكن حدثاً مفاجئاً ، كاختراع قام به عبقرى ما ، وإنما عملية تطورية طويلة تراكمت من أجل الوصول إليها الخبرات والتجارب على مر العصور . ونحن إذا قلنا : إن الزراعة بدأت حوالي الألف التاسع فإننا فقط نحدد الإطار الزمني الأوسع ، لأننا في المراحل الأولى لا نستطيع بسهولة التمييز بين القمح البري وبين المزروع ولا بين الشعير البري أو المزروع كما لا نستطيع التفريق بين الثور والغنمة والماعز فيما إذا كانت مدجنة أم برية ؛ لأن التغيير لم يكن فورياً واحتاج ذلك إلى مرور عدة أجيال حتى ظهرت الفروق في الأشكال بين الأنواع المستأنسة والبرية . لذلك فإننا نعتمد على معايير إحصائية وعلى كثافة الدلائل التي بين أيدينا ، فدليل الزراعة هو الحقل الذي تتوافر فيه الكميات الكبيرة وغير العادية من الحبوب ؛ ودليل التدجين هو امتلاك القطيع الكبير من المواشي . وهكذا فإن المطلوب هو رصد العلاقة ومدى التعايش بين الإنسان والنباتات والحيوانات القديمة أكثر من تحديد التغير الطبيعي في أشكال الأنواع المؤهلة . ولكن من الواضح أن الزراعة ابتدأت باختيار الأنواع الأفضل من القمح والشعير ، وإنها لم تكن دائماً مرتبطة بالاستقرار وثابتة ، لأن توزع هذه الحبوب وطبيعة التربة تطلبت وجود نمط من الزراعة المتنقلة المرتحلة كما يسميها جاك كوفان التي استقر فيها الناس خلال أوقات البذار

ومواسم الحصاد فقط . وكذلك تشير المعطيات إلى أن الزراعة أتت بعد «مرحلة التدجين الأولى أو الرعي» (Husbandry) الذي ابتداءً بالأنواع الأضعف من الحيوانات لصعوبة السيطرة على القوة منها واتصف - أيضاً - بالترحال الكثيف بينما عرفت القرى الزراعية الدائمة تدجيناً مستقراً . ونحن نستطيع بدءاً من هذا العصر تلمس ملامح قيام نوعين من المجتمعات ، الراعية المستقرة ، والرعوية ، التي قامت بينها علاقات تبادل ولكنها بقيت تحافظ على طبيعتها المميزة حتى عصرنا الحالي . وسواء بدأت الزراعة والتدجين في هذا الوقت أم ذاك فالمهم أن ذلك قاد إلى تغير هائل في حياة البشرية ، ليس أقل عمقاً وأثراً مما أحدثته الثورة الصناعية في العالم المعاصر وأن هذا الانعطاف الكبير ، نشأ لأول مرة في المشرق العربي القديم ثم انتقل إلى بقية الأرجاء في زمن لاحق .

الفصل الثاني

القرى الزراعية في عصر النيووليت

ما قبل الفخار في بلاد الشام

- ١ - العصر الانتقالي بين الميزوليت والنيوليت
 - ٢ - مجتمعات النيووليت ما قبل الفخار أ
 - ٣ - مجتمعات النيووليت ما قبل الفخار ب
 - ٤ - الفنون والمعتقدات في القرى الزراعية الأولى في بلاد الشام
- أ - الفن
- ب - المعتقدات

الفصل الثاني

القرى الزراعية في عصر النيوليت

ما قبل الفخار في بلاد الشام

١ - العصر الانتقالي بين الميزوليت والنيوليت:

مع انتهاء العصر النطوفي وقبل بداية الزراعة نشأت في بلاد الشام حضارات انتقالية عاشت في النصف الثاني من الألف التاسع ق.م بين ١٠,٠٠٠ - ٩,٥٠٠ حسب التاريخ، مهدت للمرحلة الجديدة، لكنها لم تتخلص من التأثيرات السابقة فحملت الصفات الميزوليتية والنيوليتية المشتركة التي تجلت سواء في نوعية الأدوات وتقنياتها أم في نمط الحياة الاقتصادية والاجتماعية. أشهر هذه الحضارات: الهريفة نسبة إلى موقع هار هاريف في صحراء النقب بفلسطين، التي تمثل مجتمعات صحراوية، وغير مستقرة بالكامل وصلت حتى سيناء غرباً حيث يقوم مواقع أبو سالم خاصة، وعاشت على الالتقاط والصيد متنقلة بين معسكرات صيفية كبيرة وأخرى شتوية أصغر. وقد تطور الهريفيون عن النطوفيين وأقاموا في مواقعهم نفسها وأحدثوا تجديدات كبيرة في مجال الصناعات الحجرية وبخاصة رؤوس النبال التي ظهرت على أيديهم لأول مرة وكانت مصنعة من نصال صغيرة، مشذبة على حافة واحدة فقط ولها ساق مثلثة الشكل. وقد تطورت في العصر الحجري الحديث ولكنهم استمروا يستخدمون الأدوات الميكروليتية الصغيرة (Segments) التي انتشرت في العصر السابق. وقامت إلى الشرق من الهريفيين، الحضارة الحيامية، موقع الحيام، غرب البحر الميت، والتي اشتهرت أيضاً بنوع خاص من رؤوس السهام، المصنعة على نصال صغيرة ولها عند قاعدتها فرستان متقابلتان وليس لها ساق، بل نهاية مشذبة ومقعرة (الشكل: ٢٩، A). رافقتها أدوات زراعية ثقيلة وبخاصة الأجران والمجاريش والبلطات. وقد

وصلت هذه الحضارة شرقاً حتى الفرات (السويات IB وII في المربط). ومن مواقعها مغارة ناشارين في لبنان. وهي أيضاً متطورة عن النطوفية، سكن الناس في عصرها في بيوت دائرية أو بيضوية صغيرة، واصطادوا الغزال والماعز والسماك، وجمعوا الحبوب والثمار البرية.

٢ - مجتمعات النيوليت ما قبل الفخار (أ):

دخلت في الألف التاسع ق.م بلاد الشام في العصر الزراعي المسمى بالنيوليت ما قبل الفخار (أ) الذي يرمز له اختصاراً بـ P.P.N.A (Pre-Pottery Neolithic A) والواقع، حسب التأريخات الحديثة، بين ٨٣٠٠ - ٧٦٠٠ سنة ق.م بين ٩,٥٠٠ - ٨,٧٠٠ حسب التأريخ المعير^(٥) وما زال هذا العصر من الفترات الغامضة في عصور ما قبل التاريخ في بلاد الشام. إذ تقل فيه المواقع سواء في سورية أم فلسطين، علماً أن مساحتها تصبح أكبر. مما يدل من جهة أخرى على تجمع سكاني أكثر كثافة، حل مكان توزع العديد من المواقع الصغيرة. وإلى هذا العصر ينتمي سكان القرية الثالثة في المربط التي أتت متطورة عن القرية الثانية فأصبحت البيوت الدائرية أكبر وقسمت إلى عدة أجزاء. كما ظهرت أنواع منها مستطيلة وكبيرة ومتلاصقة. ويربط المختصون بين هذه المنازل التي تختلف عن البيوت الصغيرة المتجاورة، وبين الانتقال من نمط الحياة «الرعوي» شبه المستقر إلى مجتمعات زراعية دائمة أصبحت أكثر ارتباطاً فيما بينها، فتلاصقت مساكن الأسرة الواحدة وتم توسيعها كلما دعت الحاجة (الشكل: ٣٠). وكان سكان هذه القرية أول من مارس الزراعة حيث أتت الحبوب المزروعة في السوية الثالثة. التي أُرخبها الكربون المشع على / ٧٧٠٠ / سنة ق.م وهذا أقدم تأريخ للزراعة، معروف حتى الآن في العالم كله. ولهم تنسب التماثيل الحجرية التي نفذت بشكل مبسط وغير واقعي لكنه يولي أهمية كبيرة إلى مناطق الخصب كالصدر والبطن

(٥) جميع التواريخ الواردة فيما سيلي من الكتاب هي تواريخ غير معيّنة تعتمد على طريقة الفحم المشع فقط وهي أحدث من التأريخات المعيرة الحديثة التي دفعت عصر النيوليت بحوالي ٢٠٠٠ سنة أقدم مما كان متعارف عليه. وقد أوردنا إلى جانبها، في بعض المناطق، التواريخ المعيرة المقابلة لها للمزيد من الفائدة.

وما فوق الركبتين فبدت هذه الأجزاء مجسمة وبارزة. ولم يكن ذلك عبثاً بل تعبيراً عن عقيدة جماعية احتلت فيها «المرأة»، «الآلهة الأم» (Déesse Mère) مصدر الخصب وتحدد الحياة، مكانة مقدسة تعود في جذورها إلى العصر الباليوليتي واستمرت، بصيغ مختلفة، زمناً طويلاً في حضارات المشرق القديم، قبل أن ينتقل هذا الدور إلى الرجل في فترات لاحقة (الشكل : ٣١). وعلى فنون المربيط الأخرى تدلنا الرسوم التي ظهرت على جدران أحد المنازل لأشكال هندسية ولكنها، لسوء الحظ، مشوهة لدرجة لا تتمكن من إدراك طبيعتها. كما وجدت هياكل عظمية لموتى دفنوا تحت أرضيات بيوت السكن وأدوات حجرية وزراعية متنوعة. والأهم من ذلك الأواني الصغيرة والنادرة التي تمثل الظهور الأقدم للفخار في هذه المنطقة. ولكن هذا الابتكار سرعان ما تراجع ولم تظهر الأواني الفخارية ثانية إلا في نهاية الألف السابع ق.م (الشكل : ٣٢). وقامت إلى الشمال من المربيط في تل الشيخ حسن قرية زراعية أخرى معاصرة ومشابهة للمربيط؛ كما وجدت آثار المجتمعات الزراعية الأولى في تل أسود، السوية (Ia) في حوضه دمشق الذي يمثل أبكر موقع للاستقرار في سورية الجنوبية، دلت عليه تلك البيوت الدائرية الصغيرة من اللبن والقصب، وجيوب القمح والشعير التي تؤكد وجودها من التحاليل النباتية لثربة السوية الأولى.

وفي الوقت نفسه نهضت قرى زراعية باكراً في فلسطين مثل جلجال في وادي الأردن وأبو سالم في النقب ووادي فلاح على الساحل ولكن أهمها كانت مستوطنة أريحا شمال البحر الميت. وقد نقب هذا الموقع المهم منذ الثلاثينات وأعطانا أكمل المعلومات عن العصر الإنتقالي بين الميزوليت والنيوليت، وذلك في السوية الدنيا والأقدم فيه التي نسبت إلى عصر ما قبل النيوليت (Proto-Neolithic) وكشف فيها عن أبنية تشابه السوية الثالثة في المربيط بينها بناء منتظم وقوي، يظن أنه خصص لممارسة الشعائر الدينية وإذا صح هذا التفسير يكون هذا البناء من أقدم المعابد في بلاد الشام.

وفي السوية الأحدث في أريحا، المنسوبة إلى عصر النيوليت ما قبل الفخار (A) وجدت بقايا قرية أكبر مساحة من سابقتها وصلت إلى ٣ هـ/آ. عرف سكانها

الزراعة الأولى للقمح والشعير وسكنوا في بيوت منتظمة مستديرة أو بيضوية مبنية من الحجر المكيف ومن اللبن ومطلية بالطين. إلا أن الاكتشاف الأهم، الذي عُدَّ ثورة في حينه، من هذه السوية هو التحصينات إذ أناط التنقيب اللثام عن خندق محفور بالصخر بعمق / ٢,٧ / م وعرض / ٣,٢ / م وبجواره جدار، سور، طوله / ٨ / م وعرضه / ٣ / م وارتفاعه / ٨,٥ / م مبني من الحجر، ويستند هذا الجدار إلى برج ضخمة من الحجر أيضاً، عرضه عند قاعدته / ١٠ / م وارتفاعه / ٨,٥ / م، يقود إلى قمته درج مؤلف من / ٢٢ / درجة. وقد أثار ذلك اهتماماً كبيراً لدى الباحثين، وعلى الرغم من اختلافهم فيما إذا كان لهذا البناء الضخم وظيفة دفاعية تجعل منه حصناً ومن أريحا المدينة الأولى في التاريخ تبقى هذه الآثار المعمارية في أريحا دليل مجتمع منظم أشرفت عليه سلطة قوية ووصل إلى سوية متطورة تجاوزت عصرها بكثير (الشكل : ٣٣).

٣ - مجتمعات النيوليت ما قبل الفخار (ب):

يرمز له بـ P.P.N.B. ويقسم هذا العصر حالياً إلى ثلاثة أجزاء، هي، حسب التأريخ المعير:

- النيوليت ما قبل الفخار القديم: ٨٠٠٠ - ٨٢٠٠ سنة ق.م.
- النيوليت ما قبل الفخار الأوسط: ٨٠٠٠ - ٧٠٠٠ سنة ق.م.
- النيوليت ما قبل الفخار الحديث: ٧٥٠٠ - ٧٠٠٠ سنة ق.م.

يلاحظ في هذا العصر أن التشابه في التطور الذي كان واضحاً بين مختلف مناطق بلاد الشام في العصر السابق قد اختلف قليلاً، إذ استمر في سورية التطور الحضاري بين مجتمعات ما قبل الفخار (أ و ب) دون انقطاع. بينما حصل، بعد مجتمعات عصر ما قبل الفخار آ في أريحا فراغ حضاري، أي توقف في التطور المحلي. مما دفع إلى الاعتقاد بأن فلسطين هجرت وأعيد سكنها على يد مجموعات قادمة من سورية بدليل التشابه الكبير بين البقايا الأثرية العائدة لعصر ما قبل الفخار (ب) في سورية وفلسطين. في القسم الأول من هذا العصر سكنت قرى مهمة في سورية كالمريبط (السوية الرابعة) وتل

الغريفة ، وتل أسود (السوية IB - II) وفي فلسطين كأريحا (سوية ما قبل الفخار ب) ومنهاتا (السويات ٤ - ٦) وتل الغارة ، والبيضاء ووادي فلاح . وتطور في هذه المناطق كلها البناء فظهرت بيوت معقدة التنظيم ومؤلفة من مجموعات من الوحدات السكنية المتصلة ببعضها والمقسمة إلى غرف للنوم ومخازن ومواقد ، بعضها بيوت مستقلة ، سكنت فيها أسر كاملة ، تقارب بعضها من بعض وتنتمي إلى القبيلة نفسها . مما يدل على ترابط النسيج القروي الاجتماعي للناس وعلى الصعيد التقني . وكذلك نرى تقدماً في تصنيع الأدوات الزراعية كالمناجل والرحى والأجران ، والمثاقب والمكاشط ، وأدوات الصيد وبخاصة رؤوس النبال (الشكل : ٣٣ (أ)) ، والأدوات العظمية المتنوعة كالإبر والمخارز مما يشير إلى تطور صناعة النسيج والملابس . وفي مجال الفنون استمرت التماثيل الإنسانية للربة الأم التي وجد العديد منها في تل أسود وتل الغريفة في غوطة دمشق ؛ صنعت من الطين المشوي وهي تمثل المرأة جالسة أو واقفة منتفخة الصدر والساقين ، تجلس أحياناً على قاعدة وكأنها عرش مما يدل على استمرار تمركز دور الأم في تلك المجتمعات . كما أنتجت تماثيل صغيرة لحيوانات جسدت موقف الإنسان من العالم المحيط به ، وكانت تتمتع فضلاً عن دورها الاقتصادي بمكانة روحية ودينية دلت عليها رؤوس الثيران المتنوعة التي أكدت عقيدة «عبادة الثور» في العصور اللاحقة . وإلى هذا العصر تؤرخ الجماجم البشرية التي وجدت موضوعة على قواعد طينية داخل بيوت السكن في المربيط (السوية الرابعة) والتي تدل على عقيدة «عبادة الأجداد» التي تلمسنا خيوطها الأولى منذ العصر النطوفي السابق .

وقد أتت السنوات الأخيرة بمكتشفات متميزة لمواقع من هذا العصر في الأردن أهمها البسطة جنوب الأردن حيث كشف عن مستوطنة ذات أبنية حجرية شديدة التنظيم ومحفوطة بشكل فريد من نوعه . وهناك موضع عين غزال قرب عمان الذي اشتهر أيضاً بالتماثيل البشرية الجصية التي تذكرنا بمكتشفات أريحا في فلسطين وهي - أيضاً - تدل على عقيدة تتعلق بتقديس الأموات أو ما يمكن أن نسميه «عبادة الأموات» أيضاً .

كما وجدت تماثيل حيوانات، الثور، من الطين مغروسة فيها حراب صوانية دليل طقس ديني تتعلق بالصيد.

حصلت في القسم الثاني من عصر ما قبل الفخار (ب)، تبدلات هامة في أماكن انتشار المزارعين الأوائل؛ إذ هجرت مناطق كاملة أو أجزاء منها وسكنت أخرى جديدة. ففي سورية ترك المربط والشيخ حسن، وانتقل الناس جنوباً إلى مناطق أقل أمطاراً، فنشأت أبو هريرة (السوية العليا ما قبل الفخار (ب)) وبقرص، في حوض الفرات والكوم في البادية. كما هجر تل أسود وتل الغريفة في حوض دمشق، وقامت مستوطنات تل الرماد (السوية I) في سفوح جبل الشيخ وطبة الحمام، ورأس الشمرة (السوية V) على الساحل، واللوبة في البقاع اللبناني. وفي فلسطين هجرت قرى منها وأريحا والبيضا في حوض الأردن؛ ونشأت أخرى جديدة في المناطق الجبلية كأبو غوش في الجنوب ويسامون في الجليل الأعلى شمالاً وقد عزي الباحثون هذا الواقع إلى جفاف مناخي جعل الحياة مستحيلة في المناطق التي تعتمد على الأمطار والزراعة البعلية ودفع سكانها إلى الانتقال نحو السفوح الجبلية والسواحل كثيرة الأمطار على الرغم من أنه لا تنمو فيها الحبوب البرية. إلا أن الناس كانوا قد تمرسوا في زراعة هذه الحبوب ونقلوها معهم إلى مختلف الأوساط الجغرافية. ونظن أنهم عرفوا منذ هذا العصر الري الصناعي لمزروعاتهم عن طريق الأتنية والسواقي وهذا قاد بدوره إلى ظهور سلطة أشرفت على توزيع المياه وسقاية المزروعات.

وحصل تركز سكاني كثيف في مناطق محددة فبلغت مساحة بعض المواقع، كأبو هريرة، عشرة هكتارات. وظهر تنظيم عمراني رائع للقرى وبخاصة بيوت السكن التي استخدم فيها الحصى والملاط لطللي الجدران والأرضيات، وزودت بالتنانير لأغراض الطبخ والتدفئة وبأقنية لتصريف المياه كما في بقرص حيث كشف عن ثلاث قرى متتالية سكنت بين / ٦٤٠٠ - ٥٩٠٠ / سنة ق.م شيدت منازلها وفق تخطيط مسبق وتألقت من حجرات متوازية أو متلاصقة مختلفة الأبعاد كانت تفصل بينها مساحات وأزقة مستقيمة. مما يدل على أن بقرص تمثل أقدم نموذج معروف حتى الآن

لقرية منتظمة بدقة (الشكل : ٣٤). وعلى صعيد آخر فلقد تعمقت تجربة تدجين الحيوانات وتحققت الاستفادة القصوى من لحمها وجلدها وحليبها. واعتمدت بعض المجتمعات عليها أكثر من الزراعة مثل بقرص حيث عظام الغنم والماعز أكثر من دلائل القمح والشعير. وتطور تصنيع الحجر فظهرت الأدوات المصقولة، ذات المفعول القوي في القطع كالقوس والبلطات البازلتية وصنعت الأواني الحجرية المنزلية، من الحجر الكلسي أو الحواري المطحون والممزوج بالرماد أو القش، المسماة بالأواني البيضاء (White Wares) وكانت هذه الأواني كبيرة الحجم جففت في الشمس، ولم تحرق، لونت أحياناً، ولكنها لم تستخدم إلا لزمان قصير قبل اختراع الأواني الفخارية في مطلع الألف السادس ق. م (الشكل : ٣٥). وعلى المستوى الفني تطورت الرسوم الجدارية وصنعت الدمى وأدوات الزينة المختلفة والأواني الجميلة من الأحجار النادرة. وكذا ترسخت عقيدة «عبادة الأجداد» بعد أن حنطت جماجم الموتى وثبتت على تماثيل إنسانية كبيرة ووضعت في قلب بيوت السكن وأصبح الناس أكثر تنظيماً، وبرزت بينهم سلطة دينية - اجتماعية أشرفت على حياتهم وضمنت توازن أعدادهم الكبيرة.

٤ - الضنون والمعتقدات في القرى الزراعية الباكرة في بلاد الشام:

أ. الفن:

رأينا أن الأعمال الفنية الأولى، أتت من فلسطين، ومنذ العصر النطوفي. ولكن بدءاً من عصر النيوليت ما قبل الفخار (أ) أصبحت سورية تشارك فلسطين على الصعيدين الفني والروحي؛ حيث عثر في القرية الثالثة في المريبط، المؤرخة على بداية الألف الثامن ق. م، على تماثيل إنسانية صغيرة من الحجر أو الطين تمثل «الربة الأم» تقف عارية ترفع يديها تديها الكبيرين إلى الأعلى أردافها مضخمة وأعضاؤها التناسلية مشار إليها بالحروز (الشكل : ٣١). بعض هذه التماثيل كان أقل واقعية ويتسم بالتبسيط والتحوير حتى إنه يصعب تحديد جنسها. وكذلك صنع سكان تل أسود في غوطة دمشق تماثيل صغيرة من الطين المشوي لحيوانات متنوعة، كالثور والماعز والغزال والخنزير، عاشت في العصر السابق بشكل بري ثم دجنت في هذا العصر.

صنعت في النصف الأول من النيوليت ما قبل الفخار (ب) في بلاد الشام كلها أعداد كبيرة من التماثيل الحيوانية والإنسانية. أشهرها أت من تل أسود السوية II في غوطة دمشق وتجسد الحيوانات المنوعة وبخاصة الثور (الشكل : ٣٦). وتماثيل «للربة الأم» بعضها مبسط وفيها نماذج أكثر واقعية، وهي تركز على مناطق الخصب في المرأة أكثر مما كان الحال عليه في تماثيل المربيط (شكل : ٣٧) وفي السوية الرابعة من المربيط وجدت أول الأشكال التي تمثل الرجال، هي قرط من الحجر على شكل رأس رجل ملتج وهذا هو النموذج الأقدم من نوعه حتى الآن (الشكل : ٢٧، ١١). وقد تابعت فيما بعد مجتمعات رأس الشمرة وتل الرماد. ثم أتت دمية رجل ملتج آخر من أريحا بفلسطين ومعها تماثيل حيوانات منوعة وبخاصة الثور؛ بينما عرف سكان قرية منهاتا (السويات ٤-٦) نوعاً واحداً من التماثيل الصغيرة الإنسانية الرقيقة، قسمها الأسفل مقطوع ورأسها مدور وأنفها مسطح وعيونها من أقراص الطين الملصوقة على شكل حبة القهوة، معظمها لنساء ولكن في بعض الأحيان يصعب تحديد جنسها (الشكل : ٣٨). كما قدم موقع البيضا، في السوية السادسة المؤرخة على مطلع الألف السابع قبل الميلاد فنوناً متشابهة بينها تماثيل حيوانية من الطين تذكر بقرون الثور المقدس، وأخرى إنسانية؛ واحدة منها لامرأة تجلس عارية بلا أطراف ورأسها مفقود. وقد أرخت هذه التماثيل بطريقة الفحم المشع على ٦٦٠٠ سنة قبل الميلاد بزيادة أو نقصان ١٦٠ سنة (الشكل : ٣٩). وتابعت في النصف الثاني من النيوليت ما قبل الفخار (ب) الفنون، تقدمها في معظم القرى السورية - الفلسطينية وإلى هذا العصر تعود السوية الأولى من تل الرماد والمؤرخة على ٦٠٠٠ - ٦٢٥٠ سنة قبل الميلاد، حيث وجدت تماثيل إنسانية بعضها كان يرافق الجماجم المخصصة وبلغ طولها ٢٥ سم وتمثل إنساناً جالساً مخنصراً وممدد الساقين، رقبته على شكل أسطوانة كانت توضع فوق الجماجم التي كانت بجوارها في الحفرة نفسها (الشكل : ٤٠، ٢). كما وجدت دمي حيوانية مختلفة تشخص الغنم والبقر وبخاصة (الشكل : ٤١) وأوان حجرية بينها طاسة من المرمر الأحمر المصقول (الشكل : ٤٢، ٢). كما أعطت بقرص من سوياتها الثلاث نماذج فنية رائعة بينها تمثال من الطين لامرأة تجلس القرفصاء، ورأس برقة، من الطين أيضاً، عيونها منزلة وتبدو

على وجهه ملامح واقعية . وهذه هي المرة الأولى التي يظهر فيها الوجه الإنساني بهذه العناية إذ في معظم الأعمال السابقة تم تجاهل الرأس كلياً ، أو أشير له بشكل مبسط . وهناك قطعة ثالثة برأس غزال من العظم من المحتمل أنه كان قبضة أداة ما . كما وجدت أوان مرمرية نادرة بعضها على شكل حيوانات كالأرنب والسلحفاة ، وبعضها الآخر أرجل ومن المرجح أنه كان لها استخدامات دينية خاصة وهي تذكر بالأواني الحجرية من تل الرماد وتدل على التشابه بين الموقعين (الشكل : ٤٣) . وظهرت في هذا العصر الأختام المسطحة من الأحجار الخضراء المؤرخة على نهاية الألف السابع ق . م (الشكل : ٤٤) ذات الأشكال الزخرفية الهندسية دلت عليها مكتشفات رأس الشمرة في سويتها الخامسة .

ب. المعتقدات:

إننا لا نستطيع التحدث عن حياة روحية ومعتقدات واضحة المعالم من العصر السابق لنشوء الزراعة ، أي العصر النطوفي أو ما قبله . وكذلك لم نعر على أبنية دينية أكيدة مارست فيها تلك المجتمعات شعائرها ومعتقداتها . وقد تحدثنا عن احتمال وجود معبد في سوية الألف التاسع ق . م في أريحا ، ولكن بدءاً من سوية عصر ما قبل الفخار (ب) بدأت في هذه المستوطنة تظهر أبنية كبيرة ومنظمة لا نشك في وظيفتها الدينية ؛ حيث عثر منذ الأربعينات على بناء مؤلف من رواق كان يقوم على ستة أعمدة يقود إلى صالة عرضانية على مدخلها أربعة أعمدة حملت السقف ، تليها الصالة الرئيسية والأخيرة التي بلغت أبعادها ٦ × ٤ / م . إن مخطط هذا البناء هو الذي يخول منحه الصفة الدينية . ولكن بعض الباحثين مثل (كوفان) يقترح أن تسمى مثل هذه الأبنية الباكرا حراً أو مزاراً (Sanctuaire) وليس معابداً (Temple) لأنها لم تكن مخصصة لإله معين له وظيفة محددة مثل المعابد منذ الألف الثالث ق . م (الشكل : ٤٥) ومهما يكن فإن هذه الأبنية بحد ذاتها لا تدل على طبيعة الحياة الروحية في ذلك العصر لأننا لم نعر في داخلها على آثار إضافية توضح وظيفتها فعلاً ، لذلك وجب علينا البحث عن شواهد أخرى ، ولدينا منها ما يكفي . ففي السوية الثانية من المربط المؤرخة على

٨٢٠٠ سنة ق. م وجدت رؤوس ثيران مطمورة في مصاطب من الطين في بيوت السكن. الرأس الأول جمجمة كاملة محاطة بزوج من عظام الكتف لثور وآخر لحمار، الوجه موجه نحو الغرب. والرأس الثاني كان مفككاً إلى عدة أجزاء صفت بانتظام. وفي السوية الثالثة من المربيط تابع الناس الاهتمام بالثور ولكن في هذه المرة لم تدفن الجماجم بالكامل وإنما القرون فقط التي وجدت مغروسة في عدة أجزاء من جدران المنازل المهمة. هذا يجعلنا نتحدث عن مكانة روحية هامة للثور «عبادة الثور» من قبل سكان المربيط ومنذ مطلع الألف الثامن ق. م أي قبل عبادة هذا الحيوان المؤكدة في قرى الأناضول الزراعية (شائل هويوك) بما يزيد على ألفي سنة.

ولقد استمرت عقائد سابقة وترسخت الآن مثل «الآلهة الأم» مانحة الخصوبة والحياة. و«عبادة الأجداد» أو «تقديس الجماجم»، ودلت عليها الأمثلة العديدة من أريحا (سوية ما قبل الفخار (١)) حيث اكتشفت ما يسمى بمستودع الجماجم الذي احتوى على مجموعات عديدة من الجماجم المرصوفة بأشكال منتظمة والموضوعة ضمن حفرة ملساء من الطين. وكانت إحدى المجموعات على شكل دائرة ووجوهها نحو الداخل. وفي نقطة أخرى وضعت ثلاث مجموعات كل واحدة مؤلفة من ثلاث جماجم يتجه بعضها نحو بعض. ومن المربيط (السوية III a) هناك أمثلة أخرى حيث وجد قبران: الأول داخل بيت السكن، تحت الموقد، فيه جمجمة أنثى وأقسام من هيكلها العظمي، وفي القبر الثاني، المحفور خارج نطاق البيت، دفنت بقية الأجزاء الناقضة من هذا الهيكل وبينها اليدان والرجلان؛ كما وجدت جماجم مدفونة في تل الشيخ حسن المجاور والمعاصر للسوية III a في المربيط.

اقتصرت الأمر حتى الآن على دفن الجمجمة معزولة عن بقية الجسم ولكن منذ النصف الثاني للألف الثامن أي بعد حوالي ٧٥٠٠ سنة ق. م تواجهنا حالة مختلفة إذ غدت الجماجم محط اهتمام أكبر دلت على ذلك السوية الرابعة في المربيط IV B التي ضمت قبوراً لهياكل عظمية بلا رؤوس، دفنت تحت أرضيات بيوت السكن. بينما فصلت رؤوسها ووضعت مكشوفة على قواعد طينية على امتداد جدران المنازل كأثاث جنائزي واضح. وفي أريحا المعاصرة (سوية ما قبل الفخار (ب)) وجدت في أحد البيوت

تحت أرضيات السكن هياكل عظمية بشرية متزوجة جماجمها، إلا الفك العلوي، وسبع جماجم مجتمعة. وفي بيت مجاور جمعجتان وكانت كلها مكسية بالطين الأملس الجصي بعد قشط اللحم، وبطريقة تشكيلية تحافظ على ملامح الوجه الذي ربما مثل وجه الميت نفسه. وصنع باللون البني الفاتح الذي يمثل لون بشرة الإنسان ونزلت عيونه بالصدف أو القواقع؛ وعلى إحدى الجماجم رسمت بالمغرة الحمراء خطوط بنية متلاصقة كإشارة لشعر الرأس (الشكل: ٤٠، ١). إن جماجم أريحا لم تكن الوحيدة فقد وجدت مثيلاتها في موقع فلسطيني آخر هو بيسامون؛ بينما عثر في مواقع البيضا وأبوغوش على كثير من الهياكل العظمية بلا رؤوس. وذلك ما يدل على أن تلك الرؤوس قد قطعت لغاية تشابه ما حصل في أريحا. وقدمت سورية - أيضاً - أدلة واضحة على عبادة الأجداد حيث أعطت السويتان الأولى والثانية المؤرختان على نهاية عصر النيوليت ما قبل الفخار (ب) في تل الرماد حوالي دزينة من الجماجم، وهي تشابه لقي أريحا خاصة وبيسامون، وكانت مطلية بالجص بطريقة تشكيلية، ومعها تماثيل كبيرة يصل طولها حتى حوالي ٢٥ / سم ركبت عليها هذه الرؤوس التي وضعت كلها في حفرة بيضوية من اللبن وبقرتها إناء حجري كبير، مما يدل على أنها أخرجت من هذه الحفرة أثناء المناسبات الدينية. وهكذا فجماجم تل الرماد لم تكن مكشوفة مثل المربط دائماً بل كانت أثاثاً جنائزياً (Mobilier Cultuel) تخبأ وتعرض عند الحاجة فقط (الشكل: ٤٠، ٢). وفي أبو هريرة كشف عن قبور فيها هياكل مختلفة لأجساد بلا رؤوس أو جماجم، فقط، عادية وغير مجصصة ولعدة أشخاص، مما يجعل تفسيرها أكثر صعوبة ومهما يكن فإن الجماجم المحنطة التي ظهرت في سورية وفلسطين منذ نهاية الألف الثامن حتى نهاية السابع ق. م لم تكن مجرد فن عادي وإنما هي تجسيد للأموات وحضور مستمر ودائم لهم في بيوت أقربائهم الأحياء ودليل تنامي النسيج الأسروي والاجتماعي والروحي للمزارعين الأوائل في بلاد الشام.

الفصل الثالث

منطقة زاغروس منذ عصر ما قبل النيوليت
وحتى النيوليت ما قبل الفخار

١ - مجتمعات ما قبل النيوليت

٢ - مجتمعات النيوليت ما قبل الفخار

أ - جارمو

ب - علي كوش

الفصل الثالث

منطقة زاغروس منذ عصر ما قبل النيوليت وحتى النيوليت ما قبل الفخار

١ - مجتمعات ما قبل النيوليت:

بين نهاية الزارزين والنيوليت الباكر أي الفترة الواقعة بين حوالي / ١٠,٠٠٠ - ٦٥٠٠ / سنة ق. م عاشت في منطقة زاغروس مجتمعات انتقالية متعددة تحمل صفات مشتركة مع سابقتها ولاحقتها فسمي هذا العصر الأخير ما قبل النيوليت (Proto-Neolithic) كما يطلق عليه بعض الباحثين الباليوليت الأخير (Epipalaeolithic) وبغض النظر عن التسمية فقد تتابعت في تلك المنطقة آنشد أنماط حضارية من الصعب درجها تحت اسم واحد. وقد مثلتها مرحلتان متتاليتان الأولى زاوي شمسي - شانيدار والثانية مرحلة كريم شاهير. إن أهم ما يميز هذا العصر هو الانتقال من سكن المغائر التي شغلت لعشرات الألوف من السنين السابقة وإقامة مستوطنات في المناطق المكشوفة. أقدمها زاوي شمسي - شانيدار، حيث سكن الناس في بيوت دائرية صغيرة جددوها عدة مرات ولكن لم يزودوها بالمواقد. ولأن السوية B 1 في مغارة شانيدار المجاورة قد أعطت أثاراً شديدة الشبه بمواد زاوي شمسي فقد عُدَّت هذه المغارة الضخمة الموقع الشتوي للجماعات نفسها التي سكنت زاوي - شمسي صيفاً ومن هنا أتت التسمية المزدوجة زاوي - شمسي شانيدار. وعاش الناس في المرحلة الأولى في عصر ما قبل النيوليت في زاغروس على التقاط القمح والشعير وصيد الغزال والماعز الجبلي وأكلوا الأسماك والسلاحف وربما الثعابين. كما اختلفت صناعتهم الحجرية عن الزارزية فكانت أكثر دقة وتنوعاً. كانت الأدوات الميكروليتية بينها أقل من السابق لكن العظمية أكثر، نقش عليها حوزوز وأشكال هندسية مختلفة تعتبر الفنون الأولى في هذه المنطقة. وهناك أدوات زينة وبخاصة خرز

من العظم أو الأحجار النادرة، بينها خرزة واحدة من النحاس، من زاوي شمسي، وهو وجود مبكر سبق اكتشاف هذا المعدن واستخدامه عدة آلاف من السنين. كما وجدت الأدوات الأوبسيديانية والمغرة الحمراء، وأحجار من الهيماتيت وهي مواد مستوردة إما من الشرق وإما الغرب وتدل على علاقات تجارية كبرى حصلت في حينها. وقد عرفتنا القبور على الصفات العرقية لتلك المجتمعات التي كانت تشبه ما عند النطوفيين مما يدل على القرابة مع سكان بلاد الشام القدماء. وأظهرت هذه القبور عادات الدفن لديهم حيث زودت الجثث بالأسلحة والهدايا وفي بعض الأحيان كان أطفال رضع يرافقون الكبار مما يثير الاستغراب فهل دفن الأطفال مع أمهاتهم بعد موتهن؟ لكن من الصعب علينا إعطاء جواب نهائي عن هذا السؤال.

ولقد استمرت هذه المرحلة حوالي ألفي سنة أي حتى بداية الألف الثامن ق.م. ووصلت تأثيراتها شرقاً إلى سواحل بحر قزوين، مع أننا لا نعرف من تلك المناطق مواقع توازي في أهميتها المواقع الزاغروسية العراقية.

ويقوم إلى الجنوب من زاوي شمسي موقع كريم شاهير الذي أعطى اسمه المرحلة النهائية من هذا العصر التي استمرت بين / ٨٠٠٠ - ٦٥٠٠ / سنة ق.م. وتميزت بظهور بواكير الاستقرار إلى جانب الزراعة والتدجين وقيام المحاولات الأولى لصنع الفخار، كما تجسّد التطور حتى في محاولات أخرى كثيرة فظهرت في كريم شاهير نفسه تماثيل صغيرة من المرمر وأختام وأساور وخرز من العظم والصدف، والكثير من الأدوات الزراعية الثقيلة والميكروليتية ذات التنوع والدقة في التصنيع. ولكن لم نعثر هنا على الأوبسيديان ولا على دلائل أبنية واضحة، بل وجدت حفر صغيرة استخدمت لتخزين مؤونة السكان الذين عاشوا على التقاط الحبوب والثمار وصيد الغزال والبقرة الوحشي والثعالب والثعابين.

ويوجد إلى الشمال من كريم شاهير تل المليفات وهو أحدث قليلاً، ويمثل المرحلة الأخيرة من عصر ما قبل النيوليت في تلك المنطقة كشفت فيه بيوت دائرية أو بيضوية قطرها حوالي / ٤ / م بداخلها مواقد ومجاريش وأجران ودمى طينية متنوعة وغير ذلك.

وظهرت هذه المرحلة في مناطق زاغروس الإيرانية كما دلت مواقع تبه ازياب وجانجي داره في منطقة كرمشاه حيث عاش الناس على الصيد والالتقاط وسكنوا بيوتاً دائرية صغيرة أو كبيرة وعرفوا الدمى الطينية، المنوعة. وقد أعطت طريقة الفحم المشع تاريخاً بلغ / ٨٤٥٠ / سنة بزيادة أو نقصان قدرها / ١٥٠ / سنة للسوية E في جانجي داره التي وجدت فيها قطعة فخارية واحدة. وإذا صح هذا التاريخ، وهو الوحيد من مرحلة كريم شاهير، فإنه أقدم فخار معروف من كل المنطقة حتى الآن. وأما السوية الثالثة من جانجي داره (D) فهي تحاصر القسم الثاني من مرحلة كريم شاهير. وقد أرخت هذه السوية بالفحم المشع على زمن تراوح بين ٧٣٠٠ - ٦٩٠٠ سنة ق.م. فيها أصبحت المنازل أقوى وأفضل تنظيماً بعضها دائري أو مستطيل بنيت حسب طريقة خاصة غير معروفة سابقاً تتناوب فيها مداميك من الكلس واللبن الذي كانت له أشكال مسطحة محدبة (Plano - Convex) وحجوم كبيرة وصلت إلى المتر تقريباً. ووجدت في إحدى الغرف جمجمتان لماعز جبلي وضعتا في فريضة بالجدار بعضها فوق بعض وهما بلا شك تدلان على وظيفة دينية وعقائدية لهذا الحيوان. وفي هذه السوية اكتمل ظهور الفخار الذي كان من النوع الخشن المشوي قليلاً، في مواقع حجرية كشفت في الموقع، والمخلوط بنسبة عالية من القش، بعض الأواني كان كبيراً بلغ ارتفاعها حتى / ٨٠ / سم وأخرى صغيرة لم تتجاوز الخمسة سنتيمترات. ومن الطين أيضاً صنعت دمي إنسانية بسيطة بعضها لنساء منتفحات البطن والصدر وأخرى حيوانية لأغنام أو لماعز ذي اللحية المتدلّية. وأما السويات التالية من هذا الموقع (A. B. C) فقد أظهرت جميعها تطوراً واضحاً في كل الميادين أيضاً. كما يعاصر القسم الثاني من مرحلة كريم شاهير موقعاً إيرانياً آخر هو على كوش الذي يمثل في سويته الدنيا المرحلة الأولى في استيطان منطقة عربستان وهي مرحلة بوزمورده المؤرخة على / ٧٨٠٠ - ٧٠٠٠ / سنة ق.م والمرموز لها (C1, C2) والتي ظهرت فيها مجتمعات قادمة من المناطق الجبلية في لورستان نقلت معها معرفة الزراعة البسيطة للقمح والشعير وتدجين الماعز خاصة وبدرجة أقل الغنم مع أنها بقيت تعتمد بشكل رئيسي على الصيد والالتقاط. سكنت في بيوت مستطيلة، لم يعثر فيها على مواقع كما كان الحال في بلاد الشام، لأنهم أقاموا

هذه المواقع خارج بيوت السكن على ما يبدو. وصنعوا الأدوات والأواني الحجرية، ودمى طينية للماعز خاصة واستوردوا الأوبسيديان من منطقة بحيرة وان التي تبعد حوالي ٨٠ / كم إلى الشمال والصدف من الخليج العربي وهم يمثلون المرحلة الأخيرة في تطور حضارات عصر ما قبل النيوليت في منطقة زاغروس.

٢ - مجتمعات النيوليت ما قبل الفخار:

بدأ منذ منتصف الألف السابع ق. م عصر جديد في منطقة زاغروس، أتى متطوراً عن مرحلة كريم شاهير ومواقع جانجي داره والسويات الدنيا من علي كوش أي مرحلة بوز مورده، وهو يوازي عصر النيوليت ما قبل الفخار (ب) في بلاد الشام وفيه تعمق الاستقرار وقامت القرى الثابتة التي مارست زراعة القمح والشعير ودجنت الماعز والغنم والخنزير بعد أن كان طابع الرعي هو المهيمن في السابق. واستمر هذا العصر حوالي / ٥٠٠ / سنة أي بين حوالي / ٦٥٠٠ - ٦٠٠٠ / سنة ق. م وساد فيه تجانس حضاري مثلته على أحسن وجه حضارة جارمو من خلال مواقعها النموذجية، مثل جارمو الذي أعطى اسمه هذه الحضارة وتل المغزالية وتل شمشارا في العراق وعلي كوش وتبه غوران وتبه ساراب في إيران.

أ. جارمو:

تقع جارمو في كردستان العراق إلى الشرق من كركوك وهي تل أثري تبلغ مساحته / ١, ٥ / هكتار وسماكة طبقاته الأثرية / ٧ / م. ابتدأت فيه منذ الخمسينات تنقيبات أمريكية مهمة بإدارة بريدوود الذي كان يبحث عن القرى الزراعية الأولى، كما مر معنا وكشفت الأعمال عن مستوطنة سابقة لعصر الفخار أرخت طبقاتها الدنيا (١٦- ٦) على / ٦٥٠٠ - ٥٨٠٠ / سنة ق. م. أما الطبقات العليا (١ - ٥) فهي تعود إلى عصر النيوليت الفخاري. وعاش سكان جارمو في عصر النيوليت ما قبل الفخاري في بيوت من الطين والحجر ولكنهم لم يعرفوا اللبن بعد (على عكس بلاد الشام) سقوفها من الطين والقصب كانت دقيقة التنظيم لها مدخل واحد وتلتف حول باحة عامة ومقسمة إلى غرف للنوم أو للتخزين والأنشطة الأخرى، ومزودة بتنانير

ومواقد (الشكل : ٤٦) وعمل هؤلاء السكان ، الذين قدر عددهم بـ ١٥٠ شخصاً ، في زراعة القمح والشعير والذرة والعدس والتقاط الثمار البرية كالفستق واللوز . ودجنوا الماعز خاصة ثم الغنم والكلاب ، لكنهم اصطادوا الغزلان والثيرات البرية والثعالب وأكلوا لحوم الزواحف ، والثعابين بكثرة ، صنعوا الأدوات الزراعية الصغيرة والكبيرة ، والأواني الحجرية بعضها من المرمر الجميل كما استخدموا القش والجلود في صناعة مختلف حاجاتهم وأنتجوا آلاف التماثيل الطينية الصغيرة بعضها لنساء وأخرى لحيوانات واقعية وجميلة ، واحدة منها تمثل كلباً معقوص الذنب . وعثر في هذا الموقع على الكثير من الأقراص والمكعبات والدوائر الطينية التي يعتقد أنها استخدمت في العد والحساب . ومن فنونهم الخواتم والأساور المرمية المزينة ، كما صنعوا من العظام الخرز والقلادات والملاعق والإبر والمخارز (الشكل : ٤٧) .

إن حضارة جارمو عرفت من مستوطنات أخرى معاصرة وجدت في شمال بلاد الرافدين أهمها تل المغزالية وتل شمشمارا . في تل المغزالية ، في سفوح جبل سنجار ، كشف عن سور حجري كبير وصل ارتفاع ما تبقى منه إلى ٥ / ١ م في قسمه الغربي بوابة لها جدران عرضانية داعمة وفي قسمه الشمالي ما يشبه البرج ، وهذا أقدم بناء دفاعي معروف في مناطق زاغروس حتى الآن . وكذلك عثر في الموقع نفسه على أدوات ، مخارز ، من النحاس ، وتشكل تحولاً في استخدام هذا المعدن ، والانتقال من مرحلة صنع أدوات الزينة الكمالية التي وجدت في موقع زاوي شمسي الأقدم ، إلى أدوات الاستخدام اليومي كما هو الحال في هذا العصر ، الذي صنعت فيه أيضاً الأواني الحجرية من الكلس والمرمر التي تشبه أواني جارمو ، ويقرص في سورية ، مما يدل على اتصال مباشر بين سكان سورية وشمال العراق في ذلك الوقت .

يقع تل شمشارا على ضفة نهر الزاب الأصفر إلى الشمال من جارمو . في السويات الدنيا من هذا التل (١٦ - ١٤) كشف عن مخلفات أثرية تعاصر حضارة جارمو وتشبهها وخاصة في الأدوات التي صنعت بشكل رئيسي من الأوبسيديان المستورد من مناطق غرودماغ وبحيرة فان من شرق الأناضول . بينما كان دور الصوان

ثانويًا ومن الأدوات الأكثر انتشاراً النصيلات الصغيرة ذات الحواف المنتظمة والمكاشط والمخارز والأجران والمجاريش الزراعية التي تدل على الدور الهام للزراعة في تلك المستوطنة .

ب. علي كوش:

إن لهذا الموقع أهمية خاصة لكونه بقي مسكوناً وبلا انقطاع على امتداد النيوليت . وهو يوفر إمكانية تتبع حياة تلك المجتمعات على مختلف الصُّعَدَة وخاصة الانتقال من عصر النيوليت ما قبل الفخار إلى النيوليت الفخاري . واعتماداً على معطياته المتكاملة فقد تم تحديد مراحل تطورية لمنطقة جنوب غرب إيران ، وبخاصة عربستان ، المرحلة الأولى والأقدم أطلق عليها بوز مورده وتقع على عصر ما قبل النيوليت كما مر معنا . المرحلة الثانية ، علي كوش ، ويرمز لها (B1, B2) وتقع على عصر النيوليت ما قبل الفخار . وإذا كان هناك نقاش حول تاريخها الذي جعل في البداية بين ٧٦٥٠ - ٦٠٠٠ سنة ق.م فإن المنقبين يقترحون في الموقع تاريخاً أقدم هو ٧٠٠٠ - ٦٤٠٠ سنة ق.م أي على نهاية مرحلة كريم شاهير وبداية حضارة جارمو . ومهما يكن فإن سكان علي كوش في مرحلتهم الثانية قد تطوروا على مرحلة بوز مورده فأصبحت قريتهم أكبر وأكثر استقراراً ، سكنوا في بيوت كبيرة من الحجر والطين وزرعوا الحبوب وودجوا الحيوانات وصنعوا الأواني الحجرية والدمى الطينية ، الحيوانية والإنسانية ، كما عرفوا التجارة بدليل العثور على الصدف ، المجلوب من الخليج العربي ، والنحاس ، من وسط إيران ، والأوبسيديان ، من الأناضول . وعلى النقيض من معاصريهم في جارمو الذين كانت قبورهم خارج البيوت . فقد دفن سكان علي كوش الموتى داخل بيوت سكنهم في حفر عميقة وفي وضعية القرفصاء ، ولفت جثثهم بحصير من القصب وطلبت بالمغرة الحمراء وزودت بمواد ثمينة ونادرة . في المرحلة الثالثة (المسماة محمد جعفر والرموز لها (A1, A2) والمؤرخة على ٦٤٠٠ - ٦٠٠٠ سنة ق.م ، تطورت مستوطنة علي كوش عن سابقتها أيضاً فكبرت وازداد عدد سكانها وصنعت لأول مرة الأواني الفخارية ، التي تحسنت بسرعة من أنواع بسيطة وقليلة المتانة إلى أخرى

جيدة وملونة ومزخرفة، (الشكل: ٤٨، ١) ولكن تغيرت عادات الدفن فحفرت القبور خارج بيوت السكن ووضعت الجثث مثنية ومستلقية على الجانب الأيسر والوجه باتجاه الغرب. وإلى هذا العصر يعود موقع إيراني آخر هو تبه غوران في لورستان، وهو يؤرخ على ٦٥٠٠-٥٥٠٠ سنة ق.م، ويظهر تحولاً تدريجياً من الحياة المتنقلة إلى الاستقرار. وقد كشف فيه ثماني عشرة طبقة أثرية، الطبقات الثلاث الدنيا تعود لعصر ما قبل التاريخ. وجدت في أقدمها آثار مستوطنة نصف مستقرة، منازلها خشبية بسيطة ومتعددة الغرف، وعمل سكانها برعي الماعز، ولكنهم لم يعرفوا الزراعة. ثم أصبحت في حوالي /٦٢٠٠/ سنة ق.م قرية مستقرة بيوتها قوية وكبيرة من الطين والحجر ومطلية بالملاط الكلسي الأبيض والأحمر، ومارست هذه القرية التدجين وزراعة الشعير واصطادت بكثرة الغزلان، ولكن بقي الالتقاط يؤدي دوراً مهماً في اقتصادها. وابتداءً من الطبقة الرابعة حتى الثامنة عشرة /٤-١٨/ عرفت تبه غوران الفخار البدائي الذي يشبه فخار جانجي داره من العصر السابق، ثم تحسنت أنواعه فأصبح رقيقاً ومصقولاً وملوناً وعليه زخارف متنوعة (الشكل: ٤٨، ٢). ويعتقد أن هذه المستوطنة أخذت صناعة الفخار من جانجي داره ونقلتها بطريقها إلى بقية المناطق كتبة ساراب المجاور وربما إلى جارمو نفسها.

في نهاية الألف السادس ق.م، أي نهاية مرحلة محمد جعفر، توقف تطور القرى الزراعية الأولى السابقة للفخار، الذي ابتداءً من منطقة زاغروس الجبلية ثم انتقل جنوباً إلى المناطق الأقل ارتفاعاً ولكن بقي يحمل سمات مشتركة مقاربة في كل من المواقع العراقية والإيرانية. وبنهاية هذا العصر اختلفت طرائق التطور بين هذه المواقع فظهرت فيها حضارات مختلفة، عدا إقليم عربستان الذي ظل وثيق الصلة الحضارية والتاريخية مع بلاد الرافدين على امتداد العصر الحجري النحاسي، والعصور التاريخية اللاحقة.



الفصل الرابع

المجتمعات الزراعية الأولى في الأناضول

تشايونو

الفصل الرابع

المجتمعات الزراعية الأولى في الأناضول

إن صورة عصور ما قبل التاريخ في الأناضول هي أقل وضوحاً من بقية المناطق بسبب ندرة المواقع السليمة وقلة أعمال التنقيب التي جرت هناك ، والتي دلت على أن منطقة جنوب الأناضول هي التي سكنت قبل غيرها منذ عصر الباليوليت الأدنى مروراً بالأوسط حتى الأعلى . وظهرت في نهاية هذا العصر حضارات محلية ، قامت في المناطق الساحلية من جنوب غرب الأناضول وامتنت الصيد والالتقاط وصنعت أدوات ميكروليثية - هندسية تشابه الأدوات الكبارية في بلاد الشام ؛ دل عليها موقع بلباشي (Belbasi) المؤرخ على حوالي / ١٣٠٠٠ / سنة ق.م . وبعد مرحلة انقطاع قصيرة سكنت في موقع بلديبي (Beldibi) المجاور مجتمعات صنعت أدوات حجرية تشبه الناطوفية ، كما أظهرت السوية (C) من هذا الموقع .

وما يلفت النظر في هذه المنطقة هو الظهور المبكر للفخار ، حيث عثر في السوية (B) من بلديبي على أوان فخارية من الطين الأحمر ، بدائية الصنع ، بعضها أفضل نوعية ، تؤرخ على نهاية الألف الثامن وبداية الألف السابع ق.م وهذا أقدم دليل على ظهور الفخار في الأناضول . ولكن هذا الفخار لا يستمر ولا تعاود المجتمعات الأناضولية صنعه حتى مطلع الألف السادس ق.م . إذ قامت القرى الزراعية الأولى في شرق الأناضول في سفوح جبال طوروس حيث عاشت هناك منذ نهاية الألف الثامن ق.م مستوطنات لم تعرف الفخار ، وليس لها علاقة تطورية بمناطق جنوب غرب الأناضول الساحلية ، وإنما شديدة الشبه بشمال سورية مما يجعلنا نعتقد أن الزراعة قد وصلت إلى الأناضول على يد أناس قدموا من سورية ، في عصر النيوليت ما قبل الفخار (ب) في بلاد الشام . وبالرغم من ذلك فإن سكان شرق الأناضول

استمروا في الاعتماد بدرجة كبيرة على التقاط الحبوب البرية وعلى الصيد؛ كما تأخروا في مجال تدجين الحيوانات فإذا استثنينا الكلب وهو الحيوان الأول الذي دجن في كل المواقع النيوليتية الباكرا هناك، فليس لدينا أدلة قاطعة على التدجين في عصر النيوليت ما قبل الفخار. ولكن الناس سكنوا في أبنية منظمة من الحجر واللين وتشابهوا في شعائر دينية معينة كدفن الموتى خارج بيوت سكنهم واهتمامهم الواضح بالجماجم ودفنها بشكل منفرد وقرب المواقد كما كان متبعاً في بلاد الشام مما يؤكد مرة أخرى القرابة الحضارية القديمة بين هذه المناطق.

١ - تشايونو:

إن تشايونو (Cay. nu - Tepesi) هو الموقع الأناضولي الأهم في عصر النيوليت ما قبل الفخار وتقوم هذه المستوطنة في سفوح جبال طوروس في منطقة وسطى بين كل من الأناضول وسورية وكردستان العراقية وهي تحمل صفات مشتركة بين هذه المناطق الثلاث. وقد سكنت هذه المستوطنة من قبل مجتمعات منتظمة ومتطورة عاشت بين ٧٥٠٠ - ٦٥٠٠ / سنة ق. م وهو تاريخ السوية الأولى في تشايونو. هذه السوية التي ضمنت خمس طبقات حضارية أثرية متتالية. في الطبقة الأولى، والأقدم، أقام الناس في بيوت دائرية بسيطة وفي الطبقات الثانية والثالثة أصبحت منازلهم أكبر وأقوى؛ وشكلها مستطيل وأساساتها من الحجر وجدرانها من الطين. ولكن الأبنية الأهم أتت من الطبقة الرابعة ودلت على معرفة عالية لفن العمارة حيث شيدت البيوت بحجوم مختلفة بعضها كبير، / ١٠ × ٥ م، والآخر صغير، / ٢ × ١ م. ويعتقد المنقبون أنها لم تسكن وإنما استخدمت لأغراض اقتصادية أو كمخازن للحبوب. وأما بيوت السكن فكانت متوسطة المساحة، / ٤ × ٣ م تقريباً، متلاصقة ومنتظمة، من اللبن المكيف، أرضها وأساساتها من الحجر (الشكل: ٤٩، ١). أما أدواتهم الزراعية فكانت تشبه أدوات جيرانهم في سورية والعراق ولكنهم استخدموا بكثرة الأدوات الأويسيدانية التي توجد في مقالعها بقرهم، والأدوات الزراعية من القرون والعظام. وصنعوا من الطين التماثيل الصغيرة المختلفة ذات الأشكال الهندسية كالدوائر والمخاريط التي ربما

ساعدتهم في العد والحساب ؛ كما وجد في المستوطنة مجسم لبيت صغير بغرفة واحدة (الشكل : ٤٩ ، ٢) ، ودبابيس وشكالات وخرز من النحاس المجلوب من مقلع مجاور . وهذا شيء نادر وهام لأنه يمثل الدليل الأول ، من الأناضول ، على معرفة النحاس المطروق ، قبل أن تحصل الخطوة الثانية وهي تصنيع النحاس المصهور فيما بعد . وتغذى سكان شايونو بالحبوب التي زرعوها وربما دجنوا الحيوانات . ومارسوا الفنون البسيطة - أيضاً - فصنعوا الخرز الذي زودوا به موتاهم الذين دفنوهم تحت بيوت سكنهم .

إن شايونو ليس الدليل الأوحده على القرى الزراعية الباكراة فى الأناضول بل قامت هناك عدة مواقع أخرى معاصرة أهمها هاتشالار (Hacilar) فى جنوب غرب الأناضول الذى أرخت طبقاته الدنيا السبعة على النصف الأول للألف السابع ق . م . وهى تعود لمجتمعات لم تعرف الفخار بعد لكنها زرعت الحبوب ودجنت الحيوان ، الكلب خاصة ، وسكنت فى بيوت متطورة وعرفت الفنون ومارست عقيدة عبادة الأموات . وبعصر أحدث قليلاً تؤرخ مستوطنات كفر هويوك ، وأزيكلي هويوك وخان حسن وسورد العائدة إلى النصف الثانى من الألف السابع ق . م . والى تمثل نهاية عصر النيوليت ما قبل الفخار فى الأناضول .

ومن جهة أخرى فقد تصاعدت عمليات التنقيب فى السنوات العشرة الأخيرة وبخاصة التنقيبات العالمية فى منطقة دجلة والفرات حيث أقيمت سدود مختلفة ، فضلاً عن التنقيبات التركىة فى منطقة الفوسفور خاصة . وأدى ذلك إلى تحديد مناطق جغرافية مختلفة للنيوليت الأناضولى ؛ المنطقة الأولى هى جنوب شرق الأناضول وهى الأقدم وعلى علاقة بمنطقة المشرق وزاغروس ومن أهم مواقعها هالان شيمي (Hallan Cemi) ، وموقع نافالى تشوي (Navali Cori) وغوبكلي (Gobekli tepe) وكفر هويوك (Cafar Huyük) وكلها مواقع عائدة للنيوليت الباكر (P. P. N. B) وأعطت بقايا معمارية مهمة معابد وبيوت متطورة ، أعمدة ، أرضيات من الملاط والموزاييك وهناك تبادل تجارى نحاسى وأويسيدىان وفنون ومدافن جماجم وغير ذلك من المعيطات التى تدل على مجتمعات متطورة ومنظمة . لكن الغريب أن هذه القرى

المتطورة لا تلبث أن تهجر وينحسر الاستيطان إلى جماعات بسيطة المستوى الاجتماعي والاقتصادي . والمنطقة الوسطى في الأناضول ويمثلها خاصة موقع أزيكلي ، حيث تقوم مواقع الأويسيدان الذي تم تبادله حتى قبرص وبلاد الشام وبلاد الرافدين ، وقد عرفت هذه المنطقة النيوليتية بشكل مستقل وكانت قرى شديدة التنظيم فيها شوارع وباحات وأبنية . . . المنطقة الأخرى هي غرب الأناضول حيث البحيرات الكبرى ، وفيها موقع هاتشلال المشار إليه ومواقع أخرى اشتهرت بالفخار الملون خاصة . ونظن أن من هذه المنطقة انتقل النيوليت إلى سواحل المتوسط . وأخيراً هناك منطقة نيوليتية أخرى هي إلى الشمال الغربي للأناضول حيث تطورت فيها الحضارات النيوليتية على خلفية العصر الميزوليتي وتأثيرات من غرب الأناضول ومن أهم مواقعها إيلينار (Ilipinar) حيث كشف عن مستوطنة بيوتها من الخشب واللبن وفيها مقبرة وأوانيتها الفخارية تشبه تلك التي وجدت في منطقة البلقان ولهذه المنطقة أثر بارز في انتشار المجتمعات النيوليتية إلى منطقة البلقان .

The logo of Damascus University is a circular emblem. It features a central yellow sun-like symbol with rays. Above the symbol, the Arabic text "وقل رب زدني علما" (O Lord, increase my knowledge) is written in a semi-circle. Below the symbol, the Arabic text "جامعة دمشق" (University of Damascus) is written in a semi-circle. At the bottom of the emblem, the words "Damascus University" are written in English.

الفصل الخامس

انتشار الزراعة في العالم

الفصل الخامس

انتشار الزراعة في العالم

إذا كانت الشواهد الأولى والأقدم للزراعة أتت من بلاد الشام وأرخت على مطلع الألف الثامن ق. م كما رأينا فإن هناك من يقول: إن الزراعة لم تنشأ في منطقة واحدة فقط لتنتشر إلى بقية المناطق وإنما ظهرت في عدة أماكن من العالم من خلال تطور تدريجي مستقل. أي أنهم يرفضون نظرية البؤرة الواحدة وانتشار الحضارة لصالح التطور المتوازي والمحلي. وتستند هذه النظريات إلى بعض الدلائل للزراعة الباكراة التي أتت من أوروبا وجنوب شرق آسيا وإفريقية وأمريكا الوسطى، ومهما يكن فإن الوثائق الأثرية والعلمية المتوافرة الآن تدفع الكثيرين إلى الإجماع على أن الزراعة قد ظهرت لأول مرة في بلاد الشام ثم انتقلت فيما بعد إلى بقية أرجاء العالم وإلى أوروبا خاصة التي أخذت هذا الابتكار الهام على مراحل ثلاث:

المرحلة الأولى: وهي الأقدم وتعود إلى منتصف الألف السابع ومطلع الألف السادس ق. م وفيها وصلت الزراعة إلى جنوب أوروبا في البلقان واليونان، وذلك على امتداد سواحل المتوسط، حيث عثر على آثار القرى الزراعية الأولى في تلال صناعية تشبه تلال بلاد الشام. وهذا هو الطريق الجنوبي لانتقال الزراعة.

المرحلة الثانية: تحركت هذه القرى على امتداد السواحل ووديان الأنهار الكبرى وبخاصة الدانوب وانتشرت في وسط أوروبا في الألف السادس ق. م وفي غرب أوروبا منذ مطلع الألف الخامس ق. م. وهذا هو الطريق الشمالي لانتقال الزراعة.

المرحلة الثالثة والأخيرة: وصلت الزراعة إلى شمال أوروبا والدول الإسكندنافية الحالية في مطلع الألف الرابع ق. م.

وفي إفريقية ظهرت الزراعة، لأول مرة في وادي النيل، الفيوم، في الألف السابع ق. م ويعتقد أنها أتت إلى هناك من بلاد الشام. وهناك بعض المؤشرات حول

زراعة الحبوب في صحراء بلدان المغرب العربي منذ الألف السادس ق. م، وربما يكون ذلك تطوراً محلياً أصيلاً. علماً أن المجتمعات الزراعية بقيت زمناً طويلاً في شمال إفريقية قبل أن تنتقل إلى وسطها في الألف الثاني ق. م وإلى شرقها وجنوبها في الألف الأول ق. م. بينما لم تعرف المناطق الاستوائية الأفريقية الزراعة إلا في مطلع العصور الميلادية. وهناك ما يشير إلى زراعة الرز في آسيا، الصين، منذ الألف التاسع ق. م وإلى زراعات أخرى في بعض جزر المحيط الهادي منذ الألف السابع ق. م وقد يكون هذا تطوراً محلياً لا علاقة له بالمراكز الزراعية الأولى. ويمكن أن ينطبق القول نفسه على أمريكا الوسطى حيث زرعت البطاطا والذرة ودجنت الخنازير منذ الألف السادس ق. م، في المكسيك، ومنذ الألف الثاني ق. م في البيرو، بينما عرفت الزراعة في مناطق جبال الأنديز في أمريكا الجنوبية منذ منتصف الألف الرابع ق. م وفي جنوب هذه القارة وغربها، في الألف الثاني ق. م وما إن حل الألف الأول ق. م حتى عمت الزراعة القارة الأمريكية كلها. ومهما يكن يرفض بعض الباحثين الحديث عن بؤرة واحدة للزراعة ولعملية انتشار النيوليت، النيولتية (Neolitisation) مؤكداً أن إنجازات العصر الحجري الحديث قد تطورت على امتداد آلاف السنين، وأن عملية النيولتية الكاملة لم تتحقق حتى مطلع هذا القرن حيث مازالت شعوب كثيرة تعيش من الصيد والالتقاط.

The background of the page features a large, faint watermark of the Damascus University logo. It is a circular emblem with Arabic calligraphy at the top and bottom, and the English text 'Damascus University' in the center. The logo is light gray and serves as a background for the text.

الفصل السادس
القرى الزراعية في عصر النيوليت الفخاري
في بلاد الشام

١ - سورية

٢ - فلسطين

الفصل السادس

القرى الزراعية في عصر النيوليت الفخاري في بلاد الشام

يطلق بعض الباحثين على هذا العصر أيضاً اسم عصر ما قبل حلف Pre-Halaf وهو مؤرخ حسب الأزمنة المعيرة بين: ٧٠٠٠ - ٦٥٠٠ ق.م دخلت فيه مجتمعات ما قبل التاريخ الزراعية في مرحلة جديدة امتازت بالانتشار الكبير للأواني الفخارية . وكنا قد ألمحنا عن محاولات مجتمعات العصر السابق ، لتصنيع الفخار إلا أن ذلك بقي محدوداً في الزمان والمكان ، ولكن بدءاً من هذا الوقت غدت الأواني الفخارية مادة الاستخدام الرئيسية التي على أساسها يفرّق الباحثون بين الشعوب والحضارات وبات الفخار يشكل الحد الفاصل بين المجتمعات النيوليتية التي لم تعرفه وتلك التي اخترعته .

١ - سورية:

يشير واقع البحث الحالي إلى أن المجتمعات الزراعية النيوليتية في سورية ، كانت السبابة في اختراع الأواني الفخارية التي أنتجتها بشكل منظم ودقيق وعلى نطاق واسع . ودل عليه الانتشار الكبير لهذه الأواني في موقع تل أسود . حيث وجدت في الطبقات الدنيا (٧ - ٨) الأواني الفخارية المصقولة ذات اللون الغامق الأسود أو الأحمر البني والتي يرمز لها (D. F. B. W) (Dark Faced Burnished Ware) أي الأوعية الغامقة المصقولة وهي تؤرخ على نهاية الألف السابع وبداية الألف السادس ق.م ؛ وهذا أقدم دليل على صناعة الفخار في سورية . ومن هذه المنطقة انتقلت تلك الصناعة شرقاً إلى الرافدين وغرباً إلى الأناضول وسواحل المتوسط ثم فيما بعد إلى فلسطين في الجنوب .

وقد أعطت منطقة العمق في شمال سورية معلومات متكاملة حول التطور الحضاري لهذه المنطقة الذي يستند إلى تتبع تصنيع الفخار على مدى عدة مراحل ، وثبت أن بلاد الشام كلها قد مرت بها ، مع فوارق زمنية بسيطة بين منطقة وأخرى (الشكل : ٥٠ ، ١ ، ٢) . إن المرحلة الأولى والأقدم هي المرحلة التي أطلق عليها (العمق أ) .

العمق (أ): وتؤرخ على مطلع الألف السادس ق. م ، وعرف فيها الفخار المصنوع باليد ذا اللون القاتم والمصقول ، وعلى سطحه صبغة رمادية إلى بنية وأحياناً يميل إلى الأصفر والأحمر أو البني . إن هذا النوع من الأواني الفخارية القائمة والمصقولة بقي مسيطراً خلال كل عصر النيوليت الفخاري تقريباً . كما انتشرت إلى جانبها ، ولكن بدرجة أقل ، أنواع أخرى من الفخار البسيط أو المصبوغ باللون الأحمر وعليه زخارف نادرة معظمها طبقات مختلفة الأشكال . وتعدُّ الجرار والكؤوس والأباريق من أهم الأواني المميزة لهذه المرحلة التي عثر على فخارها أيضاً في مواقع رأس الشمرة ، السوية (V B) وفي السوية الثالثة من تلك الرماد (الشكل : ٤٢ ، ١) والسويات الدنيا من تل أسود . وقد طورت المجتمعات النيوليتية في هذا العصر الزراعة والتدجين وسكنت في منازل تشابه بيوت أسلافها لكنها غالباً ما طليت أرضها وجدرانها بالحص الأبيض القاسي ، كما استخدمت أكثر من السابق ، حجر الأوبسيديان المستورد من الأناضول . وصنعت نوعاً جديداً من السهام «نبال العمق» ذات الشكل البيضوي المشذبة بعناية كلياً أو جزئياً (الشكل : ٢٩ ، F) . واستمر تصنيع الأختام المسطحة التي ظهرت لأول مرة من السوية (VC) في رأس الشمرة ، لكنها أصبحت فخارية أكثر منها حجرية ، كما دلت السوية (V B) .

في حوالي منتصف الألف السادس ق. م (٥٦٠٠ سنة ق. م) بدأت المرحلة الثانية في تطور المجتمعات الزراعية الفخارية هي (العمق ب) :

العمق (ب): وحصل فيها تغير عظيم في مجال الفخار حيث اتسع استخدامه وتعددت أشكاله . ولكن تناقص دور النوع الغامق المصقول ، فصنع لأول مرة الفخار

الملون بلون واحد، بني إلى أحمر على خلفية برتقالية (Unichrome)، وهو يعاصر السوية (V A) في رأس الشمرة (الشكل: ٥١، ٢). وفي هذه المرحلة انتقلت صناعة الفخار من سورية إلى الجنوب فظهر الفخار القاتم المصقول في موقع جبيل المهم على الساحل اللبناني، في المرحلة المسماة هناك بالنيوليت القديم.

في نهاية الألف السادس ق. م بدأت مرحلة العمق الثالثة وهي (العمق س):

العمق (س): فيها اختلفت وتائر التطور بين شمال سورية وجنوبها، حيث تحرك مركز الثقل الحضاري شرقاً نحو بلاد الرافدين وواكبت مناطق سورية الشمالية الشرقية هذه البلاد ودخلت معها مبكرة، في العصر الحجري النحاسي، بينما تابعت بقية مناطق سورية، ومعها لبنان (النيوليت الأوسط في جبيل) وفلسطين تقاليد العصر الحجري الحديث. إذ صنع في شمال سورية الفخار الجميل متعدد الألوان والمزخرف (فخار حلف) الشديد الصلة بشمال بلاد الرافدين والذي تداخلت فيه تأثيرات محلية مع رافديه كما في رأس الشمرة (السوية IV c) وتل يونس قرب كركميش وحماة (السوية ل) وتل كردو وتل الجديدة في العمق. وتغيرت نوعية الفخار الغامق والمصقول وزخارفه الذي مثل المرحلة السابقة وظهرت فيه تأثيرات حضارة حلف (الشكل: ٥١، ١). وأنشئت، في تل يونس، بيوت دائرية مقببة من النوع المسمى تولوس / Tholos /، التي تشبه خلايا النحل، وتعدُّ الصفة المميزة للبناء الحلفي (الشكل: ٥٢، IA). ومن السوية الرابعة (IV C) في رأس الشمرة كشفت أبنية حجرية يظن أنها مسورة، ودلت هذه السوية أيضاً على أهمية تدجين الغنم الذي رجحت كفته، ولأول مرة، على البقر. كما اختفت رؤوس النبال والحرايب التي ربما حلت مكانها أحجار المقاليح التي وجدت في الكثير من المواقع. وصنعت أسلحة جديدة أخرى كالنصال ذات الحواف القاطعة المستقيمة المسماة النصال الكنعانية (الشكل: ٥٠، ٣). بدأت في القرون الأولى من الألف الخامس ق. م مرحلة (العمق د):

العمق (د): وهي تشكل استمراراً طبيعياً للمرحلة (س) تتجلى في الميادين كلها عدا الأواني الفخارية التي رجعت إلى تقاليد السوية السابقة أي النوع الغامق المصقول، الأحمر

خاصة ، وقلت نسبة الفخار المزخرف ذي التأثيرات الحلفية ؛ واستمرت هذه المرحلة معاصرة للنيوليت الأوسط في جيبيل . ومنذ الربع الأخير للألف الخامس ق . م يلاحظ حصول تراجع في حضارات النيوليت الفخاري السوري ، حيث جرى الانتقال إلى فخار عصر العبيد الأقل جودة . واستمر هذا التراجع حتى مطلع الألف الرابع ، دلت عليه السويات (IIIc, IIIb) في رأس الشمرة والتي تعاصر مرحلة العمق (ى) والنيوليت الأخير في جيبيل . ولكن لا نعرف أسباب هذا التأخر هل هي مناخية أم عرقية أم ماذا؟

٢ - فلسطين:

كانت فلسطين على امتداد هذا العصر أكثر تأثراً بسورية وأشد تبعية لها . ونلاحظ أن المناطق الداخلية الفلسطينية قد هجرت في النصف الأول من الألف السادس ق . م ، بينما عاشت على السواحل مجتمعات بسيطة عملت بالزراعة والتدجين لكنها لم تعرف الفخار . وفي النصف الثاني من الألف السادس ق . م وصلت صناعة الفخار إلى فلسطين قادمة من المواقع السورية ، وبدأ ما يسمى بعصر النيوليت الفخاري الفلسطيني . وبذلك خرجت هذه البلاد من عزلتها لتلحق بالركب السوري - الرافدي - الأناضولي . ودلت التنقيبات التي جرت في الأردن ، في مواقع عين غزال ووادي شعيب على وجود الأواني الفخارية منذ الألف السادس ق . م وهذا ما دفع بعض الباحثين إلى الاعتقاد بأن معرفة الفخار لم تكن بسبب التأثير الخارجي وإنما كان ابتكاراً محلياً وإلى اعتبار الفخار في المواقع المشار إليها هو أصل الفخار المحلي الأردني - الفلسطيني . إن أقدم الأواني الفخارية أتت من موقع هاغوشييرم ، إلى الشرق من بحيرة الحولة في حوض نهر الأردن ، حيث وجد الفخار الحشن والبسيط ، ومعه أنواع أخرى أفضل معروفة من موقع تل الرماد السوري (السوية III) الذي انتقل منه الفخار إلى المواقع الفلسطينية .

وتتابعت على امتداد الألف الخامس في فلسطين ثلاثة حضارات فخارية أساسية اختلفت تسمياتها حسب المنطقة والباحث ، وأولها هي الحضارة اليرموكية ، وأشهرها جولان (القحوانة) على نهر اليرموك ، التي تطورت على ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى، أقام الناس في بيوت بسيطة لكنهم عرفوا الفنون التشكيلية وبخاصة التماثيل النسائية الصغيرة، التي تذكرنا بتمائيل تل الرماد، والوجوه البشرية المحفورة على حصى من الحجر، والتي تشير إلى عقيدة الخصب و«الربة الأم» (الشكل: ٥٣، ٢، ٤). وقد استخدم اليرموكيون في مرحلتهم الباكرة الأواني الفخارية البسيطة والخشنة. ثم في المرحلة الثانية أصبحت هذه الأواني أفضل وأكثر تنوعاً بعضها ملون ومزخرف، وظهرت فيها تأثيرات موقع جيبيل اللبناني (الشكل: ٥٣، ١) وفي المرحلة الثالثة والأخيرة غدت البيوت اليرموكية أقوى وأكبر وأكثر تنظيمًا.

بدأ في منتصف الألف الخامس ق. م عصر أريحا الفخاري (أ) (حضارة أريحا) منهاتاً حيث السوية (2B) تمثل هذه الحضارة. ووجدت منذ السوية التاسعة في أريحا الأواني الفخارية من نوع عادي وآخر مصبوغ باللون الكريم أو الأحمر وعليه زخارف بسيطة (الشكل: ٥٤، ١)، لكنه من إنتاج محلي فلسطيني ولا يشبه الفخار السوري. وصنعت مجتمعات شبه مستقرة لم تمارس الزراعة إلا نادراً ودجنت البقر والماعز والخنزير. وفي نهاية الألف الخامس ق. م بدأ عصر أريحا الفخاري (ب)، أو مرحلة وادي رباح حسب رأي الآخرين، الذين دلت عليه السوية الثامنة في أريحا؛ ومعه تحسنت تقنية صنع الأواني الفخارية وتنوعت أشكالها (الشكل: ٥٤، ٢). وظهر تشابه كبير بين المواقع الفلسطينية واللبنانية مثل أرض تليلة في البقاع ووادي رباح بفلسطين (الشكل: ٥٣، ٣) مما يدل على أنه بطريق البقاع اللبناني انتقلت صناعة الفخار إلى سكان المرحلة (ب) في أريحا. ومنذ نهاية الألف الخامس ق. م وخلال الألف الرابع ق. م ساد تجانس حضاري كبير بين كل مناطق بلاد الشام. وخير شاهد عليه الحضارة الغسولية التي أخذت اسمها من تليلات الغسول بجوار البحر الميت والتي شكلت المرحلة الأخيرة في عصور ما قبل التاريخ في هذه المنطقة واشتهرت بفنونها الجميلة وآثارها العاجية والنحاسية. ويعتقد أنها أول من عرفت الدولاب اليدوي البطيء الذي استخدمته في صناعة الفخار. وإلى هذه المرحلة ينتمي عدد من المواقع الأردنية المنقبة حديثاً وعلى رأسها موقع أبو حامد في حوض الأردن حيث كشف عن مستوطنة غنية أعطت الدلائل المعمارية والفنية والاقتصادية المميزة لهذا العصر.



الفصل السابع

مستوطنات عصر النيوليت الفخاري في الأناضول

١ - شاتل هويوك

الفصل السابع

مستوطنات عصر النيوليت الفخاري في الأناضول

مر معنا أن سكان موقع بلديبي في شرق الأناضول، قد صنعوا منذ مطلع الألف السابع ق.م بعض الأواني الفخارية؛ ولكن ذلك بقي محدوداً ولم يخرج عن نطاق هذه المستوطنة. ومن ثم مع نهاية الألف السابع ق.م ومطلع الألف السادس ق.م انتشر الفخار بشكل واسع في الأناضول كله. ونحن لا ندرى بالضبط كيف حصل ذلك وهل هو نتيجة تطور محلي أم أنه اقتباس من سورية؟. ولا بد أن الأبحاث المستقبلية سوف توضح هذا الموضوع المهم الذي قد يضيء لنا تاريخ الصناعات الفخارية بأجملة. ومنذ النصف الأول للألف السادس ق.م انتشرت المستوطنات التي عرفت الفخار، في العديد من المناطق الأناضولية مثل: خان حسن (٤ - ٧) كوسك بينار، ويميك تبه وهاتشيلار السويات (IX - VI) ومرسين وأربابا، لكن أكثرها أهمية كانت مستوطنة شاتاك هويوك.

١ - شاتال هويوك:

إن أقدم موقع أناضولي وأكثر شهرة في هذا العصر هو شاتال هويوك (Catal Hüyük) الواقع في مرتفعات كونيا، في قلب شبه جزيرة الأناضول، وضم هذا التل الضخم (١٣ هـ أ) اثنتي عشرة سوية أثرية وجد الفخار فيها كلها، وليس من المستبعد أن تكون السويات الأدنى بلا فخار لأن المنقبين لم يصلوا إلى الأراضي البكر. قد تكون هذه المستوطنة قد سكنت بين / ٦٢٥٠ - ٥٤٠٠ / سنة ق.م، من قبل مجتمع متقدم، فريد من نوعه وقدر عدد سكانها بين / ٥٠٠٠ - ٦٠٠٠ / إنسان، مما خول المنقب أن يسميها «مدينة». فقد مارس سكان هذه المدينة الزراعة المروية بالأقنية والسواقي وعرفوا التدجين والصناعات الحرفية والتجارة. وسكنوا في بيوت قوية

ومنظمة ، والغريب أنه لم يكن لهذه البيوت أبواب ويعتقد أنهم نزلوا إليها من فتحات كانت في أسطحها مستخدمين السلالم الخشبية . كما زودوا بيوتهم بكل التجهيزات الداخلية اللازمة : تنور ، موقد ، مصاطب ، طاقات تهوية وقد شكلت هذه البيوت وحدات عمرانية متلاصقة تم الانتقال بينها بوساطة الأسطح المفتوحة . وتجمعت هذه الوحدات حول ساحات عامة مكشوفة وأحاط بالمدينة كلها جدار دفاعي يحميها . ودفن السكان موتاهم تحت أرضيات بيوتهم ، ويعتقد أنهم كانوا يتركون الجثث للطيور الجارحة لتأكل لحمها ثم يجمعون العظام ويلفونها بالقماش والحصير لدفنها فردية أو جماعية بعد أن زودوا بعضها بأدوات الزينة ، والأسلحة .

ووجدت على جدران بعض البيوت (السوية الرابعة خاصة) أعمال فنية نادرة ومتطورة ، ترافقت مع مدافن غنية ، حفرت تحت أرضيات السكن مما دفع بعض الباحثين إلى إطلاق تسمية «المعابد» على هذه البيوت ، التي حوت رسوماً جدارية متعددة الألوان ذات مواضيع كثيرة التنوع وتتمركز حول الخصوبة والموت والطبيعة . وقد صورت الحيوانات كالثور والغزال ومشاهد الصيد ، بعضها يمثل العقبان وهي تحوم فوق جثث آدمية قطعت رؤوسها ومنها استنتج الباحثون المعلومات عن عادات الدفن لدى السكان (الشكل : ٥٥ ، ٢) وفي لوحة أخرى ظهر مشهد طبيعي لبلدة على خلفية بركان ثائر يعتقد أنه للمدينة نفسها ولبركان حسن داغ المجاور ، ومشاهد لصيادين يرقصون بالرمح والأقواس حول الغزلان (الشكل : ٥٥ ، ١) كما جسدت بالطين النافر (Relief) مناظر أخرى كالنساء في وضعية الولادة أو الحمل أو مع أطفالهن ، والرجال على ظهور الحيوانات ، ومشاهد لرؤوس ثيران من الطين وعليها قرون حقيقية بعضها مغروس بانتظام في البيوت «المعابد» وتشير بشكل جلي إلى عبادة الثور وهي عقيدة تعود إلى عصر النيوليت ما قبل الفخار كما دلت على ذلك مكتشفات تل المريط في حوض الفرات الأوسط (الشكل : ٥٦) . إن تعدد المواضيع والدلالة الرمزية لها وتفرد هذه المستوطنة بها يوحي بأن شاتال هويوك كانت المركز الديني الرئيسي لهذه المنطقة في ذلك العصر . ومن جهة أخرى عرف السكان الصناعة المتطورة وبخاصة الأسلحة الرائعة من

حجر الأوبسيديان المحلي ، ومن الصوان المستورد من سورية (الشكل : ٥٥ ، ٣) والنسيج والأقمشة ، والفخار ، والأدوات الزراعية ، والأختام المسطحة ذات الزخارف الهندسية المختلفة كما اشتغلوا بالتجارة حيث وجد العديد من الخامات المستوردة من مناطق بعيدة لا تصل إليها إلا عربات النقل التي نتوقع أنهم استخدموها منذ ذلك العصر فأحضروا الصوان من شمال سورية وسفوح طوروس والصدف من البحر المتوسط وحتى من البحر الأحمر والنحاس من شرق الأناضول ومن سيناء . وبغض النظر عن التفسيرات المختلفة لهذه المستوطنة فمن الواضح أنها تشكل تجمعاً سكانياً ضخماً ومركزاً دينياً واقتصادياً لكل المنطقة ، استناداً من موقعه المتميز في قلب الأناضول الغني . وهي مدينة متطورة في قلب عالم ريفي بسيط تحكمها سلطة متماسكة تذكرنا بأريحا في فلسطين .

ثم انهارت في منتصف الألف السادس ق . م حضارة شاتال هويوك وبدأ عصر جديد أقل ازدهاراً تميز بالفخار الملون الذي استمر هناك حتى مطلع الألف الثالث ق . م . ولكن اللافت للنظر أن المجتمعات التي خلفت شاتال هويوك كانت بسيطة ومتأخرة لم تستطع متابعة طريق أسلافها فانتقل مركز الثقل إلى منطقة أخرى برهنت أنها الأقدر على حمل مشعل الحضارة ألا وهي بلاد الرافدين .

الفصل الثامن

الحضارات النيوليتية المتطورة في بلاد الرافدين

١ - حضارة أم الدباغية

٢ - حضارة حسونة

٣ - حضارة سامراء

الفصل الثامن

الحضارات النيوليتية المتطورة في بلاد الرافدين

أدت الأحداث السياسية والحروب التي جرت في منطقة الخليج إلى توقف أعمال التنقيب خلال حوالي العقدين الماضيين لذلك بقيت معلوماتنا عن مواقع هذه المنطقة مقتصرة على الأعمال السابقة . ونضيف إليها هناك التنقيبات التي جرت في مواقع نيوليتية باكرة في شمال العراق وأهمها : موقع قرمز ديربي الذي سكن على امتداد الألف التاسع والثامن ق . م وأعطى بيوتاً دائرية وأدوات ميكروليثية وجماجم مدفونة داخل بيوت السكن وغير ذلك من الآثار القريبة من تلك التي وجدت في بداية مرحلة النيوليت في المشرق وهناك موقع نمريك في حوض نهر دجلة في شمال العراق حيث وجدت مستوطنة نيوليتية تعود إلى الألفين الثامن والسابع ق . م كشف منها عن بقايا معمارية وأدوات حجرية وفنون / تماثيل بشرية وحيوانية/ تشبه ما عثر عليه في منطقة بلاد الشام ؛ علماً أنها قرية كانت ما زالت تعتمد في حياتها على الصيد والالتقاط ولم تمارس الزراعة والتدجين .

وفي مطلع الألف السادس ق . م اتضحت الاستقلالية الحضارية لكل من المجتمعات الزراعية الإيرانية والرافدية واختلفت طرائق تطور كل منها ، عدا منطقة عربستان التي بقيت وثيقة الصلة ببلاد الرافدين . لقد رجحت الآن الكفة الحضارية لهذه البلاد وفيها تطورت القرى الزراعية المهمة التي مهدت الطريق لنشوء الحضارات التاريخية اللاحقة . وقد تحرك سكان المستوطنات الزراعية الباكرة من سفوح جبال زاغروس باتجاه المناطق السهلية جنوباً . وكانت المناطق الجديدة أقل أمطاراً يتراوح معدلها السنوي بين / ٢٠٠ - ٤٠٠ / مم وكان لابد لسكانها من السقاية والري المنظم (Irrigation) الذي يحررهم من الاعتماد الكامل على الأمطار البعلية المتقلبة ، ويعوض عن نقص الأمطار في مناطقهم . ويعد ذلك من أهم إنجازات هذا العصر؛ فيفضل اختراع السقاية أصبح بالإمكان استثمار مناطق واسعة وبمردود زراعي أكبر . ثم حصل تقدم في العديد من الميادين فتطورت تقنيات البناء وصنع اللبن المكيف بالقوالب

واستخدام الملاط الكلسي بكثافة ، وتنوعت أشكال البيوت بينها أنواع دائرية ذات مخطط معقد تدعم جدرانها العضادات ولها سقوف مقببة (تولوس) . وشيّدت الأبنية الكبيرة التي تدل على استخدام ديني خاص . وتقدمت صناعة الفخار فظهرت الأواني المتقنة ذات الزخارف الجميلة التي أصبحت من العلامات الفارقة على التشابه بين المجتمعات والشاهد الأهم على الاتصال بين الحضارات التي تطورت فنونها ومعتقداتها أيضاً . وكذلك جرت العادة فإننا نسمي ثقافات هذا العصر من المواقع النموذجية لها . ولكن الربط بين هذه المواقع أصبح الآن أكثر تعقيداً لأنها كثيراً ما تتعاصر ويتداخل بعضها في بعض . ولكن الحركات المستمرة للشعوب وتزايد المعطيات الأثرية جعلنا أقدر على إجراء المقارنات الحضارية الواسعة وعلى تحديد الزمن بدقة أكبر من السابق بفضل التطبيق الواسع للتأريخ بطريقة الفحم المشع والطريقة الحرارية . فقد أمكننا تمييز حضارات كبيرة عبرت عنها ، تتابعاً أو تعاصراً ، مجتمعات أم الدباغية وتل حسونة وسامراء التي ازدهرت على امتداد الألفين السادس والخامس ق . م .

١ - حضارة أم الدباغية:

انتشرت منذ الألف السادس ق . م في شمال بلاد الرافدين القرى الزراعية التي أجادت تصنيع الفخار ، واستمدت الكثير من صفات المجتمعات الزراعية السورية المتطورة في عصر النيوليت ما قبل الفخار (ب) . وقد كشفت آثار هذه القرى الرافدية الشمالية في العديد من المواقع : ياريم تبه I ، تلول التليلات II وتل سوطو ، وكول تبه ونيوى (السويات الدنيا) . ولكن الموقع الأهم هو أم الدباغية الذي يسميه بعض الدارسين «حضارة ما قبل حسونة» ، ويعد الممثل الأفضل لحضارات النصف الأول من الألف السادس ق . م في تلك المنطقة . وتقع هذه المستوطنة في سفوح جبال سنجار الأقل أمطاراً من المرتفعات الجبلية الشمالية ، وقد ميز فيها / ١٢ / طبقة أثرية أعطت كلها فكرة عامة عن ذلك العصر ، بين / ٦٠٠٠ - ٥٥٠٠ / سنة ق . م . وقد بنى السكان بيوتهم من الطين ، حيث يندر الحجر في هذه السهول واستخدموا الملاط الكلسي بشكل واسع . والأبنية الأكثر تعبيراً أتت من الطبقات / ٣ - ٤ / وهي على نوعين :

الأول: بيوت سكن يتألف الواحد منها من غرفتين أو ثلاث، مبنية على خط واحد مستقيم، وكانت الأقواس الطينية التي ظهرت في أحد البيوت إنجازاً معمارياً مهماً، وأقدم نموذج معروف في الشرق الأوسط حتى الآن (الشكل: ٥٧، ٢).

والنوع الثاني: هو مستودعات أكبر، ظهر تصميمها وفق طراز يختلف عن البيوت حيث بنيت عشرات الغرف الصغيرة التي تراوحت أبعادها بين ١,٦ × ١,٧٠ م، في صفوف متوازية. وأشارت وموجوداتها وغياب المواعد إلى أنها كانت تستخدم لتخزين الحنيتات العامة وإعادة توزيعها مما يدل على تطور اقتصادي - اجتماعي متميز (الشكل: ٥٨). وعاش سكان أم الدباغية على الزراعة والتدجين واصطادوا الحيوانات البرية كحمار الوحش والغزال، وصنعوا أدوات حجرية تشبه أدوات بلاد الشام، خاصة.

وتدلنا على فنونهم الرسوم الجدارية التي نفذت بالألوان، الحمراء خاصة، وبينها مشاهد تمثل صيد حمار الوحش (الشكل: ٥٧، ١)، والتمائيل النسائية المختلفة. كما عرفوا نوعين من الأواني الفخارية؛ الأول خشن متوسط الجودة قليل الزخارف، مصقولاً ومصبوغاً بلون كريم أو أبيض أو رمادي يشبه فخار العمق (٢) في سورية مما يدل مرة أخرى على الصلات الباكرا بين البلدين. والنوع الثاني أفضل صنعاً فخاره مصبوغ بالأحمر غالباً ومزخرف بأشكال هندسية وإنسانية وحيوانية متنوعة، خطوط، دوائر، نقاط، وجوه بشرية عيونها كبيرة، ثعابين، رؤوس ثيران وخراف. ونفذت هذه الأشكال إما بالرسم وإما بالحز أو باللصق الذي استعمل خاصة على الأواني ذات النوعية العالية، وقد أصبحت هذه الزخارف من السمات المميزة للحضارات اللاحقة.

٢ - حضارة حسونة:

ظهرت منذ مطلع النصف الثاني للألف السادس ق.م، في شمال بلاد الرافدين حضارات جديدة تعاصرت وتداخلت في عشرات المواقع الأثرية المنتشرة هناك، حيث لا زالت الأمطار. على قلتها، كافية لممارسة الزراعة البعلية. إن التفاوت في مستوى

الدقة في تنقيب هذه المواقع ونشرها يجعل طبيعتها أكثر غموضاً إلى درجة يصعب معها أحياناً إدراك العلاقة الحضارية أو الزمنية بينها. لكن الصورة العامة تدل على أننا في النصف الثاني من الألف السادس ق. م نشهد نوعاً من الموزاييك الحضاري تعاصرت فيه ثلاث حضارات كبرى :

حضارة حلف في أقصى الشمال الرافدي ثم حسونة في الوسط ، وسمارا أو سامراء التي احتلت القسم الجنوبي من شمال بلاد الرافدين . وأخذت حضارة حسونة اسمها من موقع تل حسونة جنوب الموصل . ومن المحتمل أن تكون قد ظهرت على خلفية حضارة أم الدباغية وتطورت عنها وانتشرت في مناطق جغرافية مشابهة تسمح بممارسة الزراعة البعلية . وعلى الرغم من أن مواقعها المعروفة لا تتجاوز في عددها المواقع المنسوبة لعصر أم الدباغية لكن طبيعة آثار هذه المواقع تدل على اتساع في الاستيطان . وقد كشف في حسونة (Ib, Ic) وياريم تبه I (الطبقات X - VII) عن بيوت بسيطة صغيرة مربعة أو مستطيلة مبنية من الطين وليس من اللبن أرضها مطلية بالملاط ثم أصبحت في السوية الخامسة في ياريم تبه I أقوى وأكثف تربطها الممرات وتدعمها العضائد وتألقت من عدة غرف التفت حول ساحة خصصت للنوم أو للطبخ أو كمستودعات تشبه تلك التي وجدت في أم الدباغية . وعاش السكان على زراعة القمح والشعير والذرة ودجنوا الغنم والماعز والخنزير كما اصطادوا الغزلان والأبقار الوحشية . ولكن أدواتهم الحجرية كانت فقيرة وقليلة صنعوها من الصوان والأوبسيديان والعظام . ولم يستخدموا الأواني الحجرية وإنما عرفوا الأواني الفخارية المتنوعة التي حرقوها ، ولأول مرة ، في أفران كبيرة مؤلفة من طابقين الأدنى موقد ويعلوه غرفة الأواني المحضرة للشي . وتعدُّ هذه الأواني من أهم ما يميز عصر حسونة ؛ وقد مرت صناعتها بمرحلتين :

الأولى تسمى مرحلة حسونة القديمة (Archaic) فخارها خشن وبسيط ظهر في

الطبقات الأقدم مثل حسونة Ib وياريم تبه XII .

والثانية فخارها أفضل صنعا وأكثر زخرفة وتلوينا ولكن لا وجود للأشكال الزخرفية الحيوانية أو النباتية ، ظهر في سوية ياريم تبه الخامسة (الشكل : ٥٩ ، ٣) علما بأنه أتت من السويات العليا في موقع حسونة نفسه (السوية III) وأن فخارية جميلة تعود إلى حضارة سامراء اللاحقة ، مما يدل على تعاصر مرحلي بين الحضارتين . ومن الآثار الفنية لهذا العصر ، كانت الدمى النسائية الصغيرة التي ترتدي قُبعة وملابس متنوعة بعضها وجد في ياريم تبه II وهي تذكرنا بتمائيل تل الرماد الأقدم عهداً من سورية (الشكل : ٥٩ ، ٤) والأختام المسطحة الحجرية التي تحمل نقوشاً هندسية . كما عرف السكان صناعة النسيج الذي دلت عليه الثقالات الحجرية والطينية ، وعملوا من الكتل الطينية أحجار المقاليع التي استخدموها في الصيد وحلت هذه الأحجار بالكامل بدل رؤوس النبال التي اختفت الآن . وقد انتشرت مجتمعات حسونة على مساحة واسعة امتدت من جبال سنجار في الغرب حتى الزاب الأصغر شرقاً والزاب الأكبر جنوباً وبقيت حضارتهم مستمرة حتى مطلع الألف الخامس ق . م .

٣ - حضارة سامراء :

اسمها من مدينة سامراء حيث وجدت الأواني الفخارية العائدة لها ، في السويات الدنيا من هذه المدينة العربية الإسلامية . عاشت في الثلث الأخير من الألف السادس ق . م وتعاشرت مع حضارة حسونة ولكنها غطت مساحة أوسع انتشاراً ، وامتدت من الموصل شمالاً حتى بغداد جنوباً ومن سفوح زاغروس شرقاً حتى الفرات الأوسط غرباً حيث وصلت إلى تل باغوز في سورية . وهي مناطق ، لا تنمو فيها كلها الزراعات البعلية ولا بد لها من الري المنظم الذي عرفته المجتمعات السامرائية . إن أفضل موقعين يمثلان هذه الحضارة هما تل الصوان وشوغامامي واستناداً إلى هذين الموقعين حدث ثلاث مراحل تطورية للسامرائيين :

في المرحلة الباكرة أقام الناس في بيوت كبيرة من اللبن المكيف بالقوالب الخشبية التي ظهرت لأول مرة آنئذ . وطلبت هذه البيوت بالملاط الأبيض ، ودعمت جدرانها

بالعضادات (السويات I و II في تل الصوان) وقد دفن سكان هذه المرحلة موتاهم في قبور غنية مزودة بالخرز والأطواق من الأحجار النادرة والأواني الجميلة من الألباتر والتماثيل الصغيرة الواقفة ، من الألباتر أيضاً ذات العيون المنزلة والرأس المغطى بقبعة من القار بينها دمية رجل (الشكل : ٥٩ ، ١ ، ٢) واستخدموا الأواني الحجرية والفخارية والخشبية البسيطة ولا وجود لديهم للأدوات الميكروليثية ولا لرؤوس السهام وأكثر الأدوات انتشاراً كانت المناجل والنصال والسكاكين . كما صنعوا أدوات الجرش والطحن والأجران والمدقات ، وزرعوا القمح والشعير ومكنتهم معرفة السقاية من استنبات الكتّان واستثمار مناطق كانت جرداء ، ودجنوا الغنم والماعز والبقر والخنازير والكلاب ، واصطادوا الحمار الوحشي والغزال والثور البري والأسماك وعرفوا الري الصناعي . وفي المرحلة الوسطى حققت حضارة سامراء تطوراً كبيراً في البناء ومع أن البيوت كانت أصغر حجماً من السابق لكنها أفضل تنظيماً ، استخدم فيها اللبن بشكل شامل . وكذلك أحيطت المستوطنة ولأول مرة بسور دفاعي مدعم بالعضائد (تل الصوان IIIa) شكله مستطيل وسماكة جدرانه ٥ / ٢ م وحفر في الأرض حتى عمق ثلاثة أمتار (الشكل : ٦٠) . ومن شوغامامي كشف عن بقايا برج دفاعي كان ينتصب أمام مدخل المستوطنة ، التي لم تستخدم الأواني الحجرية بينما طورت الأواني الفخارية ذات النوعية الجيدة الملونة والمزخرفة بأشكال هندسية غزيرة ومتشابكة ومنوعة كالصليب المعقوف (Swastika) الذي تحيط به طيور تحمل في مناقيرها أسماك وتسبح حولها أيضاً أسماك أو حيوانات جبلية كالماعز يدور بعضها خلف بعض ، كما رسمت خطوط تشير ربما إلى مياه دجلة والفرات وأشجار النخيل وأشكال بشرية لنساء يرقصن ، بشعرهن المتطاير وبقربهن العقارب ، وأشكال حيوانية لغزلان وطيور وأسماك وحيوانات برية وغيرها . وقد صورت كل هذه المواضيع بواقعية غير معهودة سابقاً وأظهرت فناً تشكيمياً في منتهى الروعة (الشكل : ٦١) . وفي هذه المرحلة تأكد وجود الري الصناعي من خلال بقايا الأقنية والسواقي التي كشفت في موقع شوغامامي ،

الذي زرع سكانه القمح والكتان والشعير . وما يلفت النظر التماثيل النسائية النادرة ، من الطين الملون ، والمنزلة عيونها وأذانها بأقراص حجرية مثل حبة القهوة ، وتزين الأطواق الطينية أعناقها بشكل لم يكن له مثيل معاصر . وفي المرحلة الثالثة هجر تل الصوان وتابع شوغامامي حياته وفيه اكتملت صورة هذه الحضارة . وقد حصل تغير مهم في صناعة الفخار فاختلفت الزخارف الطبيعية الرائعة وحلت مكانها أخرى هندسية مختلفة بينما بقيت الميادين الأخرى دون تحديد يذكر . وأخيراً نشير إلى أن حضارة سمارا هي رافدية محلية أصلية وليست قادمة من إيران كما ظن سابقاً بدليل التطور التدريجي لها في موقع تل الصوان نفسه من خلال سوياته الأولى والثانية وغياب الفخار المماثل لها من إيران . في نهاية الألف السادس ق . م انتهى عصر سامراء ومعه العصر الحجري الحديث وظهرت حضارات جديدة بينها العبيديون في جنوب بلاد الرافدين الذين قد يكون لهم ضلع في اختفاء السامريين ولكن بقيت هذه المنطقة محافظة على دورها الحضاري الرائد في العصور اللاحقة أيضاً .

الباب السادس

المجتمعات الانتقالية في العصر الحجري النحاسي (الكالكويت)

الفصل الأول: حضارة حلف

الفصل الثاني: حضارة العبيد

الفصل الثالث: نشوء العمران وفجر التاريخ (ثقافة الوركاء)

الفصل الأول حضارة حلف

- ١ - حلف الباكر
- ٢ - حلف الأوسط
- ٣ - حلف الأخير

بدأت في مطلع الألف الخامس ق. م مجتمعات المشرق العربي القديم تتعرف بشكل متزايد إلى معدن النحاس وتستخدمه، مطروقا، في صنع بعض الأدوات الصغيرة. وبالرغم من أن الحجر بقي يؤدي حتى الآن الدور الأهم، ومن هنا أتت تسمية العصر الحجري النحاسي لوصف هذا الزمن الانتقالي الذي استمر حتى منتصف الألف الرابع ق. م. وتشير الدراسات الحديثة إلى أن كل من منطقة الشرق الأوسط من جهة والبلقان، من جهة أخرى، كانت المركز الأبعد لمعرفة المعادن وانتشارها. وتعود بدايات هذه المعادن في الشرق الأوسط، الأناضول وبلاد الرافدين، إلى حوالي منتصف الألف السابع ق. م لكنها في البلقان تؤرخ من منتصف الألف الخامس ق. م. وكان اكتشاف المعادن أضخم اكتشاف حصل بعد الزراعة والفخار وشكل بؤرة اقتصادية تركت آثارها في أكثر من صعيد وبخاصة في مجال تصنيع الأدوات. في هذا العصر حصلت ابتكارات حضارية مهمة وسريعة اختلفت وتأثيرها حسب المناطق، لكن مركزها الأهم كان القسم الشمالي من بلاد الرافدين الممتد من دجلة ومناطق الموصل في الشرق حتى الخابور في الغرب؛ حيث سكنت المجتمعات التي تنتمي إلى ما نسميه بالحضارة الحلفية، التي اشتهرت بتصنيع الفخار، الرائع ذي الدلالة الزمنية والحضارية الكبيرة. وتلتها الحضارة العبيدية التي انطلقت من الجنوب الرافدي؛ ومعها تجدييدات كثيرة في مجال العمارة والفنون والاقتصاد.

ولم يقتصر التقدم على صناعة الفخار بل طال كل ميادين الحياة الأخرى. فازداد السكان وانتشرت المستوطنات في مناطق كانت مغلقة من قبل بعد أن أتقن الري الصناعي وأصبحت الزراعة أكثر إنتاجية واستنبتت أنواع جديدة كالعدس والحمص والفلول وأشجار الكرمة والتين والزيتون.

وتحسن البناء فصنع القرميد (اللين المشوي) وتنوعت أشكال البيوت وارتفع مستوى تنظيمها وانتشرت الأبنية الكبيرة ذات النفع العام «المعابد» التي تدل على تقدم التنظيم الاجتماعي والاقتصادي وترسخت مفاهيم الأسرة والعشيرة والقبيلة وتعمق التخصص وتقسيم الأعمال على أسس اقتصادية جديدة نابعة من ازدياد ثروات فئات معينة من المجتمع امتلكت أكثر من غيرها كالحرفيين والتجار، كما دلت عليها قبورها التي زودت بالمعادن الثمينة كالذهب والفضة. وتعمق الفصل بين المجتمع الزراعي، والمجتمع الرعوي مما زاد في درجة التفاوت بين الناس. وتقدمت الفنون وترسخت المفاهيم الدينية السابقة كعقيدة «الربة الأم» و«تقديس الثور» وصنعت التماثيل والأختام والحلي بغزارة واضحة. وفي هذا العصر أصبحت اللوحة الحضارية أكثر اتساعاً وتعقيداً ودخلت الساحة شعوب عديدة لم تقتصر حركتها على شمال بلاد الرافدين بل وصلت حتى سفوح طوروس شمالاً والخليج العربي جنوباً وامتدت من وادي نهر السند في الشرق إلى سواحل المتوسط غرباً. وعاشت على امتداد هذه المنطقة حضارات عديدة نسميها من أسماء مواقعها الكبرى لأنها حتى الآن لم تعرف الكتابة لتخبرنا عن أسمائها، فنقول الحضارة الحلفية عندما نتحدث عن القسم الأول من العصر الحجري النحاسي، بينما نطلق تسمية الحضارة العبيدية لنميز القسم الثاني من هذا العصر، وأما حضارة الوركاء فهي التي وضعنا مباشرة على أعتاب العصور التاريخية.

الفصل الأول

حضارة حلف

تعاصر الحلفيون مع السامريين، في النصف الثاني من الألف السادس ق.م [التأريخ المعبر لعصر حلف حالياً هو بين: ٦٥٠٠ - ٥٠٠٠ قبل الآن] واستمروا في مطلع العصر الحجري النحاسي، ويجعلهم بعض الباحثين نيوليتيين، وآخرون، كما فعلنا نحن هنا، ينسبهم إلى المجتمعات الكالكوليتية معتمدين على تجديداتهم في مجالات عديدة وبخاصة استخدام المعادن. وأخذت الحضارة الحلفية اسمها من موقع تل حلف في الجزيرة العليا في سورية إلى شمال غرب رأس العين على ضفة نهر الخابور، حيث عثر على آثارها المميزة منذ مطلع هذا القرن، تحت أنقاض السوية التي ضمنت آثار مملكة جوزانا الآرامية. وكانت أول حضارة ضخمة ومتجانسة امتدت من شمال شرق بلاد الرافدين شرقاً حتى سواحل البحر المتوسط في الغرب ومن الأناضول شمالاً حتى البقاع جنوباً، وعاشت حوالي ألف سنة أي منذ منتصف الألف السادس حتى منتصف الألف الخامس ق.م. إن تل العريجية شمال نينوى في العراق هو الموقع الأهم حيث أمكن تتبع ثلاث مراحل تطورية للحلفيين منذ ظهورهم وحتى اختفائهم.

المرحلة الباكرا: والأقدم مثلثها الطبقات التي تقع تحت الطبقة (Pre-TT 10) بينما تعود الطبقات (TT 7 - TT 10) إلى المرحلة الحلفية الوسطى في حين أرخت الطبقات (TT 5 - TT 6) على المرحلة الحلفية الأخيرة.

١ - حلف الباكر:

معلوماتنا عن هذا العصر قليلة حيث أتت آثاره من موقع واحد حتى الآن هو تل العريجية؛ إذ عاش الحلفيون في مرحلتهم الباكرة في بيوت بسيطة، مستطيلة الأشكال، مبنية من الطين والقصب ولكنهم بنوا نوعاً جديداً من البيوت الدائرية ذات الجدران الرقيقة والمداخل المستطيلة (Dromos) والسقوف المقبة وهي تشبه خلايا النحل أطلق

عليها الاسم اليوناني تولوس (Tholos) لتشابهها مع أبنية من مناطق بحر إيجه العائدة للحضارة الميسينية. إن طبيعة الآثار التي وجدت فيها وبخاصة القبور، تبث على الاعتقاد بأنها لم تكن بيوت سكن وإنما معابد مورست فيها الشعائر الدينية. وفي هذا العصر صنعت الأواني الفخارية، باليد، نوعيتها متوسطة وزخارفها محدودة اقتصر على الأشكال الهندسية كالخطوط العامودية المتوازية أو الخطوط المتموجة والدوائر وطيور وأسماك وطحالب وحيوانات أخرى فضلاً عن بعض الأشكال الإنسانية. ولونت هذه الزخارف بالأحمر أو البني وصقلت بدقة ومن الأنواع المنتجة كانت الجرار والصحاف والأباريق وطاسات عميقة سميت بطاسات الحليب (Cream-Bowl) لونت بالأحمر أو البني وصقلت بدقة (الشكل: ٦٢، والشكل: ٦٣، ٢) كما حملوا الأختام والقلائد وأدوات الزينة من الأحجار النادرة (الشكل: ٦٤، ١). وكانت أدواتهم الحجرية من الصوان والبازلت وحجر الأوبسديان المستورد. ومن خلال قبورهم نتعرف إلى بعض عاداتهم الجنائزية، فقد استخدموا نوعين من الدفن:

الدفن العادي، حيث وضع الميت على جنبه مثني الركبتين، في حفرة، ترافقه أدوات الزينة والأواني الفخارية.

والنوع الثاني، دفنت الجماجم فقط بعد فصلها عن الرأس ووضعت في جرار كبيرة رافقتها أوان فخارية أخرى في غاية الروعة من حيث نوعيتها وزخارفها النادرة. ومن أهم الشواهد على هذا النوع هو القبر الجماعي المرموز له (G2) الذي وجدت فيه أربع جماجم كل منها في أنية فخارية ومعها بعض الأواني الأخرى التي تعتبر من أجمل ما أنتجه الحلفيون. وهي تحمل زخارف لنساء شعرهن مسدول يحملن بأيديهن الأقمشة أو حيواناً يهاجم إنساناً أو مجموعة من الناس تلقي بأشياء في إناء كبير. وكلها مشاهد ذات مضمون ميتولوجي له معناه.

٢ - حلف الأوسط:

بدأت المرحلة الوسطى للحلفيين في مطلع الألف الخامس ق. م، وهي تعاصر مرحلة العمق (س)، لكنها معروفة لنا بشكل أفضل من سابقتها. وفي هذه المرحلة اتسع

نطاق انتشار حضارة حلف ووصلت حتى شاغار بازار وتل يونس في سورية وياريم تبه II في العراق . وسكنت الآن بيوت مستطيلة أكبر مساحة من السابق وازدادت البيوت الدائرية المقببة (تولوس) وتراوح قطرها بين / ٣ - ٩ م ، وظهرت بكثافة في تل العرجية لدرجة تجعلنا نفكر في أن هذا المكان قد أصبح له أثر ديني متميز على مستوى المنطقة كلها ، ولم يكن فقط مستوطنة عادية للسكن (الشكل : ٥٢ ، ١) . وكذلك حصلت في هذا العصر تطورات أخرى تمثلت في الأواني الفخارية خاصة وكانت تصنع باليد ؛ ثم نشأت ورشات تصنيع كبيرة أنتجت آلاف القطع التي تنوعت أشكالها وتحسنت مادة صنعها وأصبحت أنواعها وزخارفها أكثر غنى حتى من أواني سامراء السابقة . وصنعت أنواع راقية كانت مادة للتجارة والتبادل مع خامات أخرى كالأوبسيدان (Obsidian) ويمكن تمييز ثلاثة أنواع من الأواني الفخارية في هذه المرحلة : الأول بسيط غير ملون سميك الجدران ولكن نسبته قليلة وهو امتداد لفخار المرحلة الباكرا ، والثاني رقيق الجدران جيد الصنع وغير ملون أيضاً وأما النوع الثالث فهو الأكثر نموذجية وأهمية حيث صنعت الأواني الملونة من الطين الناعم الجيد وشويت وصقلت وصبغت بألوان تتراوح من الأبيض الكريم ومن الأحمر إلى البني (Polychrome) وزخرفت بألوان فاتحة على خلفية غامقة . ورسمت فيها بدل الأشكال الهندسية التي سادت في المرحلة السابقة أشكال جديدة كالخطوط المتشابكة أو المتقاطعة التي استمدت مع الحرف الجديدة التي ازدهرت كصناعة الملابس والمطرزات والحصر والسلال . وقد استخدمت فيها الألوان الأحمر والأسود والبني ومشتقاتها بمهارة أبرزت المواضيع المرسومة بجاذبية نادرة وأصبحت الأشكال الحيوانية والنباتية أكثر واقعية واحتل رأس الثور المقدس فيها ، مكاناً مركزياً (Bucranium) (الشكل : ٦٣ ، ١ ، والشكل : ٥٢ ، ٢) .

ولدينا من هذه المرحلة معلومات أكثر أيضاً عن الحياة الاقتصادية واستثمار البيئة فقد عاش الحلفيون في مناطق الزراعات المطرية على شكل تجمعات قروية صغيرة تراوحت بين / ٥ - ٦ / قرى تفصلها فيما بينها مسافات قليلة وعدد سكان الواحدة منها بلغ حوالي / ١٠٠ / شخص . وزرعوا القمح والشعير والكتان والقنب ودجنوا الغنم والماعز والخنزير واصطادوا الغزال والحمار الوحشي والثور البري . وصنعوا أدواتهم

من الحجر الكلسي والصوان ومن الأوبسيديان أيضاً. وعن حياتهم الروحية نعرف أنهم دفنوا موتاهم في حفر عادية أو قبور مبنية ووضعوا الجثث مثنى على جانبها، رأسها في أغلب الحالات متجه نحو الجنوب، ودفنوا الجماجم مستقلة ومارسوا، لأول مرة، حرق الموتى وصنعوا تماثيل «الربة الأم» على شكل امرأة تزينها عصابات حمراء وأقنعة أو جالسة بأوضاع شهوانية ومثيرة.

٣ - حلف الأخير:

مع اختفاء حضارة سامراء في بداية الألف الخامس ق. م انتهت أيضاً المرحلة الوسطى في الحضارة الحلفية التي استمرت في مرحلتها الأخيرة خلال النصف الأول من الألف الخامس ق. م. ولسنا نلاحظ تغيراً كبيراً في الحياة الاقتصادية خلال هذا العصر الذي تصاعد فيه دور التدجين وتربية المواشي قياساً إلى المرحلة السابقة مع أن الزراعة بقيت المصدر الأهم للعيش. لكن التغيير الأساسي حصل في مجال صناعة الأواني الفخارية التي بلغت القمة في الدقة والجودة. فأصبحت رقيقة، أطلق على بعضها «قشرة البيضة»، ومتعددة الألوان والزخارف، استخدم فيها اللون الأبيض والأحمر والبني على خلفية وردية أو كريم. ورسمت عليها أشكال متنوعة أهمها هي الوردية ذات الأربع أوراق أو أكثر أو ما يسمى بصليب مالطة (Maltese Cross) وأشكال نباتية وهندسية أخرى. لكن تراجعت رؤوس الثيران التي انتشرت في العصر السابق. كما دخلت أنواع جديدة كالصحنون الرقيقة والجرار والقذور وبخاصة الصحف، وطاسات الحليب (الشكل: ٦٤، ٢). وفي مجال العمارة اختفت الأبنية الدائرية، التولوس، وحلت مكانها بيوت كبيرة مستطيلة مبنية من الطين المدكوك بعضها كان متميزاً وله وظائف دينية واضحة مثل معابد ياريم تبه II، وهي تخول استخدام كلمة «معبد» أكثر من أي وقت مضى. ومن جهة أخرى استخدمت المعادن كالرصاص والنحاس التي صنعت منها أدوات الزينة والأدوات الخفيفة خاصة. واستمرت تماثيل «الربة الأم» الملونة بخطوط بنية أو حمراء والجالسة بأوضاع جنسية كالقرفصاء أو الولادة ترافقها أشكال مختلفة من الطين بعضها يمثل الأعضاء

الذكرية . وكذلك صنعت التماثم والأختام المسطحة من الحجر أو الفخار وعليها
زخارف هندسية متنوعة . واختفت في منتصف الألف الخامس ق . م الحضارة الحلفية
دون أن ندري ما هي الأسباب الحقيقية لاختفائها . لكن ذلك لم يكن يعني توقف
التطور فقد أتت شعوب جديدة تابعت الطريق لكن هذه المرة من جنوب بلاد الرافدين
وليس من شمالها .





الفصل الثاني

حضارة العبيد

١ - العبيد الأول والثاني

٢ - العبيد الثالث والرابع

الفصل الثاني

حضارة العبيد

في مطلع الألف الخامس ق. م وهو الزمن الذي بدأ فيه عصر حلف الأخير في شمال بلاد الرافدين ظهرت في جنوب هذه البلاد حضارة جديدة سميت العبيد نسبة إلى تل العبيد قرب أور حيث وجدت آثارها الأولى [التأريخ المعير لهذا العصر هو حوالي : ٥٥٠٠ - ٤٥٠٠ قبل الآن]. وقد حصل آنذ تجانس كبير بين منطقة عربستان في جنوب غرب إيران والجنوب الرافدي ؛ وشكلت مجتمعة منطقة حضارية واحدة ، بينما تابعت بقية أجزاء إيران طريقاً مختلفاً . كنا لا ندرى تماماً في السابق كيف ظهر العبيديون ومن أين أتوا هل من الشمال أم من الجنوب ؟ ولا فيما إذا كانوا قد تطوروا من الحلفيين أم قدموا من إقليم عربستان ؟ ولكن الاكتشافات الأخيرة في جنوب بلاد الرافدين - وكما قادت إليها المصادفة - في موقع تل العويلي دلت على وجود مجتمعات أقدم سبقت العبيديين ، لكن آثارها كانت مطمورة على أعماق كبيرة تحت ترسبات دجلة والفرات التي بلغت سماكتها في بعض المناطق أكثر من عشرين متراً . وقد وجدت تحت آثار العبيديين طبقات سكنية أقدم وتعود إلى العصر الحجري الحديث مما يبرهن على أنهم لم يكونوا أول من استوطن تلك البلاد بل سبقتهم إلى ذلك شعوب أخرى ، ولكن الطبيعة الجيولوجية للمنطقة أدت إلى إخفاء معالمها . وما يدعم الأصل المحلي للعبيديين هو ظهورهم المفاجئ وقد عرفوا الزراعة والتدجين والفخار مما يدل على أنهم مروا بمرحلة سابقة قبل أن يتوصلوا إلى هذا المستوى . كما اكتشفت مؤخراً مواقع أصيلة وبكرة لهم على سواحل الخليج العربي . ثم تطورت حضارة العبيد منذ الألف الخامس ق. م حتى منتصف الألف الرابع ق. م على أربع مراحل رئيسية الأولى والثانية بقيتا في جنوب بلاد الرافدين وبدءاً من المرحلة الثالثة انتشر العبيديون في الجنوب والشمال على حد سواء .

١ - العبيد الأول والثاني:

بدأ عصر العبيد الأول منذ مطلع الألف الخامس ق. م ، ويسمى أيضاً حضارة أريدو نسبة لمدينة أريدو التاريخية ، أبو شهرين حالياً . وقد أتى كما ألحنا متطوراً محلياً عن العصر الحجري الحديث . وكذلك فإن التشابه بين فخار سامراء كما ظهرت في مرحلتها الأخيرة في موقع شوغامامي ، وفخار أريدو يدل على احتمال وجود علاقة تطورية بين الموقعين بوساطة ما يسمى بمرحلة شوغامامي الانتقالية . لذلك لم تكن حضارة أريدو هي الأولى في جنوب بلاد الرافدين كما ظن في السابق ، إذ حددت في أريدو تسع عشرة طبقة أثرية . الطبقات الخمس الدنيا تعود إلى العبيد الأول ووجد فيها الفخار الخشن البسيط والملون ، الأفضل نوعية لكنه أقل جودة من فخار حلف مع أن بعض الأواني بقيت تحافظ على مستواها العالي (الشكل : ٦٥ ، ١) . وأما الأبنية فكانت صغيرة ومتواضعة في الطبقة (XVII) لم تتجاوز مساحاتها / ٤ × ٤ / م ثم أصبحت في الطبقة (XVI - XV) أكبر وبدأت تأخذ أشكالاً تنم على وظيفة دينية لها . فبنيت من اللبن الطويل وكان لها مدخل واحد وفي صدرها فريضة ، محراب ، وفي منتصفها منضدة أو طاولة لتقديم الأضاحي . وعلى أنقاض هذه الأبنية قامت في زمن لاحق المعابد التي تعد من أهم إنجازات العبيديين في ميدان العمارة ، والتي تمثل تطوراً اجتماعياً وتبرز سلطة دينية جديدة حققت الخطوط الأولى في طريق نشوء دولة المعبد (Temple City) في العصور اللاحقة .

في بداية الألف الخامس ق. م دخل العبيديون في عصرهم الثاني الذي نطلق عليه أيضاً «حضارة حجي محمد» نسبة إلى موقع بهذا الاسم إلى الشمال من تل العبيد في جنوب العراق أيضاً . وفي هذا العصر اتسع انتشار الاستيطان العبيدي ووصل شمالاً إلى بابل وجنوباً إلى سواحل الخليج العربي والجزيرة العربية . إن الأواني الفخارية بقيت تشبه العصر السابق في أشكالها كالجرار والصحون والأباريق والكؤوس ولكن أنتجت أنواعاً فاخرة لها لون واحد ومزخرفة بخطوط هندسية غالباً أو نباتية وبخاصة الورود ويعتبر رأس العمية قرب بابل من أهم مواقع العبيد الثاني . ومن أطرف آثاره

المسامير الطينية الكثيرة التي لم تعرف وظيفتها حتى الآن ويظن أنها مسامير تأسيس وضعت في أساسات المعابد أو الأبنية الهامة؛ كما كانت في المواقع التاريخية الباكورة. والتماثيل الصغيرة الإنسانية والحيوانية التي وجدت أيضاً في سويات أريدو / ١٤ - ١٢ / العائدة لهذا العصر.

٢ - العبيد الثالث والرابع:

في منتصف الألف الخامس ق. م أنت مرحلة جديدة متطورة عن حضارة حجي محمد هي العبيد الثالث ومعها حصل تحول مهم إذ سادت لأول مرة حضارة واحدة غطت منطقة شاسعة من عربستان شرقاً إلى سواحل المتوسط غرباً ومن زاغروس شمالاً حتى سواحل الخليج العربي والبحرين جنوباً.

وفي هذه المرحلة توقف الدور الرائد لشمال الرافدين وأصبح جنوبها المركز الأهم للتحويلات الحضارية الكبرى التي ستتابع بدءاً من الآن نشاطها. وقد تطورت الأبنية الدينية البسيطة التي عرفناها من مرحلتَي العبيد الأول والثاني؛ فوصلت إلى أبعاد معبد السوية الثامنة في أريدو والمؤرخة على هذا العصر، / ٢٠ × ١٠ / م وبني هذا المعبد من اللبن الطويل وكانت جدرانه قوية وسميكة ومستقيمة، وكان المعبد منتظماً ومحددأ أطلق عليه «الثلاثي الأجزاء» (Tripartite) لأنه تألف من ثلاثة عناصر رئيسية هي:

صالة مستطيلة وكبيرة في الوسط جعلت حَرماً لممارسة الطقوس وفي صدرها محراب، وصفان من الأبنية الأصغر، يحيطان بالحرم من جانبيه كمساكن للكهنة أو مستودعات. وقد أصبح هذا المخطط أنموذجاً عاماً للمعابد الرافدية اللاحقة. ووجهت زوايا المعبد حسب الجهات الأصلية الأربع، وجدرانه زينت بنتوءات وتراجعات تقوي البناء وتعطيه منظراً جميلاً. إن هذا النمط من العمارة يمثل المعبد بكل معنى الكلمة ويجسد السلطة الدينية التي بدأت تأخذ طريقها وتقود عملية التنظيم الاجتماعي والاقتصادي للناس. وقد تميز العبيديون في عصرهم الثالث بالأدوات المصنوعة من الطين المحروق والمصقول كالمناجل والبلطات والمطارق التي استخدمها سكان الجنوب

الرافدي الفقير بالحجر، كما تقدمت حرفة الفخار محققة خطوة كبيرة بابتكار الدولاب البطيء الذي ضاعف الإنتاج وحسن نوعيته وأضاف أشكالاً جديدة كالأباريق الدائرية ذات المتاعب والتي تسمى الأواني السلحفائية (الشكل : ٦٦). ثم وصل العبيديون في عصرهم الثالث إلى شمال بلاد الرافدين فسكنوا إما مناطق بكر لم تستوطن من قبل مثل (تبه غورا) وإما أقاموا على أنقاض مجتمعات حلف المتأخرة مثل العربية. فنشأ بذلك نمطان حضاريان هما العبيد الشمالي والعبيد الجنوبي، لكل منهما صفاته المحلية لكنهما يلتقيان ضمن إطار واحد. وأقام العبيديون الشماليون في مناطق توافرت فيها الأمطار الكافية للزراعة البعلية فلم يكن لديهم حاجة لممارسة الري الصناعي كما فعل إخوانهم في الجنوب. ودجنوا الماعز والغنم بينما دجن الجنوبيون البقر ولأن بيئتهم غنية بالحجر، فقد بنوا منه بيوتهم وصنعوا منه أيضاً مختلف أدواتهم عكس الجنوبيين الذين اعتمدوا على الطين والقصب، وتفوقوا على الجنوبيين بالأختام المسطحة من الحجر خاصة ومن العظم والطين؛ وزخرفوها بأشكال هندسية مختلفة، وهي تذكر بأختام الحلفين سابقاً. لكن الشماليين أنتجوا أواني فخارية معظمها غير ملونة وأقل جودة من الجنوبية. إن تبه غورا هو أهم موقع معروف من شمال الرافدين في هذا العصر؛ ففي طبقاته الدنيا ظهرت المعابد المصممة على الطراز الجنوبي نفسه «الثلاثي العناصر»، ثم كبرت وقويت في الطبقات اللاحقة لتجسد تطوراً عمرانياً رائعاً اعتقد بعض الباحثين أنه يشكل أصل العمارة الدينية في بلاد الرافدين (الشكل : ٦٧، ٢) وعلى احتدام النقاش الدائر فيما إذا كان أصل العمارة الدينية شمالياً أم جنوبياً تبقى حقيقة وصول كلتا المنطقتين في العبيد الثالث إلى درجة عالية في فن البناء لا جدال فيها.

بقي أن نشير إلى أن اكتشافات عديدة أتت من منطقة حميرين بالعراق، والفرات الأوسط في سورية دلت على هذا النوع من الأبنية ثلاثية العناصر استخدم أيضاً كبيوت للسكن.

وبين مطلع الألف الرابع حتى منتصفه وصل العبيديون إلى مرحلتهم الأخيرة الرابعة التي تراجع فيها الفخار الملون وأصبحت أنواعه عادية وزخارفه هندسية بسيطة

وأنتجت منه كميات أكبر، بفضل استخدام الدولاب السريع . ولكن ذلك لا يعني تراجعاً حضارياً؛ إذ بلغ العبيديون الآن القمة في مجالات أخرى انصب عليها إبداعهم كالفنون والعمارة التي دلت عليها معابد أريدو (السوية VII) وتبه غورا (السوية XIII) وبرهنت على قيام وحدة حضارية راسخة؛ ففي بلاد الرافدين كلها تجلت واضحة بانتشار المعابد «ثلاثية العناصر» المدعمة بالعضادات والمزخرفة بالألوان (الشكل : ٦٧) وبالأختام التي لم تقتصر زخارفها على الأشكال الهندسية بل دخلتها الصور الحيوانية المختزلة لأول مرة وعرفت المعادن بشكل واسع، والدمى النسائية والرجالية من الطين أو الحجر وأدوات الزينة التي صنعت من أحجار نادرة ومستوردة. وتوضحت معالم عصر جديد سماه بعض الباحثين عصر الثورة العمرانية (Urban Revolution) على غرار الثورة الزراعية، النيوليتية، في العصر الحجري الحديث .



الفصل الثالث

نشوء العمران وفجر التاريخ (ثقافة الوركاء)

١ - عصر الوركاء الباكر

٢ - عصر الوركاء المتأخر

الفصل الثالث

نشوء العمران وفجر التاريخ « حضارة الوركاء »

في منتصف الألف الرابع ق. م انتهت وبشكل مأساوي ، تدميراً وحرقاً ، الحياة في المناطق العبيدية الشمالية وبذلك توقف التطور هناك وانتقل مركزه إلى جنوب بلاد الرافدين ، سومر التاريخية التي أصبحت مصدر الإشعاع الحضاري الجديد الذي وضع البشرية أمام منعطف حاسم آخر تمثل بظهور الكتابة الأولى وغروب شمس عصور ما قبل التاريخ نهائياً وبداية العصور التاريخية . لقد تطورت العمارة (Architecture) وشيدت المدن الكبيرة المسورة ، وفيها المعابد الرائعة العديدة التي أصبحت مركز النشاط الديني - الاقتصادي المنظم . وتقدمت الفنون بكل أنواعها وبخاصة نحت التماثيل (Sculpture) ، وصنعت لأول مرة الأختام الأسطوانية (Cylinder Seal) وحصل تحول شامل في مجال الزراعة والحرف والتجارة وضع المجتمع على أعتاب مؤسسات الدولة الأولى في التاريخ . وقد ربط الباحثون بين كل هذه التحولات وبين نهوض مجتمعات جديدة سميت « الشعوب السامية » ، ونفضل أن نطلق عليها شعوب الجزيرة العربية القديمة وهي التي بدأت في العصور التاريخية اللاحقة تمارس الدور الأهم ، وكان لها الأثر الأكبر في إنجازات تلك المنطقة كلها .

ومن جهة أخرى فإن الاستمرارية بين عصري العبيد الرابع والوركاء التي دلت عليها الطبقات / ١ - ٥ / في أريدو لا توحى بتغيير سكاني كبير . ومهما يكن فإن وجود شعوب الجزيرة العربية القديمة في تلك المنطقة إلى جانب السومريين ، ومنذ زمن باكر سبق بكثير قيام الدولة الأكادية ، وأصبح أمراً شديداً الاحتمال وبدأت تشير إليه الاكتشافات الأثرية الحديثة . وعلى اعتبار غياب الوثائق الكتابية الواضحة فإن أحداً لا يستطيع دحض هذا الرأي أو إثباته بشكل قاطع . إن مدينة الوركاء في جنوب العراق (أوروك التاريخية) هي الموقع الأثري الأهم الذي تمثلت فيه مجمل التطورات الجديدة ومنها استمد هذا

العصر اسمه «عصر الوركاء» ومنه «حضارة الوركاء» الذي قسمه الأمريكيون والإنكليز والألمان بأشكال مختلفة مع أنها متقاربة . علماً أن هذا العصر لم يدرس بالشكل الكافي حتى الآن ، وما زالت صورته أقل وضوحاً من عصر العبيد الذي سبقه ومن العصر التاريخي الباكر الذي لحقه . لأن التنقيبات اقتصرت على القطاع الديني من مدينة الوركاء ولم تتناول الأحياء السكنية أو الاقتصادية الكبرى أيضاً ، ولذلك وتبسيطاً للموضوع نرى تقسيمه إلى عصرين : الوركاء الباكر يليه الوركاء المتأخر .

١ - عصر الوركاء الباكر:

وهو يعادل السويات / ١٤ - ٧ / في مدينة الوركاء ويؤرخ على / ٣٦٠٠ - ٣٣٠٠ / سنة ق.م وفي هذه السويات حصل تغيير أساسي في صناعة الفخار؛ حين غاب الفخار الملون والمزخرف الذي عرف من عصر العبيد الرابع؛ وظهر آخر عادي إما رمادي اللون انتشر في شمال بلاد الرافدين وهو من نوعية أدنى، سطحه غير مصبوغ وزخارفه بسيطة نفذت بالحز أو الضغط أو التمشيط يسمى أرؤك الرمادي وإما أحمر اللون وهو أجود نوعية استخدم في جنوب بلاد الرافدين، أرؤك الأحمر. وقد أنتجت أوان جديدة أهمها ما تسمى بالأوعية الناقوسية (Bevel - Rimmed Bowls) وهي على شكل طاسات صنعت من الطين الخشن مخروطة قعرها أضيق من فوهتها المقطوعة بشكل مائل نحو الخارج انتشرت على مساحات كبيرة وبأحجام واحدة. ويعتقد بعض الباحثين أنها كانت تستخدم كمكيال للحبوب وإذا صح هذا الاستنتاج فإننا نكون الآن أمام نظام اقتصادي مركزي موحد يجمع الحبوب ثم يوزعها، حسب المناطق والحاجات (الشكل: ٦٥، ٢). كما صنعت أباريق بمصببات طويلة ومنحنية وقدور لها عدة مقابض متعددة الحجم والأشكال. وليست لدينا دلائل معمارية مهمة من هذا العصر في مدينة الوركاء نفسها ولكن السويات المعاصرة في أريدو المجاورة (السويات ٥ - ٤) كشفت عن آثار معابد بنيت على الطراز العبيدي «ثلاثي العناصر» نفسه. ومن الميزات البارزة لهذا العصر الأختام المسطحة التي وجدت بغزارة في موقع تبه غورا (الطبقة XIIa - XII) في شمال بلاد الرافدين ولها أشكال نصف دائرية عليها زخارف

هندسية وصور حيوانية وأخرى إنسانية نقشت لأول مرة، مما يدل على تصاعد أثر هذه المستوطنة الشمالية أيضاً.

٢ - عصر الوركاء المتأخر:

وهو الذي يمثل حضارة الوركاء الحقيقية كما ظهرت في الطبقات / ٧ - ٤ / من مدينة الوركاء ويؤرخ على / ٣٣٠٠ - ٣١٠٠ / سنة ق. م. وفي ذلك الزمن كبرت مساحة هذه المدينة ويقدر بعض الباحثين عدد سكانها بأكثر من عشرة آلاف إنسان وكانت تتبعها عشرات القرى الصغيرة المرتبطة بها اقتصادياً وإدارياً وبلغت مستوى عالياً من التنظيم والتطور. وتقف العمارة الدينية على رأس إنجازات هذا العصر، فقد عثر في مدينة الوركاء نفسها على العديد من المعابد الكبيرة التي تراكم بعضها فوق بعض؛ أفضلها حفظاً ما سمي بالمعبد الأبيض (White Temple) لأن أرضه من الكلس الأبيض، وبني في قطاع أنو على مصطبة مرتفعة، وحسب النموذج «ثلاثي العناصر» السائد. وفي مكان آخر من المدينة (قطاع أنانا حسب المصادر التاريخية) تراكت مجموعة أخرى من المعابد: المعبد الكلسي (Limestone Temple) والمعبد والأعمدة (Pellar Temple) أو معبد الموازيك (Mosaic Temple) والمعابد التي أعطيت الأسماء (A.B.C.D.) بعضها بلغ حجماً ضخماً كالمعبد الكلسي، / ٣٠ × ٧٦ / م. بينما بلغ قطر عامود معبد الموازيك / ٦ ، ٢ / م وهذا أضخم نوع من الأعمدة المعروفة لدينا وأقدمها كما أن المسامير الطينية الملونة بالأسود والأحمر التي كانت تزيين واجهة أحد المعابد، تمثل الظهور الأول لفن الموازيك (الشكل : ٦٨).

ومن خارج الوركاء كشفت المعابد المشابهة في أريدو (الطبقات ١٥ - ٥) ومن موقع تل قناص وجبل عرودة في الفرات الأوسط في سورية. فضلاً عن العمارة الدينية فقد ازدهرت الفنون وبخاصة التماثيل التي غالباً ما جسدت آلهة أو متعبدين خاشعين. وكذلك صنعت، لأول مرة، الأختام الأسطوانية، التي ترتبط إلى حد كبير بتقدم التجارة وتزايد الإنتاج الزراعي والحيواني والحرفي والحاجة إلى تصدير البضائع ودمغها بأختام أصحابها بعد أن ظهرت الملكية الخاصة، وكانت الأختام الأولى من مواد طرية كالكلس

والعظم والخشب وصورت عليها أشكال ميتولوجية أو مدنية متنوعة وغدت من الميزات المهمة للتمييز بين الحضارات ، وتابعت تطورها جنباً إلى جنب مع الكتابة الأولى . كما انتشرت الأوعية الناقوسية والأدوات النحاسية وأدوات الزينة والزخارف وغير ذلك من ابتكارات مجتمع تراكمت خبراته ومعارفه على مر السنين وتوجهها بخطوة عملاقة تجلت باختراع الكتابة التي وجدت دلائلها الأولى في الوركاء (الطبقة IVB) بالعراق وفي تل براك وجبوبة وعرودة في سورية حيث نقشت على لوحات طينية أشكال ورموز تمثل الكتابة التصويرية (Pictographs) وهي المرحلة الباكورة في نشوء الكتابة وتطورها وتؤرخ على الربع الأخير من الألف الرابع ق. م .

ويقع بين نهاية عصر الوركاء الأخير وبداية العصور التاريخية عصر جمدة نصر ، المنسوب إلى موقع بهذا الاسم في جنوب العراق والمؤرخ على / ٣١٠٠ - ٢٩٠٠ / سنة ق. م . ويمثل هذا العصر الصفحة الأخيرة من الزمن الانتقالي إلى العصور التاريخية القديمة ، وفيه ثبتت جذور ابتكارات الوركاء كلها ، فكبرت التجمعات السكانية وازدادت تنظيماً ونشأت - فضلاً عن الوركاء - مدن كبيرة أخرى كتوتوب (الخفاجة) وشروباك (تل فارة) والعقير التي قامت فيها مؤسسات الدولة الأولى (City State) . كما تطورت العمارة وبنيت لأول مرة في موقع جمدة نصر نفسة الأبنية المدنية الضخمة ، التي تشكل نواة القصور الأولى وتدل على وجود سلطة مدنية سياسية إلى جانب السلطة الدينية بكل جلاء . وصنعت الأواني الراقية ، المنزل بالأحجار الثمينة ومواد الزينة من الفضة والذهب . وتقدمت صناعة المعادن بكل أنواعها وطغت الاختام الأسطوانية ، بالكامل على المسطحة وتعددت المواضيع المنقوشة عليها فقد أصبح بعضها يرمز إلى آلهة وحكام معينين . وأخيراً فقد تطورت الكتابة التصويرية إلى كتابة صوتية مسمارية (Cuneiform) واضعة الحد لعصور ما قبل التاريخ لتبدأ العصور التاريخية القديمة (الشكل : ٦٩) .

الباب السابع

سورية في عصور ما قبل التاريخ

الفصل الأول: الرباعي السوري وخصائصه

الفصل الثاني: حضارات العصر الحجري القديم (الباليوليت)

الفصل الثالث: حضارات العصر الحجري الوسيط والحديث

الفصل الرابع: حضارات العصر الحجري - النحاسي

The logo of Damascus University is a large, faint watermark in the background. It is circular, featuring a central emblem with a sunburst and a building. The text "جامعة دمشق" (Damascus University) is written in Arabic script around the top inner edge, and "Damascus University" is written in English around the bottom inner edge.

الفصل الأول

الرباعي السوري وخصائصه

١ - تطور البحث

٢ - المشكلات الرباعية وآثارها قبل التاريخ

الفصل الأول

الرباعي السوري وخصائصه

١ - تطور البحث:

لفت النظر في قطرنا إلى عصور ما قبل التاريخ في وقت متأخر إذ مر زمن طويل كان البحث عن المدن التوراتية وآثار الحضارات الكلاسيكية اليونانية والرومانية محط الاهتمام الأول. وبشكل عام فإن الاكتشافات في هذا المجال ليست قديمة، وكانت في البداية نتيجة أعمال فردية بسيطة ومحدودة. ولكن المرحلة الأولى للبحث المنهجي والعلمي في العصور الحجرية السورية تعود إلى الثلاثينات من هذا القرن مع اكتشافات الباحث الألماني الفريد روست (A. Rust)، في وادي سكفتا في يبرود، الذي قدم إلى سورية مستخدماً دراجة عادية، مدفوعاً بالاكتشافات الإنكليزية في فلسطين ونقب بين أعوام / ١٩٣٠ - ١٩٣٣ / ثلاثة ملاجئ صخرية أرقامها: / ١ - ٢ - ٣ /. في الملجأ الأول وجدت آثار الهومو هكتوس والنياندرتال توضع بعضها فوق بعض بسماكة تزيد على عشرة أمتار؛ تجمعت خلال زمن استمر بين حوالي / ٢٠٠ - ٥٠ / ألف سنة ق. م. وقد حدد هذا المنقب وجود / ٢٥ / سوية أثرية تمثل كل منها حضارة مستقلة، تعود إلى جماعة بشرية محددة ترددت على هذا الملجأ على مدى ذلك الزمن الطويل. بينما عثر في الملجأ الثاني على آثار من الباليوليت الأعلى وفي الملجأ الثالث وجدت مخلفات عصري الميزوليت والنيوليت، مما يدل على استمرارية نادرة في تلك المنطقة. وقد نشر السيد روست نتائج تقيّباته في يبرود في كتاب قيّم باللغة الألمانية «لقى مغائر يبرود» (Die Höhlen - Fund Von Jabrud) وهو المؤلف العلمي الأول الذي فتح أعين الباحثين على الأهمية الخاصة لعصور ما قبل التاريخ السورية. وفي الستينات بدأت المرحلة الثانية على يد الباحث الهولندي فان ليره (Van Lieré) الذي استفاد من كونه مختصاً بالتربة لدى الحكومة السورية في ذلك الوقت وقام بمسح أولي في مختلف المناطق؛ اكتشف خلاله العديد من المواقع أهمها اللطامنة في حوض العاصي الذي يمثل أرضية معسكر بقيت سليمة؛ وإن مر عليها ما يزيد على نصف مليون سنة. وكان السيد فان ليره أول من درس العصور الحجرية ضمن إطارها الجيولوجي والجيومورفولوجي

العام وحدد علاقتها بالأسرة والمصاطب والشواطئ الرباعية ومنذ السبعينات بدأت المرحلة الثالثة وتميزت - خاصة - بظهور حفريات لإنقاذ سد الفرات الأوسط ، حيث عملت في سورية البعثات الأجنبية المختلفة ، معظمها فرنسية أدارها مختصون في عصور ما قبل التاريخ وجيومورفولوجيون وعلى رأسهم أستاذنا الكبير الأب فرنسيس أور و جاك كوفان ولورين كوبلاند وآخرون غيرهم ممن كان لمؤلف هذا الكتاب شرف مشاركتهم في العديد من الأعمال التي أدت إلى اكتشاف أكثر من / ٣٠٠ / موقع ؛ جرت وتجري في بعضها تنقيبات مهمة ، مثل الكوم في البادية والقرماش في حوض العاصي ، تطبق فيها المناهج العلمية المتطورة كطرائق التأريخ الحديثة والتحليل المخبرية والحواسب الإلكترونية وما زال العمل قائماً والاكتشافات في تصاعد مستمر وكلها دلت على الأهمية الاستثنائية ، المحلية والعالمية ، لعصور ما قبل التاريخ السورية التي أكدها المؤتمر الدولي الذي عقد لهذا الغرض في عام / ١٩٨٠ / في جامعة ليون الثانية بفرنسا .

والمرحلة الرابعة والأخيرة هي تلك التي بدأت في مطلع التسعينات من القرن الماضي حيث تجري تنقيبات أثرية أكثر من عشرة مواقع عائدة لمختلف عصور ما قبل التاريخ . و ١٠ من أهمها موقع الندوية العائد إلى الباليوليت الأدنى ، وموقع أم التلال في منطقة الكوم شمال تدمر وموقع كهف الديدرية في منطقة عفرين ، وهما موقعان يعودان بخاصة إلى الباليوليت الأوسط . ونشير إلى أن هذه المرحلة تميزت أيضاً باستكمال أعمال حفريات الإنقاذ سواء في أحواض نهر الخابور أو في حوض الفرات الأعلى حيث كشف عن العديد من المواقع العائدة للعصر الحجري الحديث والعصر الحجري النحاسي ، وقد أعطت معظم المواقع المشار إليها ، من هذه المرحلة ، مكتشفات استثنائية ، مثل الهياكل النياندرتالية وغيرها ، وهي مما سنأتي على التفصيل فيها في سياقها لاحقاً . كما نذكر المسح العام الذي جرى في منطقة السلمية والذي تركّز على دراسة هذه المنطقة من النواحي البيئية الجغرافية والأثرية وفي مختلف العصور . وفيما يخص عصور ما قبل التاريخ أدى هذا المسح إلى إظهار أن هذه المنطقة ، المسماة الأطراف القاحلة / Marges Arides / الواقعة بين المناطق الخصبة غرباً والصحراء شرقاً ، قد ظهر فيها الإنسان منذ العصر الآشولي الأعلى والباليوليت الأوسط وربما الأعلى أيضاً . وإن كانت دلائل الاستيطان من العصور المشار إليها بسيطة : إلا أن الاستيطان الأهم في المنطقة يبدأ مع العصر الكباري وهو كثيف نسبياً أيضاً في عصر النيوليت ما قبل الفخار ب .

٢ - التشكلات الرباعية وآثار ما قبل التاريخ:

إن التشكلات (Formations) الجيولوجية الرباعية والجيومورفولوجية، ما زالت ذات أهمية قصوى في دراسة آثار العصور الحجرية وبخاصة العصر الحجري القديم، لأنه ضمن هذه التشكلات تكمن الأدوات والآثار الأخرى العائدة إلى تلك العصور. وكما مر معنا فإن علم الجيومورفولوجيا يدرس تضاريس الأرض وبخاصة المصاطب النهرية والشواطئ البحرية القديمة التي تعد من أهم الشواهد على التغيرات المناخية الرباعية. وقد تبين أن سورية عرفت أربعة عصور مناخية باردة هطلت فيها أمطار غزيرة، تزامنت مع حصول جزر بحري وتراجع في مستوى مياه المتوسط فصلت بينها عصور جافة وحارة رافقها مد بحري وارتفاع لمستوى مياه البحر. وقد ظهرت آثار هذه التقلبات الباردة والحارة في وديان الأنهار الرئيسية والمناطق الساحلية بشكل خاص. وبفضل المسح الشامل الذي قام به الجيومورفولوجيان الفرنسيان بول سان-لافيل (P. Sanlaville) وجاك بوزانسون (J. Besançon) فقد وُضع إطار جيومورفولوجي - كرونولوجي عام للرباعي السوري الذي أعطيت مختلف مراحل المناخية تسميات محلية لتمييزها من غيرها. وأصبح النموذج الأكثر تكاملاً الذي تقاس عليه الدراسات الرباعية في هذه المنطقة. ونوجز فيما يلي أهم العصور والتشكلات الجيومورفولوجية الرباعية السورية، بدءاً من الأحدث والأقرب والأقل ارتفاعاً، مستخدمين الترميز العالمي السائد:

- الرباعي النهري صفر (رن صفر): QF 0 وهو سرير تشكل في عصر الهولوسن الدافئ. ومعظم توضعاته سهول رسوبية في وديان الأنهار حيث تجاور المياه مباشرة؛ وضمن هذه التوضعات نعر على الآثار الأحدث في عصور ما قبل التاريخ التي تعود إلى العصر الحجري الحديث وأحياناً الوسيط.

- العصر المطير الأول: (رن I: QF I) أو، عصير الشير، حسب المصطلح المحلي، وقد ظهرت آثاره بشكل رئيسي في أحواض نهر الكبير الشمالي (موقع الشير) وفي العاصي والفرات. ضمن السويات العليا من سريره (مصطبته) وجدت أدوات تعود إلى العصر الحجري القديم الأعلى (٣٥-١٢) ألف سنة ق.م بينما احتوت السويات الدنيا آثار إنسان النياندرتال العائدة إلى العصر الحجري القديم الأوسط (٢٠٠-٣٥) ألف سنة ق.م.

- العصر الجاف الأول (رب I: QMI) أو، عصر بانياس، حيث وجد الشاطئ القديم العائد إليه، وضم أدوات حجرية تؤرخ على العصر الانتقالي بين الباليوليت الأدنى والأوسط (٢٥٠-٢٠٠) ألف سنة ق.م.

- العصر المطير الثاني: (رن II : II QF) أو عصر أبو جمعة، أفضل دلائله أتت من أحواض الفرات (موقع أبو جمعة) ونهر الكبير الشمالي والعاصي رافقتها أدوات حجرية تعود إلى حوالي (٣٥٠, ٠٠٠ - ٢٥٠, ٠٠٠) ألف سنة ق.م وهو عصر الحضارة الآشولية العليا.

- العصر الجاف الثاني: (ر ب II : II QM) أو عصر هنادي - خلاله، ويُعدُّ أهم تشكيلة بحرية في سورية تدل على شاطئ المتوسط القديم، الذي بقيت آثاره في مناطق هنادي وخلالها في محافظة اللاذقية. وجدت ضمن تشكيلات هذا الشاطئ أدوات صوانية تعود إلى حوالي / ٤٥٠, ٠٠٠ / ألف سنة ق.م أي إلى القسم الثاني من الحضارة الآشولية الوسطى أو ما يسمى بالآشولي الأوسط المتطور.

- العصر المطير الثالث: (رن III : III QF) أو عصر اللطامنة وأفضل ظهور له هو موقع اللطامنة في حوض نهر العاصي كما وجد في مناطق أخرى في أحواض الفرات ونهر الكبير الشمالي. وعثر ضمن سريره هذا العصر على أدوات حجرية تعود إلى القسم الأول من الحضارة الآشولية الوسطى أو الآشولي الأوسط، أهمها أرضية السكن الشهيرة من موقع اللطامنة.

- العصر الجاف الثالث: (ر ب III : III QM)، عصر بكسا، وقد وجد شاطئه القديم في عدة مناطق من الساحل السوري وبخاصة في بكسا، في محافظة اللاذقية وفيه آثار تعود إلى القسم الثاني من الحضارة الآشولية القديمة أي الآشولي القديم المتطور المؤرخ على حوالي / ٧٠٠, ٠٠٠ / سنة ق.م.

- العصر المطير الرابع: (رن IV : IV QF)، عصر ست مرخو، في حوض نهر الكبير الشمالي. ووجدت ضمن سريره أقدم أدوات حجرية معروفة في سورية، بل خارج إفريقية وتؤرخ على حوالي مليون سنة خلت (أي بداية الحضارة الآشولية). وهناك دلائل على عصرين آخرين، واحد مطير والثاني جاف يعودان إلى بداية الرباعي، ووجدت الرسوبات العائدة إليهما في وديان العاصي والفرات وفي الساحل، ولكنها لم تتضمن أية أدوات حجرية مما يدل على أن هذين العصرين قد سبقا ظهور الإنسان في سورية. إن الرباعي النهري صفر هو السرير الوحيد العائد إلى عصر الهولوسن وأما بقية التشكيلات فقد حصلت متتابعة في البليستوسن أحدثها الرباعي النهري الأول والبحري الأول المؤرخان على البليستوسن الأعلى. بينما يعود الرباعي النهري الثاني والبحري الثاني والنهري الثالث إلى البليستوسن الأوسط وأما الرباعي النهري الرابع والبحري الرابع فيؤرخان على البليستوسن الأدنى. والأقدم (الشكل: ٧٠ والشكل: ٧١).

الفصل الثاني
حضارات العصر الحجري القديم
(الباليوليت)

- ١ - الباليوليت الأدنى
- ٢ - الانتقال من الباليوليت الأدنى إلى الأوسط
- ٣ - الباليوليت الأوسط والأعلى

الفصل الثاني

حضارات العصر الحجري القديم (الباليوليت)

١ - الباليوليت الأدنى:

بدأ هذا العصر منذ حوالي مليون سنة واستمر حتى حوالي / ٢٠٠,٠٠٠ / سنة ق.م وهو يرادف الحضارة الأشولية. سكنت سورية فيه من قبل الهومو هكتوس الذي قدمت جماعاته من القارة الأفريقية سالكة طريقين رئيسيين: الأول على امتداد سواحل المتوسط والثاني خلال وديان الأنهار الكبيرة: وادي عربة، وادي الأردن، وادي الليطاني، ثم وادي العاصي. إن كل ما نعرفه عن هذه الجماعات هو الأدوات الحجرية التي انتشرت بكثافة كبيرة ونادرة وأهمها الفؤوس الحجرية. وقد استعملنا اعتماداً على هذه الفؤوس تتبع مراحل تطور الباليوليت الأدنى السوري كلها؛ بدءاً من ظهوره حتى اختفائه. إن وجود الأدوات الحجرية ضمن التشكلات الرباعية ساعد على تحديد الإطار الجيولوجي - الأثري العام للبليستوسن أو الباليوليت كما يسميه علماء الآثار. وقد تطورت في هذا العصر مجتمعات مختلفة؛ جماعات صنعت الفؤوس الحجرية وأخرى لم تستخدمها وقد وجدت آثارها في منطقة نهر الكبير الشمالي وبخاصة في موقع ست مرخو. حيث عثر على فؤوس حجرية بدائية وهي أقدم ما وجد خارج القارة الأفريقية حتى الآن، وتعود كما ذكرنا إلى حوالي مليون سنة. وهي تشكل الدليل المادي الأقدم والأول على سكن سورية في عصور ما قبل التاريخ (الشكل: ٧٢). بعدها أتت جماعات صنعت فؤوساً أكثر تطوراً وجدت في موقع الشيخ محمد في حوض نهر الكبير الشمالي أيضاً (الشكل: ٧٣). وفي الوقت نفسه سكن حوض نهر العاصي من قبل أناس لم يستخدموا الفؤوس أبداً وإنما القواطع والأدوات الصغيرة الأخرى. ونحن لا نستطيع التقرير فيما إذا كان إنسان الساحل السوري الأول قد طور فؤوسه اليدوية، من قواطع إنسان العاصي أم أنه أخذ طريقة تصنيعها من مكان آخر.

وفي القسم الثاني من الباليوليت الأدنى (الآشولي الأوسط) المؤرخ على / ٧٠٠ - ٤٠٠ / ألف سنة ق. م توضحت استقلالية إنسان سورية الأول وقامت حضارات محلية أصيلة تطورت بأشكال مختلفة ومناطق مختلفة، دلت عليها فؤوسها اليدوية التي أصبحت أكثر انتظاماً وتنوعاً، فصنعت كل من هذه الحضارات أنواعاً خاصة بها. إذ استخدم سكان المناطق الداخلية الفأس الطويلة المدببة (الشكل : ٧٤) بينما فضل سكان السواحل الفأس البيضوية العريضة (الشكل : ٧٥). ويلاحظ انتشار هذا التخصص في بقية بلاد الشام مما يدل على تجانس حضاري باكر لهذه البلاد. وإلى الشمال من مدينة حماه عثر ضمن توضعات السريز النهري الثالث (ر ن III أو عصر اللطامنة) بقرب قرية اللطامنة على بقايا معسكر سليم، أرضية سكن (Living floor) سكنته جماعات من صيادي الحيوانات الوحشية كالفيل والحصان ووحيد القرن وفرس الماء، وملتقطي الثمار البرية كاللوز والزعرور منذ حوالي نصف سنة خلت. وعاش هؤلاء الناس في وادي العاصي الذي كان غنياً بالأحراش ومناخه أكثر برودة وأمطاراً من الآن. وعرفوا استخدام الأدوات الحجرية وبخاصة الفؤوس الكبيرة والفعالة التي ندرت مثيلاتها. وأشادوا لأول مرة خارج إفريقية، الأكواخ البسيطة من الأغصان والجلود والأحجار (شكل : ٧٦) واستفادوا من النار مما جعل من اللطامنة أحد أهم المواقع النادرة في العالم.

ويعدّ موقع الميرة وهو موقع مكشوف بجوار - بئر قديم - في منطقة الكوم إلى الشمال من تدمر، أهم موقع سوري من هذا العصر بعد اللطامنة. وأثبتت الأسبار التي جرت فيه في السنوات الأخيرة وجود أرضية سكن تعود إلى العصر الآشولي الأوسط أعطت فؤوساً يدوية من نوع الفؤوس نفسها التي وجدت في موقع اللطامنة. وقد دلت الدراسات الأولية على أن تاريخ الموقع، حسب الطريقة المغناطيسية القديمة /Paleomagnetism/ يعود إلى حوالي ٧٠٠ ألف سنة خلت. وهو بذلك أقدم من موقع اللطامنة نفسه الذي قدرّت طريقة اليورانيوم ثوريوم تاريخه وسطياً بحدود ٥٠٠ ألف سنة خلت (الشكل : ٧٧). ومن جهة أخرى فإن التنقيبات الشاملة المتوقع

حصولها في موقع الميرة سوف تزودنا بالكثير من المعلومات عن هذه المرحلة من عصور ما قبل التاريخ السورية . ولكننا نستطيع منذ الآن القول : أن البادية السورية كانت منذ العصر الآشولي الأوسط مسكونة بجماعات أتقنت تصنيع الأدوات الحجرية التي تطورت بشكل لا نظير له في العصر اللاحق أي في العصر الآشولي الأعلى كما دلت على ذلك عشرات المواقع الفنية المنتشرة في مختلف أرجاء حوض الكوم وبخاصة بجوار الينابيع القديمة التي جذبت الإنسان منذ أقدم العصور .

في القسم الثالث والأخير من الباليوليت الأدنى (الآشولي الأعلى) المؤرخ على ٤٠٠ / ٢٥٠,٠٠٠ سنة ق.م ازداد عدد سكان سورية بشكل واضح وخرجت الجماعات الأولى ، التي تمكنت من البناء ومن استخدام النار ، من مناطق سكنها التقليدية في السواحل وحوض العاصي واتجهت شرقاً نحو مناطق جديدة في البادية والفرات . وهكذا بدءاً من هذا العصر سكنت المناطق الجغرافية السورية كلها من دون انقطاع من قبل مجتمعات تابعت تصنيع الفؤوس الحجرية وحسنتها إلى درجة عالية . ولكنه ساد آنئذ في بلاد الشام كلها نوع واحد من الفؤوس التي تشبه شكل القلب أو اللوزة (الشكل : ٧٨) مما يدل على اتصال واسع بين سكان مختلف المناطق . إن أفضل موقع لهذا العصر هو القرماشي في وادي العاصي ، إلى الجنوب قليلاً من اللطامنة ، حيث كشفت التنقيبات التي قام بها المؤلف بالاشتراك مع الأستاذ فرنسيس أور عن بقايا معسكر ، أرضية سكن سليمة تشبه اللطامنة لجماعة من الصيادين عاشت منذ حوالي ٤٠٠,٠٠٠ / سنة ق.م ، وعرفت صنع الفؤوس الرائعة وبنيت الأكواخ البسيطة ، واستخدمت النار وتغذت ، مثل أسلافها في اللطامنة ، من خيرات العاصي الحيوانية والنباتية الوفيرة (الشكل : ٧٩) .

الندوية: أهم موقع سوري معروف حتى الآن من هذا العصر هو موقع الندوية في منطقة الكوم في تدمر . وهو قيد التنقيب من قبل بعثة سورية - سويسرية يديرها عن الجانب السوري سلطان محيسن وعن الجانب السويسري جان ماري لوتنسورير .

اكتُشف الموقع في الثمانينات، يقوم بجوار بئر قديم جاف الآن، وقد أعطت التنقيبات التي بدأت فيه منذ ١٩٨٩ معلومات أثرية وأنتروبولوجية وبالنتولوجية مهمة. وبلغت سماكة الترسبات المحيطة بالموقع ما يزيد على ٢٥ متراً حددت فيها ما يزيد على ثلاثين / ٣٠ / طبقة أثرية، أقدمها حتى الآن كانت الطبقات الآشولية العليا، تلتها طبقات يبرودية وهملية وأخرى من عصر الباليوليت الأوسط. إلا أن الاستيطان الأهم هو العائد للعصر الآشولي الأعلى حتى مرحلة الآشولي الأخير. ويمكن تقسيم هذه المرحلة، التي تغطي فترة تقدر بحوالي ٥٠٠ ألف سنة، إلى عدة مراحل متتالية؛ أقدمها المرحلة / E / التي يقدر عمرها بحوالي ٥٠٠ ألف سنة خلت تليها المرحلة / D / وعمرها حوالي ٤٥٠,٠٠٠ سنة خلت، وفي الطبقات العائدة إلى هذه المرحلة كُشف عن العظم الجداري لجمجمة إنسان الهومواركتوس وهو أكمل كشف معروف حتى الآن لهذا الإنسان في الشرق الأوسط وهو - أيضاً - الأهم وهناك المرحلة C ثم المرحلة B، وهذه المراحل المشار إليها أعطت أنماطاً مختلفة من الفؤوس الحجرية وبكميات كبيرة جداً، بلغت عشرات الآلاف من الأدوات. وهي فؤوس ذات شكل بيضوي أو لوزي غالباً وذات تقنيات تصنيع مختلفة رافقتها أدوات قاطعة وقواطع وقطع مشذبة على الوجهين وأدوات خفيفة أخرى تعطي صورة واضحة عن تطور الصناعات الآشولية العليا في تلك المرحلة. وبعد المرحلة الآشولية العليا الأخيرة أي المرحلة B، ظهرت في موقع الندوية أدوات تنسب إلى الحضارة البرودية، وعلى رأسها المقاحف القصيرة والغليظة ذات التشذيب المتدرج، تلتها أدوات نسبت إلى الحضارة الهملية فيها بخاصة الحراب الطويلة. ولكن الطبقات العائدة إلى الحضارتين المذكورتين لم تكن في مكانها الأصلي وإنما مخربة، ونأمل الكشف عنها سليمة في مناطق أخرى من الموقع. وكانت الطبقة الأخيرة في موقع الندوية من مرحلة الآشولي النهائي وهي أرضية سكن غنية بالفؤوس البدوية والقواطع وغيرها من الأدوات الصغيرة (الشكل: ٨٠، الشكل: ٨١). كما عثر في الموقع على بقايا حيوانية مختلفة أهمها الحصان والجمال والثور وحمار الوحش والغزال والكلب والذئب وهناك الطيور وغيرها؛ فضلاً عن بقايا النبات اللوز والسنديان وأشجار أخرى تدل على سهوب مفتوحة. ولكن الكشف

الأهم من موقع الندوية حتى الآن هو جزء الجمجمة الذي أشرنا إليه /Os parietale/ الذي وجد في الطبقة الثامنة العائدة للمرحلة D من الموقع ، والتي كانت غنية جداً بالأدوات الحجرية وبعظام الغزال ووحيد القرن . وقد دلت الدراسات الأولية لهذه الجمجمة ، ذات الشكل البدائي وأبعادها ٨ , ١٢ × ٩ , ٢ × ١ سم ، أنها تعود إلى نوع من الإنسان المنتصب القامة /Homo-Erectus/ القريب إلى الأنواع الآسيوية أكثر منه إلى الأنواع الأفريقية المسماة هومو ارغاستر /Homo-Ergaster/ مما يشير غرابة تدعو إلى المزيد من الدراسات لتحديد حقيقة هذا الكشف . ناهيك عن أنه بالرغم من الشكل البدائي لهذه الجمجمة فإنها كانت مقترنة بأدوات حجرية متطورة جداً ، عكس ما هو معهود حتى الآن . إذ غالباً ما كانت تقترب الجماجم البدائية ، إفريقية بخاصة ، بأدوات حجرية بدائية . وهذا أيضاً كشف جديد يدعو إلى إعادة النظر بأحكام سابقة في هذا المجال . لأن شكل الجمجمة لا يحدد بالضرورة درجة تطور الدماغ الذي تحمله وقدرة هذا الدماغ على إنجاز أعمال تحتاج إلى درجة عالية من التفكير والتنظيم . لأن إنسان الندوية كان يملك دماغاً متطوراً أنجز أدوات حجرية دقيقة التصنيع بالرغم من أن شكل جمجمته كان بدائياً (الشكل : ٨٢) .

٢ - الانتقال من الباليوليت الأدنى إلى الأوسط:

حصلت في نهاية مجتمعات الهومو اركتوس وبداية النياندرتاليين أي بين /٢٥٠,٠٠٠ - ٢٠٠,٠٠٠/ سنة ق.م ، في سورية ، وفي المشرق العربي كله ، تغييرات عاصفة ، شكلت الصفة المميزة لهذا العصر . وقد اختلفت التفسيرات حول أسباب هذه التغييرات ودوافعها وفيما إذا كانت تقترب بظهور أقوام جديدة أم أنها مجرد تحولات داخلية في إطار الجماعات العرقية المحلية . ومهما يكن فلم يعد صنع الفؤوس اليدوية الذين أسميناهم بالآشوليين يسيطرون بلا منازع بل ظهرت إلى جانبهم أقوام وثقافات أخرى جديدة تعايشت كلها في الزمان والمكان نفسه ، ولكن كانت لكل منها أدواتها وأسلحتها الخاصة وطرائقها المميزة في العيش . وقد أصبحت هذه الأقوام أكثر ارتباطاً بالأرض ، وبدل المواقع المؤقتة التي سكنت لموسم أو موسمين مثل اللطامنة أو

القرماشي ، نجد الأجيال خلف الأجيال وقد تعاقبت على المكان نفسه وأفضل دليل على ذلك ملاجئ يبرود وبخاصة الملجأ الأول الذي سكن على امتداد زمن زاد على الـ / ١٥٠, ٠٠٠ / سنة . إن الجديد والمهم المثير في هذا الملجأ هو الصناعة الصوانية التي أطلق عليها «البرودية» وهي حضارة عاشت بين حوالي / ١٥٠ / ألف سنة ق. م وانتشرت من فلسطين جنوباً حتى البادية السورية شمالاً . ولم يستخدم البروديون الفأس اليدوي إلا نادراً بل اشتهروا بصنع المقحف البرودي الذي كان شكله قصيراً وعريضاً وله تشذيب متدرج مثل حراشف السمك (الشكل : ٨٣) . وهذا المقحف أداة مثالية لصنع الجلود التي نعتقد بأن الناس قد استخدموها في لباسهم وفرش بيوتهم . ويشكل الملجأ الرابع في يبرود دليلاً بارزاً على مدى التنوع الحضاري الذي ساد وقتئذ فلم يستخدم سكان هذا الملجأ الذي لا يبعد عن الملجأ الأول إلا أمثاراً قليلة ، المقحف البرودي ، ولا الفأس اليدوي بل الأدوات المفروضة والمستنة والسكاكين ذات الظهر العريض التي تنسب إلى ما يسمى في أوروبا بالحضارة التياسية (Tayacian) . كما اصطادوا الحصان البري ووحيد القرن والوعل والدب والغزال وغيرها من الحيوانات التي كانت تعيش في هذه المنطقة بجوار بحيرة قديمة حفظت ترسباتها ، المؤلف من الطمي الناعم ، آثاراً نادرة بينها الألوان والبيوض المتحجرة وطبعات أقدام حيوانات وطيور وزواحف . والأهم من ذلك طبعة كف الإنسان من نوع ما قبل النياندرتال هي الأولى من نوعها في سورية وفي المنطقة .

تجري في حوض الكوم ، في البادية ، الآن تنقيبات مستمرة من قبل بعثة فرنسية يرأسها جاك كوفان ونشارك فيها شخصياً وهي تغني معلوماتنا بشكل متزايد ، عن هذا العصر ، حيث عاشت هناك جماعات بشرية كثيفة وعديدة استفادت من خيرات المنطقة الوفيرة وأقامت بجوار العديد من الينابيع الطبيعية التي جف بعضها بينما ما زال بعضها الآخر جارياً مثل بئر الهمل وأم التلال وأم قبيبة والندوية . وقد وجدت آثار الاستيطان البشري حول هذه الينابيع بكثافة لم يعرف لها نظير في العالم حتى الآن حيث تراكمت مئات الألوف ، حتى لا نقول الملايين ، من الأدوات الحجرية المقتربة بعظام الحيوانات

الوفيرة والمتوضعة كلها ضمن طبقات سليمة بلغت سماكتها عشرات الأمتار وأمكن تأريخها بالطرائق الفيزيائية الحديثة كاليورانيوم ثوريوم والطريقة الحرارية وذلك لأول مرة في سورية . وقد صنع سكان حوضه الكوم القدماء أدوات وأسلحة متعددة بقدر تعددهم فمنهم من اعتمد على الفأس اليدوي وآخر فضل المححف البيرودي وثالث أبدع أنواعاً رائعة من الحراب الطويلة ذات الفعالية العالية في الصيد (الحراب الهملية) التي شكلت قفزة نوعية في تاريخ صنع الأسلحة الحجرية ، ولكنها اختفت مع اختفاء الهلميين ولم يعاود تصنيع مثيلاتها إلا بعد مرور زمن طويل وعلى يد الإنسان العاقل (الشكل : ٨٤).

٣ - الباليوليت الأوسط والأعلى:

في مطلع العصر المطير الأول أي عصر الشير ، منذ حوالي /٢٠٠/ ألف سنة ق. م اختفى الموزاييك الحضاري الذي ساد في العصر السابق . وغاب الهومو هاركتوس وظهر النياندرتال بحضارته الجديدة (الفلوآزية المستيرية) . وقد كان النياندرتاليون كثيري العدد ونحن نجد آثارهم في كل مكان في قطرنا سواء في المواقع السطحية المكشوفة أم في الوديان أم في المغائر والملاجئ . وطور هؤلاء ما أبدعه أسلافهم في مجال البناء والنار خاصة ، ولكنهم لم يستخدموا الفأس اليدوي ولا الأدوات الثقيلة المصنعة من النوى ؛ بل صنعوا أدواتهم من الشظايا الصغيرة المتنوعة الأشكال والوظائف وعلى رأسها المقاحف التي استخدموا في تحضيرها التقنيات الفلوآزية - المستيرية المعروفة في ذلك العصر (الشكل : ٨٥) . ولا شك أن الدراسات الدقيقة للعديد من المواقع الهامة في سورية مثل يبرود وكهف الدوارة وجرف العجلة والكوم في البادية أظهرت أن حضارة النياندرتال السوري ، رغم تشابهها العام مع مثيلاتها في بقية المناطق إلا أنها أقرب إلى النياندرتاليين في المشرق العربي القديم ، الذين وصلوا في هذا العصر إلى درجة عالية من التجانس وقامت بينهم علاقات مباشرة تبادلوا من خلالها حاجاتهم وخبراتهم بما حقق لهم فائدة أكبر من بيئتهم التي سخروها لخدمة مصالحهم المادية والروحية المتزايدة .

أم التلال: يُعدُّ موقع أم التلال في منطقة الكوم شمال تدمر من أهم المواقع السورية قيد التنقيب من قبل بعثة سورية فرنسية بإدارة مشتركة لكل من سلطان محيسن وإريك بويدا وذلك منذ ١٩٩١ . واكتشف الموقع في عام ١٩٧٨ ؛ ويمثل بقايا استيطان تغطي مرحلة طويلة تمتد من العصر الحجري القديم الأدنى حتى العصور العربية الإسلامية . وتركزت التنقيبات في الطبقات العائدة إلى عصور ما قبل التاريخ والتي بلغت سماكة توضعاتها حوالي العشرين متراً . حددت فيها أكثر من مئة /١٠٠/ طبقة أثرية تعود إلى العصر النيوليتي والكباري الهندسي والبالوليت الأعلى والعصر الانتقالي بين البالوليت الأوسط والأعلى ، ولكن القسم الأكبر من هذه الطبقات يعود إلى العصر البالوليتي الأوسط وبخاصة إلى المرحلة الجديدة منه الواقعة بين حوالي ٤٠ - ٦٠ ألف سنة خلت . ولا بد من أن تكون الطبقات الدنيا من الموقع عائدة إلى عصر البالوليت الأدنى الذي وجدت آثاره ، فؤوس حجرية ، على سطح الموقع ولكن هناك صعوبة حتى الآن في الوصول إلى هذه الطبقات بسبب المياه الجوفية التي تعيق عملية التنقيب . وقد أعطت هذه الطبقات صناعات حجرية ، في طابعها العام من النوع اللفلوازي -الموستيري لكنها صنعت بطريقة يختلف بعضها عن بعض بين كل طبقة وأخرى . وسيطرت فيها المقاحف والحرايب اللفلوازية وأنواع مختلفة من النوى . وتدل كلها على أن جماعات مختلفة من البشر قد تردت على الموقع حسب الفصول وأن درجة تصنيع الأدوات الحجرية كانت متباينة بين جماعة وأخرى كما تباينت كميات عظام الحيوانات التي عثر عليها في مختلف الطبقات . كل ذلك يدل على أن الموقع قد أدى وظائف مختلفة فكان تارة منطقة سكن وتارة منطقة تصنيع للأدوات الحجرية وأحياناً منطقة تقصيب وتقطيع للحيوانات البرية أو غير ذلك ، وهذا يدل على أن الموقع قد سكن من قبل جماعات بشرية ذات حضارات مادية متباينة ؛ لكل منها طريقته الخاصة في العيش وطرائقها المختلفة في إنتاج الأدوات الحجرية (الشكل : ٨٦) . ودلت الدراسات الباليولوجية والبالتولوجية على أن المنطقة قد عرفت تبدلات مناخية متتالية تراوحت فيها البيئة من مناطق غابات مفتوحة ورطبة إلى سهوب جافة أو انتشار أشجار السافانا . كما عاشت في مختلف

تلك البيئات حيوانات مختلفة أهمها الجمل ثم الحصان فضلاً عن الغزال والثور ووحيد القرن والخنزير وأنواع مختلفة من الطيور بينها طيور النعام . وأعطى موقع أم التلال مكتشفات نادرة بينها دلائل استخدام للقار في تثبيت قبضات الأدوات الحجرية وذلك منذ حوالي ٤٥ ألف سنة خلت وهذا أقدم شاهد على معرفة تقنيات استخدام القار كمادة لاصقة في تثبيت الأدوات الحجرية المركبة . وعرفت تلك الجماعات مراكز وجود هذا القار البعيدة عن مناطق إقامتها وقامت بإحضارها ومعالجتها بالحرارة تمهيداً لاستخدامها (الشكل : ٨٧) كما عثر في الموقع على حربة من النوع اللفلوازي مكسورة في عظم فقرة الرقبة لحمار الوحش وهذا كشف أيضاً فريد من نوعه ، ويشكل دليلاً مباشراً على تقنيات الصيد المتطورة التي مارستها تلك الجماعات منذ ذلك الزمن الباكر (الشكل : ٨٨) وكذلك أعطى الموقع أحجاراً عليها خطوط ربما تمثل فنوناً ودلائل مواقع منتظمة وأدوات عظمية وبقايا أعشاب وأخشاب استخدمت في تجهيز أرضيات النوم والسكن لتلك المجموعة . وعثر - أيضاً - على جزء من عظم جمجمة إنسان النياتدرتال هو جزء من مؤخرة الرأس ، عظم القذال .

هكذا قدمت أم التلال معطيات لكل ما يمكن أن يحلم به أي باحث في عصور ما قبل التاريخ فكانت موقعاً عالمياً بالغ الأهمية . ولا بد أن التنقيبات المستمرة فيه سوف تعطى المزيد من المعلومات التي سوف تساهم في فهم حياة إنسان ما قبل التاريخ من كل جوانبها .

كهف الديرية:

إلى هذا العصر ينسب موقع سوري آخر أتت منه مكتشفات بالغة الأهمية أيضاً هو مغارة الديرية في وادي نهر عفرين . واكتشف هذا الموقع في عام ١٩٨٧ أثناء المسح الأثري الذي قام به كل من سلطان محيسن وعادل عبد السلام من جامعة دمشق وتاكرو أكاواوا من جامعة طوكيو . ثم جرت فيه تنقيبات أولية في أعوام ١٩٨٩ ، ١٩٩٠ وهو منذ عام ١٩٩٣ قيد التنقيب النظامي والمستمر من قبل بعثة سورية يابانية . تقع الديرية في وادي الديرية في منطقة جبال سمعان ، جبل ليلون ، على بعد حوالي

٦٠ كم إلى الشمال من مدينة حلب، وعلى ارتفاع ٤٥٠ م ق. س. ب. هذه المغارة موقع متميز أبعاده حوالي ٥٠ × ١٥ × ١٠ م (الشكل : ٨٩) وهو بذلك فريد في حجمه لكنه أيضاً فريد في معطياته. وقد تركز التنقيب في الجهة الخلفية من الموقع في منطقة مدخل المغارة من جهة الهضبة، إذ إن للمغارة مدخلاً آخر من جهة الوادي؛ حيث كشف في منطقة التنقيب عن توضع ستراتغرافي تجاوزت سماكته حتى الآن خمسة أمتار. وحددت فيه إحدى عشرة طبقة أثرية - جيولوجية تراوحت ترسباتها بين تربة حمراء قاسية خالطتها حصى وأحجار كلسية مختلفة، إلى ترسبات بنية غامقة أو رمادية قليلة التماسك. وأعطت جميع الطبقات الأثرية في المغارة صناعة حجرية من النوع اللفلوازي الموستيري وأهمها النوى اللفلوازية والمقاحف، والحرايب الموستيرية؛ فضلاً عن الأدوات المسننة والأدوات المفروضة والأزاميل. ويمكن نسب الصناعة الحجرية الموستيرية في مغارة الديدرية إلى النوع العائد إلى المرحلة B/ في مغارة الطابون أي النوع الذي تسيطر فيه الحرايب القصيرة ذات القاعدة العريضة، مع وجود واضح أيضاً للأدوات البيضوية الأشكال العائدة إلى المرحلة C/ في الطابون (الشكل : ٩٠). إن الاكتشافات الأهم من هذا الموقع هي الهياكل العظمية النياندرتالية حيث عثر على العديد من البقايا العظمية لهذا الإنسان وبينها أسنان وأجزاء من عظام الفقرات والأطراف وغيرها يمكن أن تمثل حوالي خمسة عشر فرداً، بينها الهيكلان العظميان العائدان إلى طفلين نياندرتاليين، الهيكل العظمي الأول اكتشف عام ١٩٩٣ وذلك في الطبقة الحادية عشرة من الكهف وعلى عمق حوالي ١,٥ م من سطح الأرض وهو عبارة عن هيكل كامل، من أكمل الهياكل العظمية المعروفة في العالم حتى الآن، لطفل دفن في حفرة، مستلقياً على ظهره يده ممدودتان ورجلاه مشيتان؛ وتحت رأسه بلاطة حجرية ناعمة؛ وعلى صدره، من جهة القلب، أداة صوانية وهي كلها مؤشرات على عملية دفن مقصود، لهذا الطفل الذي قدر عمره بستين / ٢ / أثناء موته منذ حوالي مئة / ١٠٠ / ألف سنة خلت. وقد أشارت الدراسات الأنتروبولوجية، التي جرت على

هذا الهيكل إلى أنه يحمل الصفات الكلاسيكية النياندرتالية وهو عامة غليظ العظام طوله حوالي ٨٤ سم ومن المحتمل أن يكون عائداً لصبي نياندرتالي (الشكل : ٩١) الهيكل العظمي الثاني لم يكن بدرجة اكتمال الأول نفسها وإنما اقتصرت عظامه على أجزاء من الوجه والجمجمة والأطراف . واكتشفت في عام ١٩٩٧ ، ١٩٩٨ ، ضمن حفرة في الطبقة الثالثة على عمق ٥٠ سم من سطح الموقع وهي عائدة إلى طفل نياندرتالي أيضاً لكن عظامه أقل غلاظة من عظام الطفل الأول ومن الممكن أن يعود لفتاة نياندرتالية (الشكل : ٩٢) وهناك مؤشرات أولية على وجود هياكل عظمية جديدة سوف يكشف عنها التنقيب القادم .

ومن الواضح أن هذه المكتشفات سوف تكون لها قيمة علمية استثنائية في الإجابة عن الكثير من الأسئلة المتعلقة بأصل إنسان النياندرتال ومصيره وعلاقته بالإنسان العاقل ، وانتشاره في مختلف الأماكن . وهذا ما يجعل من سورية محط أنظار الباحثين عن أصل الإنسان ونشوء الحضارة ، من كل القارات ، ويشير إلى الدور الخاص الذي مارسه بلادنا باعتبارها نقطة التقاء وانتشار للإنسان والحضارة إلى مختلف الأرجاء منذ أقدم العصور .

ومن جهة أخرى أعطت الدراسات البالتوجية التي جرت على الطبقات الأثرية في الموقع دلائل تبدلات مناخية متتالية وبيئات متنوعة عاشت فيها حيوانات مثل الغنم والماعز والغزال والخنزير والثور ونباتات اللوز والبطم وغيرها . . ولا بد أن التنقيبات المستمرة في هذه المغارة سوف تقدم أيضاً معطيات جديدة ومفيدة تكمل معلوماتنا عن هذه المرحلة القيّمة في تاريخ ظهور الإنسان ونشوء الحضارة في العالم . وقيمة وادي عفرين كممر طبيعي لهذا الإنسان بين مختلف القارات مع الإشارة إلى وجود دلائل مهمة أقدم من عصر الباليوليت الأوسط تعود إلى العصر الآشولي الحديث في هذا الوادي الذي يشكل القسم الشمالي للانهدام السوري - الأفريقي أهم معبر طبيعي للإنسان أثناء خروجه من القارة الإفريقية وانتشاره في العالم . وتجدر الإشارة أخيراً إلى موقع جرف العجلة الذي بدأ التنقيب فيه مجدداً وكشف فيه عن مستويات أثرية

جديدة؛ رُبطت بالمستويات القديمة التي تعطي مرحلة تقع بين الآشولي والآخر ونهاية العصر الباليوليتي .

ومن ثم انتهى في حوالي / ٤٠ - ٣٥ / ألف سنة ق . م النياندرتاليون ، كما أسلفنا ، وظهر الإنسان العاقل جدنا المباشر ، إنسان كرومانيون ، والذي أحرز أفضل إنجازاته في أوروبا . بينما تميز هذا العصر في المشرق العربي القديم بفقر في المواقع وجمود في التطور وغياب للفن والبناء والأدوات العظمية وغير ذلك من الابتكارات التي عرفتها أوروبا . إننا لا زلنا نجهل الأسباب الحقيقية لهذا التراجع الغريب ولسنا متأكدين فيما إذا كان ذلك هو الحقيقة أم أنه واقع مؤقت سوف تغيره الاكتشافات اللاحقة . ولكننا نظن أن سورية لم تكن مهجورة في الباليوليت الأعلى إلى الدرجة التي يظنها بعض الباحثين بدليل وجود عدد من المواقع المهمة كملجأ يبرود الثاني والطبقات العليا من جرف العجلة وكهف الدوارة مما يؤكد أن الإنسان العاقل قد سكن المغائر والملاجئ بسبب الظروف المناخية الباردة التي سادت في ذلك العصر ، لذلك نعتقد بأننا يجب أن نبحث عن آثار هذا الإنسان في المناطق الجبلية . وبخاصة جبال المنطقة الساحلية التي لم تدرس . علماً أن الاكتشافات المتزايدة في فلسطين أثبتت تنوع حضارات الباليوليت الأعلى هناك وغناها . ولا يوجد ما هو مقنع علمياً بتخلف سورية عن فلسطين في زمن شكلت فيه كل هذه المنطقة وحدة جغرافية وحضارية متكاملة تجلت بأشكال مختلفة ، منذ بداية عصور ما قبل التاريخ .

من المهم أن نشير إلى أن التنقيبات التي جرت في موقع أم التلال قد أعطت آثار استيطان من العصر الباليوليتي الأعلى ، هي الثانية من نوعها بعد يبرود . إذ عثر على العديد من الطبقات الأثرية العائدة إلى الحضارة الأورنياسية والتي أرخت بين حوالي ٣٠ - ٣٣ ألف سنة خلت . كما وجدت مواقع سطحية كثيرة كلها تعود إلى هذا العصر ، سواء في منطقة تدمر أم الكوم وهذا يؤكد أن الأبحاث المستقبلية سوف تبدل الصورة الحالية عن حضارات الباليوليت الأعلى في سورية والمشرق .

الفصل الثالث
حضارات العصر الحجري الوسيط والحديث

الفصل الثالث

حضارات العصر الحجري الوسيط والحديث

شرحنا في فصل سابق أن بلاد الشام، بما فيها سورية، قد بدأت منذ العصر الحجري الوسيط تمارس دوراً حضارياً رائداً تمثل بظهور قرى الصيادين ثم قرى المزارعين الأولى. وتحاشياً للتكرار سوف نذكر فقط بالخطوط العريضة للواقع الحضاري السوري في ذلك الوقت. فقد وجد الكباريون بين / ١٢ - ١٠ / ألف سنة ق. م في عدة مناطق منها يبرود (الملجأ الثالث) وجيرود والكوم والفرات والخابور في مناطق جبل عبد العزيز / موقع خزنة ٢ وعين مرير / وكانوا أول من صنع الأدوات الحجرية الميكروليثية - الهندسية والأدوات الزراعية البازلتية الكبيرة كالمجاريش والمدقات والأجران التي تدل على استقرار أولي والتقاط مكثف للحبوب، ولكننا لم نعثر في سورية على آثار بناء من العصر الكباري؛ كما في فلسطين. ومنذ مطلع الألف العاشر ق. م سكنت سورية من قبل النطوفيين الذين كانوا أول من أنشأ قرى الصيادين في حوض نهر الفرات في المربط وأبو هريرة، بعد أن أقاموا في مراحلهم الباكرة في مواقع مكشوفة مثل الكوم، جيرود، صيدنايا، قرب دمشق والطيبة قرب درعا والديدرية في منطقة عفرين. وقد عاش هؤلاء على الصيد والجمع البريين كما استفادوا من الثروات النهرية والسمكية خاصة، وظلوا يستخدمون الأدوات الميكروليثية - الهندسية، التي شذبوها بعناية كبيرة وأضافوا إليها أنواعاً جديدة كما تنوعت أدواتهم الزراعية البازلتية. وهم أول من عرف الفنون والمعتقدات الدينية فصنعوا أدوات الزينة كالخرز والقلايدات ودفنوا موتاهم داخل بيوت سكنهم، وكان لهم الفضل في شق الطريق نحو عصر الزراعة والتدجين.

دخلت في نهاية الألف التاسع ق. م ومطلع الثامن ق. م (عصر النيوليت ما قبل الفخار (أ) سورية، قبل أي منطقة أخرى في العالم، عصر الزراعة وفيها نشأت

القرى الزراعية الأولى في تل المربط وتل الشيخ حسن في حوض الفرات وتل أسود في غوطة دمشق ، التي اشتهرت أيضاً بالبناء والفنون والمعتقدات المتطورة .

جرف الأحمر:

أدت حفريات الإنقاذ التي جرت في منطقة الفرات الأعلى إلى كشف عن موقع متميز يعود أيضاً إلى عصر النيوليت ما قبل الفخار (P.P.N.A. (آ) هو موقع جرف الأحمر . بدأت التنقيبات في الموقع عام ١٩٩٥ وانتهت عام ١٩٩٩ . يقوم الموقع على الضفة اليسرى لنهر الفرات على بعد حوالي ٢ كم من منطقة سد تشرين في محافظة حلب ، منطقة منبج ١٠٠ كم إلى الشمال من حلب .

ويتألف من تلين صغيرين ، تل شرقي وآخر غربي . وهو نسب إلى ما أصبح يعرف بالحضارة المربطية (Mareybétien) العائدة إلى العصر النيوليتي الباكر المشار إليه (المربط السوية الثالثة) . وقد تبين أن الاستيطان بدأ أولاً على التل الشرقي الذي كشف فيه عن ستة / ٦ / مستويات لقرى متتالية تطورت فيها العمارة من الأشكال الأقدم ذات المخطط الدائري وشبه الدائري والبيضوي ، إلى أشكال أحدث وأكثر تطوراً ، بدأت شبه مستطيلة وانتهت مستطيلة في المستوى الأحدث بينما على التل الغربي الأحدث نسبياً بدأت العمارة مستطيلة أو شبه مستطيلة تفصلها جدران مائلة . ويعدُّ هذا الموقع من أفضل المواقع التي تعطينا فكرة عن تطور العمارة النيوليتية في هذا العصر ، وهي تظهر فضلاً عن تطور أشكال البيوت والبناء - تنظيم القرية التي تقوم فيها الشوارع الصغيرة والباحات الفارغة وما إلى ذلك من التنظيم العام لمكان السكن وتزويد المنازل بالمواد وحفر التخزين وإدراج ومصاطب إضافة إلى مواد البناء من الحجر المقطوع الطويل / سيجار / والخشب واللبن كل ذلك يشير إلى مستوى معماري يعبر عن درجة عالية من التنظيم الاجتماعي والاقتصادي . وتجدر الإشارة هنا إلى بعض البيوت الكبيرة التي كشفت في الموقع والتي استخدمت في بنائها بلاطات حجرية ضخمة منحوتة ومزخرفة فضلاً عن تقسيم بعضها من الداخل . وإن ضخامة هذه البيوت وخصوصيتها تدل على وظيفة عامة خاصة بينها ، كالمعابد أو بيوت

الاجتماعات أو مخازن عامة ضخمة . الخ وهذا كله يشير إلى وجود سلطة اجتماعية كانت تدير شؤون هذه المستوطنة الفريدة من نوعها من ذلك العصر (الشكل : ٩٣ ، الشكل : ٩٤) . علاوة على العمارة المتميزة فقد وجدت في جرف الأحمر آثار كثيرة ومتنوعة بينها الأدوات الصوانية التي سيطرت فيها رؤوس السهام والمكاشط والفأس والقدوم التي استخدم في تصنيعها الحصى النهرية والكلسية ، كما وجد أدوات مصنعة من حجر الأوبسيديان المستورد . وهناك الأدوات المنزلية الثقيلة وبخاصة أدوات الجرش والطحن كالمجاريش والمدقات الصغيرة والكبيرة ، كما عثر على العصي المصقولة والصحون الحجرية والعدد من الكرات والأشياء الصغيرة . ومن أهم الاكتشافات اللافتة للنظر كانت الأحجار الصغيرة التي تحمل حزوزاً مختلفة تشكل زخارف هندسية لكن الحديد هو وجود لوحات حجرية صغيرة حملت أشكالاً ومواضيع مختلفة أحدها حفر عليه شكل طائر وحيوان وأفَاع . وهناك لوحات أخرى حُفرت عليها أشكال قرون أو عيون أو خطوط مختزلة ودوائر وأشكال أفاعي وغير ذلك من الإشارات التي يجمع الباحثون على أنها تحمل معاني وأفكاراً محددة ، يصعب فهمها علينا لكنها كانت بالتأكيد مفهومة من قبل صانعيها الذين نقلوا من خلالها أفكارهم ومعارفهم وهي بذلك تشكل أقدم نوع من الكتابة التصويرية معروف حتى الآن وتسبق الكتابة التصويرية المعروفة في الشرق الأدنى بأكثر من خمسة آلاف عام (الشكل : ٩٥) . وهناك نصب حجري كبير رأس على شكل طائر عليه زخارف هندسية مختلفة . ومن القطع النادرة هنا أيضاً لوحة حجرية نقش عليها شكل واقعي وكامل لعقرب . وعثر في الموقع على تماثيل حجرية منحوتة لطيور وحيوانات وبشر ، اقتصر تمثيلهم على رأسين حجريين جميلين ومعبرين (الشكل : ٩٦) . كما وجدت في الموقع الأدوات العظمية والمخاراز والإبر والساكاكين ؛ وهناك الخرز بأنواعه المختلفة زيادة على دلائل معرفة النسيج وصنع السلال التي مثلتها طبقات هذه المواد على الطين . ومن جهة أخرى أظهرت الدراسات البالتولوجية غنى وسط جرف الأحمر بالنبات والحبوب المختلفة كاللوز

البري والبطم وأنواع الأوراد وعثر على حبوب العدس والشعير، الذي مثل الحبوب الرئيسية في الموقع، ولكنها لم تكن مزروعة بعد وإنما التقت بحالتها البرية.

كما كشفت أنواع مختلفة من الحيوانات استخدمها السكان لتلبية متطلباتهم الغذائية وغيرها، كالحمار الوحشي والخيليات والثور والغزال والإبل والفلون والخنزير والكلب الذي كان الحيوان الوحيد المدجن؛ ناهيك عن أنواع كثيرة من الطيور التي اصطادها السكان، والثروات المائية المتنوعة أيضاً. وفي النهاية نؤكد أن جرف الأحمر واحد من أندر المواقع العالمية للمجتمعات النيوليتية الباكرا وأهمها؛ عاشت فيه جماعات لها حضارة متطورة على امتداد النصف الأول من الألف التاسع ق. م، وأنجزت ابتكارات فريدة في مجال العمارة والفنون والرموز والمعتقدات وغيرها ومهدت سبيل نشوء المجتمعات الزراعية وتطورها لاحقاً. ويجدر بالذكر أن مكتشفات بيوت كبيرة، تشبه تلك التي أتت من جرف الأحمر قد وجدت مؤخراً في موقع تل العبر في الفرات الأعلى أيضاً. كما تجري حالياً تنقيبات في موقع تل قرامل إلى الشمال الشرقي من حلب الذي كشفت فيها آثار معمارية وأدوات وفنون تعود إلى عصر النيوليت ما قبل الفخار (آ)؛ من أهمها اللوحات الحجرية التي تحمل أشكالاً تشابه تلك التي وجدت في جرف الأحمر.

جعدة المغارة:

من مكتشفات حفريات الإنقاذ، في سد تشرين في الفرات الأعلى، موقع جعدة المغارة الذي يقع على الضفة اليسرى للفرات الأعلى على بعد ٣٠ / كم إلى الجنوب من جرابلس كشفت التنقيبات الحديثة فيه عن سوية أثرية تعود إلى عصر موقع جرف الأحمر نفسه أي إلى النيوليت ما قبل الفخار (آ) حيث وجدت منازل شبه دائرية وجدران من الأحجار الكلسية الكبيرة جداً بالإضافة إلى بقايا ألوان سقطت من رسم جداري هندسي تألف من خطوط حمراء ومثلثات لونها أسود. وهناك قطعة حجرية عليها خطوط من شكل ثعابين ولوحة حجرية حزّت عليها خطوط عميقة وهي مكتشفات تذكرنا بما عثر عليه في موقع جرف الأحمر، وتماثيل إنسانية بعضها محقق

على فقرات حيوانات ، الحصان ، وغير ذلك من المكتشفات المألوفة من هذا العصر . لكن مرحلة الاستيطان الرئيسية في التل هي العائدة إلى عصر النيوليت ما قبل الفخار (ب) / P.P.N.B / ، أي النصف الثاني من الألف التاسع ق . م ، الموازي للسوية الرابعة (١) (IVA) في موقع المريط المعروف . وأعطى هذا الموقع آثاراً مهمة وبخاصة في مجال البناء وممارسات الدفن . وهو يمثل قرية نيوليتية باكرة أيضاً عاشت في بيئة غنية لكنها بقيت تعتمد على الحيرات البرية إذ إنها لم تمارس الزراعة ولا تدجين الحيوانات مع أنها شكلت مرحلة سابقة مهدت الطريق للزراعة والتدجين . وعاش السكان في بيوت صغيرة منعزلة مستطيلة الشكل مبنية من الطين المدكوك أرضها صلبة أو مفروشة بالحصى ؛ وتفصل بين هذه البيوت باحات مكشوفة . وهناك بقايا معمارية أخرى عبارة عن جدران قليلة الارتفاع ربما كانت تسند مصاطب أو أن لها وظيفة اقتصادية أخرى . وهذه الأبنية من حيث تنظيمها الذي يشبه الشبكة / Grill / تذكرنا بمكتشفات مشابهة في موقع تشايو في الأناضول . كما وجدت في الموقع بيوت أكبر حجماً من التي أشرنا إليها مستطيلة الحجم من نوع الشبكة أيضاً .

وفيما يتعلق بممارسات الدفن فقد أعطى هذا الموقع مكتشفات جديدة ولافتة للنظر في هذا المجال ، إذ ، فضلاً عن الدفن المستقل للجماجم ، المعروف في مستوطنات هذا العصر ، كشف عن ما أصبح يعرف ببيت الأموات (Maison des Morts) الذي عثر فيه على أموات كثيرين ؛ كلهم إما أطفالاً وإما شباباً ؛ وبعضهم جثته كاملة وآخرون تمثلهم الجماجم فقط . بينهم جثة رجل دفن بوضعية نصف مثنية يضم إلى صدره طفلاً كما ويضع يده على جمجمة طفل آخر . وهناك جمجمة شخص يافع وعظام أطراف لثلاثة أشخاص وقد وصل عدد الجثث التي دفنت في هذا البيت ، وبشكل متتابع زمنياً إلى ثلاث وستين جثة / ٦٣ / . وهو بذلك يمثل أندر كشف من هذا العصر تدل على شعائر دينية وممارسات رمزية حكمت معتقدات سكان المستوطنة في ذلك العصر . كما أثبتت دراسات البيئة غنى الوسط الجغرافي لجعدة بالأشجار والحبوب والثمار كاللوز والفسق والعدس والقمح والشعير وهناك أنواع كثيرة من

الحيوانات والطيور التي عاشت سواء في الوادي الخصب والأخضر كالكقط البري وقط المستنقعات والإبل والغرير والخنزير وابن عرس والثور أم على السهوب كالغزال والحمار الوحشي ، والفيلون والخيليات والحجل وبعض الطيور الجارحة .

وأعطى موقع جعدة المغارة أثراً أخرى متنوعة بينها الأدوات الحجرية الكثيفة بخاصة رؤوس النبال من نوع جبيل والمناجل والأدوات من الأوبسيديان المستورد من الأناضول والأدوات العظمية وبينها المخارز وأدوات الطحن والجرح من الأحجار البازلتية والكلسية التي استخدمت في تحضير ليس فقط الجبوب ولكن أيضاً المغرة الحمراء أو تحضير مواد أخرى ، وهناك الدمى الحجرية والعظمية وغير ذلك من المكتشفات المألوفة من هذا العصر (الشكل : ٩٧ - ٩٨) . ويبدو أن جعدة المغارة قد هجرت في نهاية عصر النيوليت ما قبل الفخار (ب) ثم أعيد استيطانها في عصر ما قبل حلف في الربع الأول من الألف السادس ق . م . فقد كشف من هذا العصر عن العديد من المنازل وعن أدوات من الأوبسيديان الذي استورد من وسط الأناضول ، من منطقة كبادوقيا ومن شرق الأناضول أيضاً . وأخيراً تجدر الإشارة إلى الكشف عن سويات أثرية في الموقع تعود إلى الألف الثالث ق . م .

في عصر النيوليت ما قبل الفخار (ب) الأوسط والحديث تقدمت القرى السابقة وحصلت حركات واسعة لشعوب المنطقة وقامت اتصالات وعلاقات تجارية بين مناطق بعيدة ودجن الغنم والماعز والبقر . وفي نهاية الألف السابع ق . م تطورت قرى الزراعة والتدجين ووصلت إلى مناطق جديدة من سورية كالكوم في البادية ورأس الشمرة وتبه الحمام في الساحل ، وبلغت هذه القرى درجة عالية من التقدم المادي والروحي والفني عبرت عنه بشكل خاص بقرص قرب دير الزور .

تل حالوله:

يعد موقع تل حالوله من أهم المواقع العائدة إلى المرحلة الوسطى والحديثة من عصر النيوليت ما قبل الفخار (ب) ، ويقع التل على الضفة اليمنى للفرات الأعلى في منطقة سد تشرين أبعاده ٣٦٠ × ٣٠٠ × ٨ م ، بدأ التنقيب فيه منذ مطلع التسعينات وما

زال مستمراً. وقد تبين أنه سكن بكثافة، بخاصة على امتداد الألفين السابع والسادس ق. م، وهي مرحلة، كما نعرف، حصلت فيها ابتكارات عظيمة على المستويين الاقتصادي والاجتماعي، تمثلت بظهور الأبنية العامة الضخمة وأقنية الري وممارسة الزراعة وتدجين الحيوانات فضلاً عن التجارة وتبادل المواد الخام وما إلى ذلك من اتصالات بعيدة المدى بين مجتمعات ذلك العصر.

وعاش سكان هذه القرية في بيوت مستطيلة الشكل مؤلفة من غرف عديدة تصل بينها فتحات صغيرة لها عتبات واضحة، استخدم في بنائها اللبن والكلس الذي استخدم أيضاً في طلاء أرضيات المنازل. ووجدت في بعض هذه المنازل مدافن جماعية، كما عثر في أساساتها على رؤوس وقرون الثيران المدفونة. وهناك المواقد المختلفة وبيوت التخزين / Silos / وبيوت صغيرة على شكل شبكة مربعة الأشكال مقسمة من الداخل (grillage) يصعب تحديد وظيفتها التي يمكن أن تكون أرضيات تشيف للمواد أو مستودعات تخزين أو غير ذلك وهي تذكرنا أيضاً ببيوت مشابهة ظهرت في جعدة المغارة وفي ياريم تبه بالعراق (الشكل : ٩٩).

وكشفت في السوية الأحدث في عصر النيوليت ما قبل الفخار (ب) الأوسط بيوت ذات مخطط ثابت. وهي - عامة - بيوت مستطيلة، فيها غرفة رئيسية وغرفتان ثانويتان أرضياتها مغروشة بالحصى ومطلية بالملاط وفي داخلها تنور وموقد ومخازن مما يشير إلى وظيفتها السكنية وأنشطتها المختلفة وتربط بين مختلف الغرف ممرات، وهي تذكرنا بنمط بيوت موقع أبو هريرة في الفرات الأوسط الذي يؤرخ من هذا العصر أيضاً.

وكُشف أيضاً في السويات العائدة إلى المرحلة الأخيرة من عصر النيوليت ما قبل الفخار (ب) عن جدار ضخيم مبني من الأحجار الغشيمة كشف منه قسم بطول حوالي ٢٥ / متراً وبلغ ارتفاعه حوالي الأربعة / ٤ / أمتار وعرضه بين ٢ - ٤ أمتار مع أننا لم نتأكد من حقيقة وظيفة هذا الجدار، فيما إذا كان جداراً دفاعياً أم ما شابه ذلك أم أنه يمثل جداراً استنادياً / رصيفاً / لتسهيل عملية البناء في المستوطنة. إن هذا الجدار الضخم، الوحيد من نوعه حتى الآن بسورية، يذكرنا بجدار أريحا العائد إلى النيوليت

ما قبل الفخار (آ) والمجدد في عصر النيوليت ما قبل الفخار (ب) وبجدار مستوطنة البيضا أيضاً، والتي يعتقد الباحثون الآن أنها جدران استنادية أيضاً وليست أسوار تحصين كما ظن في السابق (الشكل : ١٠٠).

إن من أكثر الاكتشافات إثارة في هذا المستوطن هو الرسومات التي وجدت على أرضية أحد البيوت والتي صممت بشكل دقيق ومنتظم وغطت مساحة ١,٢٠ / ١ م وتألفت من ثلاث وعشرين / ٢٣ / شكلاً تتجمع حول شكل مربع ومحدد داخلياً. وقد جسدت الأشكال المشار إليها نساءً أبعادهن ١٤ - ٢١ سم من نوعين مختلفين. الأول يظهر نساءً بشكل أمامي لهن أرداف عريضة أطرافهن واضحة إذ يظهر الساقان على شكل مثلث رأسه حاد، واليدان مثنيتان على مستوى الخصر. بلغ عدد هذه الأشكال سبعة / ٧ / ؛ وظهرت إما فردية وإما زوجية. والنوع الثاني جسدت نساءً مختزلات، الأطراف السفلية على شكل مثلث ينتهي بقدم والأطراف العلوية فيها يداً واضحتان، ورأس مبسط، يشكلان امتداداً للخصر بينما يظهر الورك نافرأ إلى الخلف على شكل مثلث أيضاً. وظهرت هذه الأشكال لمجموعات مؤلفة من شكلين أو ثلاثة وهناك أربعة منهن في مجموعة واحدة. ومن الواضح من أشكال هذه النساء والتأكيد الظاهر على أردافها أنها ترمز إلى معاني الخصب والأمومة. لكن يصعب تحديد حقيقة الشكل المربع الذي تنتشر حوله الأشكال المشار إليها وهو يذكر بالبيوت الشبكية المربعة / Grillage / التي كشفت من جعدة المغارة وحالوله أيضاً. وإن هذه المكتشفات تبقى فريدة من نوعها في هذا العصر الذي عرفت فيه أشكال هندسية وزخرفية بسيطة ولكن الأشكال الإنسانية كانت مقتصرة على موقع حالوله الذي سبق مواقع الأناضول، التي أعطت أشكالاً مشابهة، بحوالي ألف سنة. كل ذلك يعطي هذا الكشف أهمية استثنائية. أخيراً نضيف بأن الرسوم المكتشفة قد رسمت بشكل أصولي وهي معروضة الآن في متحف حلب الوطني لتكون دليلاً على المستوى الفني والرمزي الذي وصلت إليه تلك المجتمعات؛ فضلاً عن مستواها المادي والاقتصادي المتطور (الشكل : ١٠١).

ووجد في الموقع بقايا مواد أثرية كثيرة ومنوعة بينها الصوان والبازلت والحجر الكلسي والأوبسيديان التي صنعت منها مختلف الأدوات المعروفة كرؤوس السهام والنصال والمقاحف والرحى والمجاريش . كما وجدت دلائل الدفن الأولي والثاني الجماعي ، ودفن الجماجم ، في بيوت السكن .

ومن جهة أخرى فقد استمر الاستيطان في موقع حالوله في العصور اللاحقة أي في عصر النيوليت الفخاري حيث كشف عن بيوت كبيرة ، وجدران سميكة تحيط بتلك البيوت على شكل تحصينة وهناك بقايا أقنية تصريف المياه ، وبيوت سكن بعضها من نوع الثولوس / Tholos / وهي كلها مكتشفات متميزة أكدت أن البيوت الدائرية / تولوس / كانت معروفة في حالوله وفي تل الصبي الأبيض ، قبل عصر حلف أي منذ الألف السادس ق . م وليس الألف الخامس كما ظن سابقاً (الشكل : ١٠٢) . كما أن الأقنية المكتشفة تذكرنا بأقنية موقع الكوم ، المخفر ، وهذه كلها معلومات أجبرت الباحثين على إعادة النظر في أثر المستوطنات النيوليتية السورية في ظهور العمارة الجماعية والمجتمعات المدنية اللاحقة . إذ إن هذا الأثر كان أهم مما ظن في السابق . وإن هذه المجتمعات لم تكن على هامش عملية التطور الحضاري الجاري في المنطقة وإنما كانت جزءاً أساسياً وفاعلاً في هذه العملية .

تل الكوم:

تعد حوضه الكوم من أهم المناطق التي أعطت دلائل استيطان كثيف مستمر ومتنوع من مختلف مراحل عصور ما قبل التاريخ . فقد أكدت الأبحاث أن الإنسان قد وصل إلى هذه الحوضه ، الواقعة في منتصف الطريق بين تدمر والرقه في قلب البادية السورية ، منذ العصر الآشولي الأوسط الذي وجدت آثاره في موقع الميره . ثم تطور هذا الاستيطان وأصبح أكثر كثافة في العصر الآشولي الأعلى الذي جسده موقع الندويه . وفي العصر الحجري القديم الأوسط بلغ الاستيطان كثافة منقطعة النظير دلت عليها مواقع أم التلال والهمل وبيرو جوال وأم قبيبة وغيرها ثم تراجع الاستيطان ، دون أن ينعدم ، في عصر الباليوليت الأعلى واستمر كذلك على امتداد العصر الكباري

والنطوفي . ومن ثمَّ حصل فراغ في الحوضه وهجرت على امتداد العصر النطوفي الحديث وعصر النيوليت ما قبل الفخار (آ) . ومع المرحلة الأخيرة من عصر النيوليت ما قبل الفخار (ب) ، التي يطلق عليها الآن النيوليت ما قبل الفخار س / PPNC / أعيد استيطان الحوضه . ويُعدُّ تل الكوم ٢ أفضل موقع يمثل هذه المرحلة ، مع الإشارة إلى استمرار الاستيطان في المنطقة في عصر النيوليت الفخاري وعصر أوروك المتأخر .

إن تل الكوم ٢ هو أفضل موقع منقب في الحوضه ، من المرحلة التي تعيننا هنا . وقد أعطت التنقيبات التي دامت في هذا الموقع بين ١٩٧٨ - ١٩٨٧ آثار مستوطنة عاشت في المرحلة الأخيرة في عصر النيوليت ما قبل الفخار (ب) . أقام سكانها في بيوت متلاصقة مستطيلة الشكل تتألف من عدة غرف صغيرة تتصل فيما بينها بممرات ضيقة وهي تحيط بباحة مكشوفة . وهناك نوع آخر من البيوت الأكثر حجماً والتي تتألف من غرفة رئيسية على شكل T . وبنيت هذه المنازل من اللبن على أساسات حجرية كما طليت ، وبدقة ، جدرانها وأرضياتها بالملاط الكلسي . وكشف في الموقع عن مخازن ذات أشكال مختلفة بعضها صغير والآخر مستطيل الشكل وأكبر حجماً وهي أيضاً كانت مطلية بالملاط الكلسي . وهناك المواقد المتنوعة زيادة على أقية تصريف المياه بين مختلف المنشآت ، مما يشير إلى درجة عالية من النظافة والدقة في التنظيم (الشكل : ١٠٣) وجدت رؤوس النبال من نوع جبيل ، والنوى التي على شكل القارب / Nucleus Naviform / والأزاميل والمناجل والمكاشط وأدوات الجرش والسحق الثقيلة ؛ وأدوات من الأوبسديان المستورد ، بينها نصال ونوى وأدوات عظمية عبارة عن مخارز وإبر وسكاكين ومصاقل وغير ذلك من أدوات العمل في صنع السلال والجلود... الخ (الشكل : ١٠٤) . وعلاوة على ذلك فقد صنع سكان الكوم الأواني الصغيرة والكبيرة من الكلس المسحوق والمخضر بالحرارة ؛ والأواني الحجرية الصغيرة والجميلة المنفذة بدقة تقنية عالية ، من أحجار المرمر والألباتر والكالسيت التي تذكرنا بما عثر عليه في موقع بقرص على الفرات الأوسط ، والتي يمكن أن تكون قد استوردت من تلك المنطقة . وهناك الحلبي وأدوات زينة متنوعة بينها خرز وقلائد ، واحدة منها من

المرمر على شكل فآر . واستخدمت في تصنيع هذه الحلبي الأحجار النادرة والصدف المستورد أيضاً من مراكز المياه المجاورة . وتدل طبقات السلال والأقمشة على الطين ، التي عثر عليها في الموقع ، على معرفتهم تصنيع هذه السلال بتقانات مختلفة ، لولبية / Spirale / أو متقاطعة / Natte / كما أنهم أجادوا تصنيع الأقمشة الكتانية وغيرها (الشكل : ١٠٥) .

ومن جهة ثانية فقد كانت بيئة الكوم غنية بمعطياتها النباتية والحيوانية ووجود المياه وخامات الصوان ذات النوعية العالية ، وقد عاش السكان على الزراعة والتدجين فزرعوا القمح والشعير ودجنوا الغنم والماعز كما أنهم اصطادوا الحيوانات البرية وبخاصة الغزال والأرنب والثعلب والحصان البري . واستطاع سكان الكوم التأقلم في مناخ سهبي قاحل وكانت لديهم إمكانيات متميزة في مجال العمارة وتصريف المياه والتجارة وتبادل المواد مع الجوار . وأقام هؤلاء السكان إلى جانب جماعات بدوية متنقلة مثلتها بخاصة مكشفات موقع القدير على بعد بضعة كيلومترات إلى الشمال من تل الكوم . وهو تل صغير ترددت عليه جماعات مارست الرعي خاصة ولم تترك إلا القليل جداً من آثار البناء بينما كشفت عن بقايا مشاغل للصوان والأوسيديان والأحجار الكلسية والحلي . ويعد هذا الموقع البدوي إلى جانب موقع الكوم ٢ الحضري النموذج الأقدم على نشوء نمطين معيشيين مختلفين واحد مستقر وثابت والآخر متنقل ومتحرك وهو موضوع يحظى باهتمام متصاعد لتحديد طبيعة الظروف والعلاقات التي قامت بين هذين النمطين اللذين ما زالا قائمين حتى الآن وتجسدهما المجتمعات الحضرية والبدوية الراهنة .

وفضلاً عن المواقع المذكورة العائدة إلى مرحلة النيوليت ما قبل الفخار والتي نقبت بشكل نظامي واسع فقد جرت أعمال تحري وسبر وتنقيب محدود في عدة مناطق دلت - هي الأخرى - على وجود مستوطنات مجتمعات ما قبل الفخار (ب) في مواقع عديدة من أهمها تل الفايضة على الضفة اليمنى لنهر الخابور شمال الحسكة ، وتل الفخيرية قرب راس العين وتل خزنة I في منطقة الخابور أيضاً . وعثر في هذه التلال على

كميات كبيرة من الأدوات الصوانية والأوبسيديانية والعظمية المعروفة من هذه المرحلة؛ وكذلك عثر على التماثيل الصغيرة، الإنسانية والحيوانية، والصفائح المحززة. ومن الناحية الاقتصادية فقد دجنت مجتمعات المواقع المشار إليها الغنم والماعز بشكل خاص، إلى جانب الأبقار ولكن بدرجة أقل. كما اصطادوا الحيوانات البرية وبخاصة الغزال، واستفادوا من الثروات النهرية وغير ذلك من مصادر العيش.

ومن جهة أخرى بدأت في السنوات الأخيرة تنقيبات نظامية في موقع آخر في منطقة الخابور الأعلى هو موقع تل سكر الأحيمر الذي وجدت فيه دلائل أولية من عصر النيوليت ما قبل الفخار (ب) ولا بد من أن نتائج التنقيبات الحالية سوف تكمل الصورة التاريخية والحضارية لهذا الموقع أيضاً مع الإشارة إلى أن مواقع أخرى كثيرة يمكن أن تكون مطمورة تحت ترسبات الطمي النهرية ولا نعرف عنها شيئاً وهي غالباً ما تظهر بالضفة أثناء أعمال الإنشاءات التي تجري في المنطقة. ومهما يكن فليس من المطلوب الآن كشف كل المواقع وتنقيتها بل الحفاظ على المواقع وحمايتها من عوامل التخريب البشري والطبيعي.

وقبل أن ننهي البحث في مواقع النيوليت ما قبل الفخار من المفيد الإشارة إلى موضع آخر قيد التنقيب أيضاً هو تل الكرخ. ويتألف الموقع من مجمع لثلاثة مواقع متجاورة، في سهل الروج محافظة إدلب. أولها تل الكرخ I وهو تل مرتفع جمعت من سطحه آثار نيوليتية مختلفة، ثم إلى الشمال منه هناك تل عين الكرخ الأقل ارتفاعاً من تل الكرخ I. وأخيراً هناك تل الكرخ 2. وكل هذه التلال أعطت آثاراً نيوليتية أيضاً. وأظهر السبر الذي جرى في موقع تل الكرخ 2 بقايا أبنية تعود إلى نهاية عصر النيوليت ما قبل الفخار وبداية النيوليت الفخاري. كما بدأت تنقيبات نظامية في تل عين الكرخ الذي أعطى - هو الآخر - مكتشفات من عصري النيوليت ما قبل الفخار والنيوليت الفخاري بينها بقايا معمارية وأدوات حجرية وأختام مسطحة وهو كشف له أهمية خاصة من هذا العصر يدل على عمليات ختم البضائع وتبادل المواد وتطور التجارة التي دلت عليها أيضاً بقايا الخرز والحلي المستوردة من مناطق بعيدة.

دخلت في مطلع الألف السادس ق.م ، سورية في عصر الفخار ومنها انتقلت هذه الصناعة إلى بقية المناطق المجاورة واشتهر خاصة فخار العمق (آ وب) ذو اللون القاتم المصقول والعمق (س) الذي يحمل تأثيرات حلفية . وقد عاشت في الألف السادس ق.م ، في المشرق العربي ، مجتمعات تابعت الزراعة والتدجين وصنعت أسلحة جديدة وبخاصة رؤوس النبال والأدوات المصقولة . وبدأت تتضح في ذلك الوقت خصوصية مراكز محلية تشابهت فيما بينها بدرجة أقل أو أكثر . فكان شمال سورية أقرب إلى بلاد الرافدين وجنوبها أشبه بالأردن وفلسطين بينما غربها أكثر صلة بالمناطق الساحلية ، الأناضولية واللبنانية والفلسطينية . ومنذ منتصف الألف السادس ق.م بدأت تختلف وتائر التطور في قطرنا فواكبت الجزيرة السورية بلاد الرافدين حيث ظهرت حضارات العصر الحجري النحاسي ؛ بينما بقيت المناطق السورية الأخرى تأخذ بتقاليد العصر الحجري الحديث .

تل الصبي الأبيض:

يقع هذا التل على الضفة اليسرى لنهر البليخ الأعلى أحد روافد الفرات . وهو عبارة عن أربعة تلال صغيرة . إنه واحد من مواقع قليلة جداً بقيت الحياة مستمرة فيها بالرغم من اختفاء العديد من المستوطنات في نهاية عصر النيوليت ما قبل الفخار (ب) ، وهي المرحلة التي يطلق عليها بعض الباحثين اسم «الفراغ الفلسطيني» Hiatus Palestinien إذ غابت الحياة من مستوطنات كثيرة لأسباب مازلنا نجهلها وإن كنا نعتقد أن الجفاف والانهايار البيئي كانا السبب في ذلك .

واستمر هذا الفراغ ، والجفاف ، الحضاري بين حوالي ٦٠٠٠ - ٥٣٠٠ ق.م تبعه تحسن مناخي وامتداد جديد للمستوطنات ، مهد بدوره لنشوء حضارات متطورة وعلى رأسها الحضارة الحلفية ذات الانتشار الجغرافي الواسع والوحدة الحضارية المدهشة ، والأولى من نوعها في حضارات ما قبل التاريخ في المنطقة .

وكشفت التنقيبات في الموقع عن عدة مستويات أكثرها أهمية المستوى السادس الذي أطلق عليه اسم القرية المحروقة / Burnt Village / نظراً لوجود آثار حريق ضخم

التهم هذه المستوطنة التي عاشت في نهاية الألف السادس ق.م. وقد نقب عن مساحة كبيرة لهذه القرية المحروقة، التي بقيت جدران بعض منازلها مرتفعة حتى ١,٤ م تقريباً وتبين أن بيوت القرية قد أشيدت على مصاطب متتالية في ارتفاعاتها كانت منازل القرية ذات أشكال مستطيلة، مؤلفة من عدة غرف تراوحت مساحتها بين ٥٠ - ٩٠ م^٢ أشيدت بانتظام شديد وكانت متقاربة فيما بينها مشكلة كتلاً سكنية متجانسة. وهناك منازل أصغر حجماً؛ ارتبطت البيوت بعضها ببعض بواسطة أبواب صغيرة، وهناك بيوت لها مداخل من سطحها أو مداخل صغيرة في جدرانها بينما كان لبيوت أخرى مداخل وأبواب عادية. وبنيت هذه البيوت من الطين المدكوك / Pisé / وكانت أسطحها من الخشب والقصب والطين. وفضلاً عن النوع المستطيل المشار إليه فقد كشف بيوت ذات مخطط دائري (Tholos) بنيت من مواد البيوت الأولى نفسها؛ ويشكل ظهورها هنا دليلاً على أنها لم تكن من ابتكار حضارة حلف كما كنا نعتقد بل إنها سبقتهم وعرفت منذ نهاية عصر النيوليت. ونذكر بأن البيوت الدائرية، عكس البيوت المستطيلة، لم تتأثر بالحريق الذي أصاب القرية كونها مبنية، بما في ذلك سقوفها التي على شكل قبة، من الطين. ووجدت إضافة إلى البيوت عدة مواقد، تنانير، أحجامها مختلفة وهياكل عظمية وأدوات أثرية مختلفة سنأتي على ذكرها (الشكل : ١٠٦).

أعطت «القرية المحروقة» كميات كبيرة من الأواني الفخارية المكسرة أو السليمة معظمها أوان من الفخار الخشن عليه «روبة» حمراء (Red Slip) ويحمل حزوزاً أو طبقات مختلفة الأشكال. بعض الأواني يحمل زخارف على شكل خطوط ملونة. وتراوحت الأشكال بين الجرار والصحون والطاسات والأباريق... الخ. بعض الأواني كبير الحجم وحتى ارتفاع ١ م، وبعضها صغير وهناك الأواني ذات السطح القائم المصقول، وأوان رقيقة مزخرفة بالتلوين أو بالحز. وبعمامة فإن فخار هذا الموقع أقرب إلى الفخار المعروف من منطقة العمق والساحل السوري وجنوب شرق الأناضول وإلى فخار حضارة سامراء في بلاد الرافدين. ويعد هذا النوع من الفخار الناعم، الرقيق، الأصل الذي ظهرت منه، فيما بعد، صناعة الفخار الحلفية الشهيرة. وهكذا يكون

الصبي الأبيض أول موقع يظهر أصول الفخار الحلفي ويؤكد أن الجزيرة السورية كانت جزءاً مهماً من موطن الحلفين الأوائل ، وهذا - أيضاً - يبطل فرضية انتشار الحلفيين ، عن طريق الهجرة أو التجارة أو التأثير الحضاري ، من الشرق إلى الغرب . ويؤكد الأصول المحلية لهؤلاء الحلفيين ، وهي الأصول التي تعود جذورها إلى العصر الحجري الحديث المحلي في الجزيرة السورية أيضاً (الشكل : ١٠٧) . ووجدت في القرية أدوات صوانية كثيرة ومتنوعة تأثر معظمها بالحريق وأهم الأدوات كانت تلك التي لها وظيفة بيتية يومية مثل المقاحف والسكاكين والمخارز والأزاميل والأدوات المفروضة والأدوات المستنة .

وهناك بعض الأدوات الزراعية كالمعاول والمناجل والقليل جداً من أدوات الأسلحة ، والأدوات المصنعة من الأوبسديان ومعظمها نصال ونصيلات نفذت بتقنيات تصنيع خاصة عرفت أيضاً في مواقع أخرى من الجزيرة . ومن المكتشفات المتميزة بعض الدمى الإنسانية والحيوانية : الدمى الإنسانية ، في معظمها تمثل الأجزاء السفلي من الجسم وهي تجسد في غالبيتها نساءً ، كسرت رؤوسها ، ربما بشكل مقصود ، أثناء المراسم الجنائزية . هذه الدمى صنعت من الطين المجفف بالشمس بعد أن تم التركيز فيها على عناصر الأمومة كالصدر والفرج . ومعظم الدمى لها خصر ضيق وتحمل حزوزاً تزيينية مختلفة ، وهي تشبه تماثيل أخرى تنسب إلى حضارة حسونة أتت من موضع ياريم تبه في شمال العراق . أما التماثيل الحيوانية فهي قليلة ومختزلة صنعت من الطين المجفف أيضاً معظمها مكسر ؛ ويبدو أنها تمثل الثور بشكل خاص . كما ويجدر ذكر القطع الكبيرة المصنوعة من الطين والتي حملت ثقوباً وبعضها حمل بقايا قرون حيوانات مما يشير إلى وظيفة دينية محتملة لهذه القطع . إن الاكتشافات المتميزة والأهم من هذه القرية كانت مئآت الأختام ، وطبعاتها (Sealings) والقطع الصغيرة فيش (Token) التي ربما استخدمت في الحساب . إن الأختام التي وجدت في تل الصبي الأبيض هي أبكر وأقدم أختام معروفة حتى الآن ، وهي تعود إلى نهاية الألف السادس ق . م أي قبل وصول الحلفين وبعدهم العبيدين الذين عُدُّوا أول من ابتكر هذا النوع من الأختام منذ حوالي منتصف الألف الخامس ق . م . وصنعت الأختام من الطين وحملت

أشكالاً متنوعة معظمها هندسي كالخطوط المتعرجة والدوائر والمثلثات والخطوط المتقاطعة... وبعضها حمل أشكالاً طبيعية كالنباتات والحيوانات وبخاصة الماعز ذات القرون الكبيرة. والغزال، وقد جُسِّدت بواقعية مذهشة. وهناك بعض الأشكال الإنسانية المختزلة وغير الواضحة المعالم. واستخدمت هذه الأختام في ختم الأواني التي حملت مختلف أنواع البضائع وبخاصة الأواني الفخارية والسلال وهذا - أيضاً - يدل على علاقات تجارية بعيدة المدى تم فيها تبادل الفخار والنحاس والأوبسيديان والبازلت مع مناطق الأناضول المجاورة وغيرها. وقد رافقت الأختام قطع طينية صغيرة / فيش / وكلها كانت ذات أشكال بسيطة هندسية مثل الكرة والأسطوانة والقرص والمخروط... الخ ويعتقد أنها استخدمت في عملية الحساب والتجارة لتحديد كميات المواد المعنية بالعمليات التجارية الجارية. وعثر على هذه الأختام والفيش في مكان بقي سليماً وآمناً، وهكذا فقد أعيرت منذ البداية اهتماماً خاصاً حماها من الحريق الذي أصاب المستوطنة وهذا يشكل دليلاً على أهمية هذه اللقى التي جسدت وجود نظام إداري ومالي وتجاري متطور، تشكلت فيه معاني الملكية والإنتاج والمشاغل والأشخاص المعنيين بذلك بكل وضوح. ومن جهة أخرى، يدل التنوع الكبير لهذه الأختام على انتشار الاستخدام الواسع لها بين معظم الناس وعدم اختصارها على نخبة بعينها (الشكل : ١٠٨) علاوة على كل ذلك فقد أعطى الموقع آثار كثيرة أخرى ومنوعة صنعت إما من أحجار محلية كالخجر الكلسي والحصى والرمل الكوارس وإما جاءت مستوردة مثل البازلت والغرانيت والدولريت والستيانيت والكلوريت. ومن هذه الآثار أدوات الطحن والسحق من مدقات ومجاريش والأواني الحجرية والفؤوس الحجرية والحلق والخرز وأدوات الزينة الأخرى والأدوات العظمية وهناك قطعتان من النحاس تدلان على معرفة هذا المعدن منذ ذلك الزمن الباكر، وغير ذلك من القطع الأثرية التي تدل على مستوطنة غنية مارس سكانها أنشطة متنوعة وكثيرة لكنهم اعتمدوا في حياتهم الرئيسية على موارد الزراعة وتدجين الحيوانات (الشكل : ١٠٩).

الفصل الرابع

حضارات العصر الحجري - النحاسي

١ - حلف وعبيد (أم قصير، تل زياده، قوزاق شمالي)

٢ - نشوء العمران وفجر التاريخ (تل مشنقة)

الفصل الرابع

حضارات العصر الحجري - النحاسي

١ - حلف وعبيد:

منذ منتصف الألف السادس ق. م سكنت مناطق شمال وشرق سورية من قبل الحلفيين الذين تطوروا بشكل متزامن مع إخوانهم في شمال بلاد الرافدين . وما المواقع السورية في شاغابازار وتل أسود وتل عقاب وتل حلف إلا المرادف الحضاري لياريم تبه II والعربية في العراق . وقامت بين سكان كل هذه المواقع صلات قوية ، إذ تخصص بعضها في صناعة الأواني الفخارية الجميلة المزخرفة وتبادلها فيما بينها ، وعلى مسافات طويلة ، علماً بأن الحلفيين السوريين قد صنعوا فخارهم الخاص ، لكنه شديد الشبه بالفخار المستورد من بلاد الرافدين . وسكن هؤلاء في بيوت مستطيلة أو مربعة أو دائرية مبنية من اللبن والحجر بعضها من النوع المقبب المسمى تولوس ، كما في تل يونس قرب جرابلس . وصنعوا الأدوات الحجرية والأويسيدانية المتنوعة وعرفوا الفنون وبخاصة التماثيل الطينية للربة الأم والأختام المسطحة (الشكل : ١١٠) وبدل البيت الصغير الذي كشف في تل أسود في حوض البليخ والذي خطط على شكل صليب ووجدت فيه مصطبة لتقديم الأضاحي وجمجمة ثور وعظام حيوانات أخرى ، يدل هذا البيت على أنه كان بناء دينياً وهو بذلك المعبد الأبكر في سورية لأنه يعود إلى النصف الثاني للألف الخامس ق. م (الشكل : ١١١) .

وظهر في النصف الأول في الألف الرابع ق. م ، العبيديون ، على أنقاض الحلفيين ، فالكثير من المواقع السورية كراس الشمرة وتل عقاب وتل حلف وشاغابازار . أعطتنا الأواني الفخارية التي لها صفات انتقالية مشتركة بين عصري حلف المتأخر وعبيد الباكر . مما يحملنا على الاعتقاد بأن العبيديين السوريين هم أيضاً ، مثل الحلفيين ، سكان محليون أصلاء وليسوا مهاجرين ولا غزاة ، أتوا من جنوب بلاد

الرافدين كما رآه بعض الباحثين سابقاً. وقد انتشرت الحضارة العبيدية في المناطق نفسها التي عاشت فيها سابقاً المجتمعات الحلفية. أي بقيت في القسم الشمالي من سوريا ولم تتجاوز حمص جنوباً، وعرفت صنع الأواني الفخارية التي كانت أقل جودة من السانقة معظمها بلون واحد، برتقالي فاتح غالباً ونادراً ما صقلت، وكانت زخارفها هندسية وأحياناً طبيعية الأشكال كالنباتات والحيوانات والبشر. ولكن الابتكار المهم في هذا العصر كان الدولاب البطيء الذي ساعد على إنتاج أوان أكثر تنوعاً وتنظيماً. وخير ما يمثل الفخار العبيدي هو الطبقة III B في رأس الشمرة التي وجد فيها فخار له عدة ألوان أو لون واحد، غالباً أحمر وفيه صفات انتقالية بين حلف وعبيد، والطبقة III C التي ظهرت فيها الأواني العبيدية الخالصة كالجرار والقدر ذات المناعب المزخرفة ببصمات الأصابع وبعضها بأشكال هندسية مختلفة. وسكن العبيديون في بيوت مستطيلة من الطين والحجر، رصفت أرضها بالحجارة وتوسطتها المواقد وصنعوا أدوات زراعية وبخاصة المناجل وأدوات قطع الأخشاب كالبلطات والقدايم من الأحجار الخضراء. وعرفوا النسيج وأدوات الزينة من العظم والأوبسديان والأحجار النادرة الأخرى والدمى الإنسانية المختزلة من الطين والحجر الكلسي. وعاشت إلى الجنوب من مناطق انتشار الحلفيين والعبيديين (جنوب مستوى حمص) وفي الألفين الخامس والرابع ق. م مجتمعات أقل تطوراً، وسكنت في بيوت كبيرة من الحجر، كما في موقع المجامع في منطقة القنيطرة، وصنعت الأدوات الزراعية وكان لها فنونها ومعتقداتها الخاصة وهي أقرب إلى حضارة الغسول في فلسطين.

ومن المواقع المهمة أيضاً تل أم قصير الواقع في حوض نهر الخابور إلى الجنوب قليلاً من مدينة الحسكة. وفي السوية الأولى والأقدم من هذا التل الصغير عثر على بقايا استيطان بشري من عصر حلف الأوسط مثلها الأبنية الدائرية المعروفة من هذا العصر تولوس (Tholos) وهناك أبنية مستطيلة فضلاً عن حفر التخزين والمواقد. ومن المكتشفات الكبرى الفخار الحلفي الملون وبعض الأواني على شكل حيوانات وأختام مسطحة وأدوات حجرية ومعطيات أخرى تشير إلى أن الموقع كان عبارة عن معسكر

رعوي اعتمد سكانه على الرعي والصيد ، إذ وجدت نسبة عالية من الغزلان والحصان البري . والسوية الثانية والأحدث في هذا الموقع أعطت أثراً من نهاية العصر الحجري النحاسي ومن عصر الوركاء ، دلت عليها بخاصة الأواني الفخارية التي تشبه مثيلاتها من بلاد الرافدين وهي بذلك تكمل التاريخ المحلي لمنطقة الخابور الأوسط في سورية .

إلى الشمال من أم قصير وفي حوض الخابور الأوسط أيضاً يقع تل زيادة الذي أسفرت التنقيبات فيه عن كشف سويات أثرية من مختلف مراحل العصر الحجري النحاسي . فقد وجدت بقايا أوان فخارية عائدة إلى عصر حلف ويبدو أن التخريب قد أصاب السويات الأثرية العائدة لهذه المرحلة . ولكن كشف عن بقايا معمارية عبارة عن بيوت شبكية صغيرة / Grill Building / وأخرى متعددة الغرف تعود إلى عصر العبيد ، وتشبه ما عثر عليه في مواقع تل مشنقة وتل كوران . وفوق هذه السوية العبيدية ظهرت سوية أخرى ، سوية بعد العبيدية Post - Ubaid فيها أبنية جدرانها ضخمة ، هي على الأرجح أجزاء من أبنية كبيرة اختفت الآن . وكل هذا يشير إلى وجود مستوطنة عاشت من الرعي والزراعة في حوالي امتداد الألف الخامس ق . م . وفي الحوض الأعلى للخابور توجد مواقع أخرى جرت فيها تنقيبات إنقاذ من أهمها موقع قوزاق شمالي الذي أظهرت التنقيبات أنه سكن منذ عصر النيوليت الفخاري وحتى مرحلة ما بعد العصر العبيدي ؛ إذ وجد في السويات الأثرية العائدة إلى عصر عبيد وما بعده آثار أبنية مهمة من اللبن أهمها الإنشاءات التي استخدمت في إنتاج الفخار وتخزينه ؛ وبعضها عبارة عن أفران أعطت أنواعاً ذات جودة عالية ومتنوعة من الأواني الفخارية دفعت منقبى الموقع إلى اعتباره مركزاً مختصاً بتصنيع الأواني الفخارية وتوزيعها . وفي كل الأحوال لا بد من المزيد من الدراسة لتحديد الوظيفة الاجتماعية - الاقتصادية لهذا الموقع .

وإلى هذا العصر يعود موقع آخر هو تل عبر الواقع إلى الجنوب من جرابلس على الضفة الشرقية لنهر الفرات الأعلى . ووجدت في الموقع سبع طبقات / ٧ / أثرية الطبقة الأولى تعود إلى عصر الوركاء بينما تعود الطبقات الثانية وحتى السابقة إلى عصر العبيد . وكشف في هذه الطبقات عن أبنية سكنية وبقايا أثرية متنوعة ؛ الطبقة

الأولى أعطت بقايا أبنية من عصري الوركاء الأوسط والأخير استخدم في بنائها اللبن المربع المعروف من هذا العصر «Riemchen» جدرانها مطلية وفي أرضياتها مواقد . وكشف في السويات العائدة إلى عصر العبيد عن أبنية سكنية وهناك بقايا ورشات وأفران تصنيع الفخار الذي أنتج في هذا الموقع بغزارة ويهدف إلى التصدير التجاري .

وهناك مواقع أخرى تعود إلى هذا العصر من أهمها تلال كشكوك شمالي في محافظة حلب حيث توجد مجموعة من أربعة تلال ، أهمها تل كشكوك ٣ ، سكنت على امتداد المرحلة الواقعة بين نهاية العصر الحجري الحديث ونهاية العصر الحجري النحاسي . وهناك تل قوزاق شمالي المسكون في العصر الحجري النحاسي .

ويعدُّ تل مشنقة في حوض الخابور من المواقع المتميزة التي أعطت مكتشفات مفيدة تتعلق بالمرحلة الأخيرة من العصر الحجري النحاسي وتحديدًا المرحلة الواقعة بين الألفين الخامس والثالث ق . م . فقد أظهرت تنقيبات الإنقاذ التي جرت في الموقع ، أن السويات الدنيا منه تعود إلى عصر العبيد إذ وجدت آثار قرية عبيدية ، أزال عوامل التعرية القسم الأكبر منها ولكن دلت عليها إنشاءات ضخمة ومنازل مستطيلة الأشكال ، متطاولة وضيقة ، سندت جدرانها بالأعمدة والدعامات . وبعد هذه السوية العبيدية ظهرت سوية تعود إلى عصر الوركاء القديم ، فيها بقايا مواقد وتنانير وأبنية جدرانها سميكة ، أتت أيضاً عوامل التعرية على القسم الأكبر منها ولكن دلت عليها البيوت ذات المخطط الثلاثي المعروف .

وهكذا لوحظ انتقال حضاري محلي وتطور ملحوظ بين نهاية مرحلة العبيد ، التي يسميها بعض الباحثين بعد - العبيد (Post-Ubaid) وبين بداية عصر الوركاء بينما كشف من سوية عصر الوركاء الأوسط عن بقايا معمارية أيضاً بينها تنانير طبخ وبيوت ذات مخطط ثلاثي وقبور وغير ذلك . ولكن الآثار المعمارية الأهم كانت تلك التي أتت من عصر الوركاء الحديث ؛ إذ كشف عن نوع من السور الدفاعي الدائري الذي كان يطوق المستوطنة وتخرقه بوابات إلى داخلها . وهناك البيوت الكبيرة العائدة إلى هذه المرحلة التي تدل ، فضلاً عن السور ، على أن تل مشنقة كان

مستوطنة ذات دور مهم يذكرنا بتل براك وحبوبة الكبيرة وغير ذلك من المدن العائدة إلى المرحلة الأخيرة من عصور ما قبل التاريخ والتي مهدت طريق نشوء مدن عصر البرونز القديم ودوله لاحقاً.

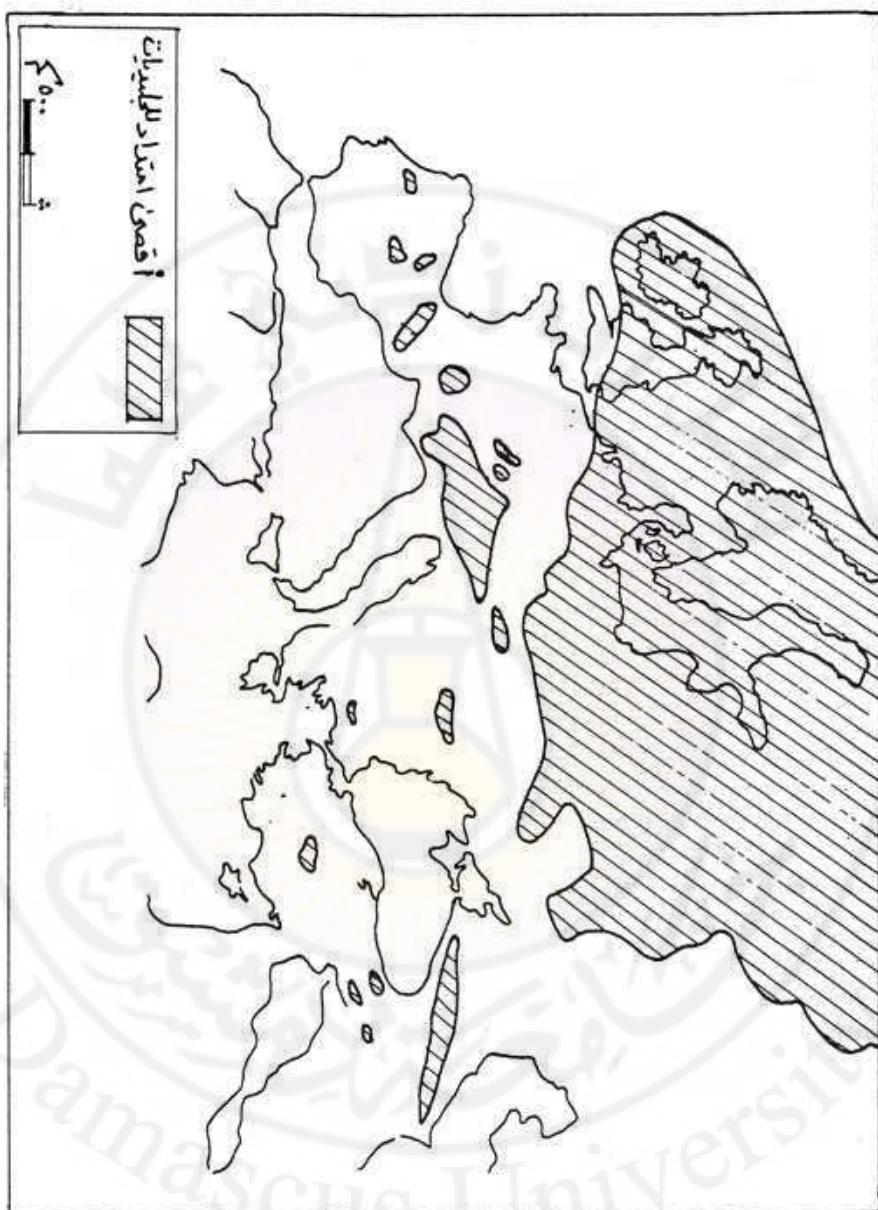
٢ - نشوء العمران وفجر التاريخ:

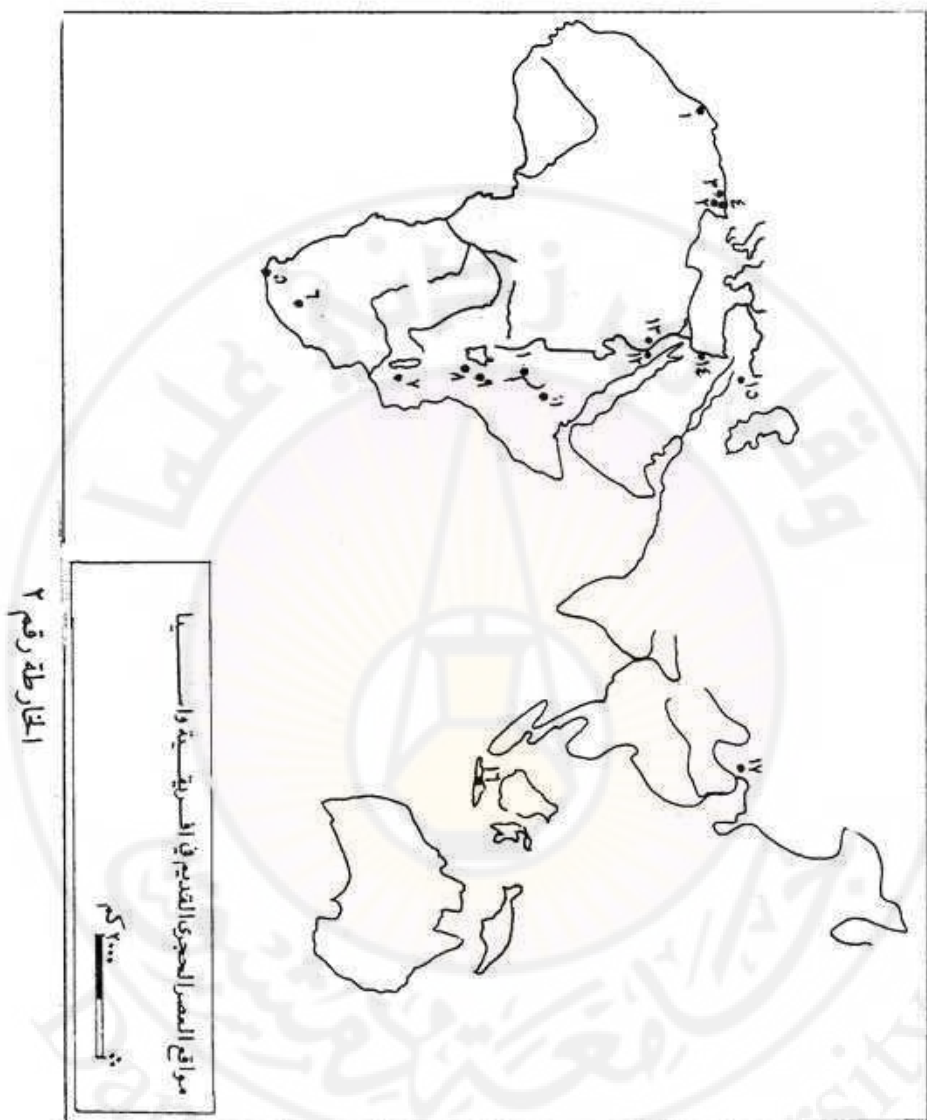
انطلقت في النصف الثاني من الألف الرابع ق. م من جنوب بلاد الرافدين والجزيرة العليا في سورية الحضارة التي أبدعت نظام الكتابة الأولى وأقامت الدول الأولى وقد بلغ التشابه، بل التطابق بين سورية وبلاد الرافدين درجة مدهشة وتمثل ذلك في البناء والفنون والفخار والكتابة التصويرية وغيرها كما أثبتت الاكتشافات في حوض الفرات الأوسط في سورية، حيث نشأت مدن كبرى مهمة مثل حبوبة وعرودة التي مارست دوراً تجارياً متميزاً بين بلاد الرافدين في الجنوب والمتوسط والأناضول في الشمال. وبلغت مساحة حبوبة الكبيرة الجنوبية (١٨) هكتار وقد أعطتنا أفضل صورة عن نظام بناء المدن في عصر الوركاء، إذ شيدت هذه المدينة وفق مخطط مسبق ودقيق فيه شبكة من الشوارع الرئيسية والفرعية التي قامت على جوانبها المساكن، التي بنيت على الطراز الرافدي المعروف بثلاثي العناصر، أي صالة رئيسية في الوسط وصفين من الغرف الأصغر على الجانبين، وهو النموذج الذي بنيت وفقه المعابد الأولى أيضاً في سورية والعراق. كما وجد طراز آخر من البيوت أسماه المنقبون «البيت الشرقي» وهو محلي بحث يتألف من صالة واحدة كبيرة تطل على صحن دار داخلي. وقامت بجوار المساكن المشاغل والمستودعات الاقتصادية المختلفة وقد انتشرت معظم هذه البيوت حول شارعين رئيسيين موازيين لنهر الفرات كانا يقطعان المدينة من شمالها إلى جنوبها. وأحاط بالمدينة من كل جهاتها، عدا الشرق حيث النهر، سور مزدوج من اللبن، هو الأفضل حفظاً من نوعه حتى الآن، بلغ عرضه ثلاثة أمتار وطوله / ٦٠٠ / متراً فيه بوابتان رئيسيتان وكانت تدعمه أبراج دفاعية مستطيلة وعضادات بارزة (الشكل: ١١٢). فضلاً عن العمارة المتطورة وجدت الأواني الفخارية من النوع العادي بعد أن تراجع الفخار الملون، كالكصعات والجرار والقذور التي طبعت سطوحها بالأختام

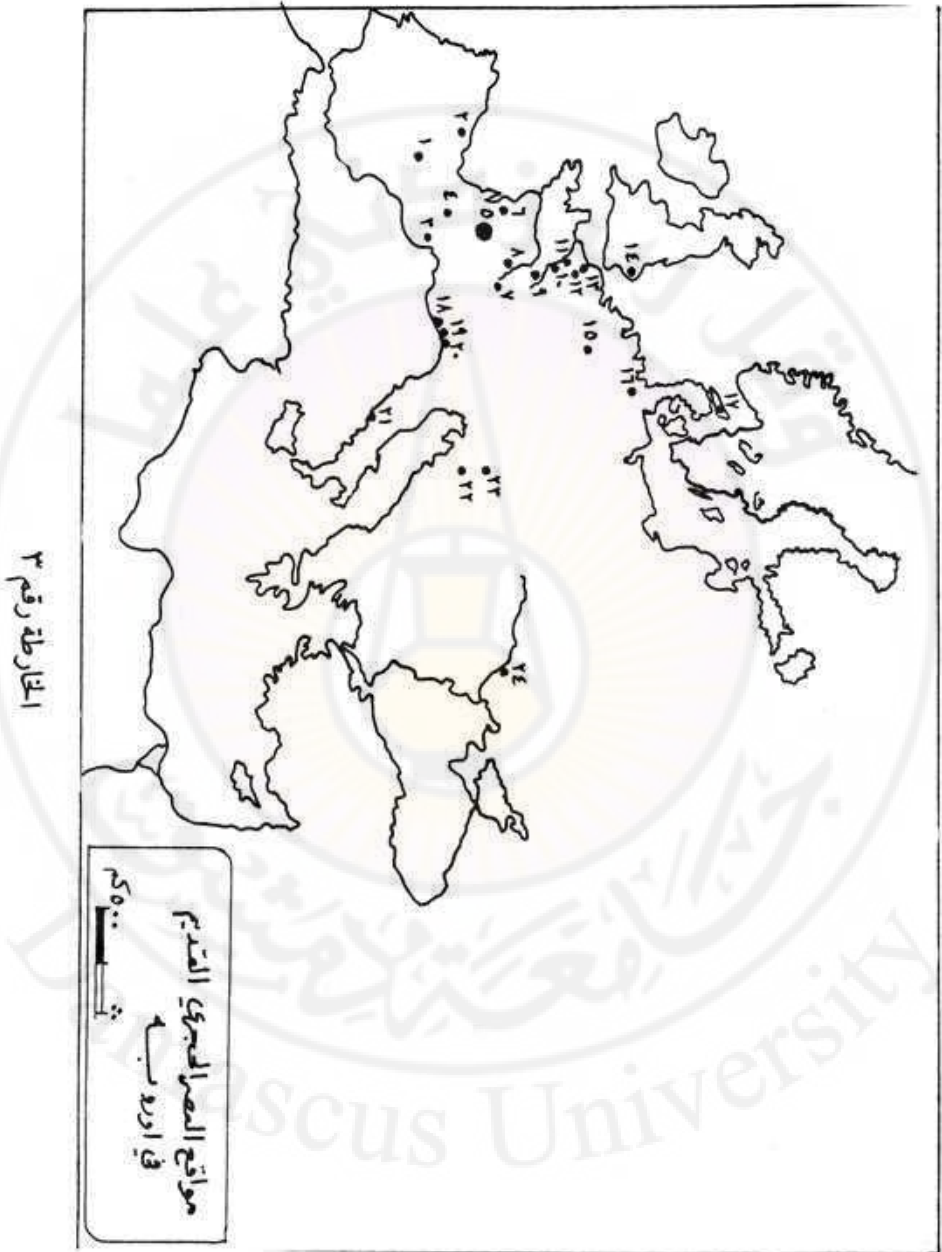
الأسطوانية، الأولى في قطرنا، التي نقشت عليها مواضيع أسطورية وطبيعية تذكرنا بأختام مدينة الوركاء.

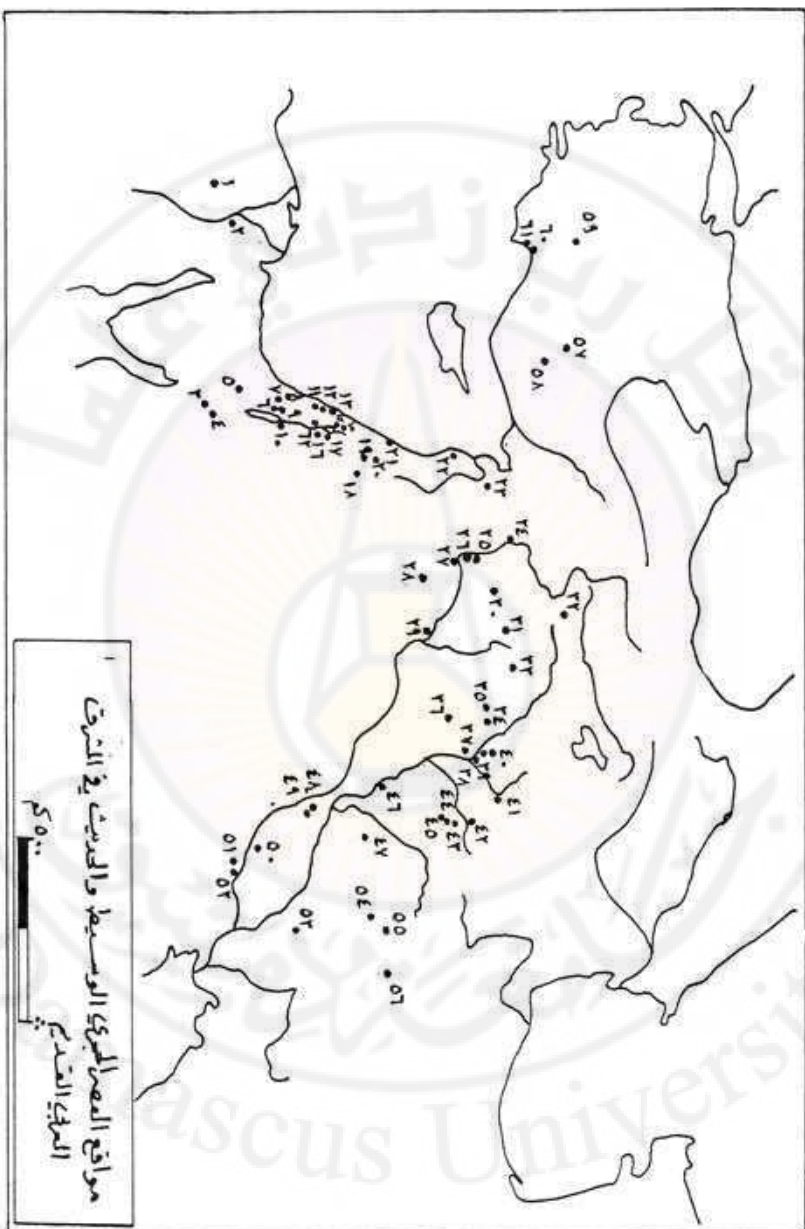
ويقوم إلى الجنوب من حبوبة تل قناص الذي كان يمثل الجناح الإداري والديني لمدينة حبوبة. حيث كشف عن ثلاثة معابد مشيدة فوق مصطبة مرتفعة وحسب المخطط الثلاثي المعروف من الوركاء (الشكل: ١١٣، ٢، ٣، ٤) وقد زودت هذه المعابد بمصاطب أمامية، ووجدت فيها الجرار الفخارية المزخرفة، بالضغط أو الحز والأواني المرمرية الكبيرة والجميلة وذات المشاعب لحملها أو تعليقها، وأدوات زراعية ومنزلية وصناعات نفيسة وأختام وأسلحة. والأهم من ذلك كله اللوحات الكتابية التصويرية الأولى التي تعود إلى الربع الأخير من الألف الرابع ق. م. وعلى العصر نفسه يؤرخ جبل عرودة إلى الشمال من حبوبة، فقد أشاد السكان على قمة الجبل الذي يرتفع حوالي ٦٠ متراً عن السهل المجاور، معبدين كبيرين وفق مخطط معابد تل قناص أيضاً وقد زينت جدرانهما بالمسامير الطينية الملونة مثل معابد الوركاء وفي أحد هذين المعبدين عثر على لوحات طينية عليها كتابة تصويرية وطبعات وأختام أسطوانية تشبه التي وجدت في الجناح الإداري لمدينة حبوبة (الشكل: ١١٤). وجدير بالذكر أن لوحات كتابية مشابهة أيضاً أتت من تل براك في الجزيرة السورية الذي كشف فيه عن معبد جميل سمي «معبد العيون» لوجود مئات التماثيل الصغيرة ذات العيون الكبيرة. زين محرابه بالأحجار النادرة والمعادن الثمينة مما أكسبه صفة محلية تأكدت من مخططة المستقل؛ ويُعدُّ هذا المعبد أحدث قليلاً من معابد الفرات الأوسط ويؤرخ على عصر جمدة نصر.

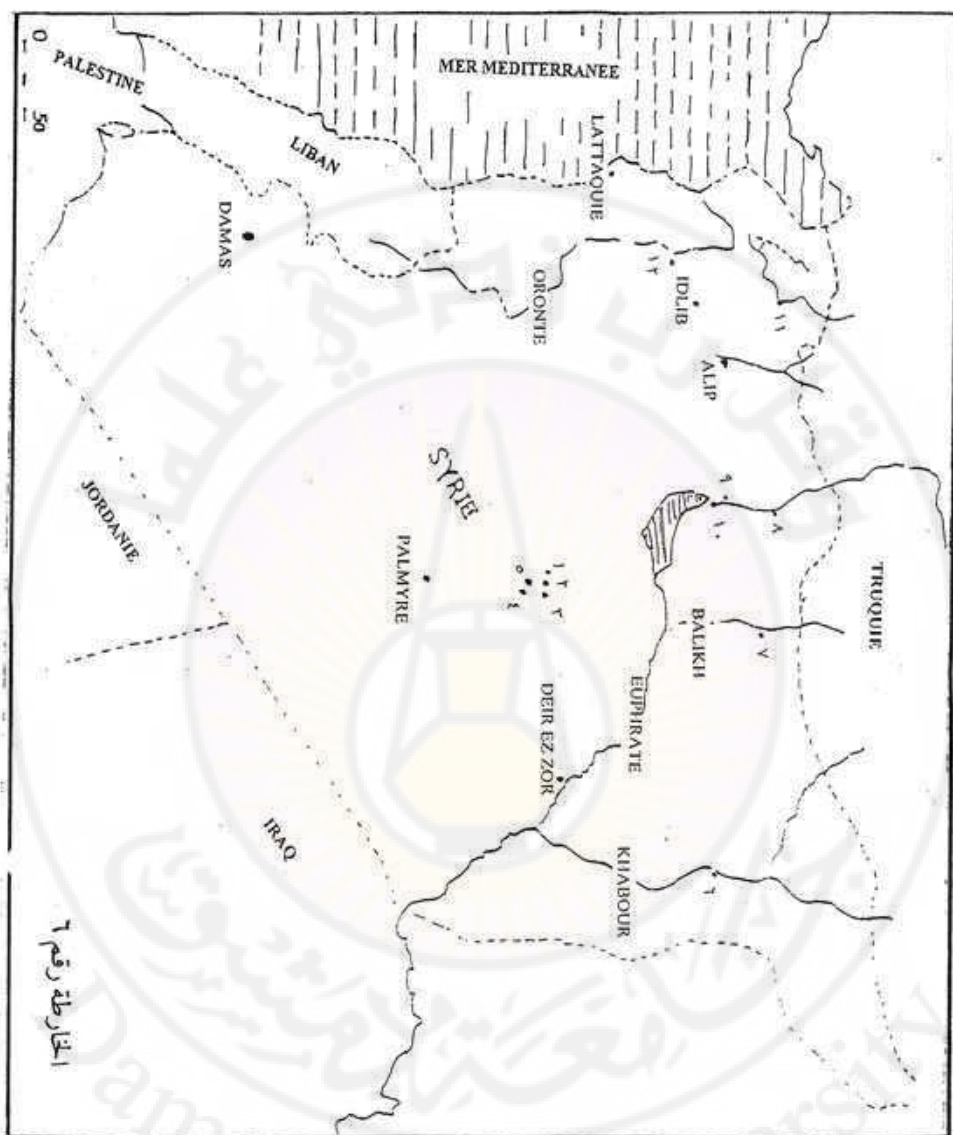
ولقد هجرت مستوطنات الفرات الأوسط بعد إشادتها بوقت قصير؛ ولم تزد الحياة فيها على قرنين تقريباً عكس تل براك الذي سكن من دون انقطاع على مدى العصور التاريخية التي اكتمل نضجها في سورية بالكتابة المسمارية في الربع الثالث من الألف الثالث ق. م كما برهن على ذلك أرشيف إيبلا الملكي.









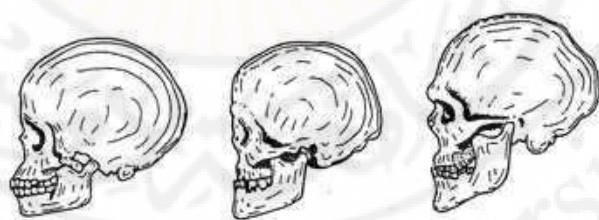
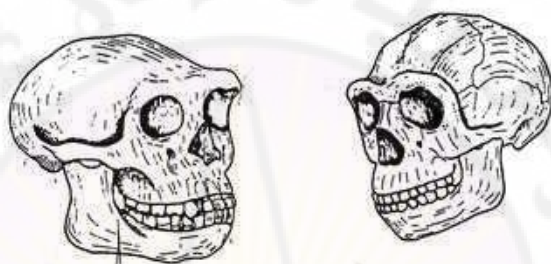
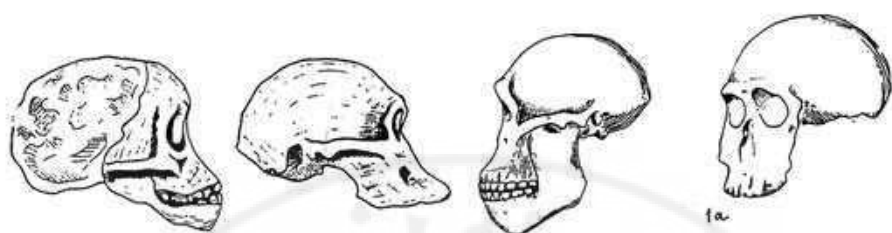




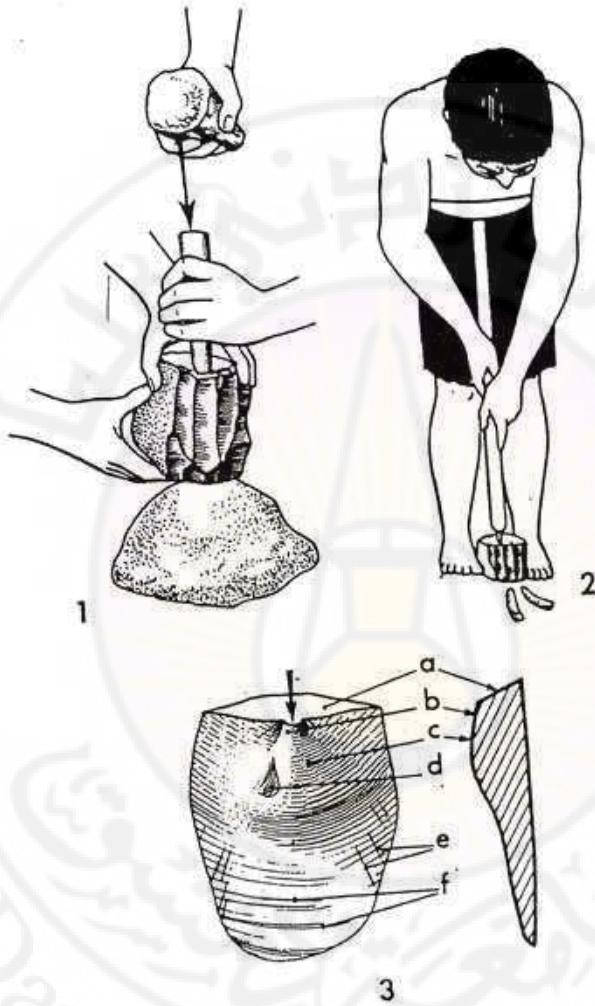
الشكل رقم: ١

[illegible]





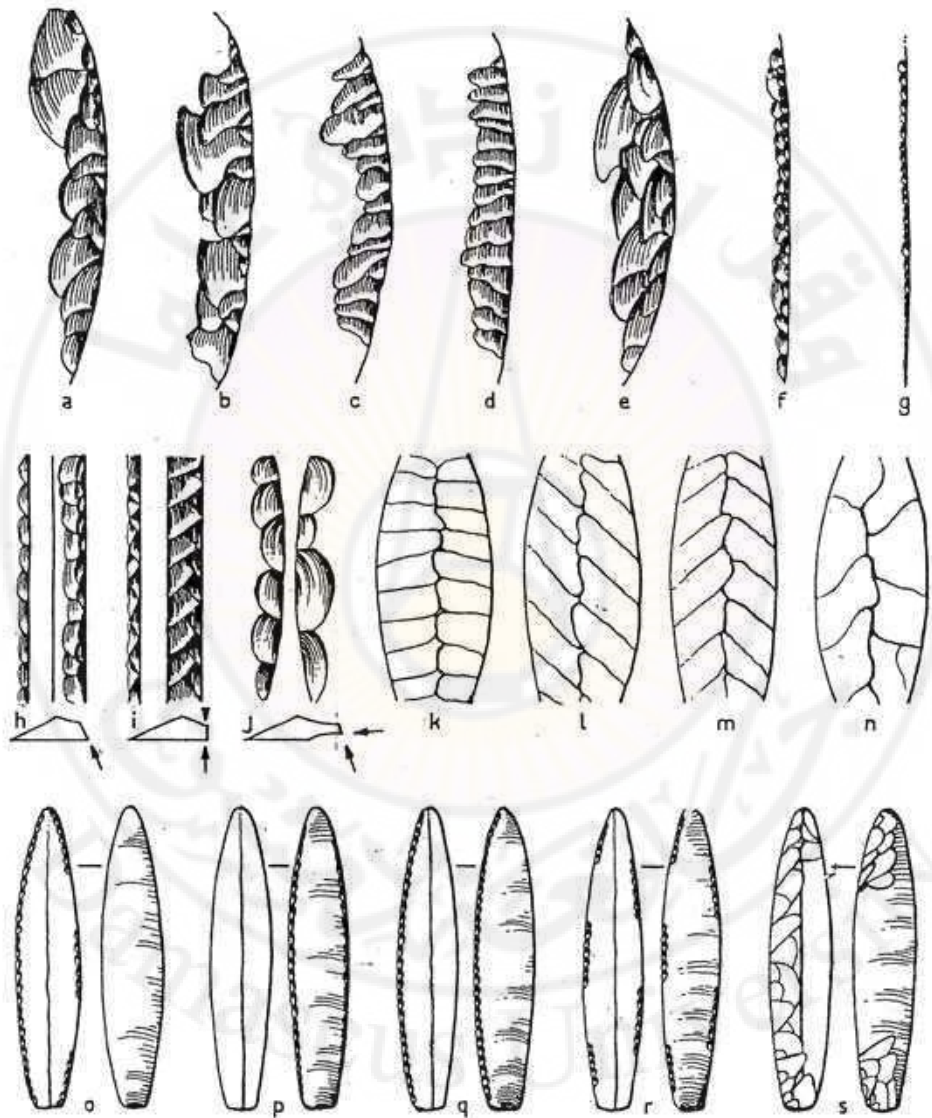
الشكل رقم: ٥



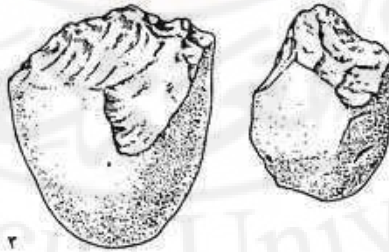
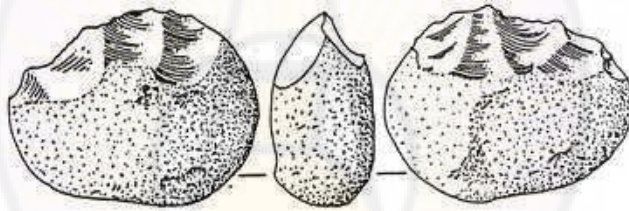
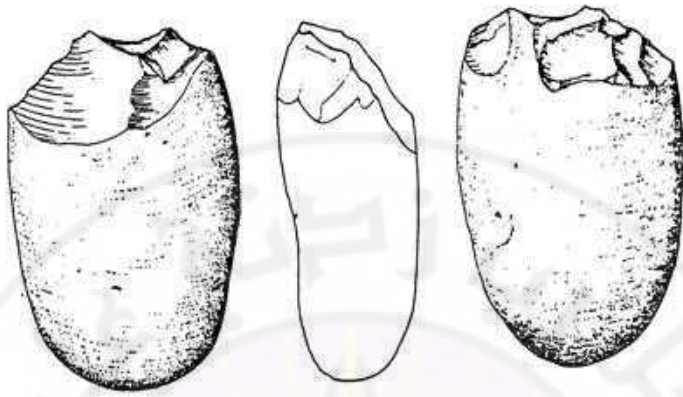
الشكل رقم: ٦



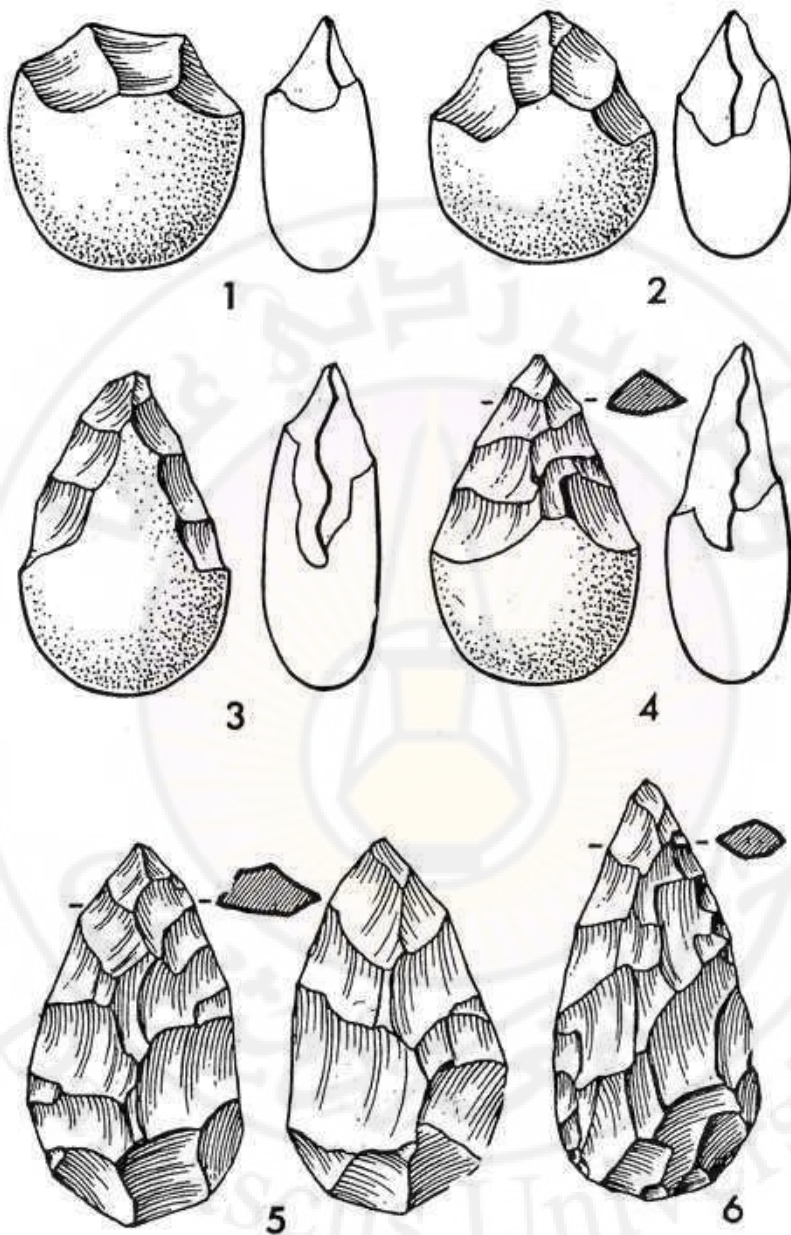
الشكل رقم: ٧



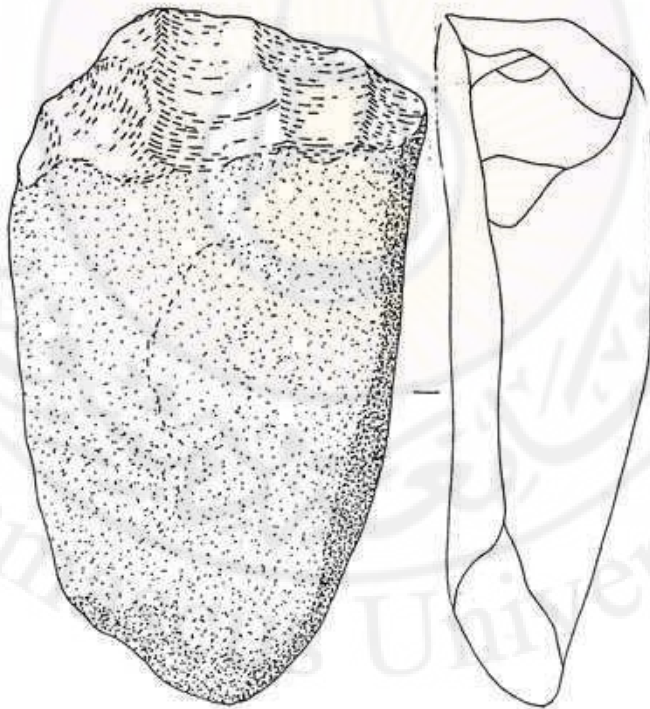
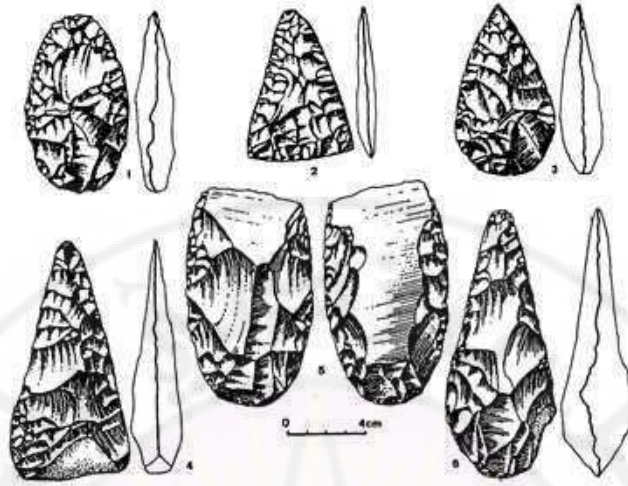
الشكل رقم: ٨



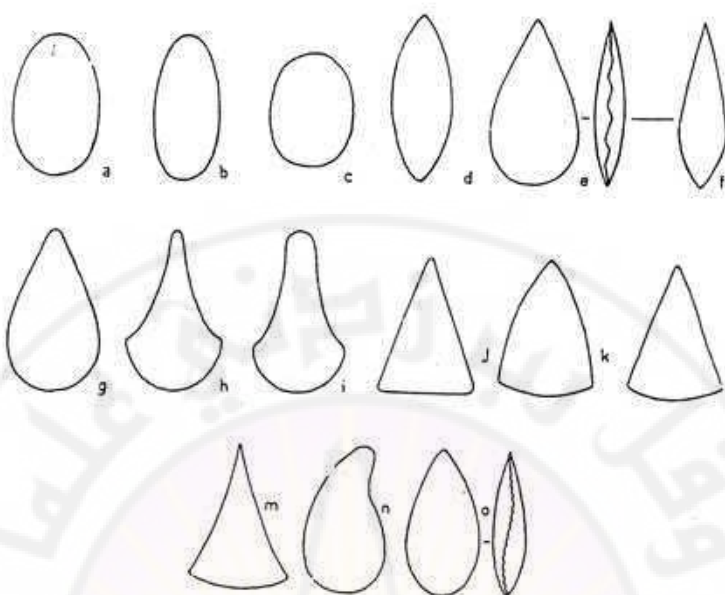
الشكل رقم: ٩



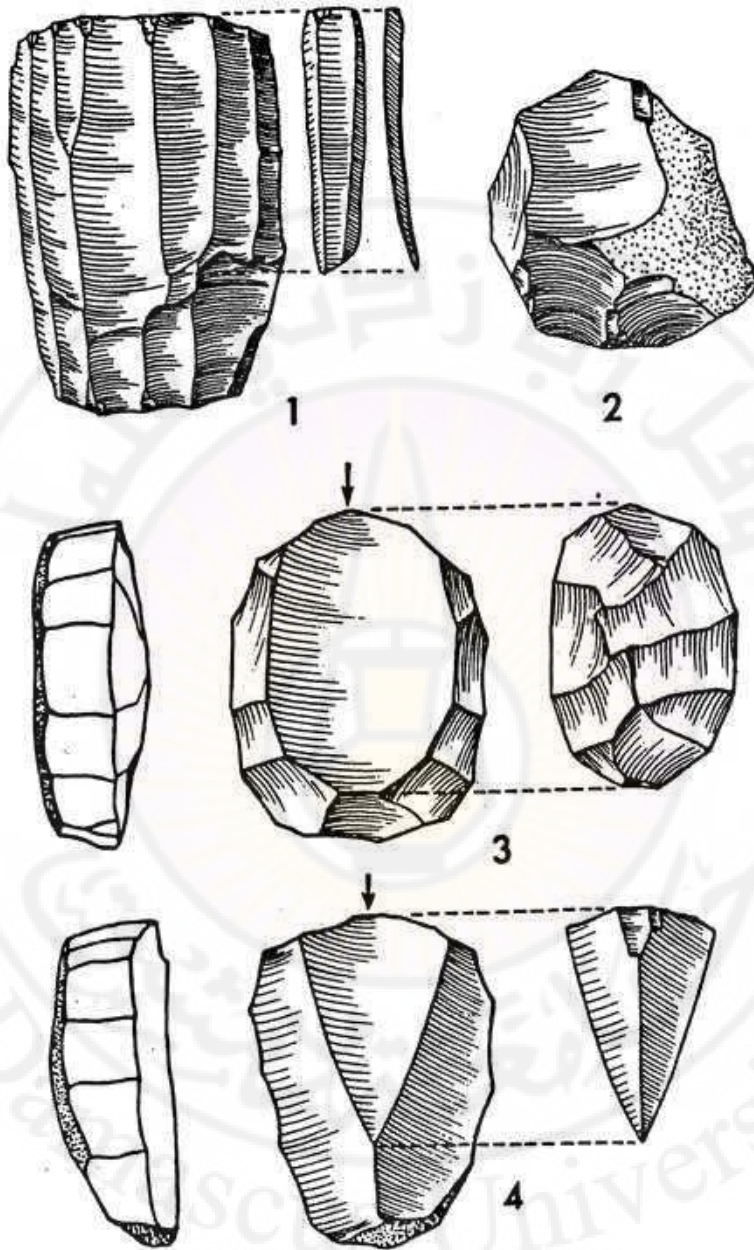
الشكل رقم: ١٠



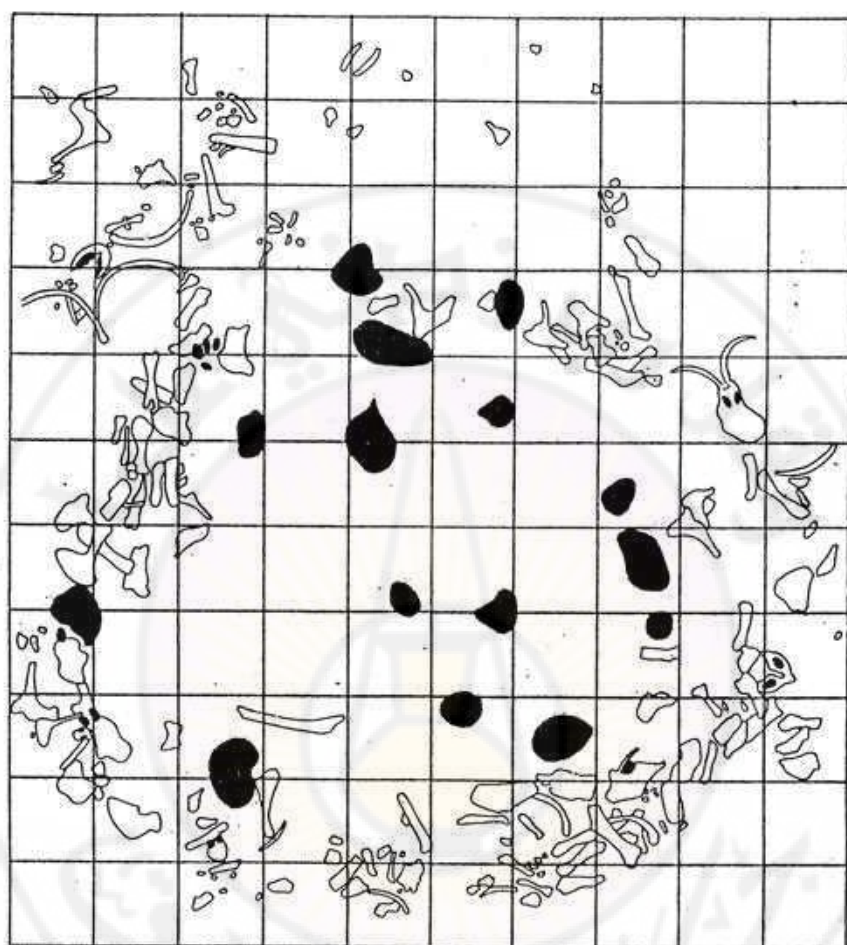
٢
الشكل رقم: ١١



الشكل رقم: ١٢



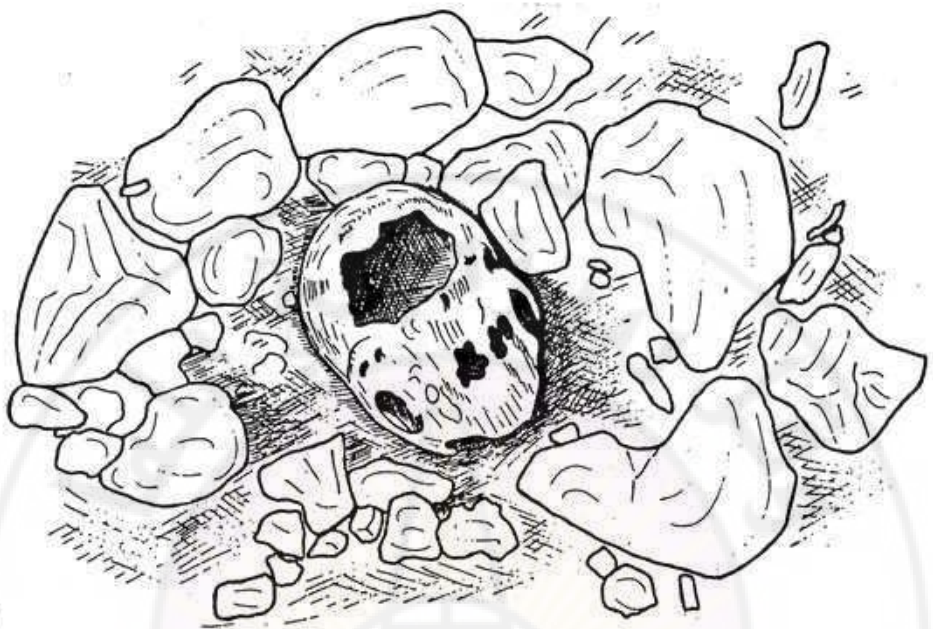
الشكل رقم: ١٣



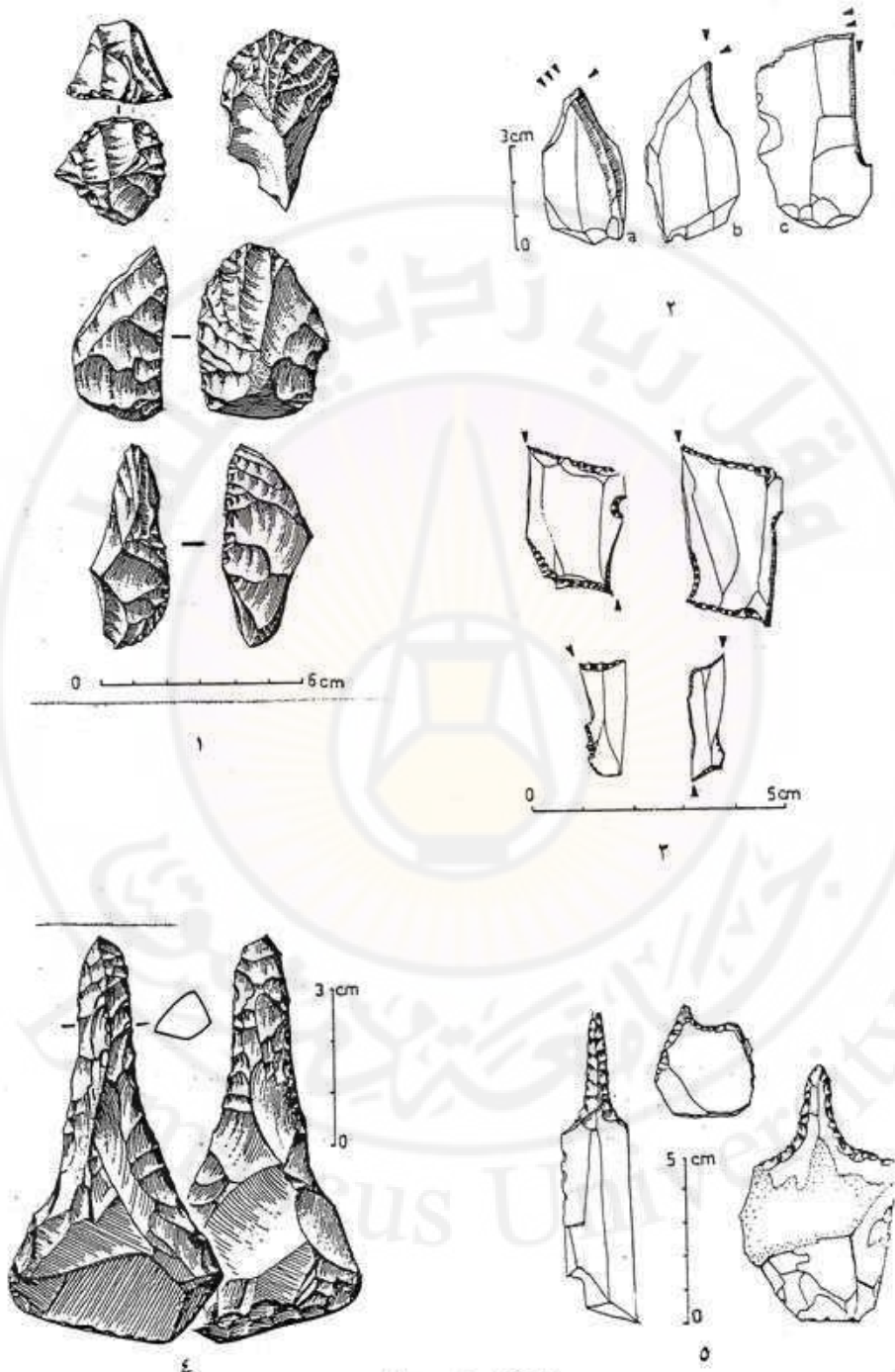
- Hearths
- Bones
- Mammoth teeth

0 1m

الشكل رقم: ١٤



الشكل رقم: ١٥



الشكل رقم: ١٦



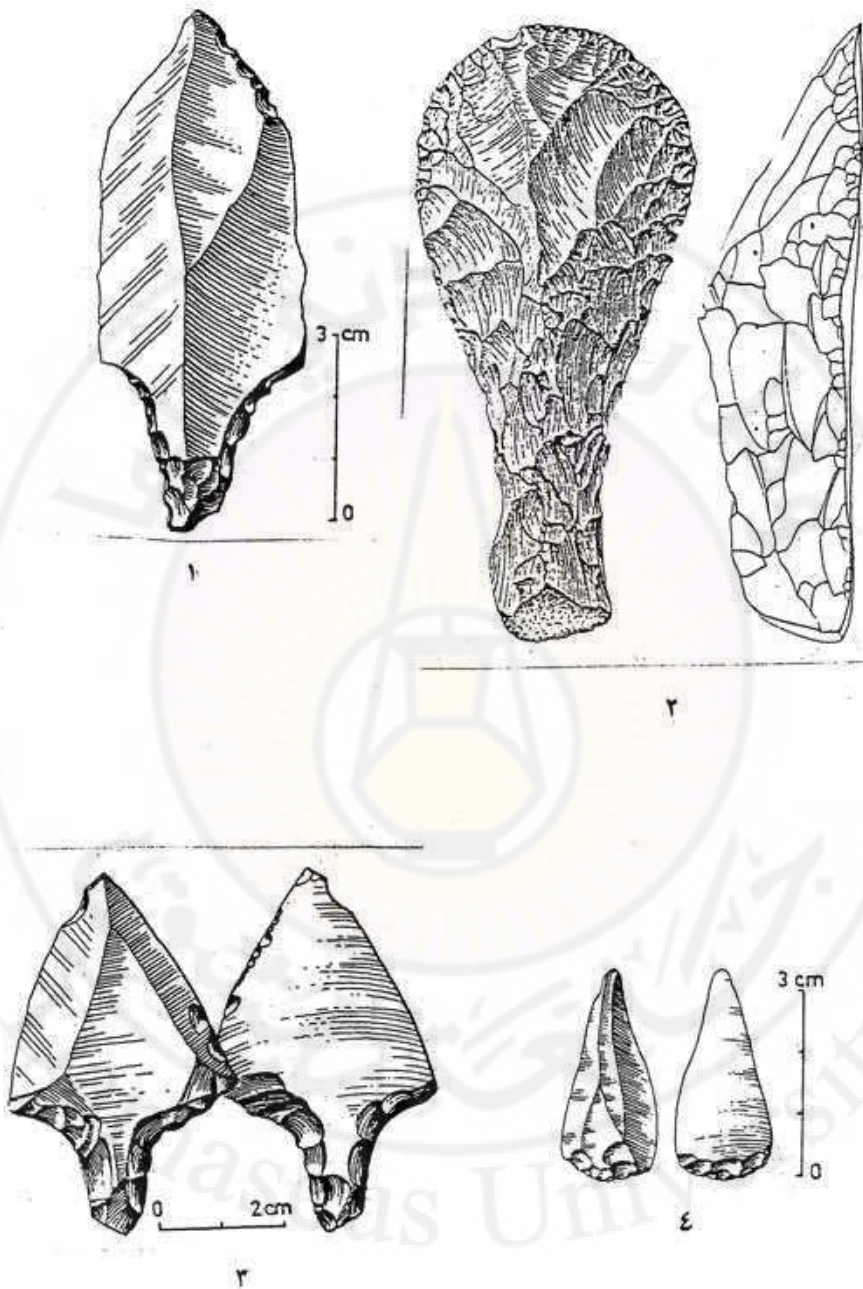
الشكل رقم : ١٧



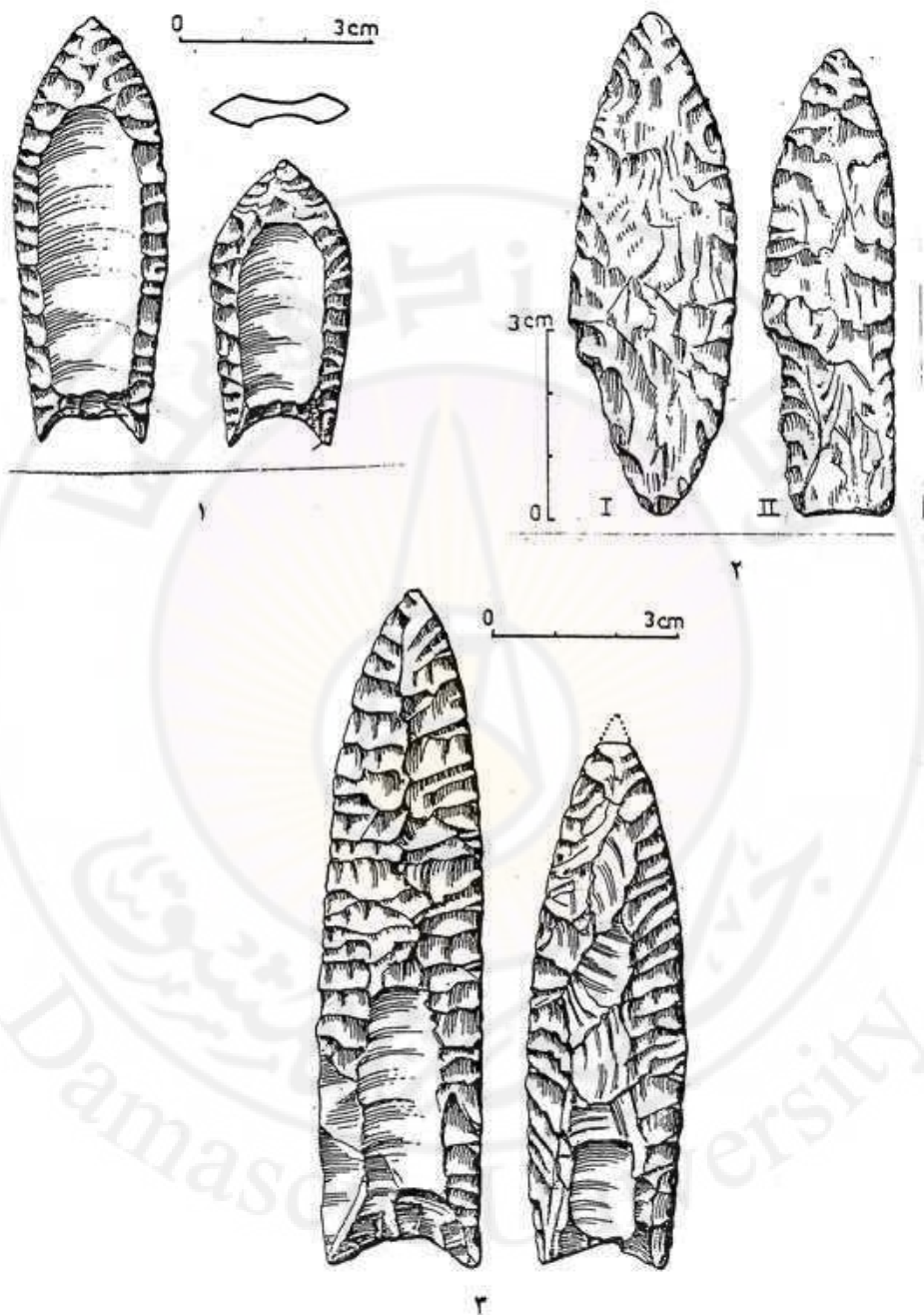
الشكل رقم: ١٨



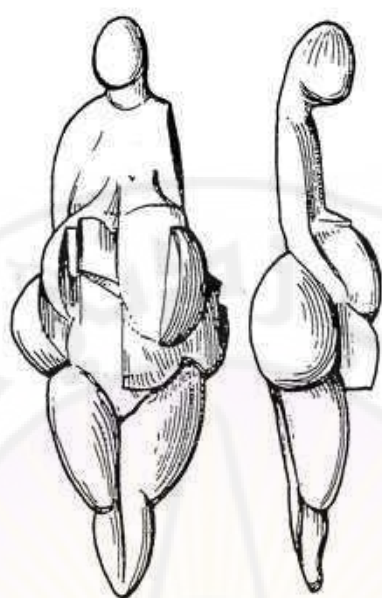
الشكل رقم: ١٩



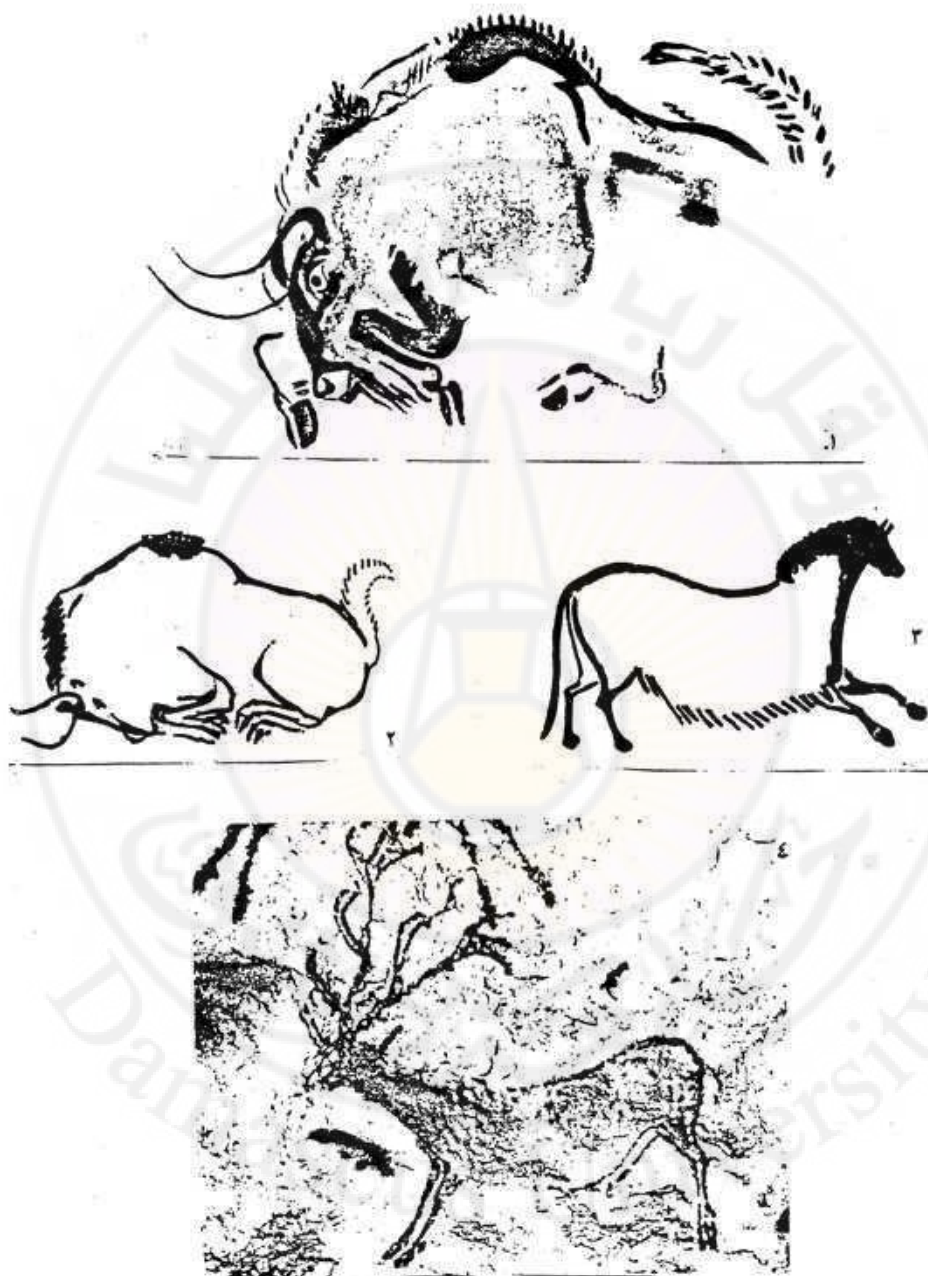
الشكل رقم: ٢٠



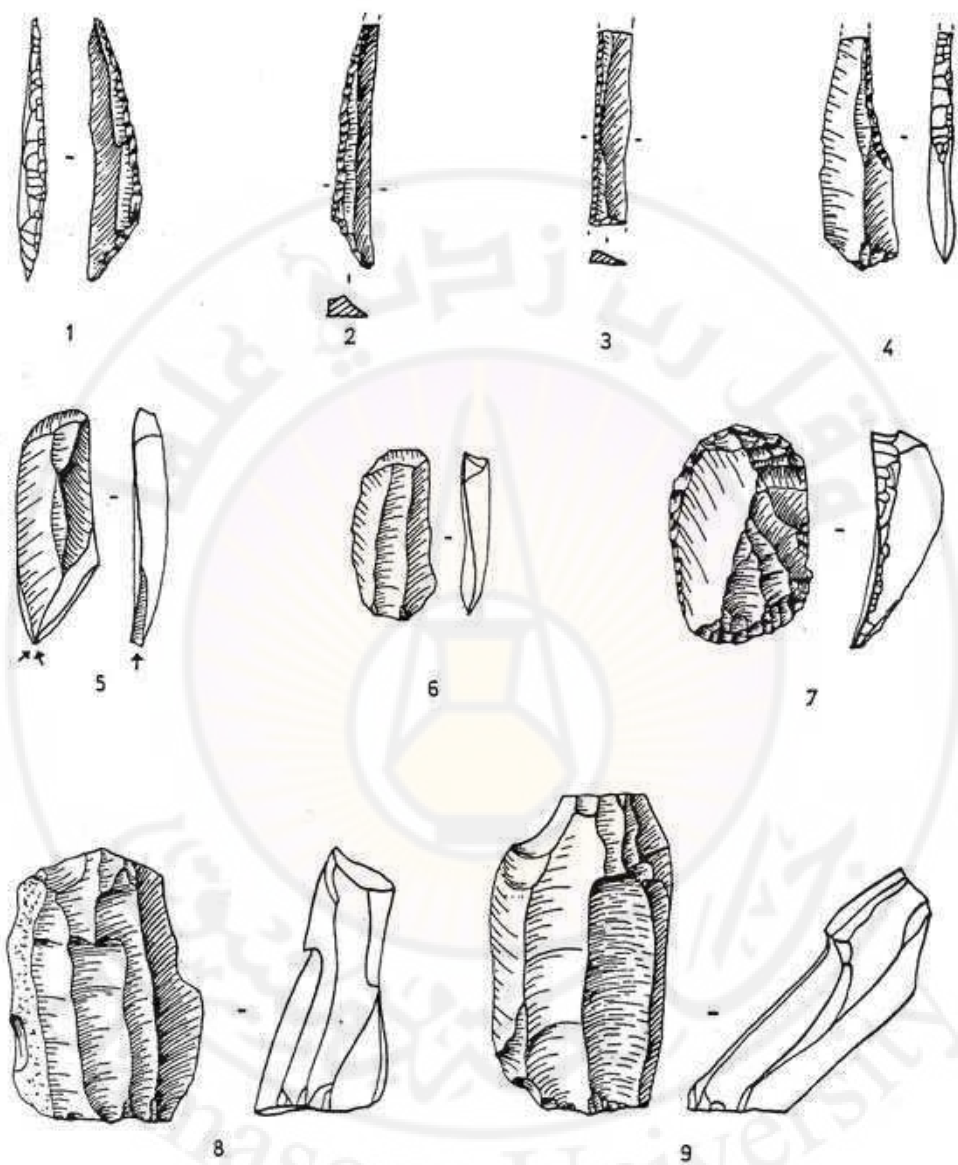
الشكل رقم: ٢١



الشكل رقم : ٢٢



الشكل رقم : ٢٣

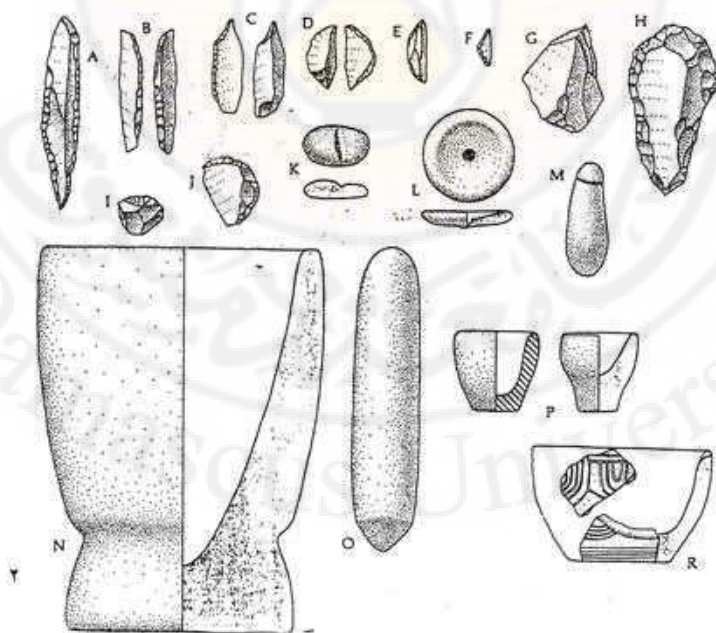
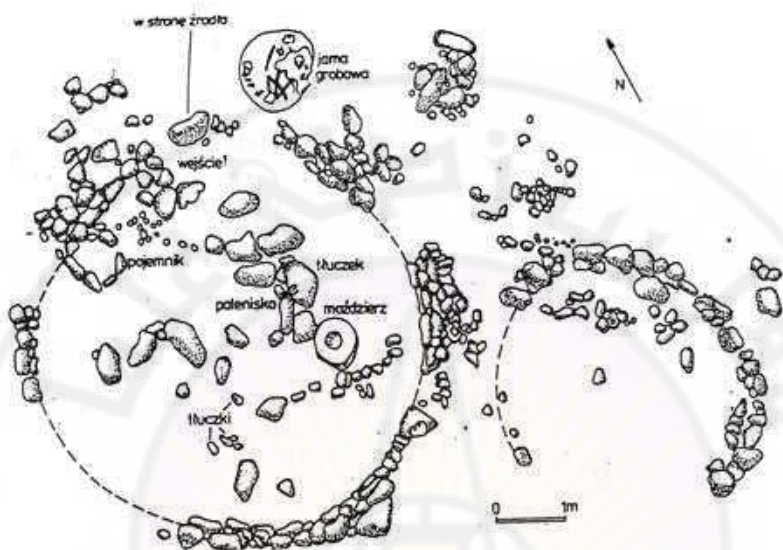


الشكل رقم : ٢٤

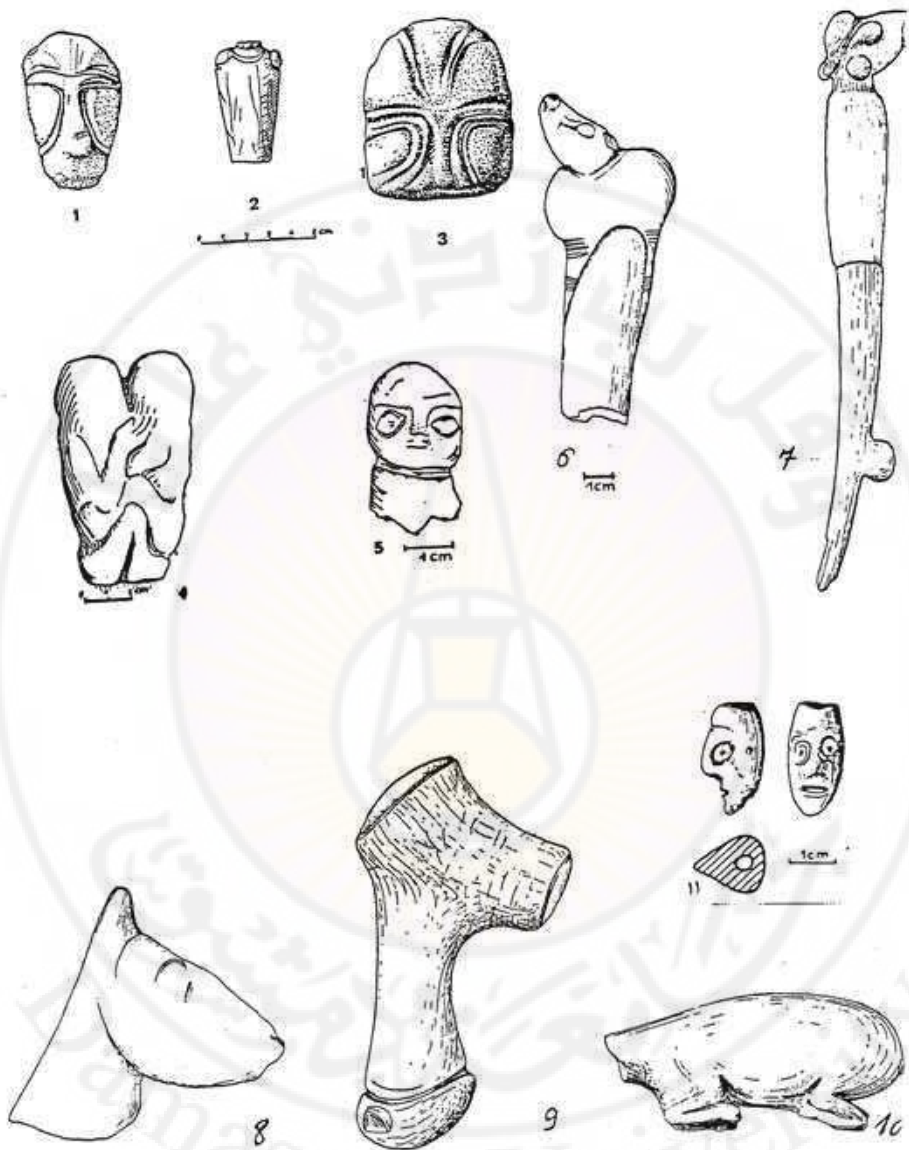


٨

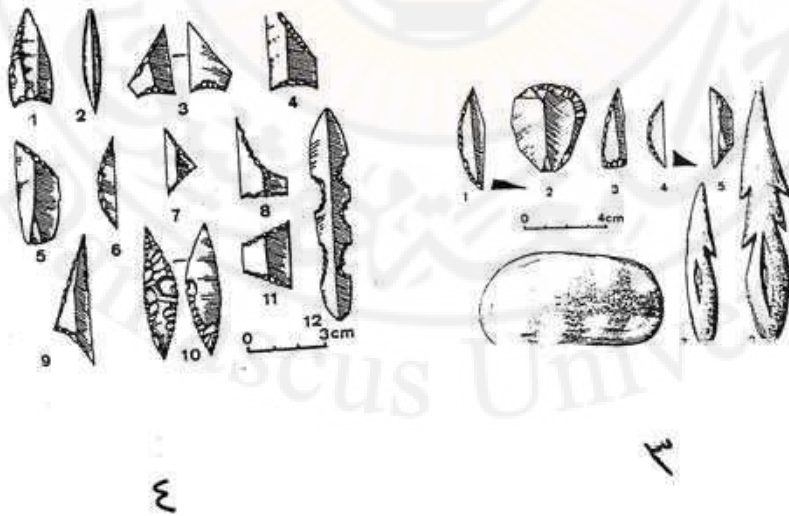
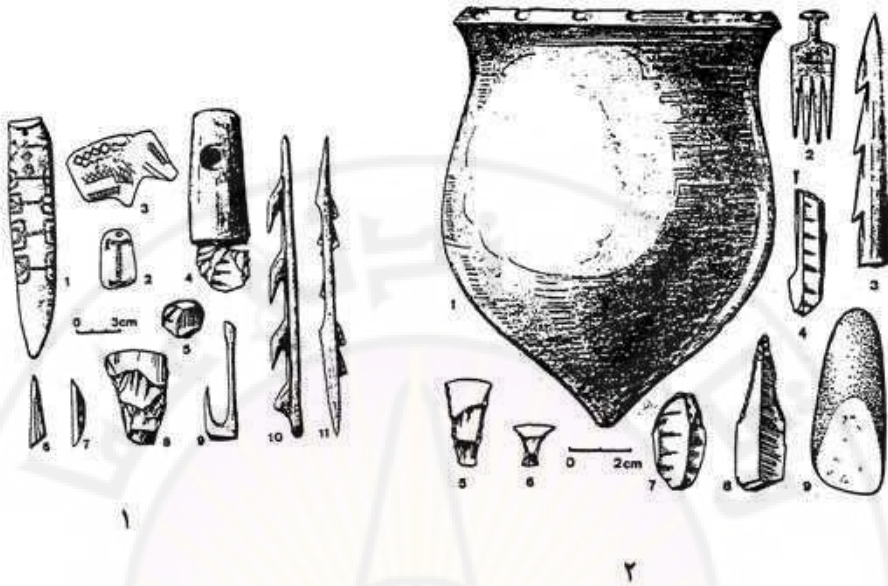
الشكل رقم: ٢٥



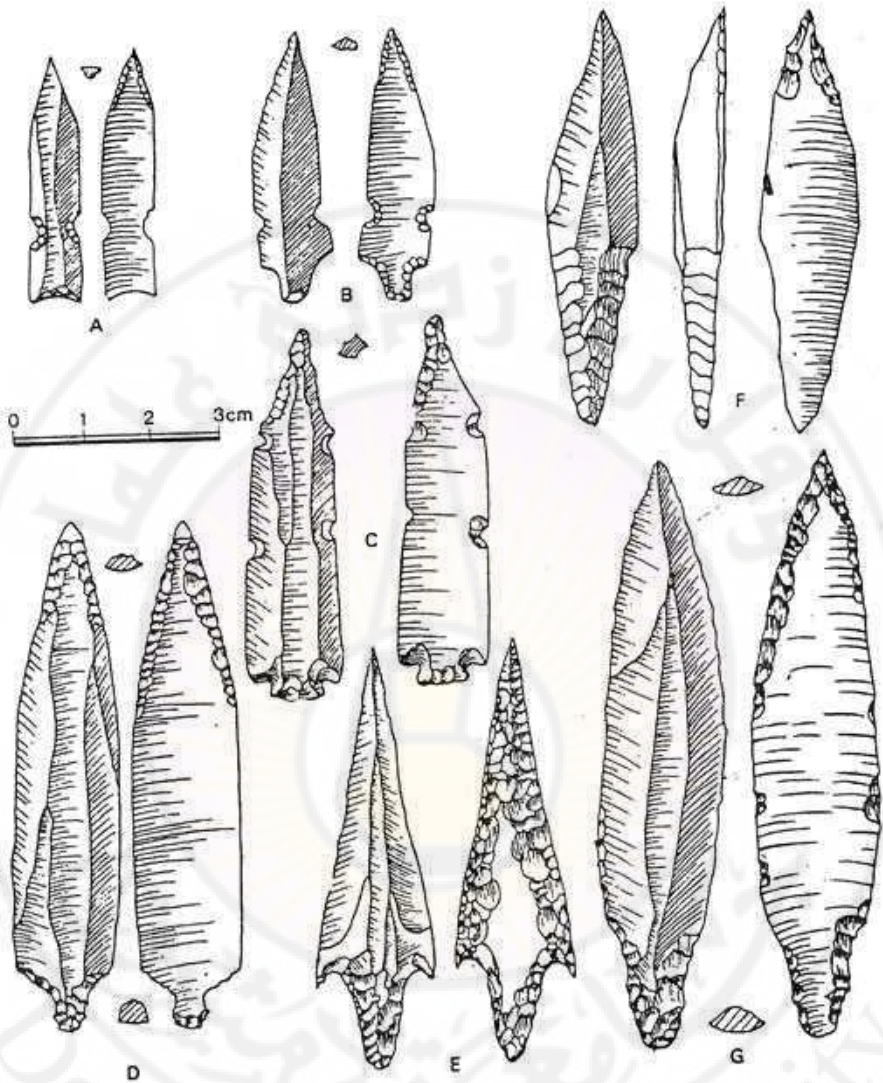
الشكل رقم: ٢٦



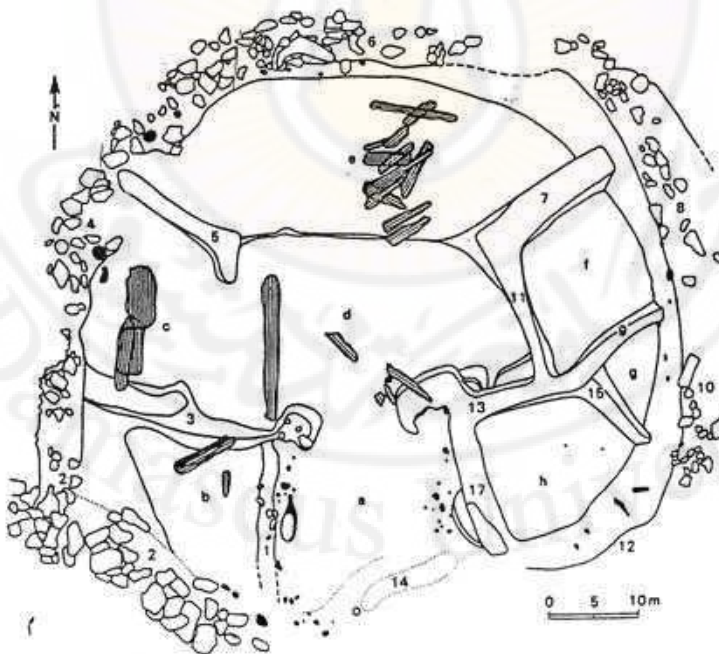
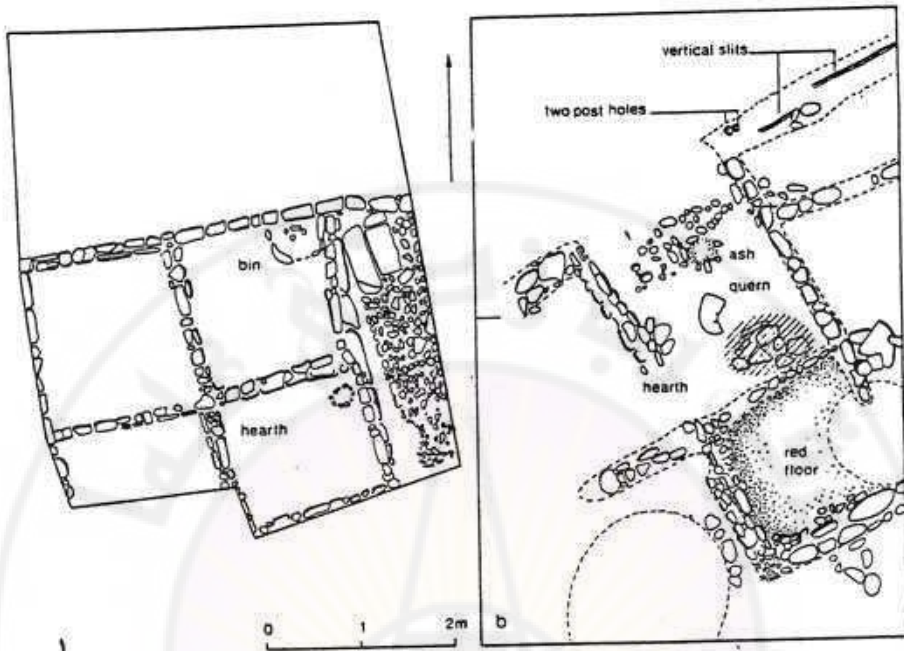
الشكل رقم: ٢٧



الشكل رقم: ٢٢٨



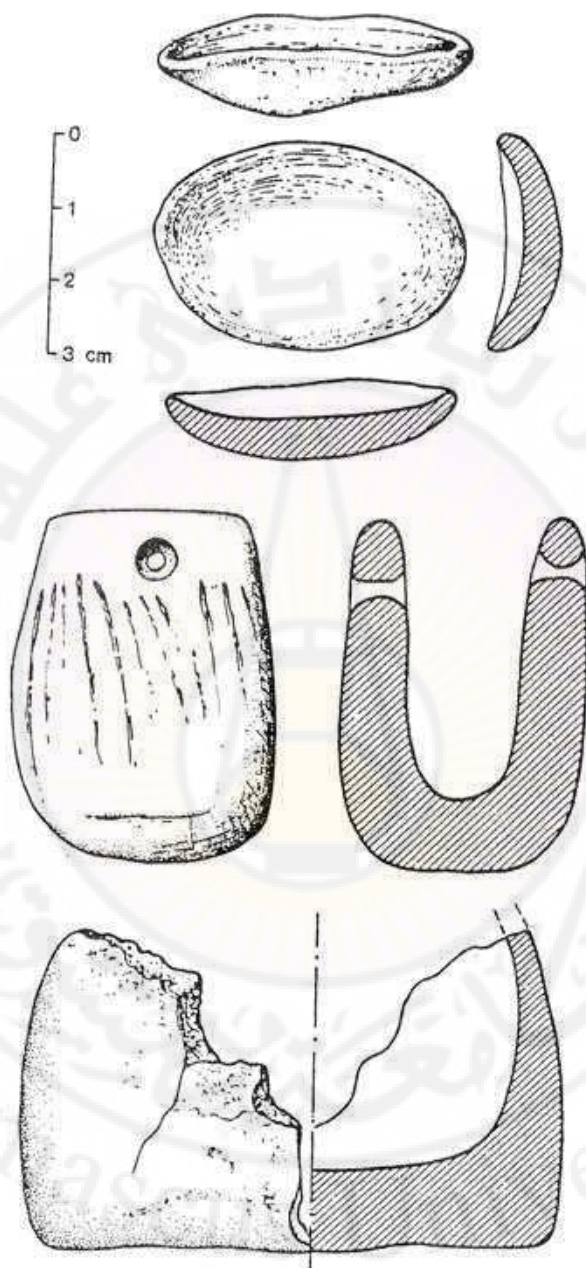
الشكل رقم: ٢٩



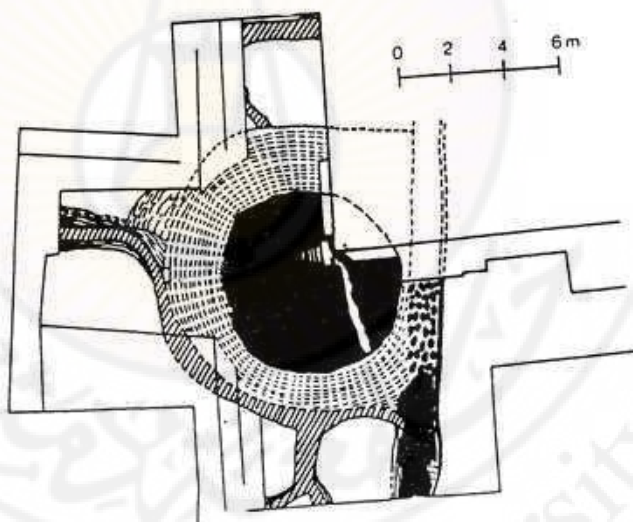
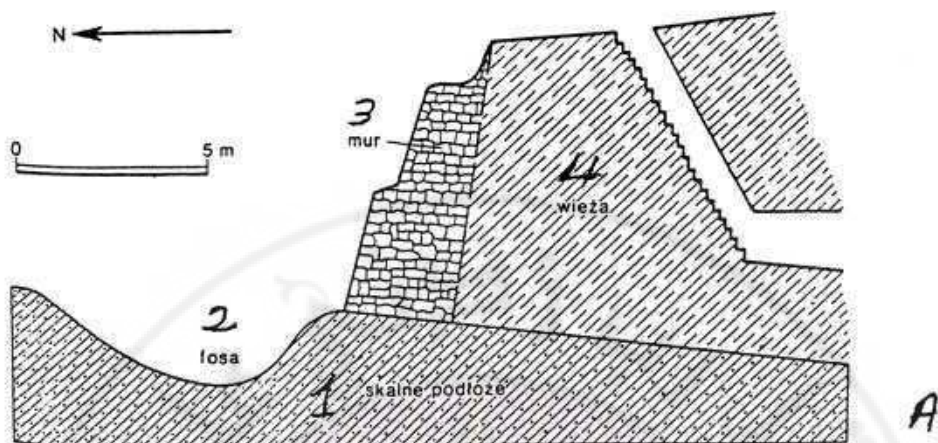
الشكل رقم: ٣٠



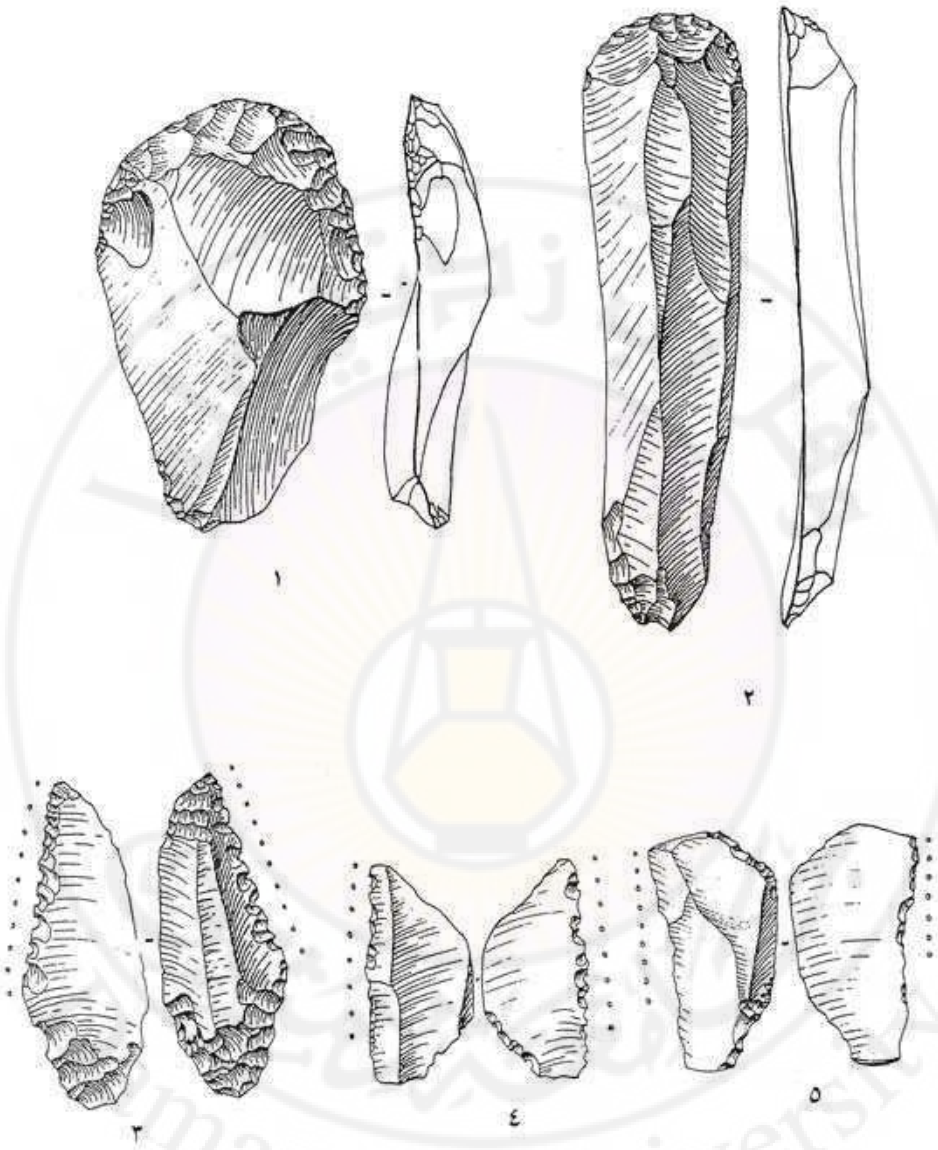
الشكل رقم : ٣١



الشكل رقم: ٣٢



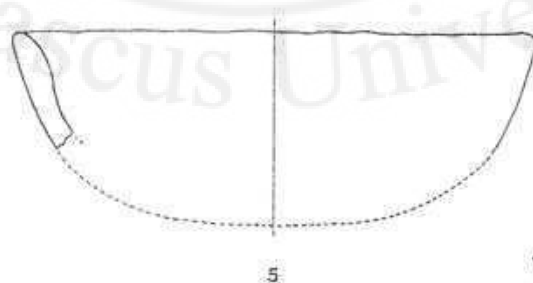
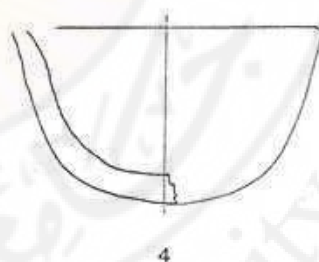
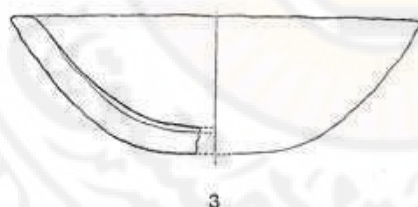
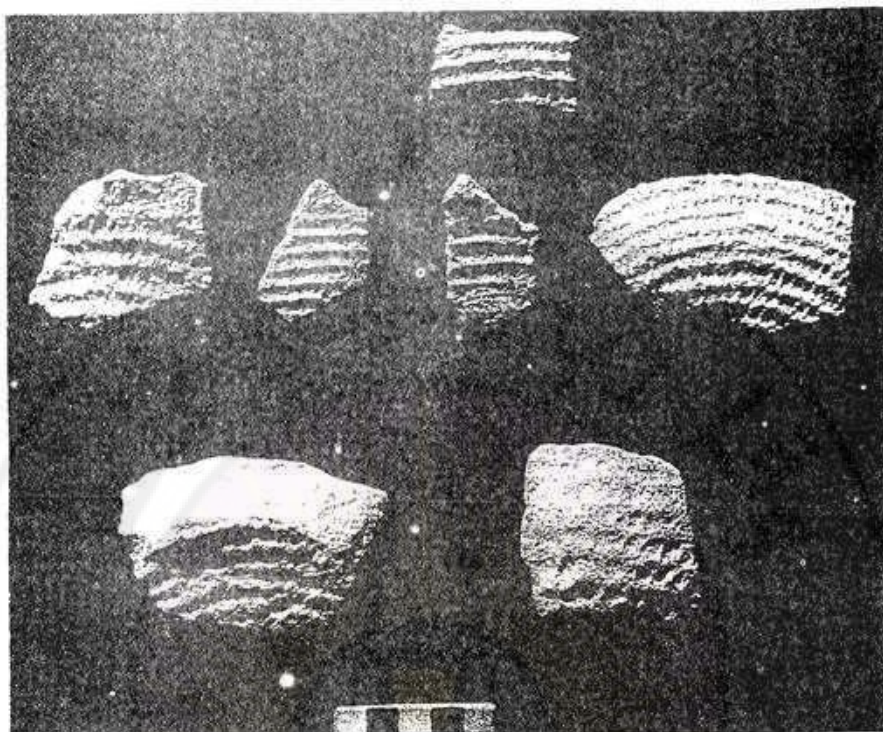
الشكل رقم: ٣٣



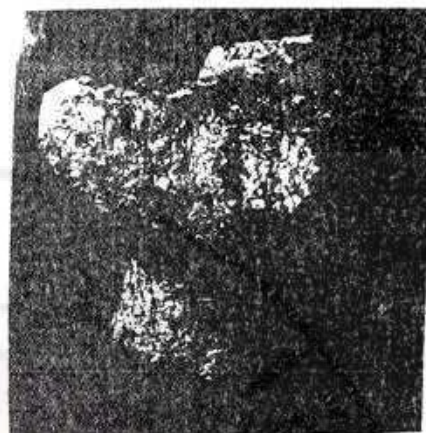
الشكل رقم: ٣٣



الشكل رقم: ٣٤



الشكل رقم: ٣٥



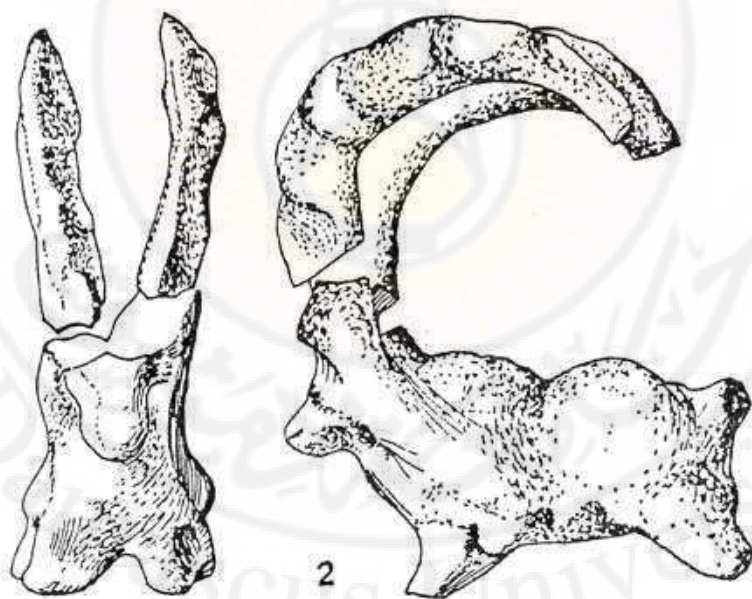
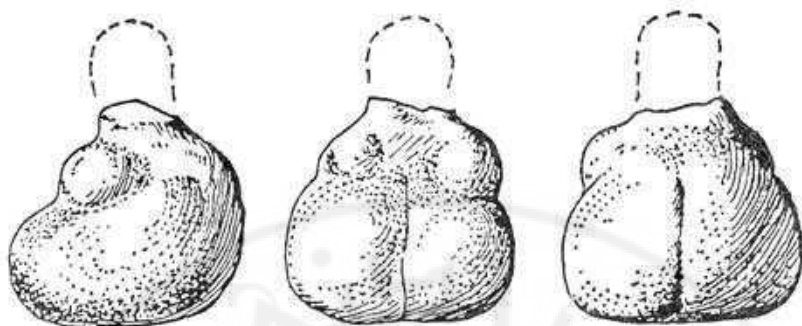
الشكل رقم: ٣٦



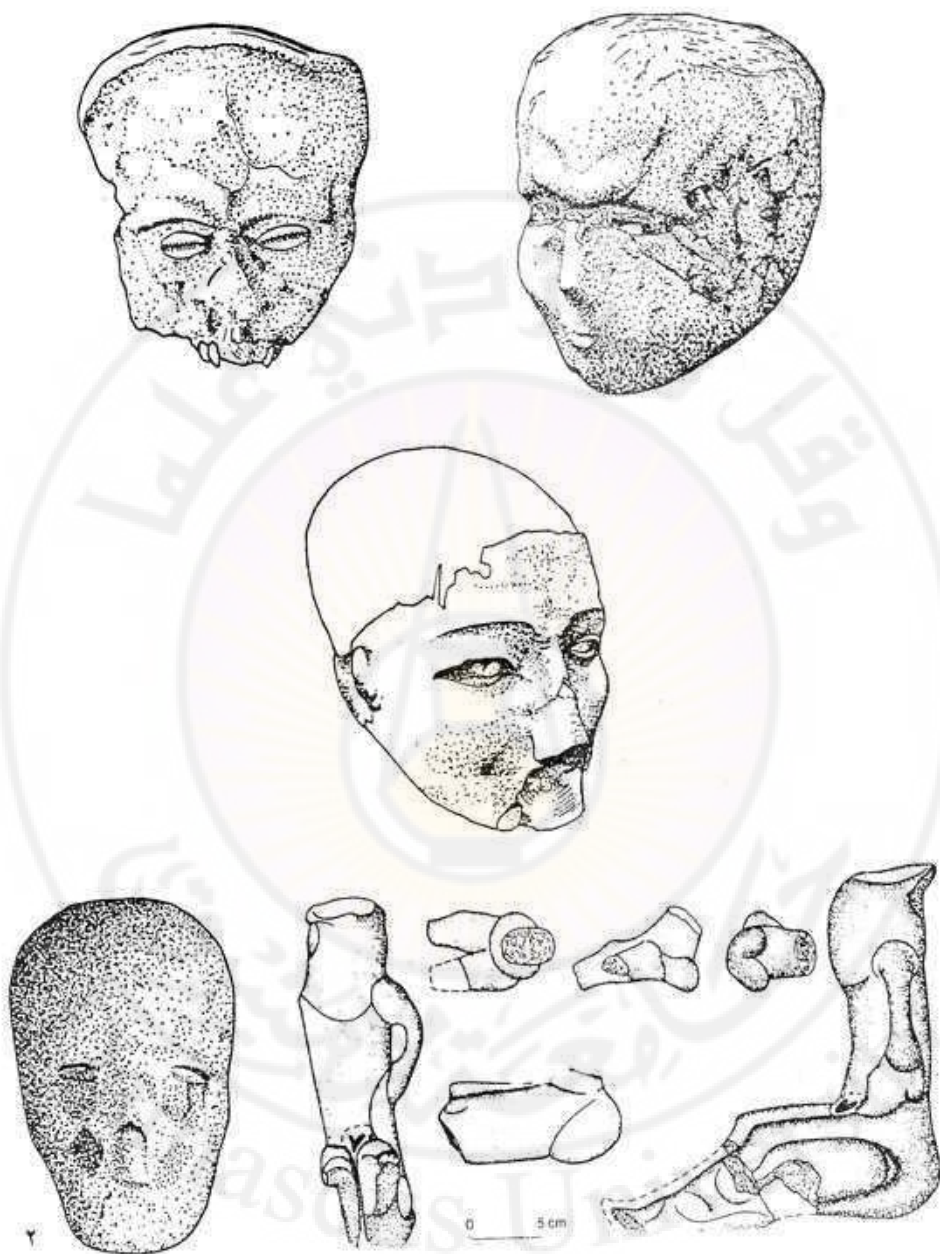
الشكل رقم: ٣٧



الشكل رقم : ٣٨



الشكل رقم : ٣٩



الشكل رقم: ٤٠



الشكل رقم: ٤١



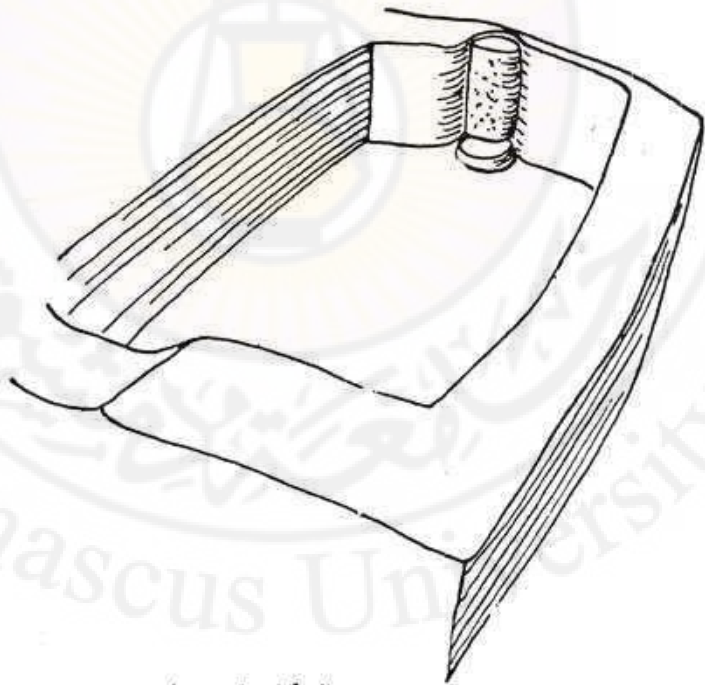
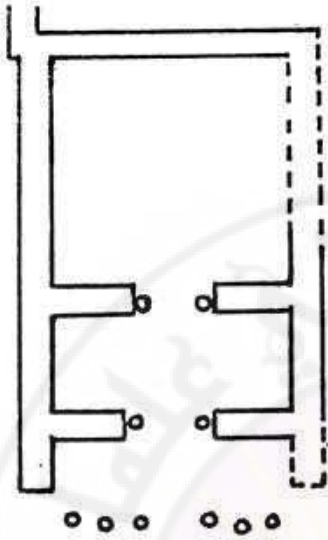
الشكل رقم: ٤٢



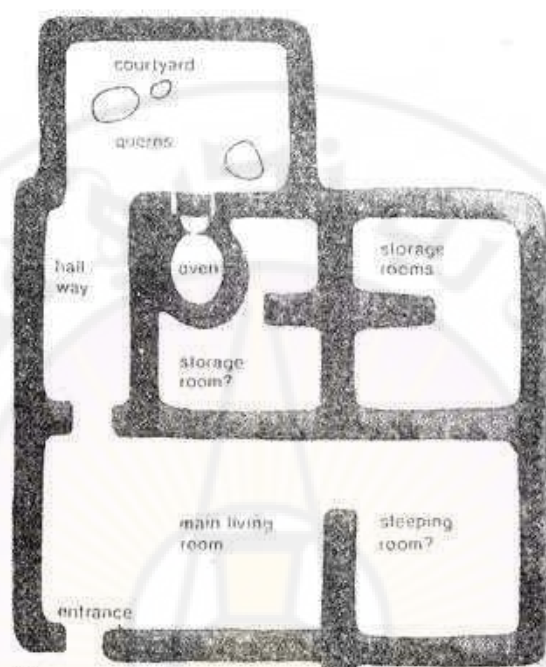
الشكل رقم: ٤٣



الشكل رقم: ٤٤



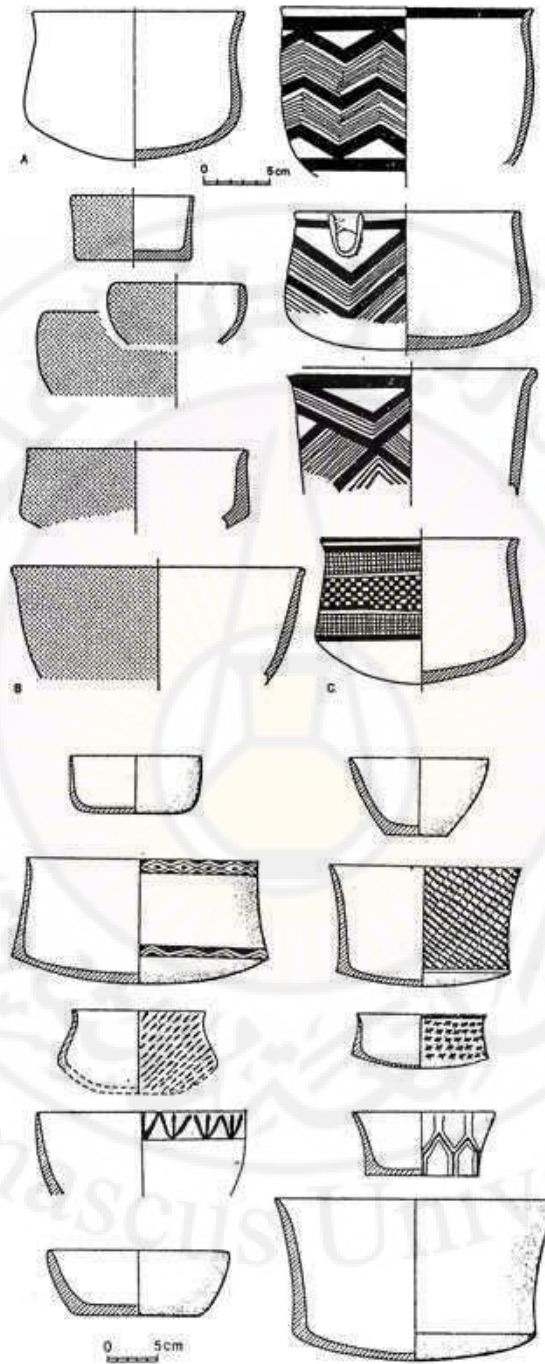
الشكل رقم : ٤٥



الشكل رقم : ٤٦



الشكل رقم: ٤٧



الشكل رقم: ٤٨



١



٢

الشكل رقم : ٤٩

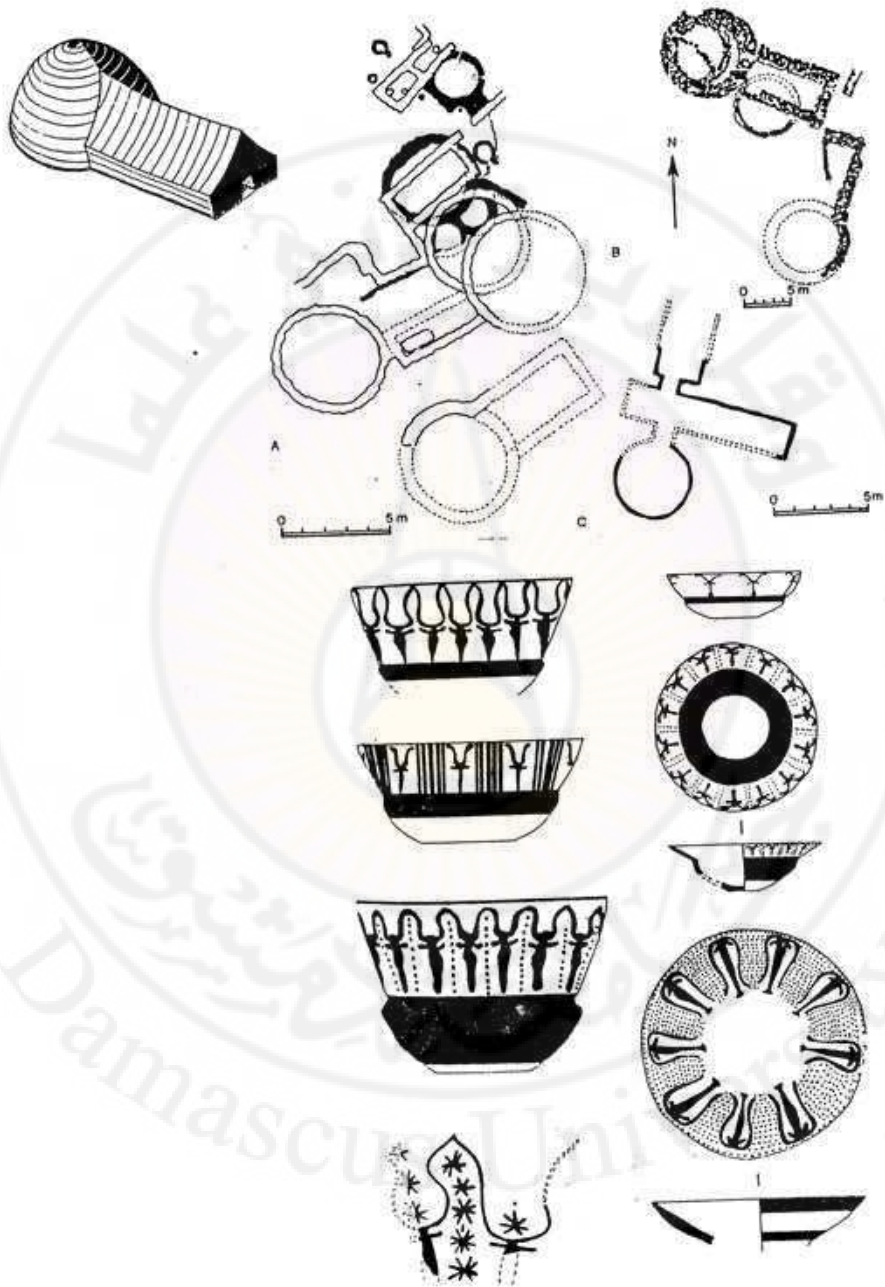


الشكل رقم : ٥٠

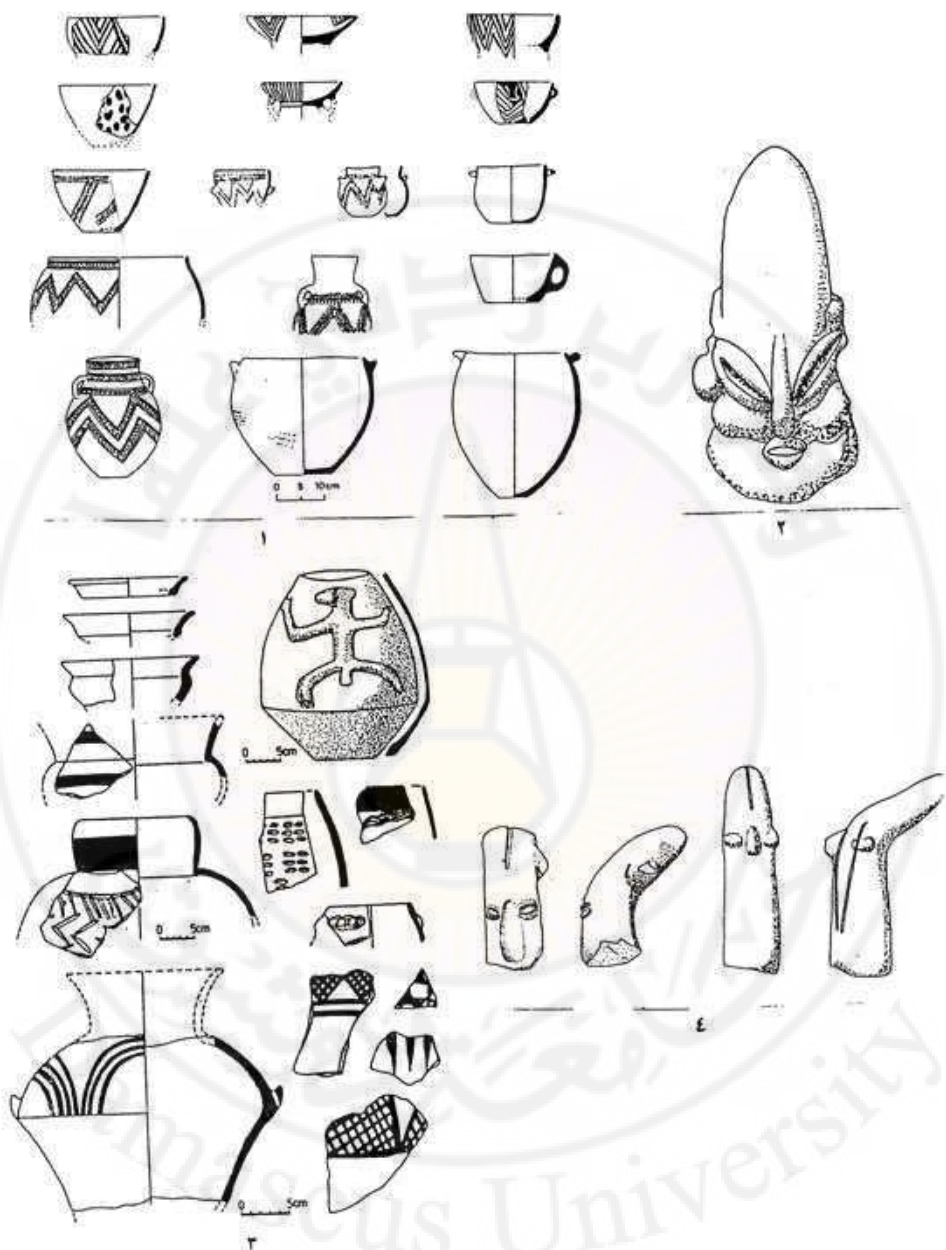


٢

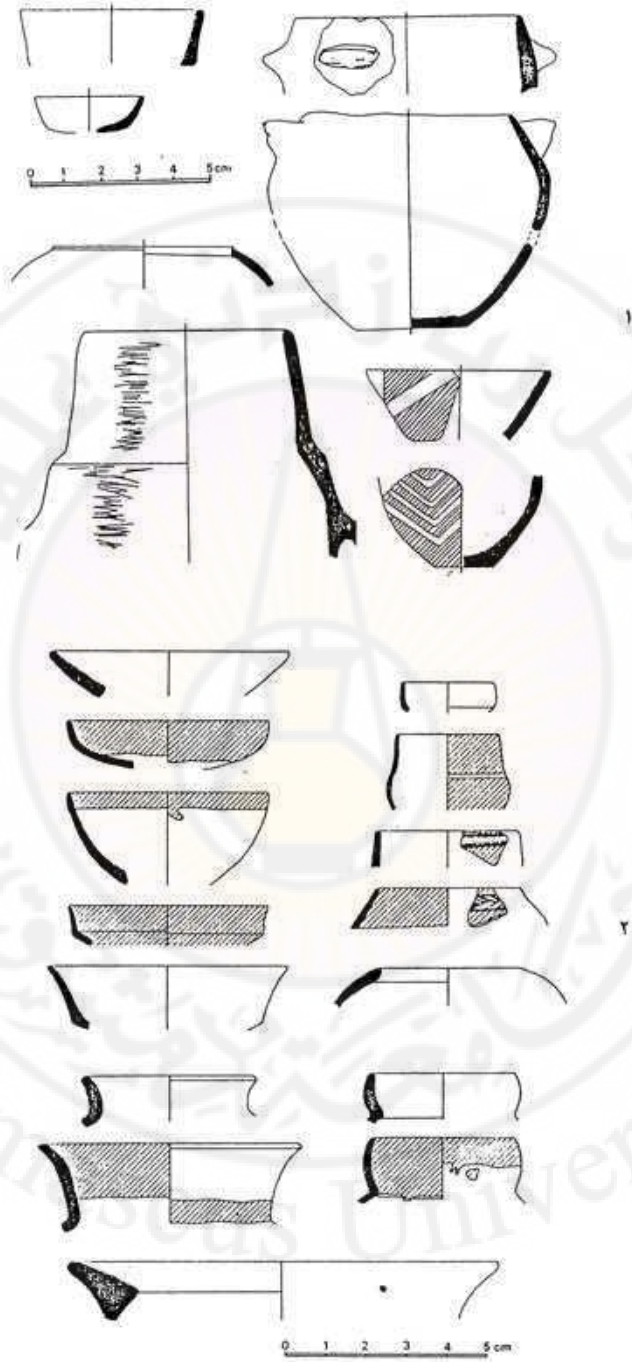
الشكل رقم: ٥١



الشكل رقم : ٥٢



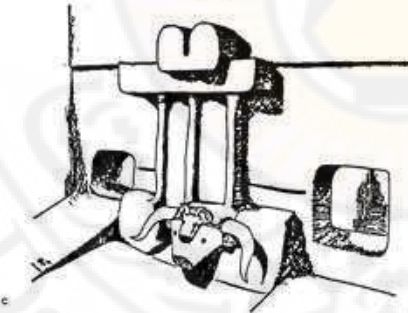
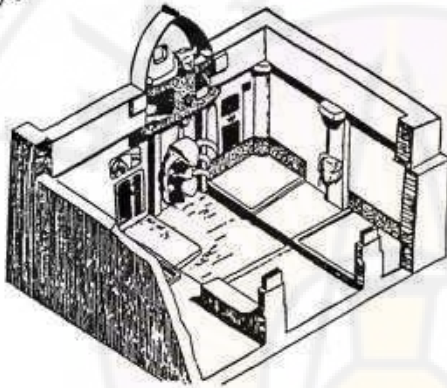
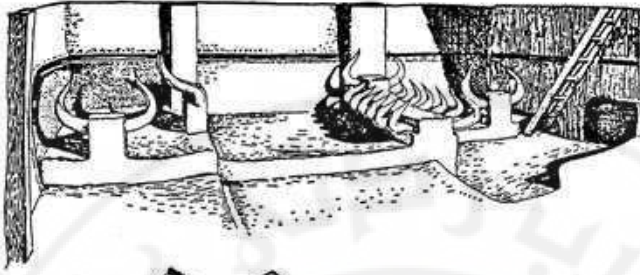
الشكل رقم: ٥٣



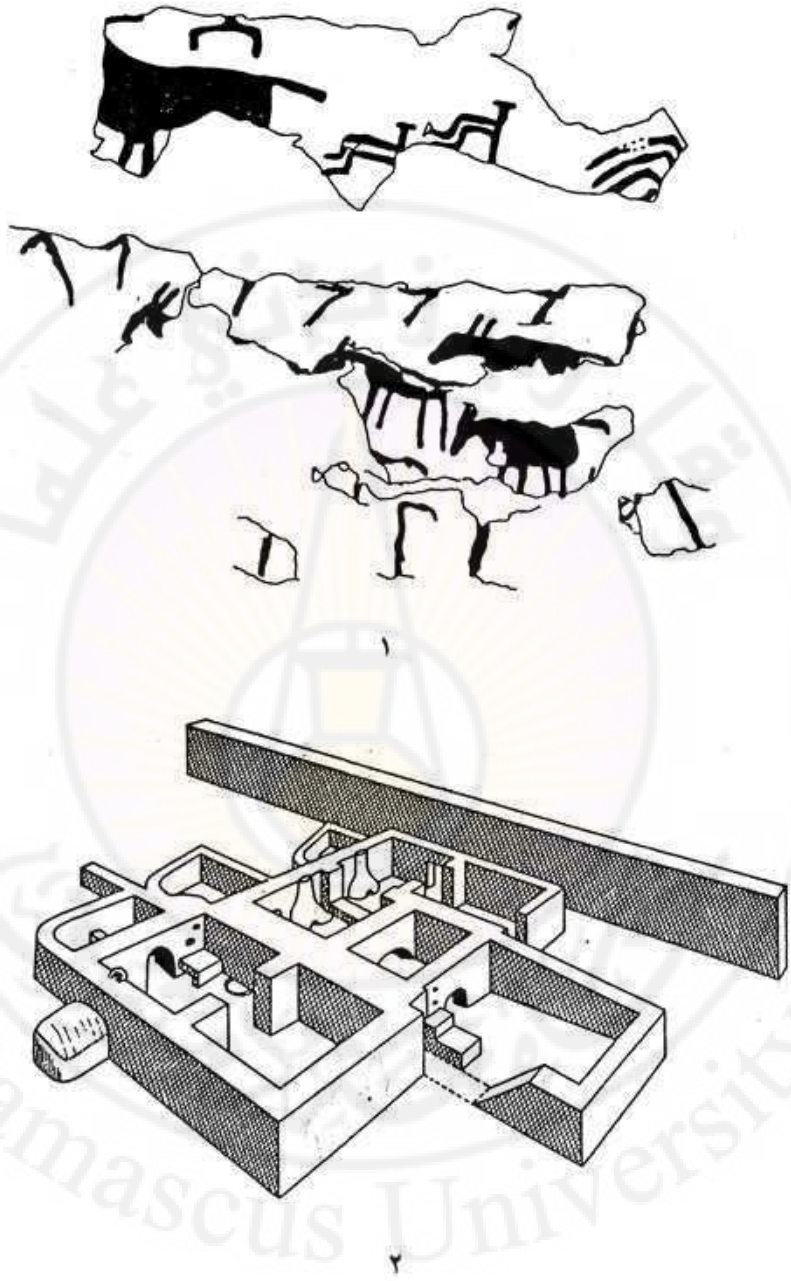
الشكل رقم : ٥٤



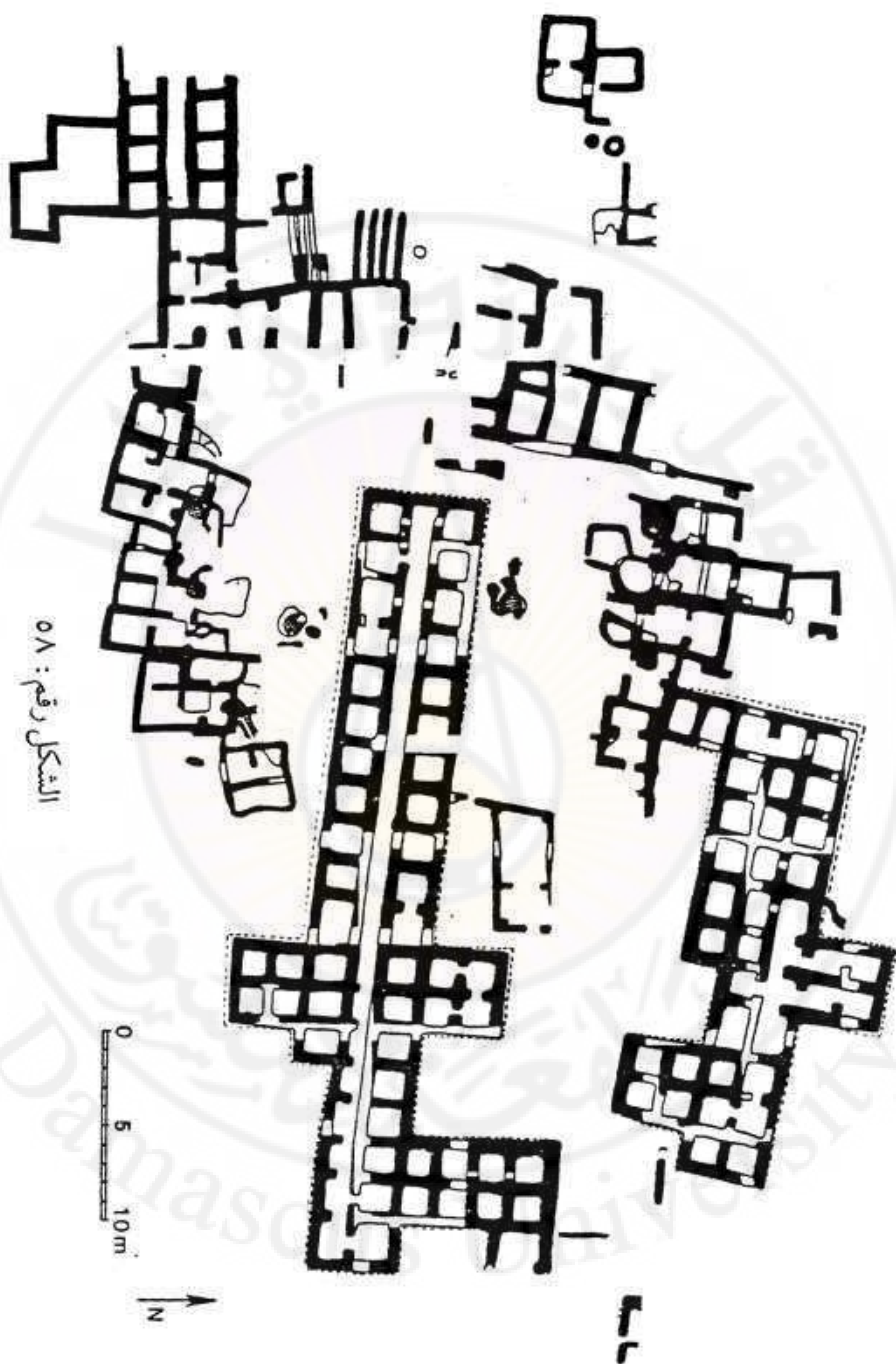
الشكل رقم : ٥٥

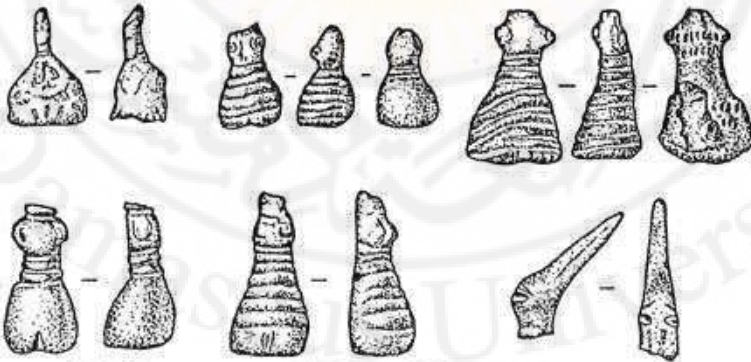
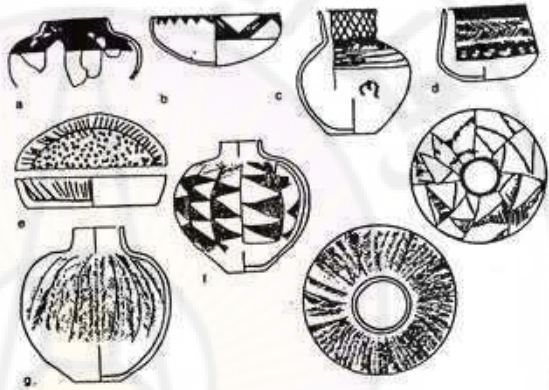
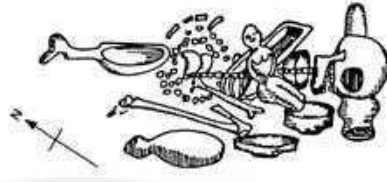


الشكل رقم: ٥٦



الشكل رقم : ٥٧





الشكل رقم: ٥٩



الشكل رقم : ٦٠



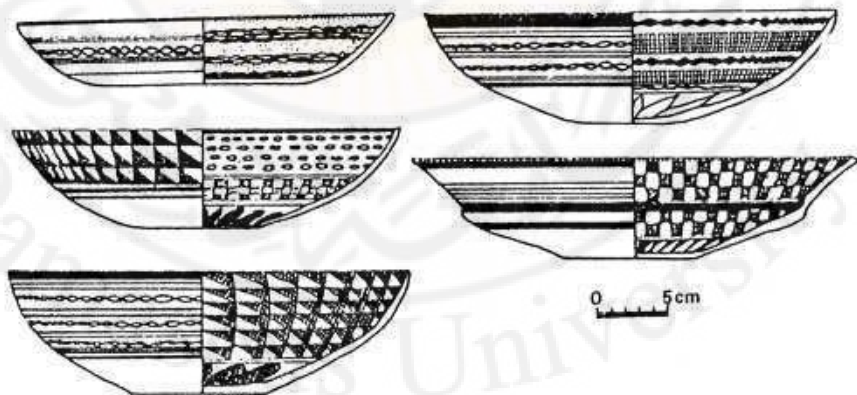
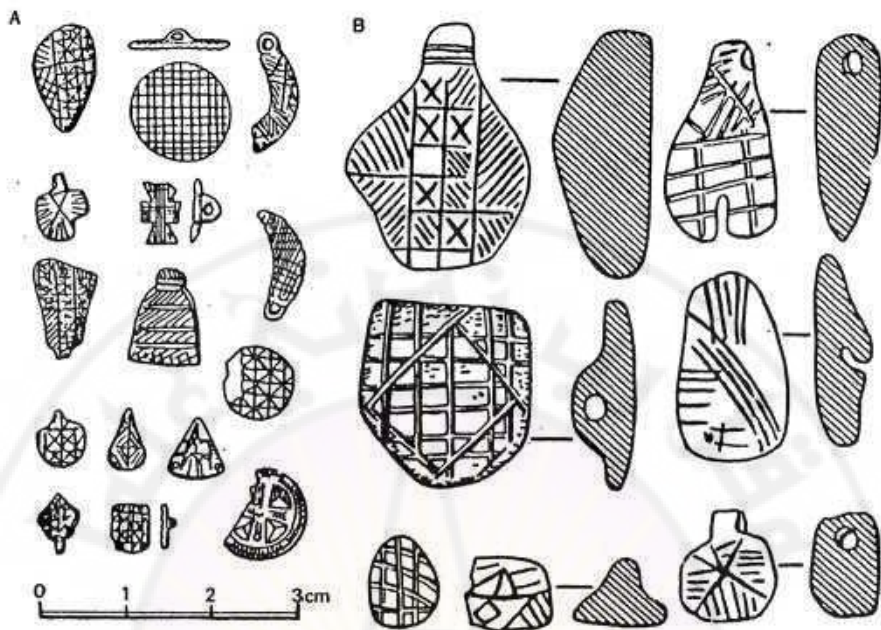
الشكل رقم: ٦١



الشكل رقم: ٦٢



الشكل رقم: ٦٣



٢

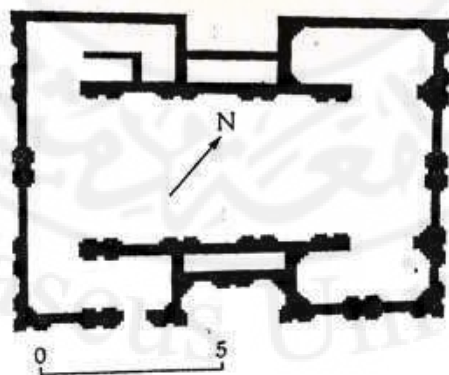
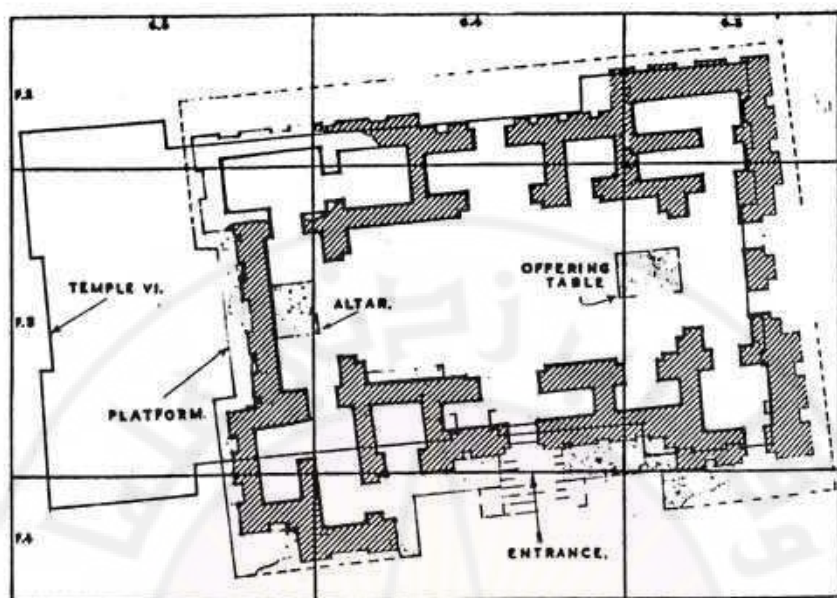
الشكل رقم: ٦٤



الشكل رقم : ٦٥

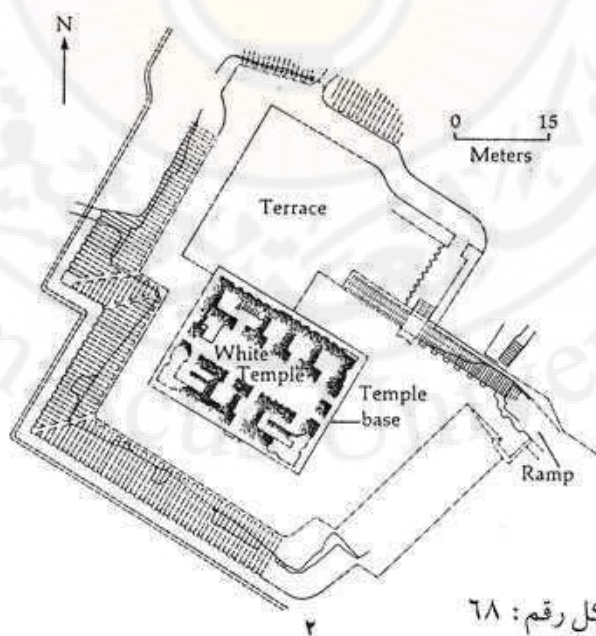
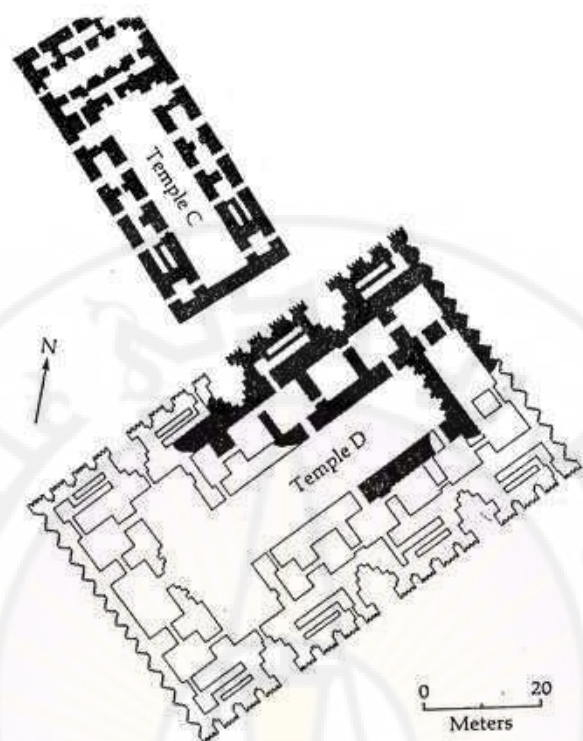


الشكل رقم: ٦٦



٢

الشكل رقم: ٦٧



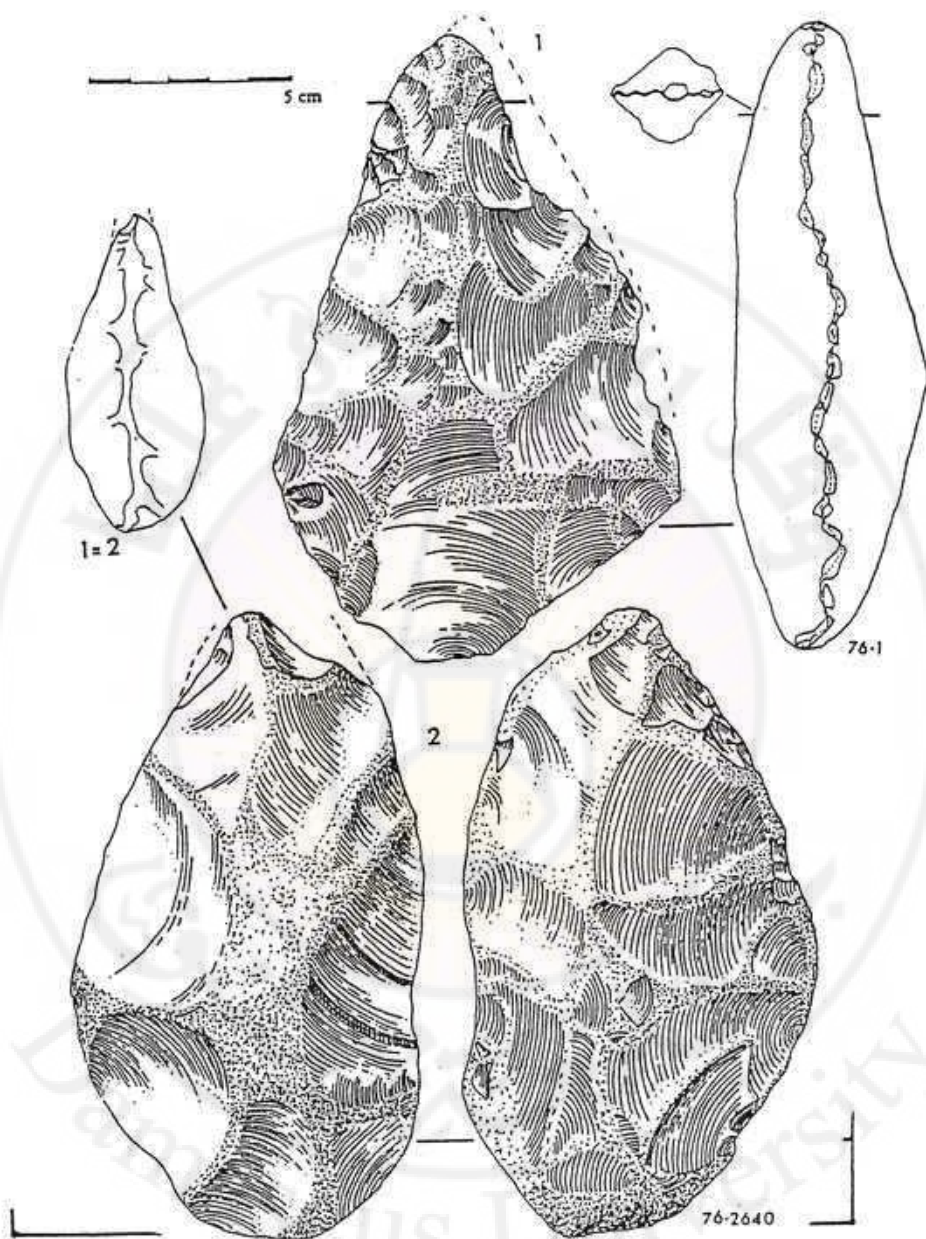
الشكل رقم: ٦٨

المعنى	اللفظ	الكتابة المسارية ١٩٠٠ ق م	الصور في وضعية مقلوبة	سوع الصورة	الكتابة التصويرية الاولى ٣٠٠٠ سنة ق م
رجل	لو			رأس وجسم انسان	
م	كا			الرأس مع الإشارة إلى نفس	
خبز (أكل)	نيندا			وعاء طعام	
ياكل	كو			نم + وعاء طعام	
ماء	آ			جدول ماء	
يشرب	ناغ			م + ماء	
سمكة	كو + آ			سمكة	
طائر	موسن			طائر	
حمام	انسي			رأس حمام	
شعير	سي			سنبلة شعير	

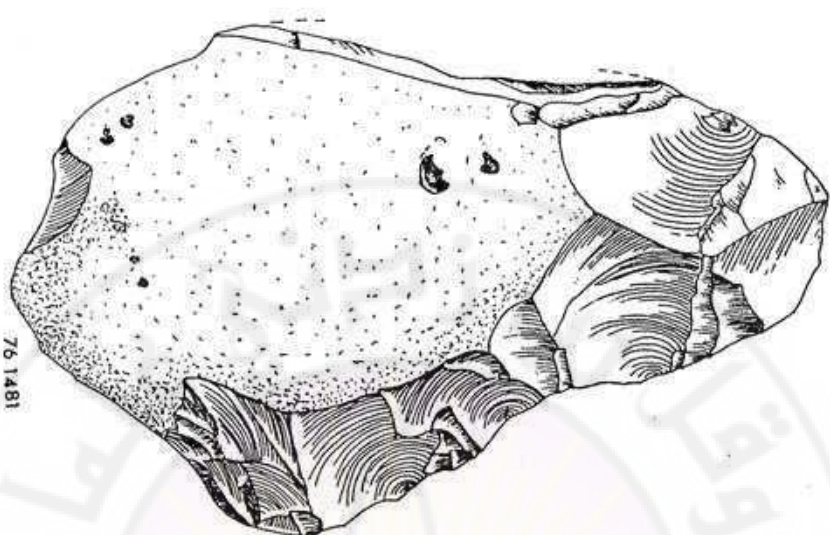
الشكل رقم : ٦٩

الزمن بالسنين	المواقع الهامة	المحارة	المعمر	الانسان	الرياحي الاول	الرياحي الثاني	اسم الرامح	لشاح
٣٠٠٠	تل حلف و تل عقاب ، تل براك ، تل حوية الكبيرة جبل عاروة ، تسمالدين طيرة ، شالار بازار ، الساجس ، تل الحزازي .	مجتمعات انتقالية الى المعمر الى الريفية	المعمر المحوري النحاسي		تشكلات الموروس	تشكلات الموروس	س	لشاح
٥٠٠٠	تل الرينيط و تل ابو ميرة ، بروس ، تل الرقاد ، تل المريفية ، راس . الترة ، وية الحمام	مجتمعات الزاوية والتدجين	المعمر المحوري الحديث				س	لشاح
٨٠٠٠	الكني I ، التدية I ، الرينيط I ، صيدانيا ، جيرة تيرود III ، الطيرة	الكثيرة ، البطورية	المعمر المحوري الرينيط				س	لشاح
١٢٠٠٠	تيرود II ، والطيرة ، الحيا من كورف جوف المجلة و الدارزة .	الاريفانية	المعمر المحوري القديم الاعلى	الانسان	تشكلات	تشكلات	س	لشاح
٣٥٠٠٠	جوف المجلة وكوف الدارزة والطيرة ، الحيا فهاجر موانع المعمر الانتقالي .	الطوارنة - المريجيرة	المعمر المحوري القديم الاوسط	الانسان	تشكلات	تشكلات	س	لشاح
٤٠٠٠٠	تيرود I ، بروس II ، التلال ، ام التلال ، تيرة عشيرة الساوون ، طول الدناي .	الانوية الاخيرة السيرودية ، الحيا ، الدنايية	عمر انتقالي		تشكلات	تشكلات	س	لشاح
٥٠٠٠٠	ست موشو ، الشخ محمد ، خطاب ، الرشن ، اللطانية ، البراشي ، ابر محمد ، بوشع الحاسي .	النبايية	عمر انتقالي		تشكلات	تشكلات	س	لشاح
١٠٠٠٠٠		الانوية	عمر انتقالي		تشكلات	تشكلات	س	لشاح

الشكل رقم: ٧٠



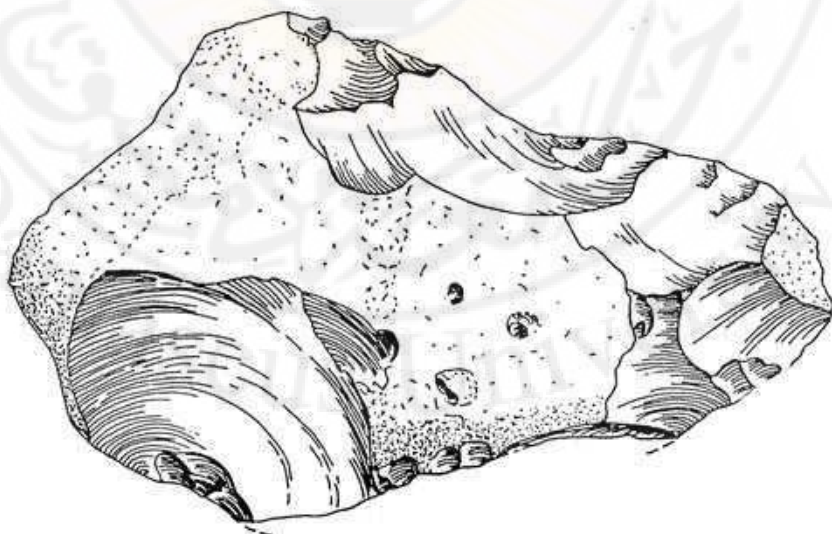
الشكل رقم: ٧٢



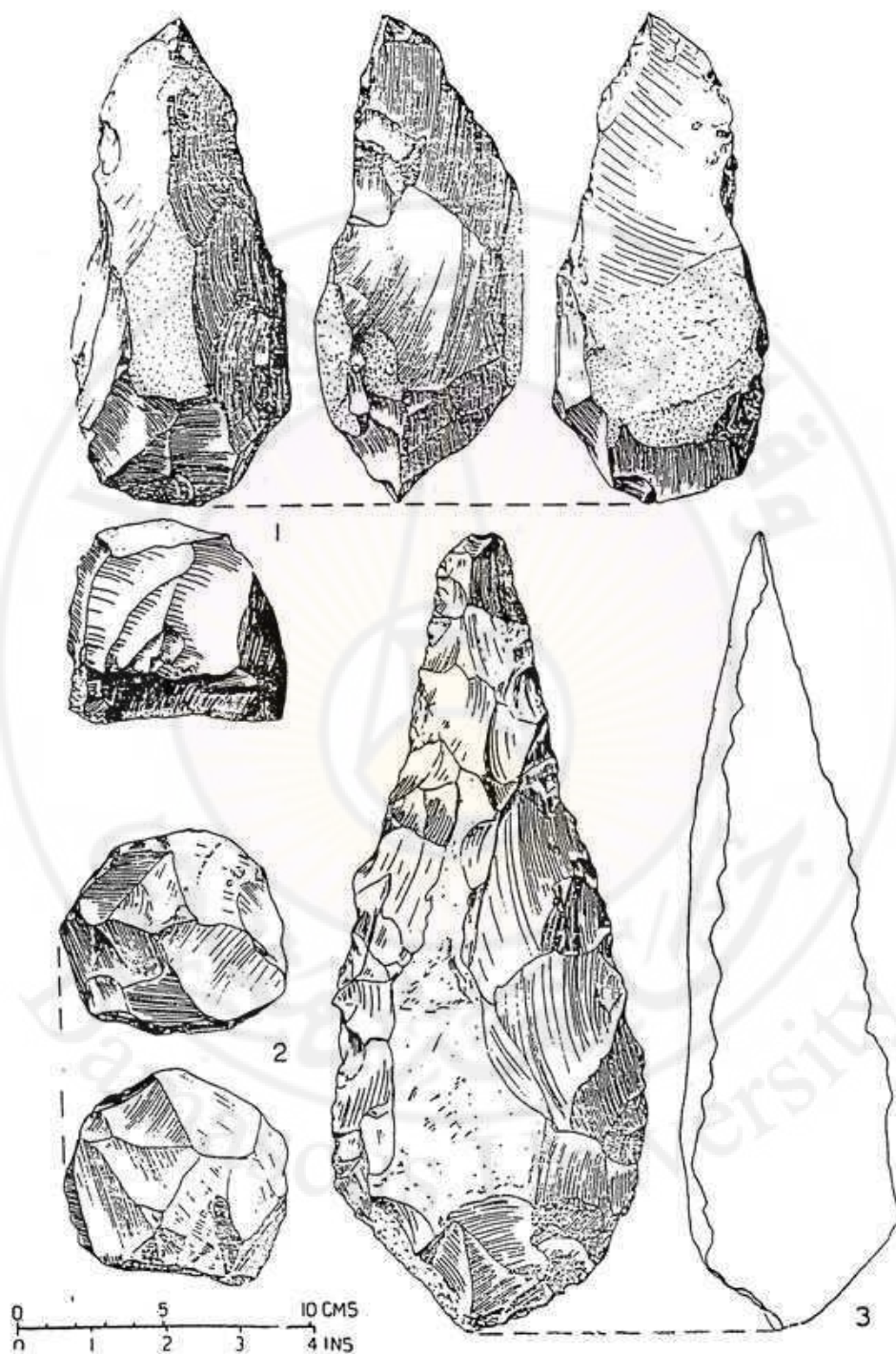
76 1481



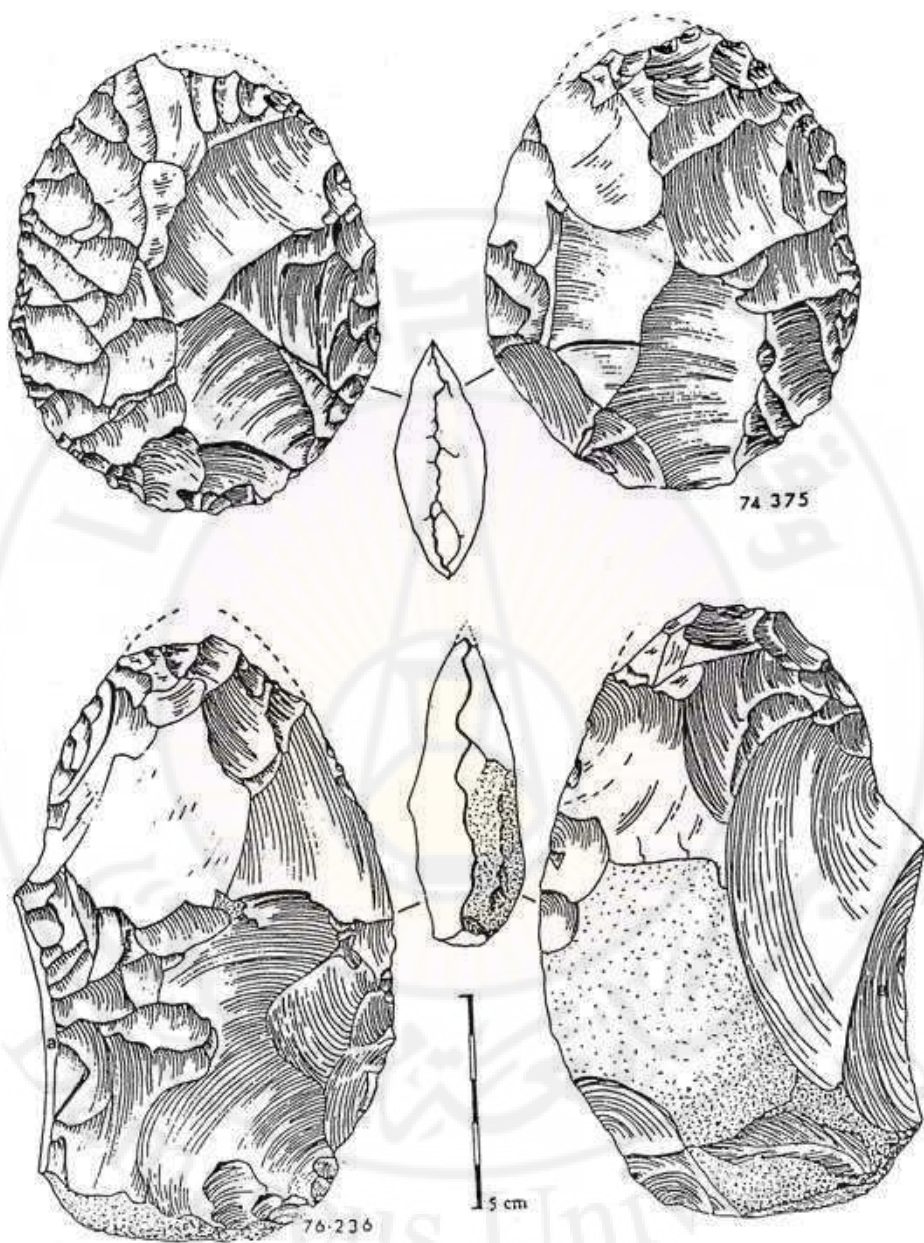
9 cm



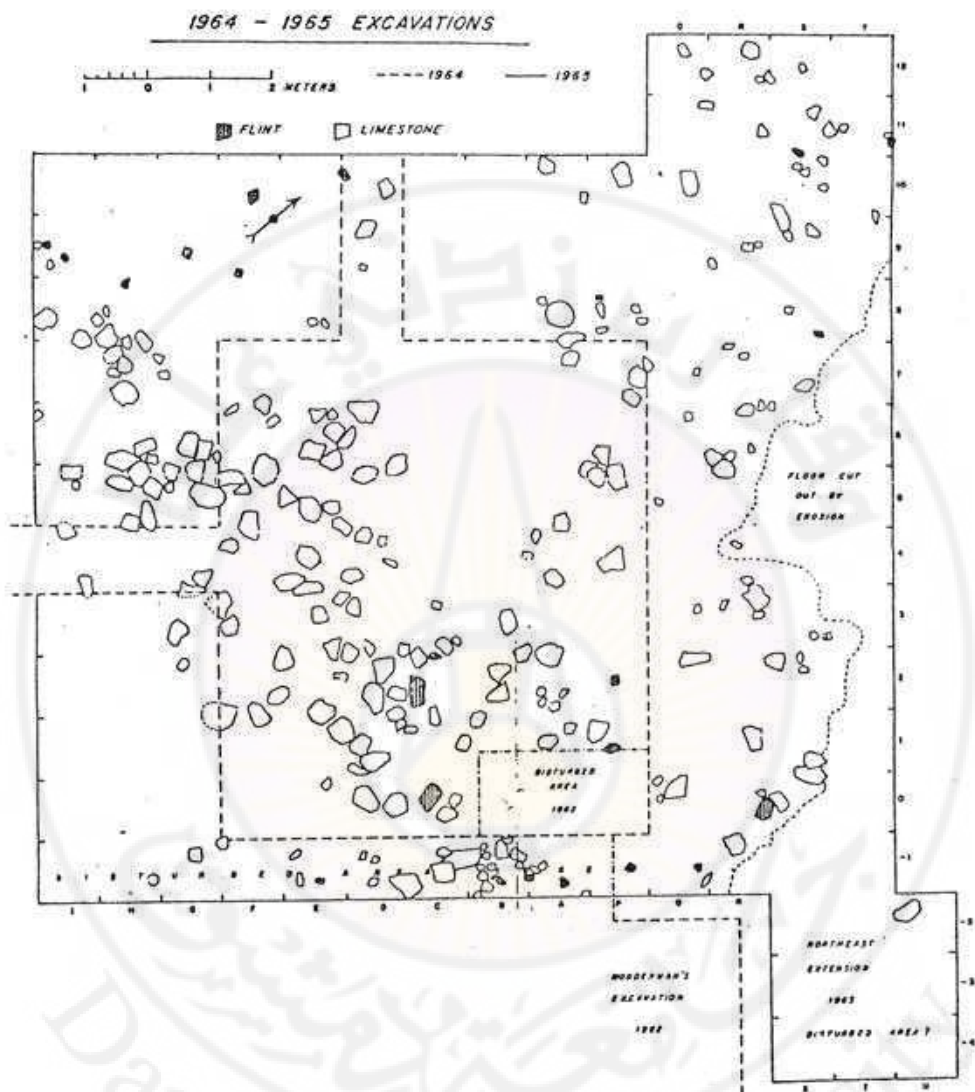
الشكل رقم: ٧٣



الشكل رقم: ٧٤



الشكل رقم : ٧٥



الشكل رقم: ٧٦

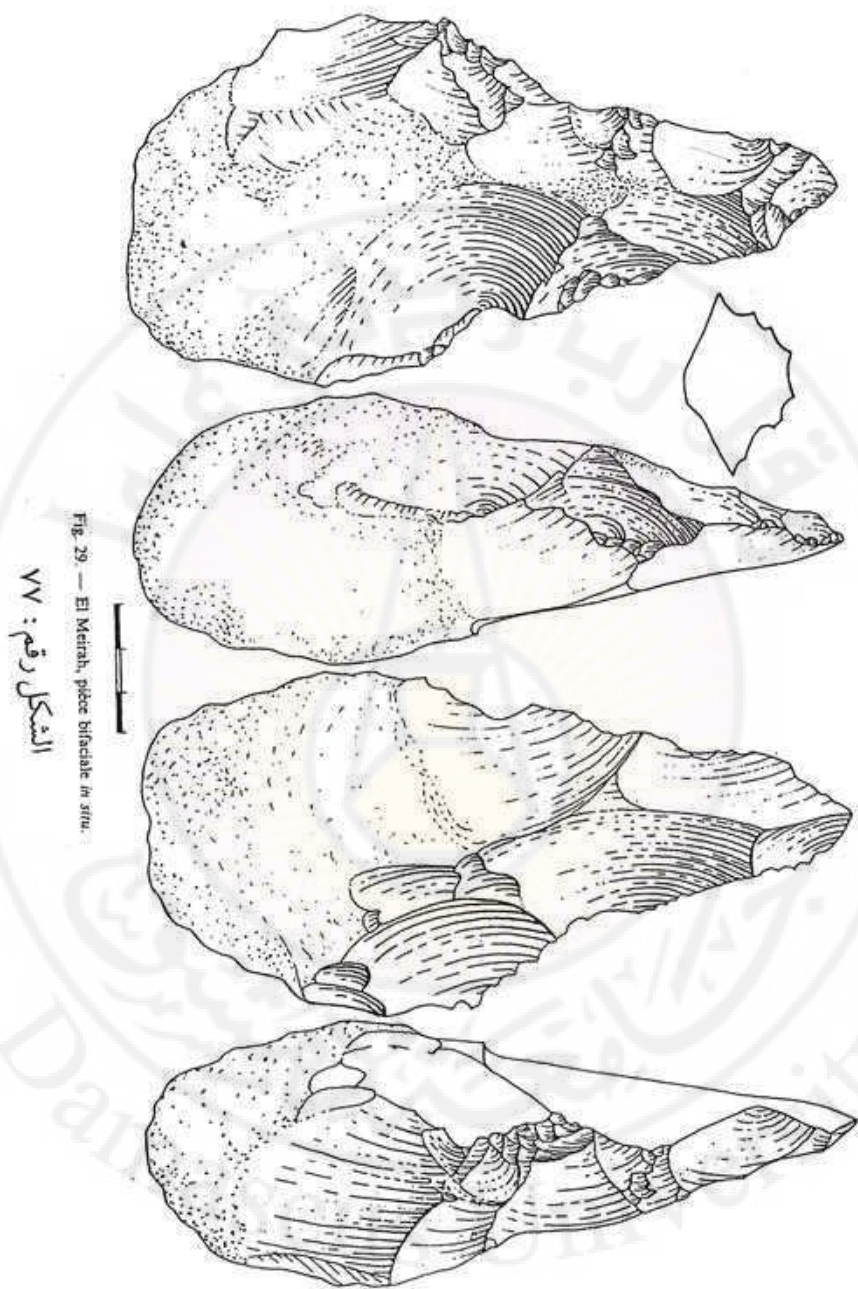
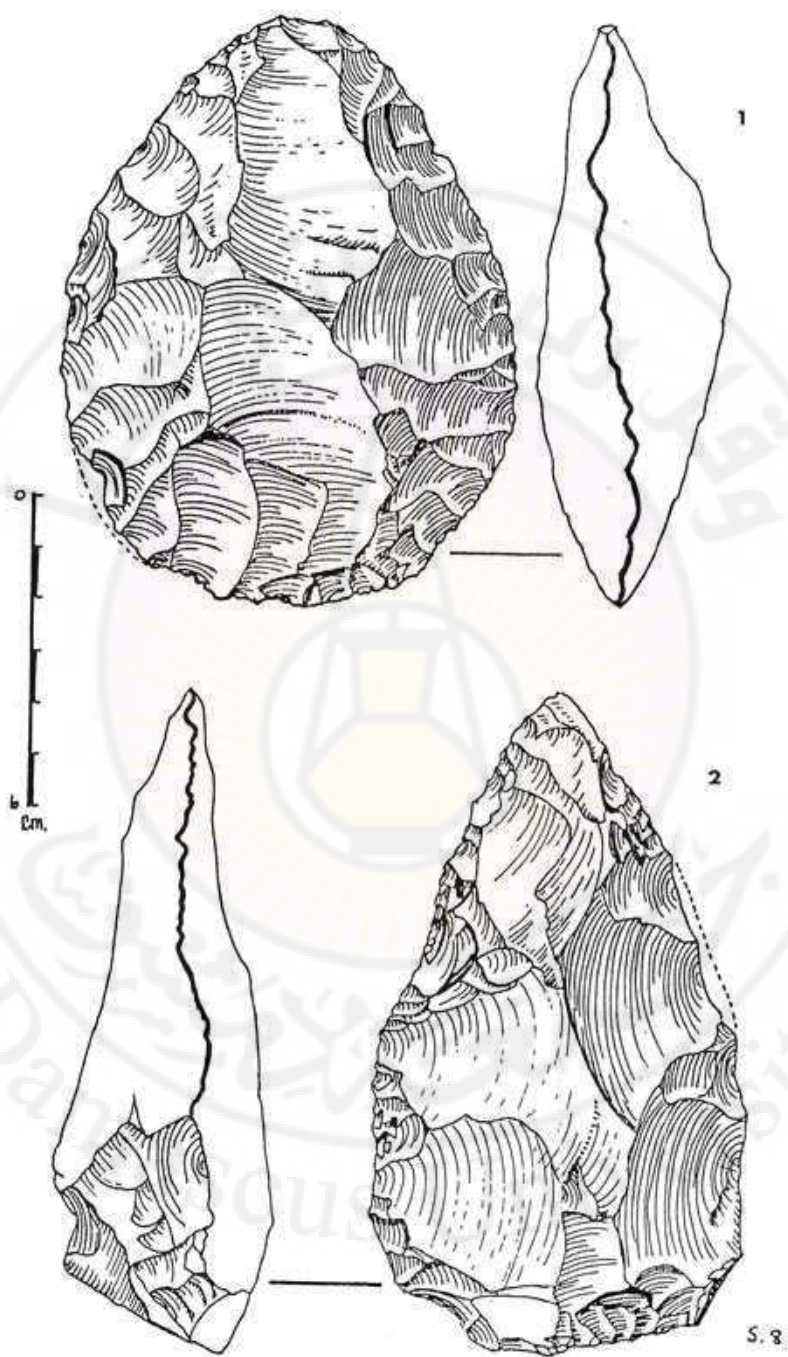
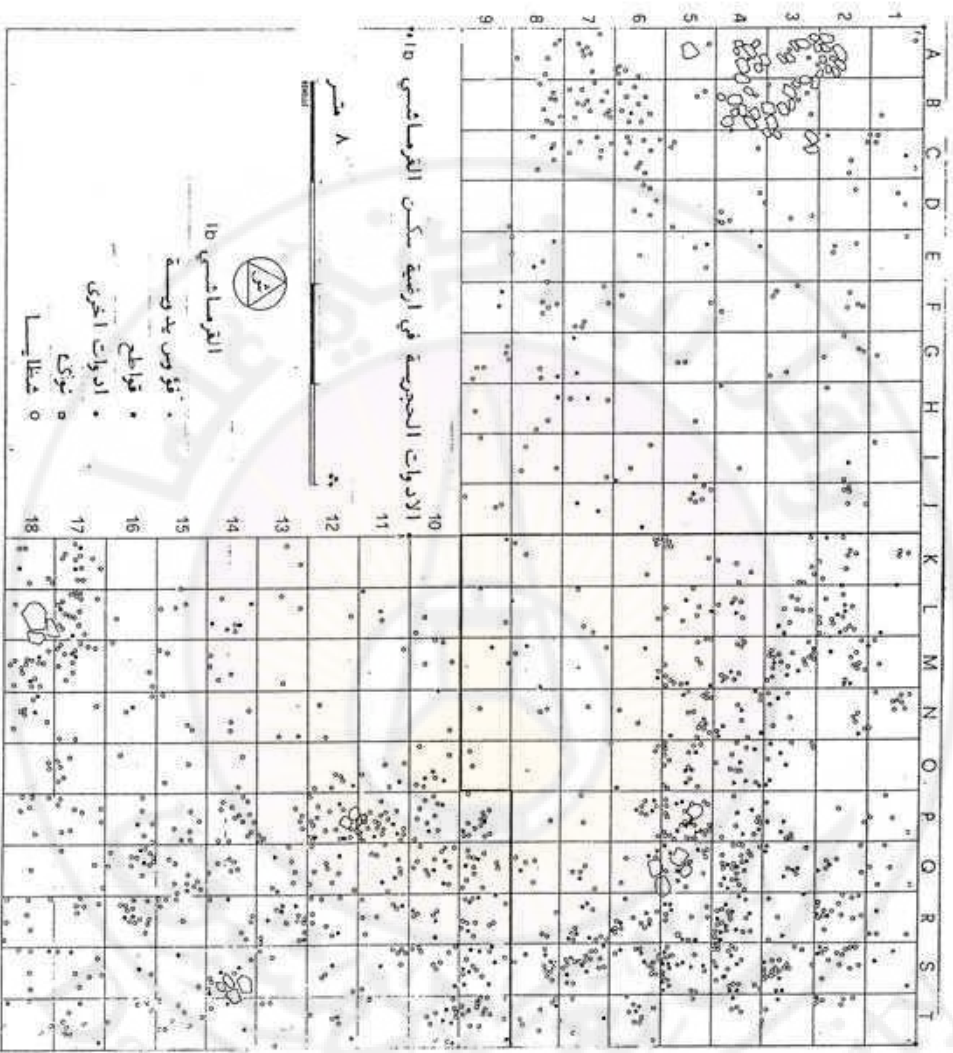


Fig. 29. — El Meirah, pièce bifaciale in situ.

الشكل رقم: ٧٧



الشكل رقم : ٧٨



الشكل رقم: ٧٩

Acheuléen faciès E
Niveaux c.9 et travertin

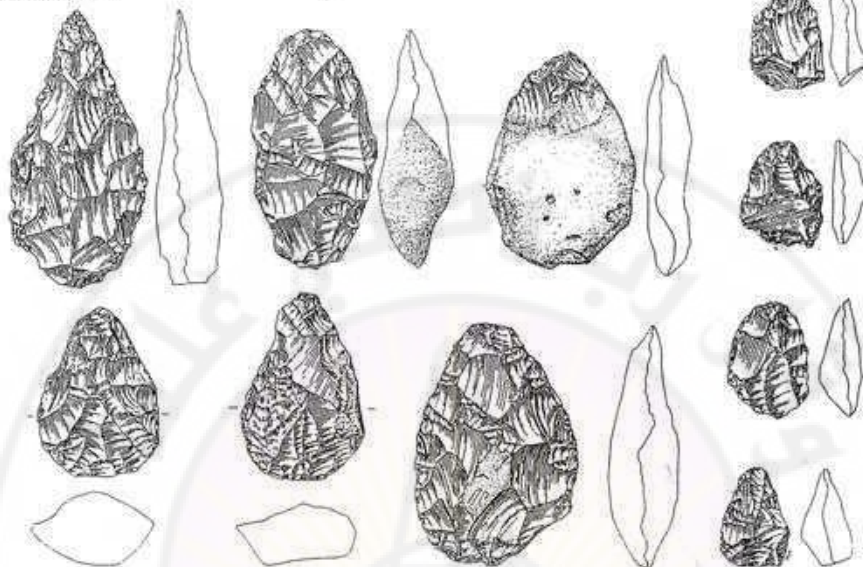


Acheuléen faciès D
Niveaux c.8 a - d

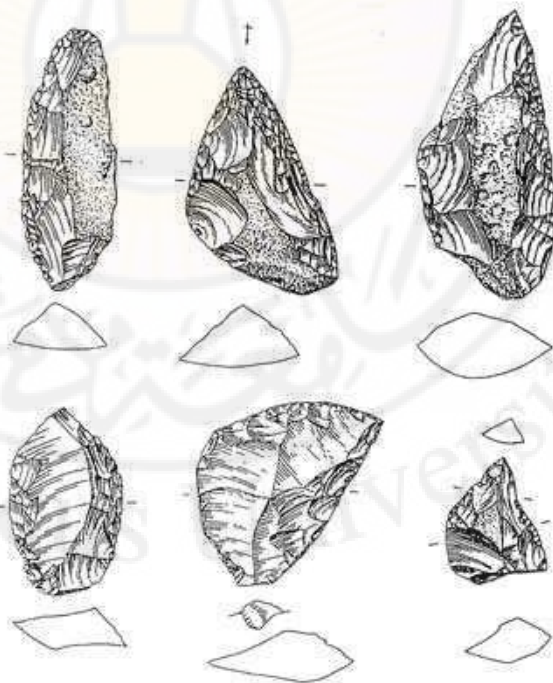


الشكل رقم : ٨٠

Acheuléen faciès B
Niveaux c. 5 - 6



Yabroudien



الشكل رقم: ٨١



Fig. 4: L'os pariétal in situ.

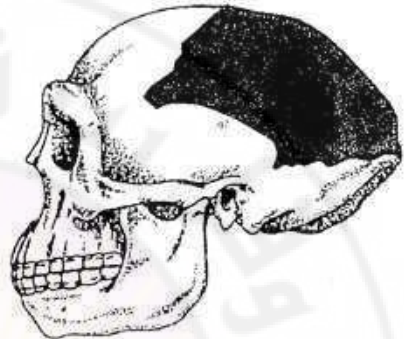
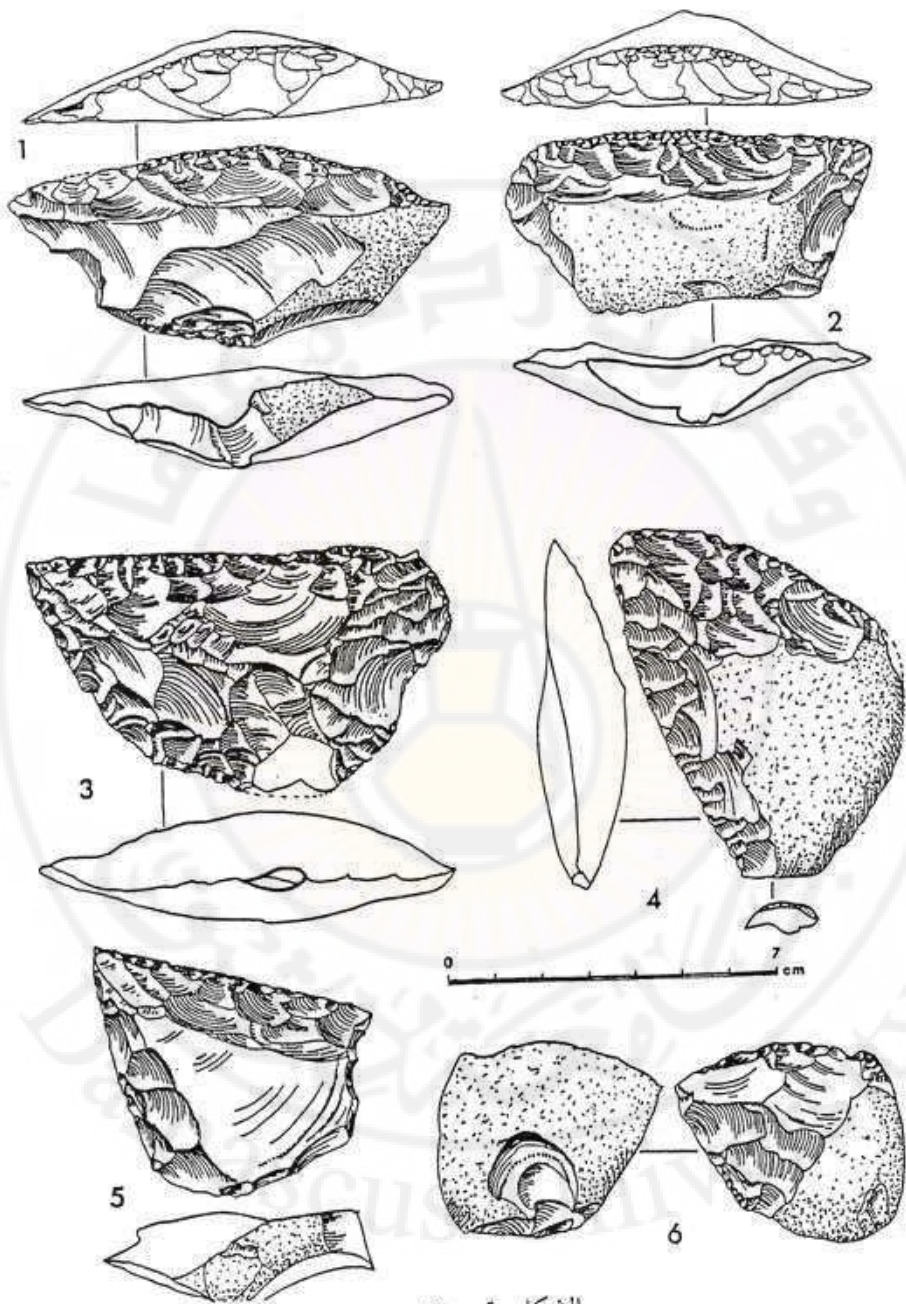


Fig. 5: Position de l'os pariétal sur un crâne reconstitué d'*Homo erectus*.

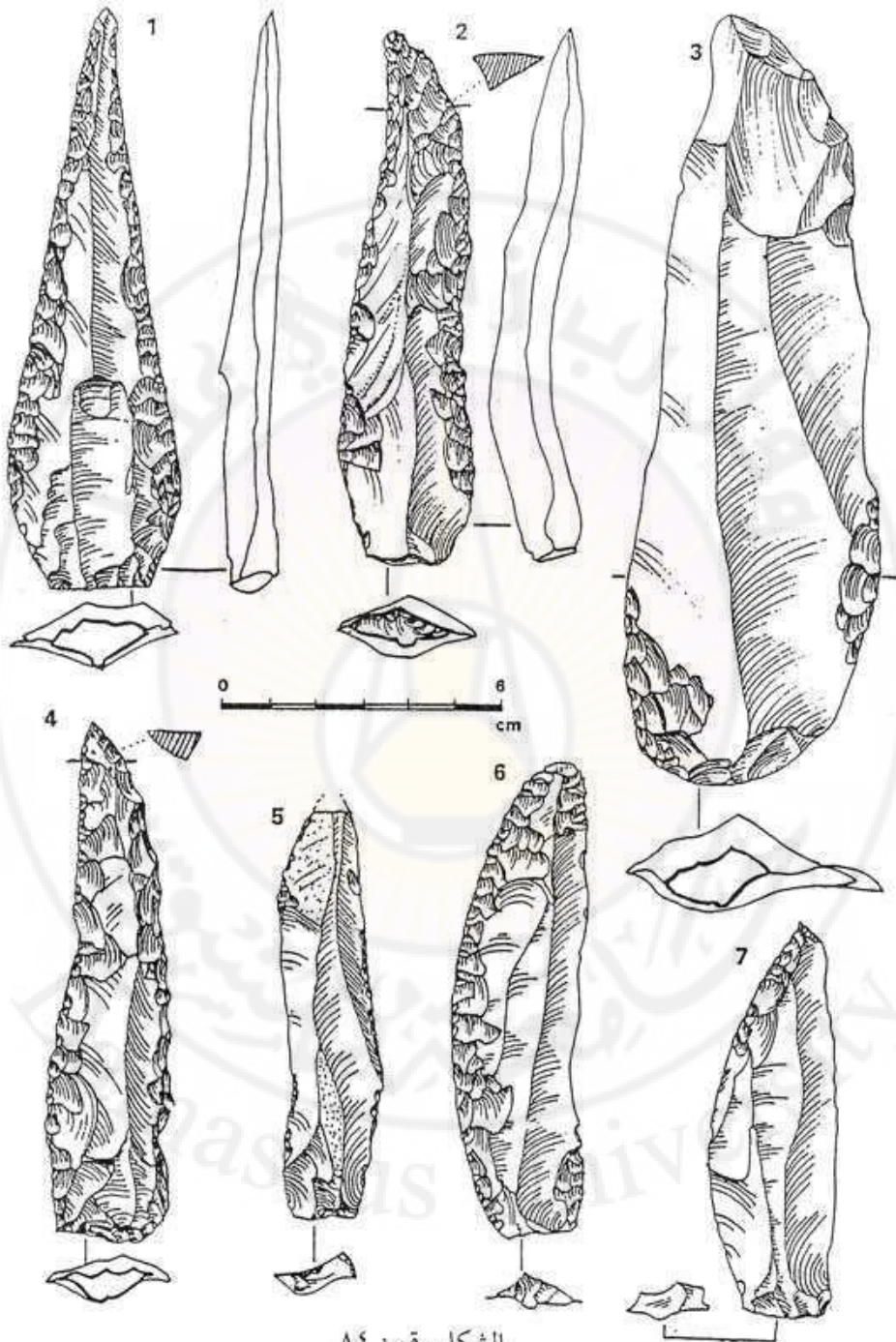


Fig. 6: L'os pariétal après dégagement (dimensions: 13 x 9 cm).

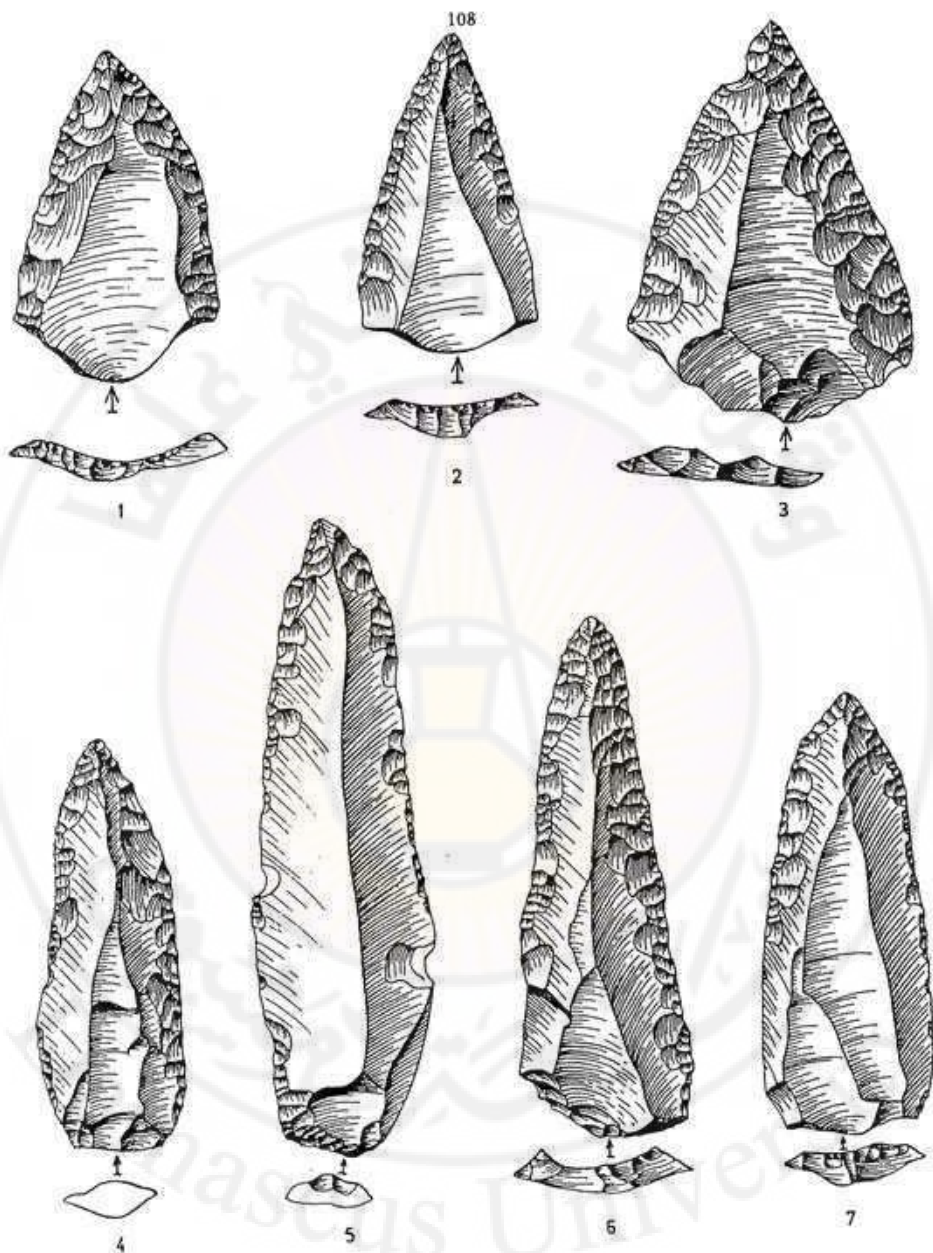
الشكل رقم: ٨٢



الشكل رقم: ٨٣



الشكل رقم: ٨٤



الشكل رقم: ٨٥

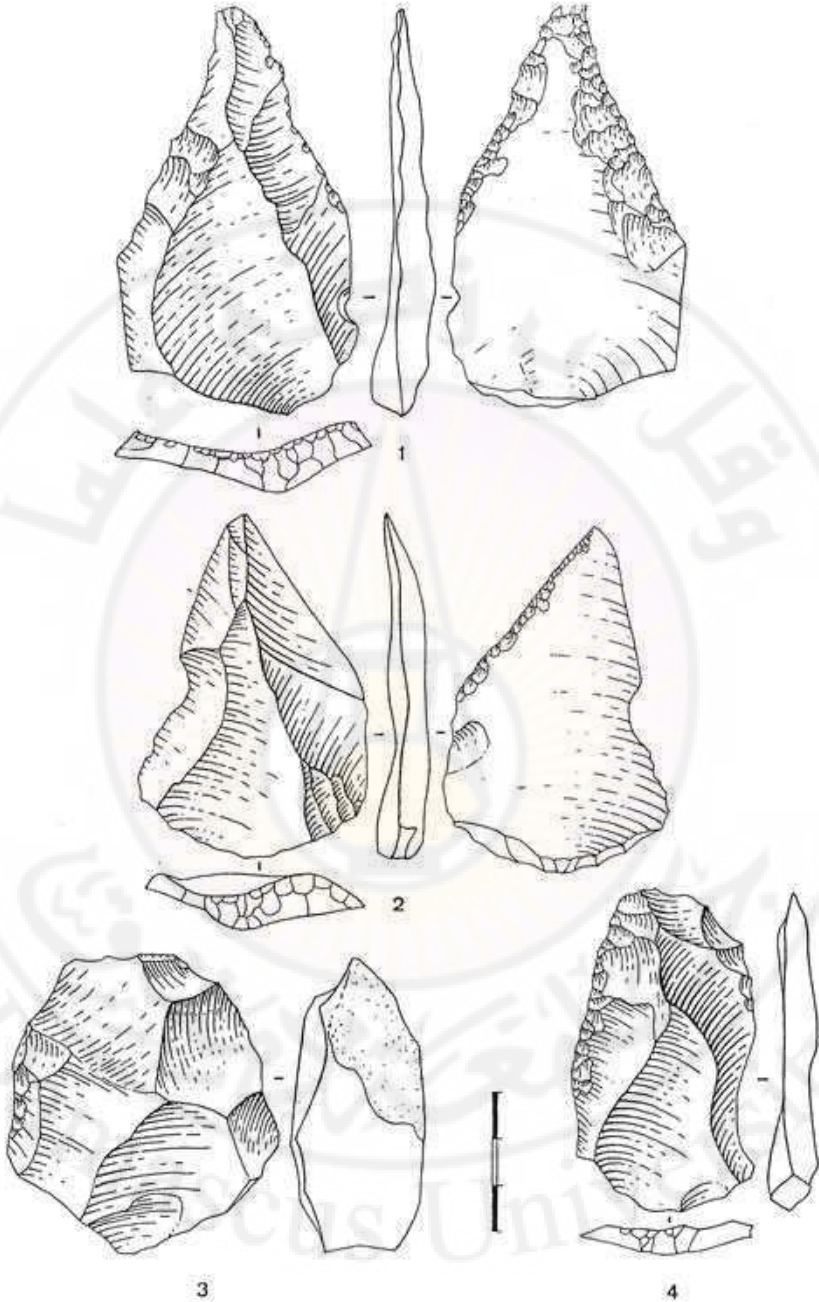


Fig. 28. — Sondage 4 couche d : 1-2, éclats triangulaires Levallois avec une retouche sur la face plane; 3, nucléus; 4, racloir simple.

الشكل رقم: ٨٦

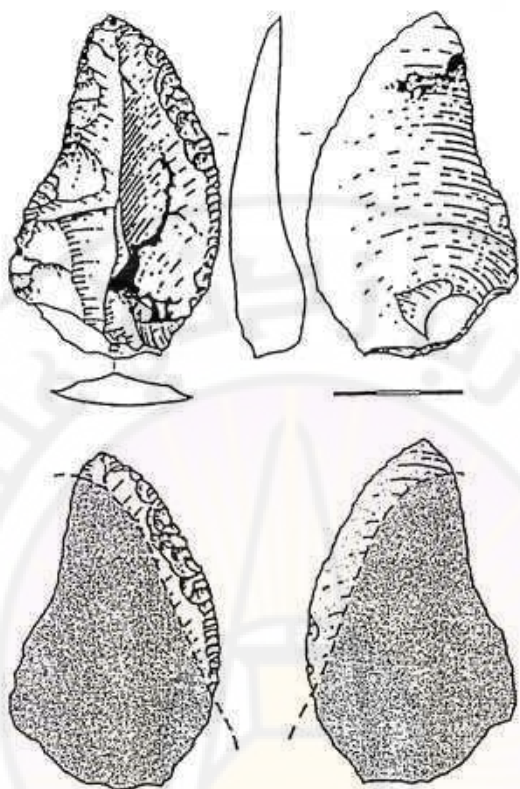


Fig. 3 : racloir en silex portant des traces de bitume.

الشكل رقم : ٨٧

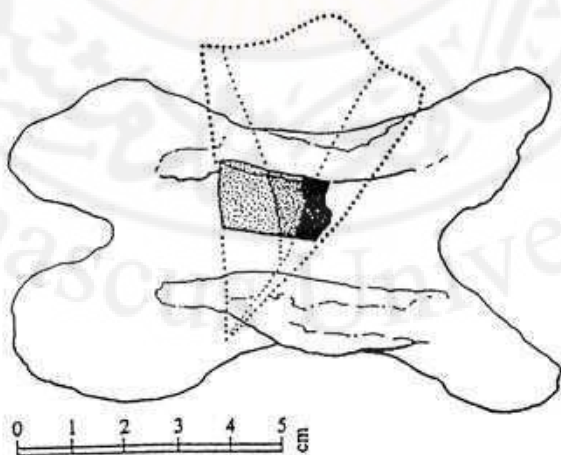
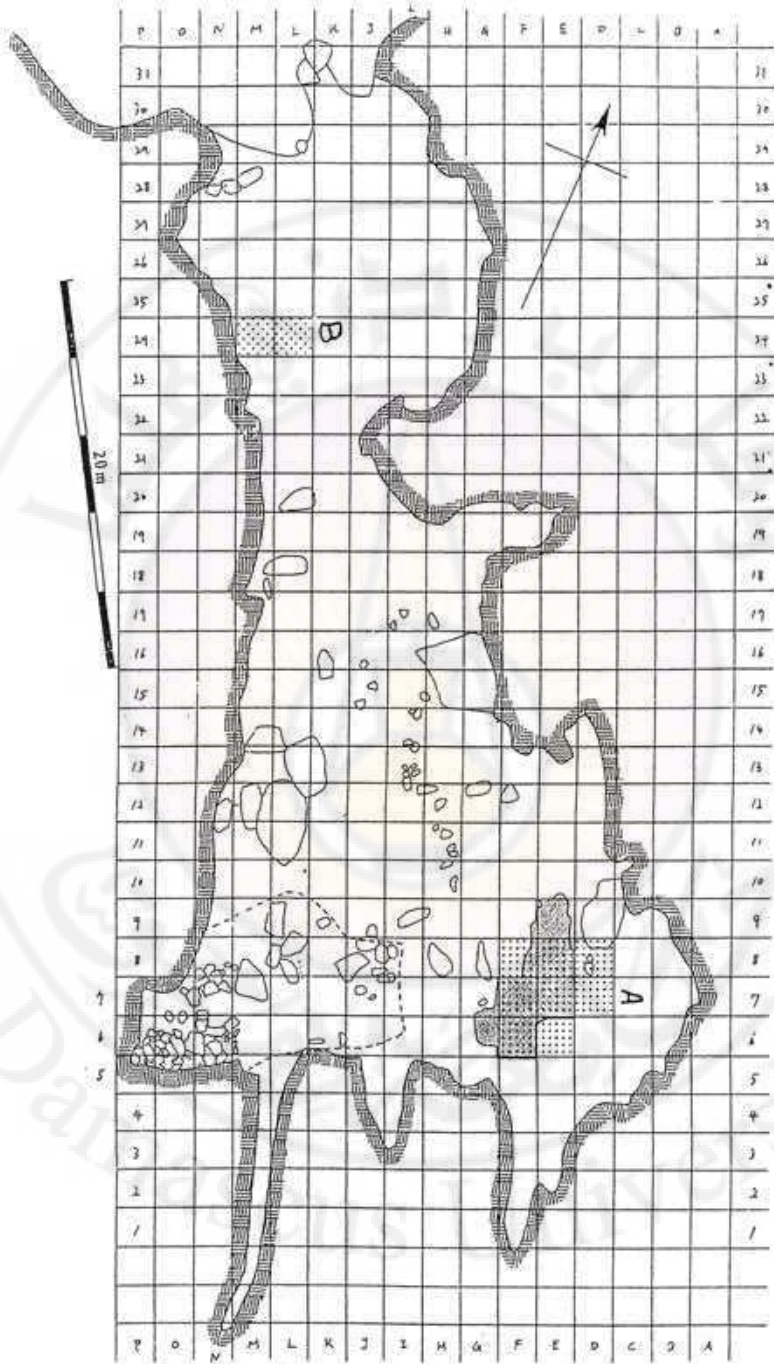
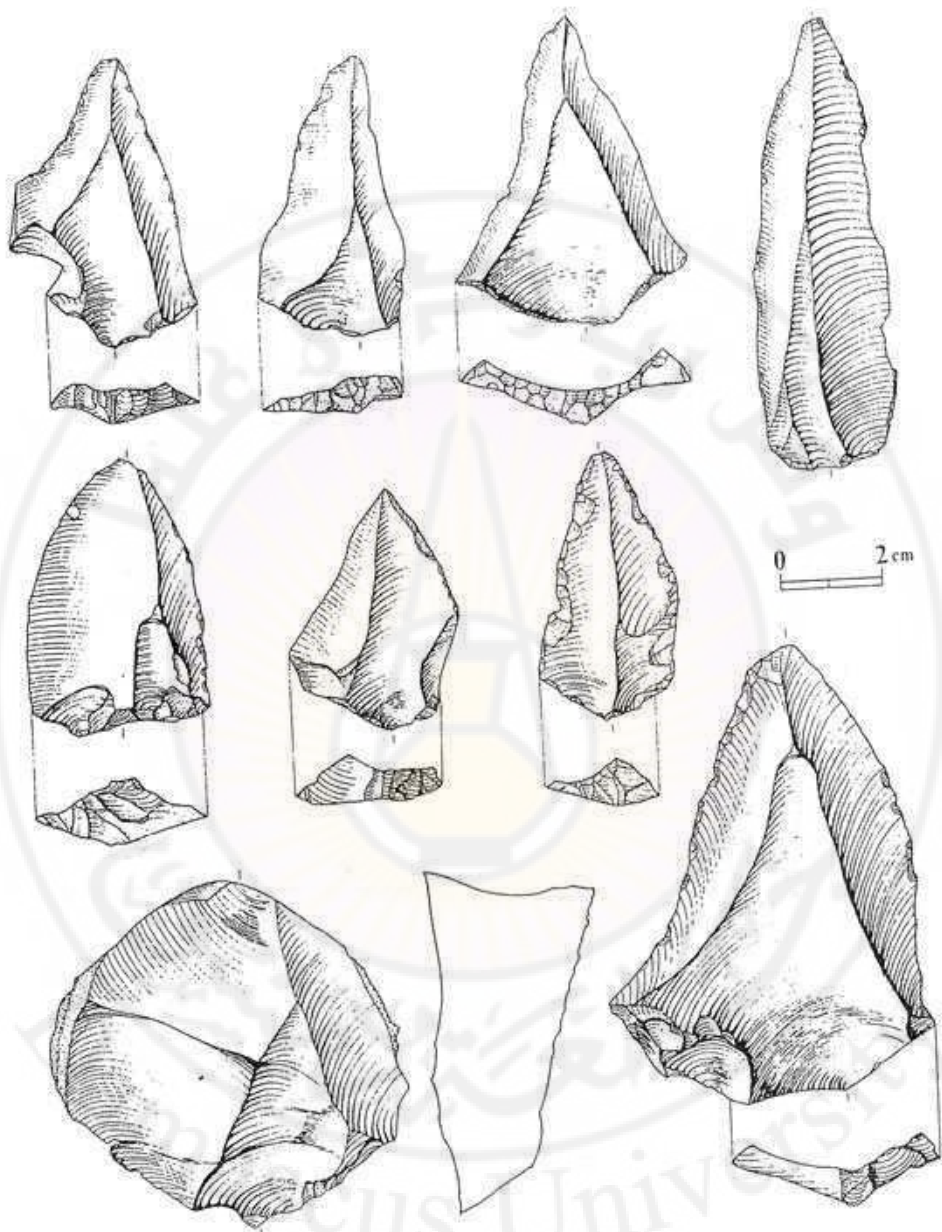


Fig. 2 : pointe de silex fichée dans une vertèbre d'âne.

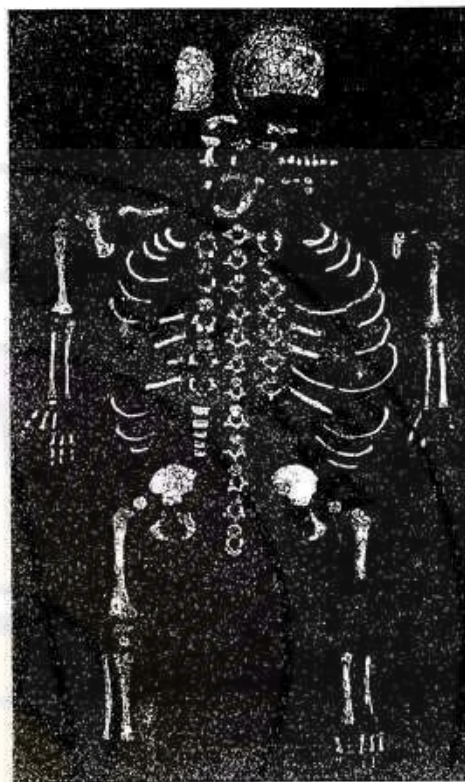
الشكل رقم : ٨٨



الشكل رقم : ٨٩



الشكل رقم : ٩٠



الشكل رقم: ٩١



Fig. 12: Postcranial bones of the skeletal remains of Burial No. 2. The positions of hand and foot bones are not accurate.

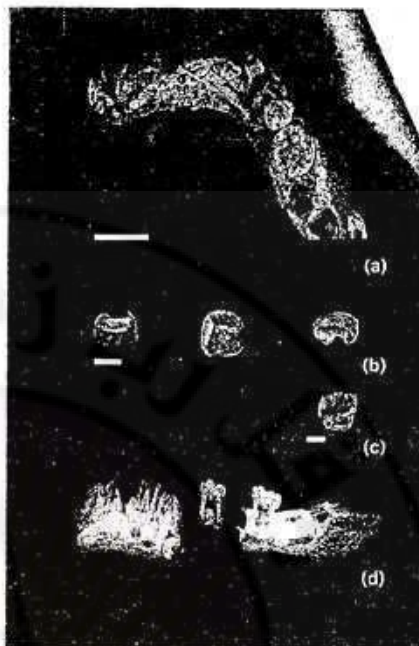


Fig. 13: The dentition of the skeletal remains of Burial No. 2. a) Superior view of the mandibular dentition. Note large dimension of the anterior teeth and T-shaped anterior fovea in the right deciduous second molar. (scale = 1 cm). b) Labial, buccal and occlusal views of the shovel-shaped upper right lateral permanent incisor. (scale = 5 mm). c) Development of the Carabelli tubercle in the upper right second deciduous molar. (scale = 5 mm). d) Roentgenogram of the body and right ramus. Taurodontism in the first deciduous molar. (scale = 1 cm).



Fig. 14: Left lateral view, anterior view, superior view and posterior view of the reconstructed Dederiyeh cranium of Burial No. 2 (reconstruction by H. Ishida). (scale = 5 cm).

الشكل رقم: ٩٢

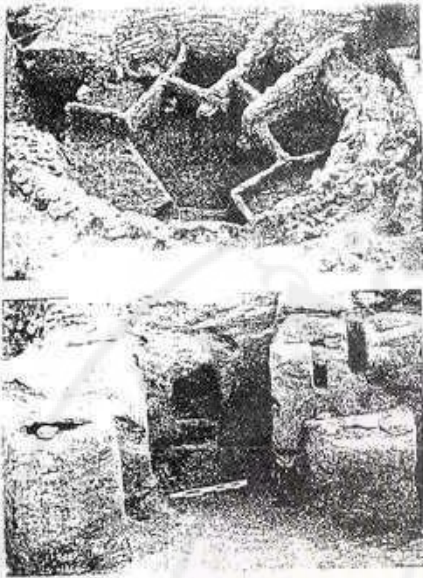


Fig. 4: Le bâtiment communautaire polyvalent EA 30 de Jorf el Ahmar.
1: vue générale; 2: vue rapprochée des murs porteurs et du hublot.
Photographies M. Rous.

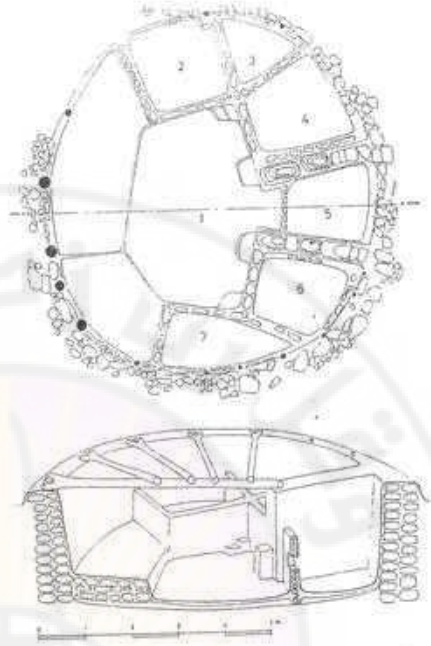


Fig. 5: Le bâtiment communautaire polyvalent EA 30 de Jorf el Ahmar.
1: plan; 2: coupe avec proposition de reconstitution de la toiture.

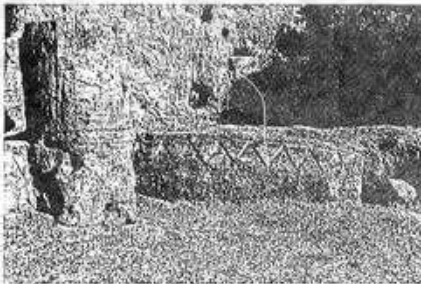


Fig. 8: Le bâtiment communautaire spécialisé EA 53 de Jorf el Ahmar. 1: vue générale; 2: vue rapprochée de la boutique et du potrait au serpent.

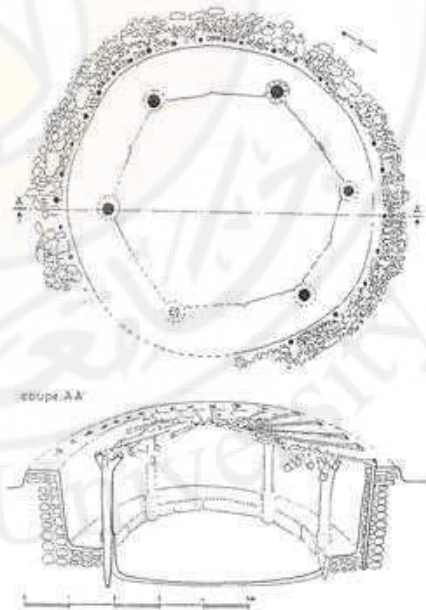


Fig. 9: Le bâtiment communautaire spécialisé EA 53 de Jorf el Ahmar. 1: plan; 2: coupe avec proposition de reconstitution de la toiture.

الشكل رقم: ٩٣

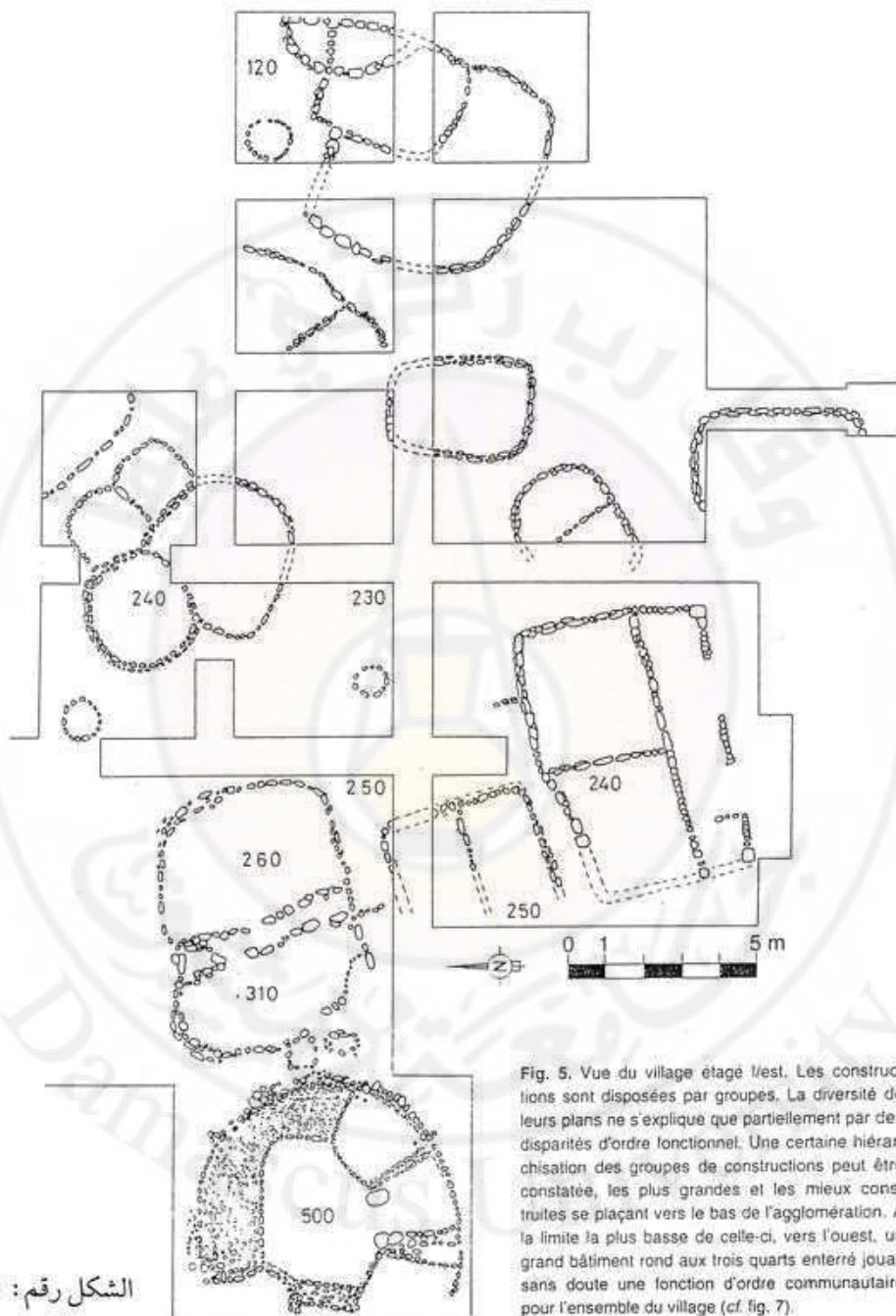
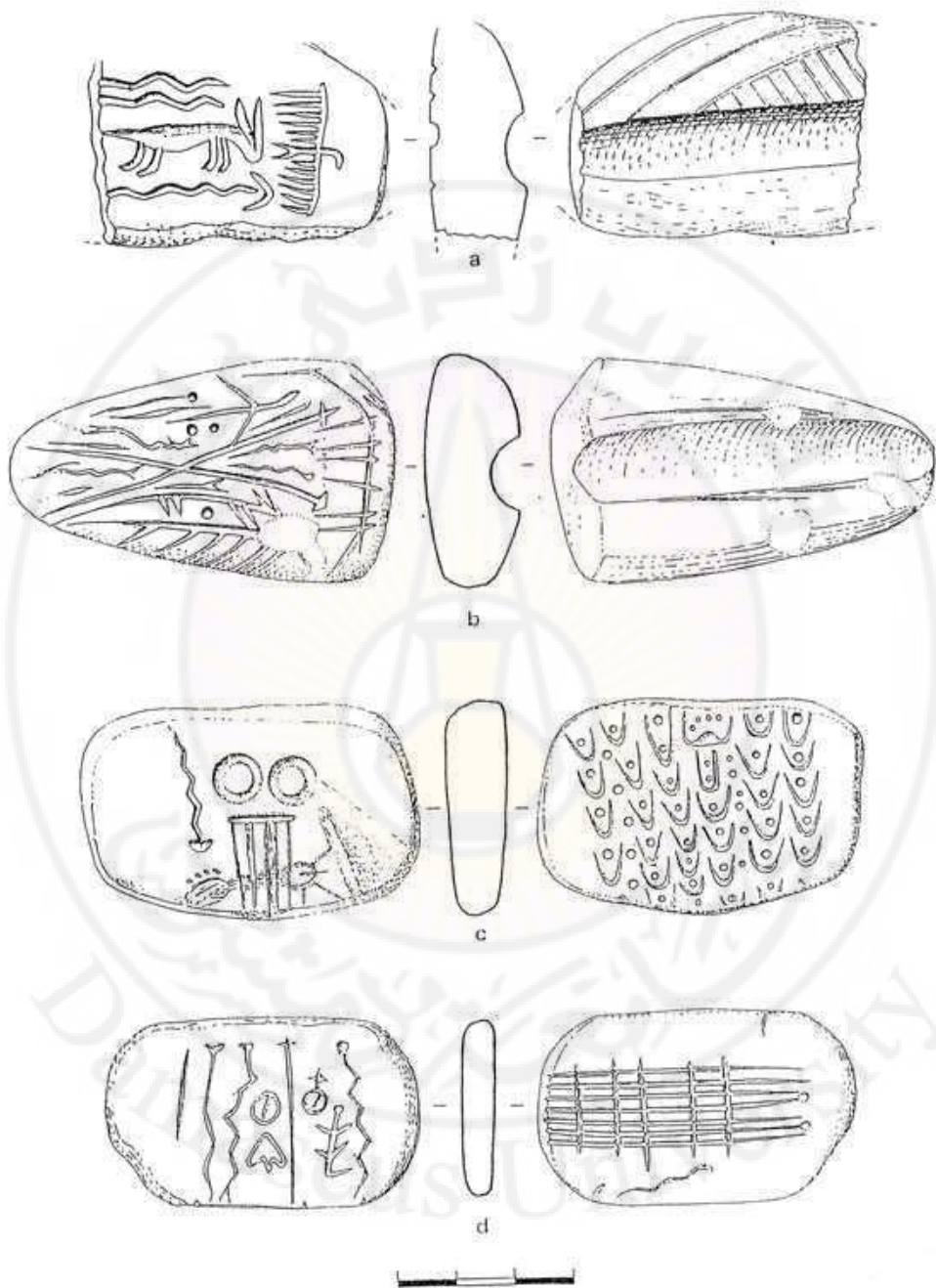
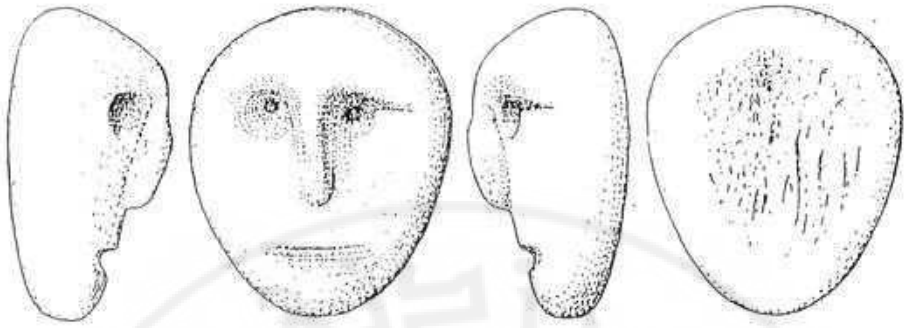


Fig. 5. Vue du village étage I/est. Les constructions sont disposées par groupes. La diversité de leurs plans ne s'explique que partiellement par des disparités d'ordre fonctionnel. Une certaine hiérarchisation des groupes de constructions peut être constatée, les plus grandes et les mieux construites se plaçant vers le bas de l'agglomération. À la limite la plus basse de celle-ci, vers l'ouest, un grand bâtiment rond aux trois quarts enterré jouait sans doute une fonction d'ordre communautaire pour l'ensemble du village (cf. fig. 7).

الشكل رقم: ٩٤



الشكل رقم: ٩٥



الشكل رقم : ٩٦
- ٤١٣ -

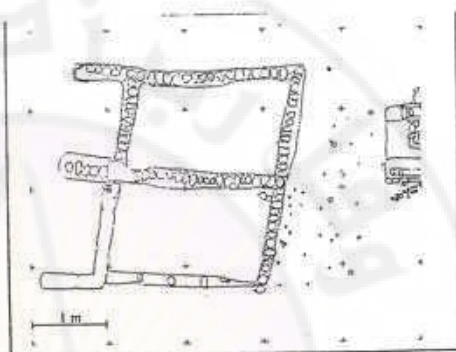


Fig. 1 - Dja'de (PPNB ancien) Dernier état de la "Maison des morts".
Les deux petites cellules rectangulaires sont prolongées par des antes;
dans l'étape antérieure de la maison ces dernières étaient remplacées
par des casiers à usage funéraire.

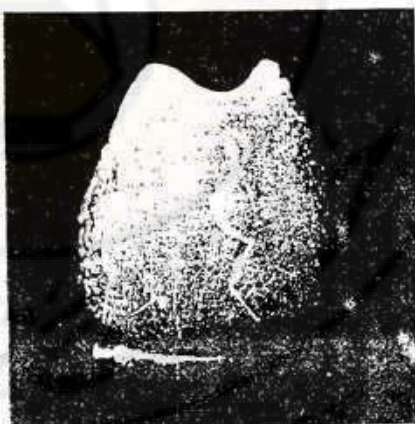
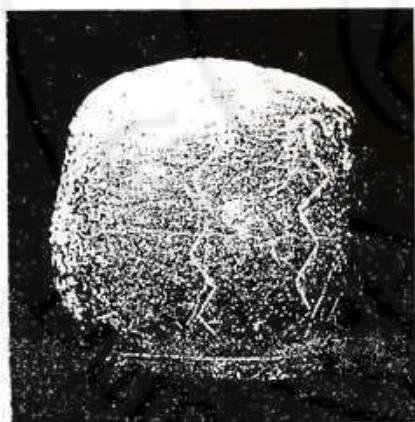


Fig 5 : Dja'de 2000. Secteur E. Pierre à rainure gravée de signes serpentiformes.

الشكل رقم : ٩٧

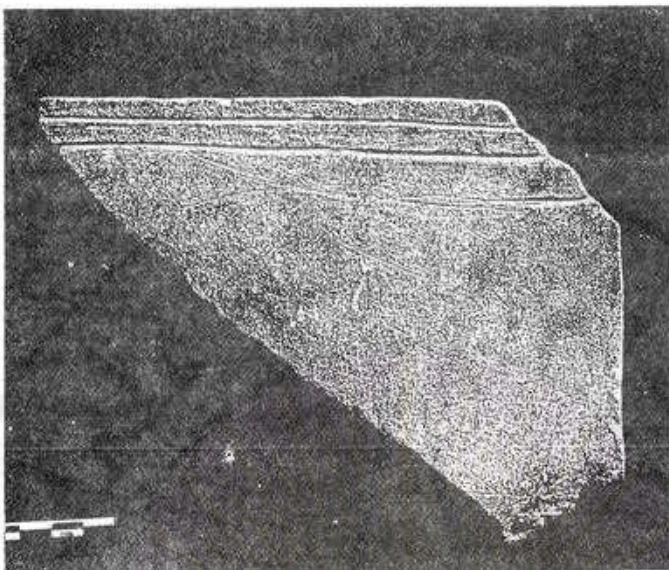


Fig 2 : Dja'de 2000. Secteur C-D. Fragment de plaque gravée (épaisseur 2cm)

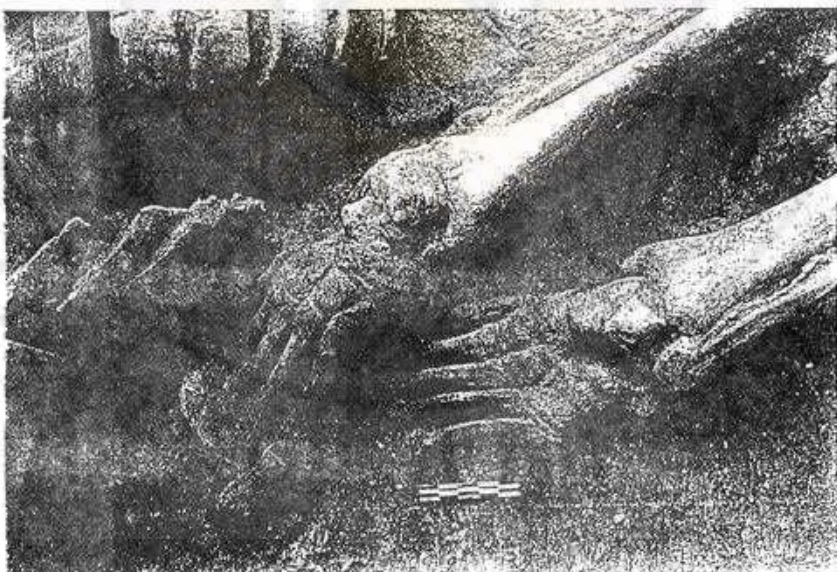


Fig 3 : Dja'de 2000 : Secteur B. Sépulture collective : detail

الشكل رقم : ٩٨

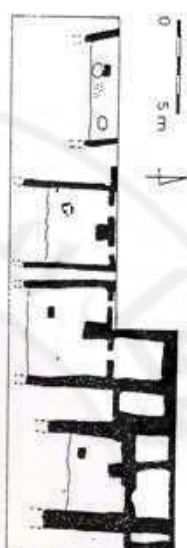


Fig. 2 : Plan schématique de la disposition des maisons du PPNB moyen : les premières ont été découvertes dans cette zone.

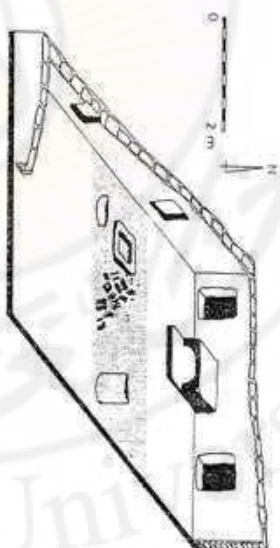


Fig. 3 : Reconstitution des maisons du PPNB moyen, le gris indique la zone des peintures.

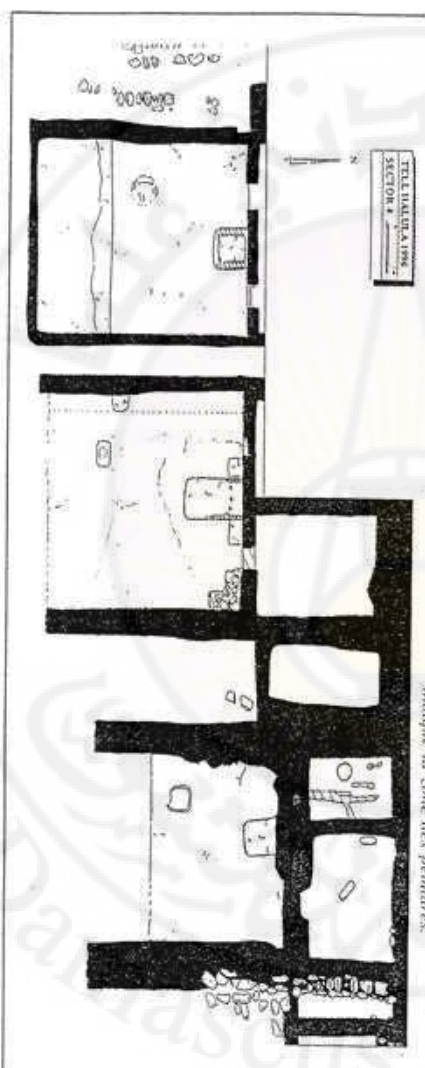
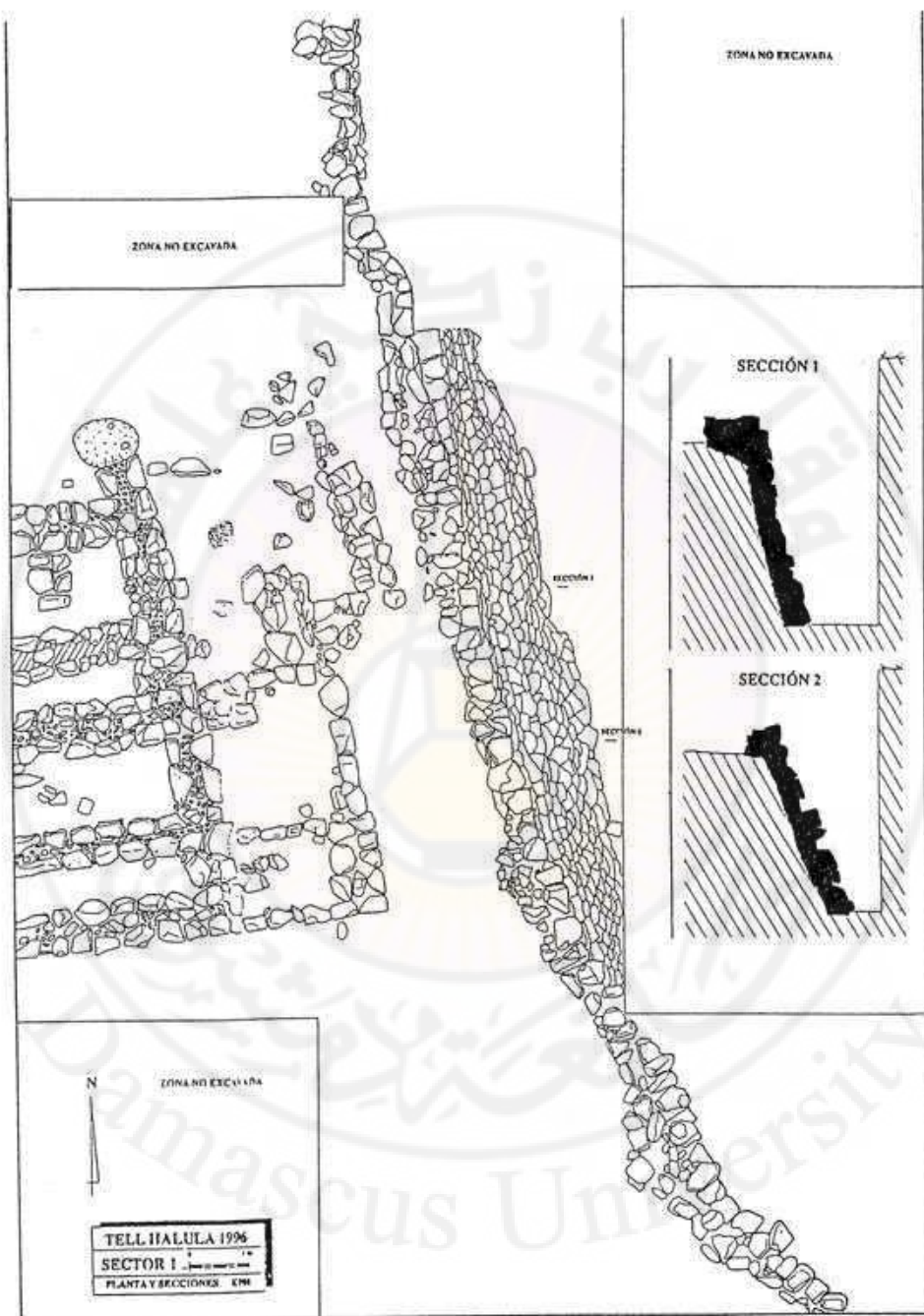


Fig. 8 : Plan des maisons contemporaines (Secteur 4D, 2D et 2A).

الشكل رقم ٩



الشكل رقم: ١٠٠ Fig. 9 - Plan et coupe du grand mur E101/1 avec le bâtiment associé.



Fig. 4 : Rélevé des pyramides (A. Terres, Mission Archéologique de Tell Hadad).

الشكل رقم: ١٠١

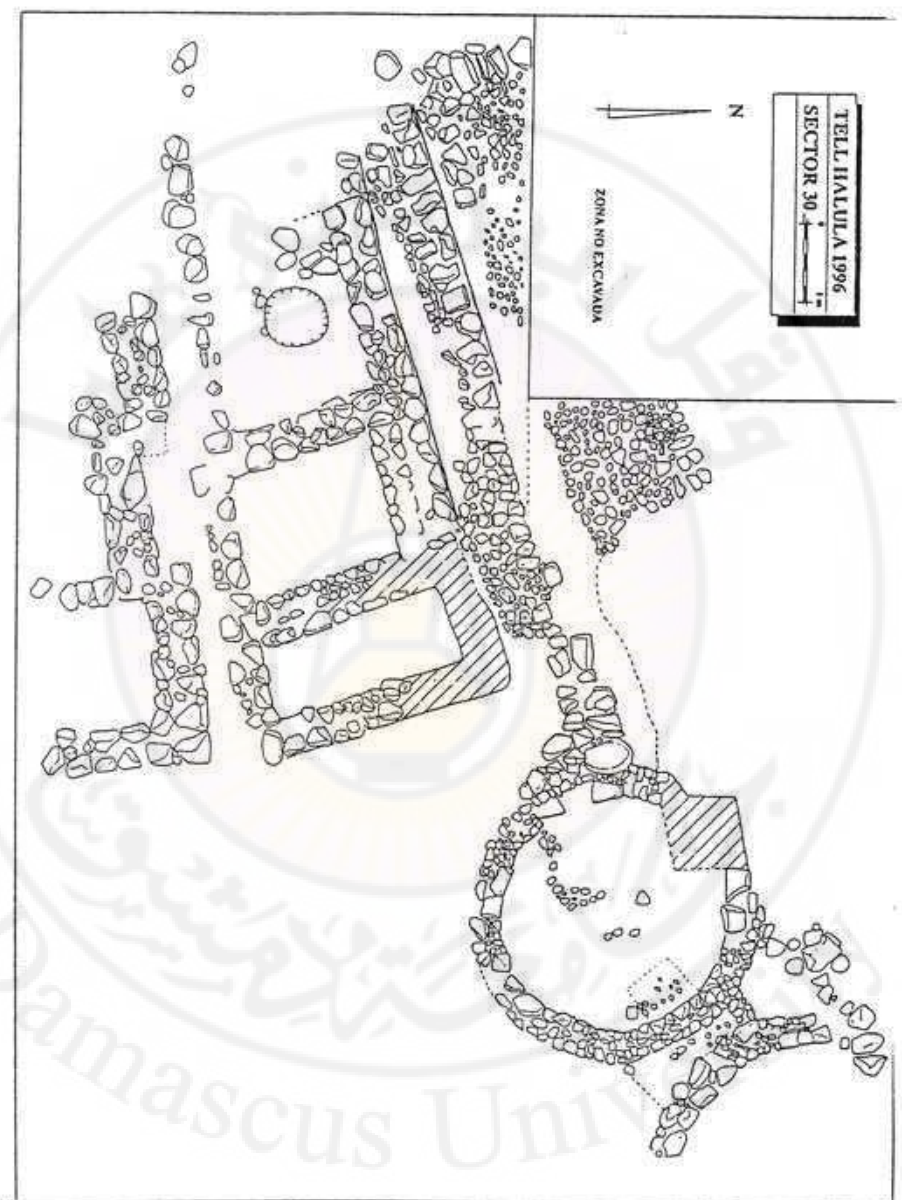


Fig. 10 - Grand mur de terrassement E101/1 vue du nord (fin du PPNB).

الشكل رقم: ١٠٢

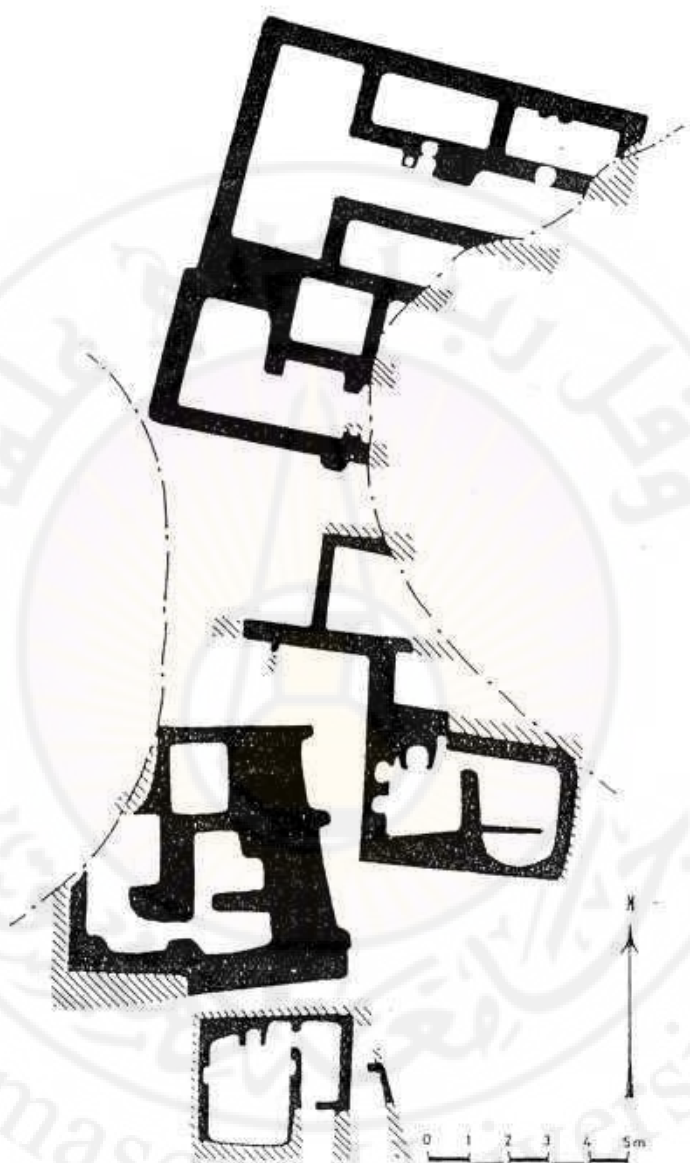
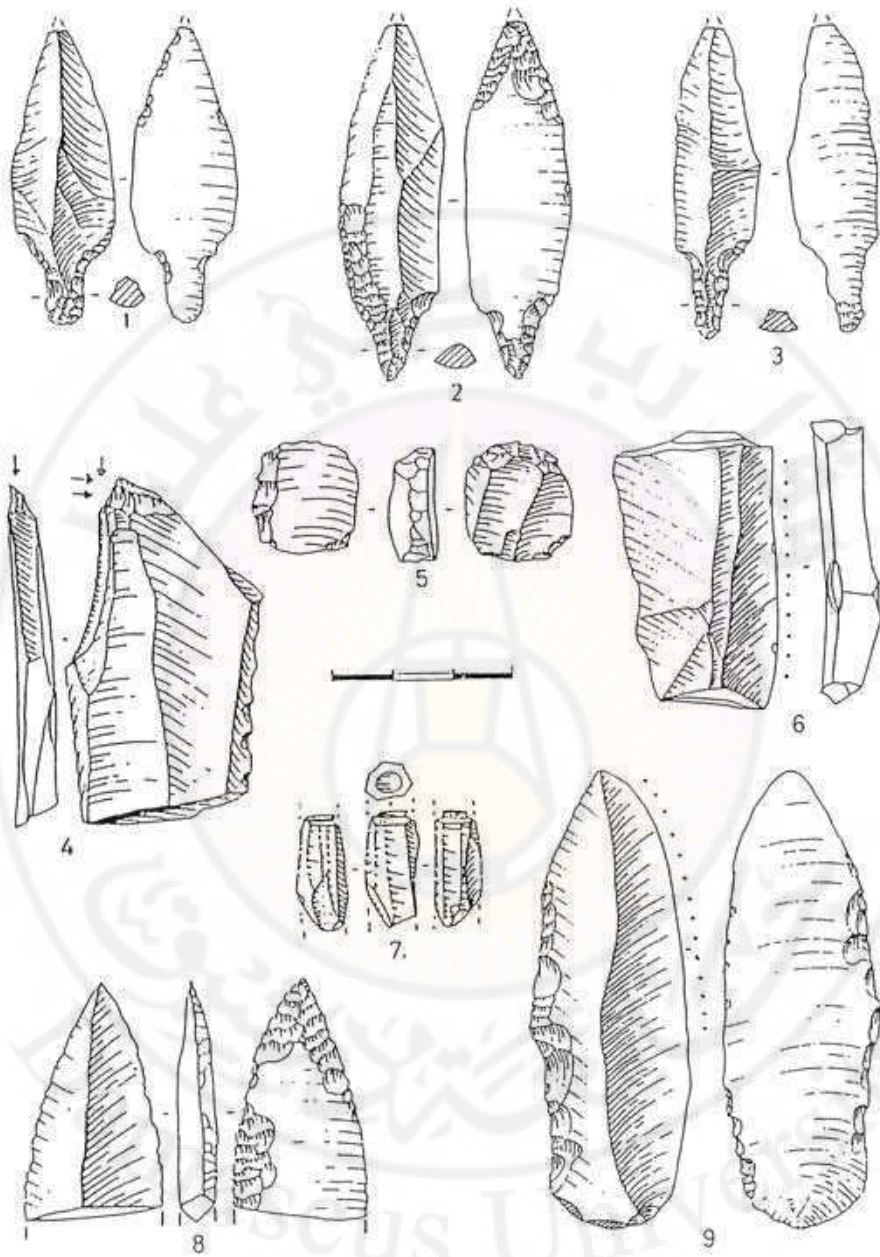


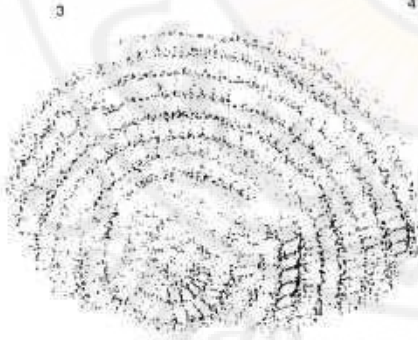
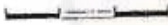
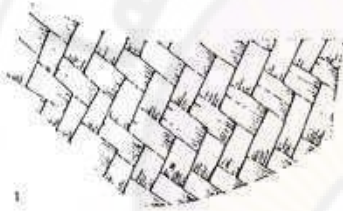
Fig. 2 Niveau II d'El Kowm 2 architectures

On note la coexistence de deux types de plan contemporains. En haut plan à pièce centrale en T et agrandissement. En bas petites maisons pluricellulaires à pièces communicantes.

الشكل رقم: ١٠٣



الشكل رقم: ١٠٤



الشكل رقم: ١٠٥



Fig. 3. Plan of the Burnt Village

10



Fig. 4. Isometric reconstruction drawing of the Burnt Village

الشكل رقم: ١٠٦

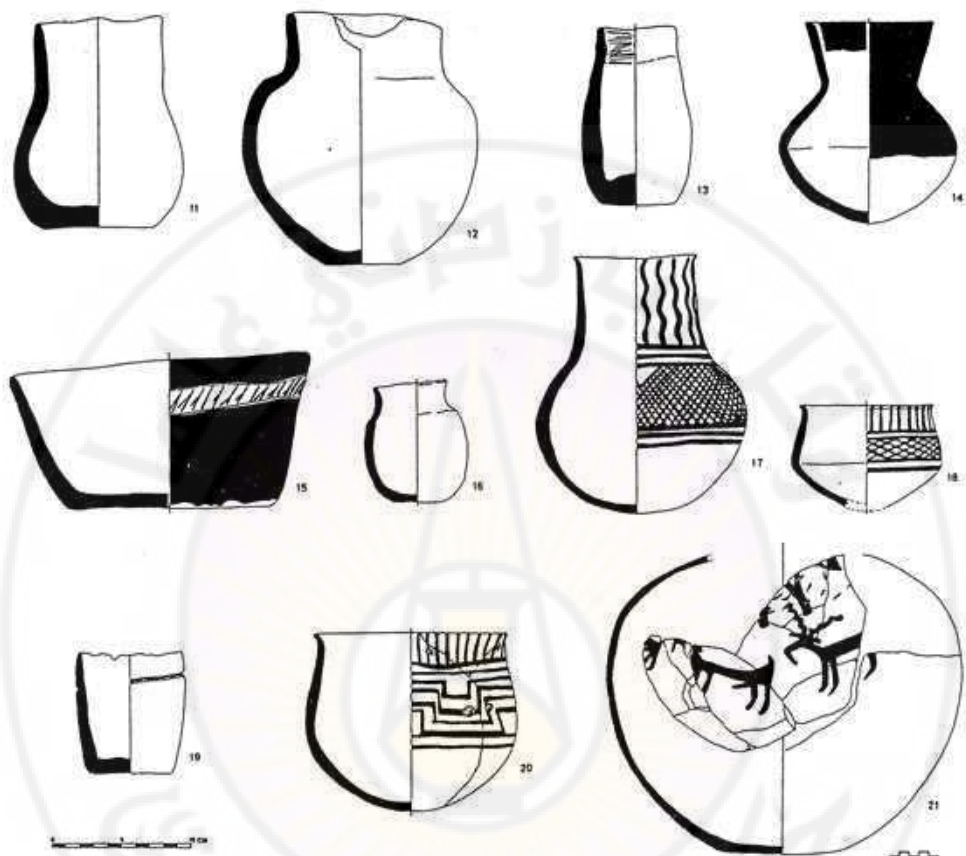


Fig. 10. Examples of Coarse ware (11-13, 16-19), Gray-Black ware (15), Dark-Faced Burnished ware (14), and Fine ware (17-18, 20-21) found on floors of houses of the level 5 Burnt Village. Coarse ware and Gray-Black ware are chaff-tempered, and the other wares are exclusively mineral-tempered: 11) reddish-brown (in courtyard between buildings II and III); 12) buff, burnished (in courtyard southeast of building V); 13) brown, burnished (building II); 14) brownish, red slip and burnished (building I); 15) grayish with red slip, burnished and impressed (building I); 16) reddish-brown (building I); 17) buff with black matt paint (building IV); 18) buff with whitish wash and brown matt paint (building I); 19) orange-brown (building I); 20) buff with black matt paint, burnished, repair holes (building II); 21) buff with dark reddish-brown paint, burnished (tholos VI, remainder probably hidden in section balk).

الشكل رقم: ١٠٧

الشكل رقم : ١٠٨

Fig. 11. Selection of clay sealings with stamp-seal impressions, all from room 6 in building II



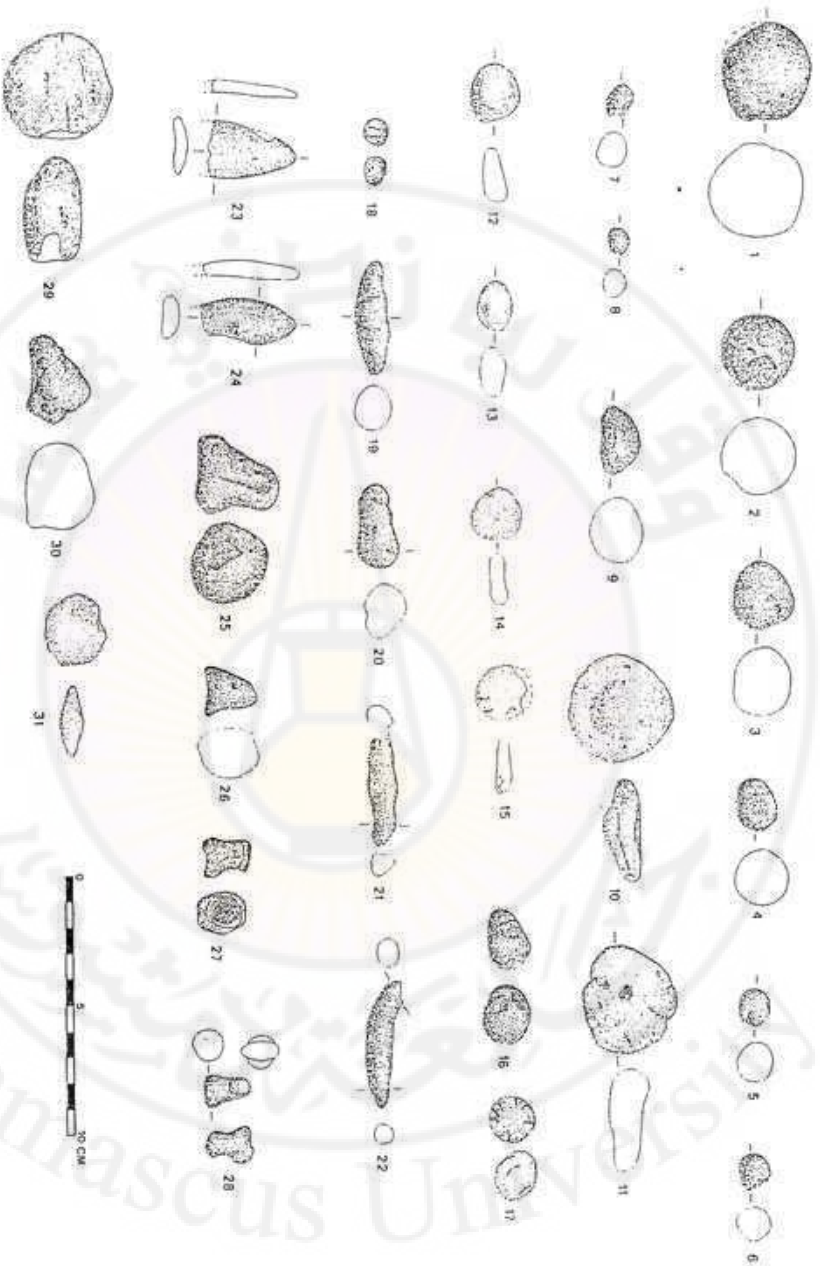


Fig. 14. Selection of unbaked clay tokens from building II (room 6: 1-4, 9, 11-25, 27-30; room 7: 26), building V (room 6: 5; room 7: 10, 31), and building VI (room 2: 6, 8; room 3: 7)

الشكل رقم: ١٠٨

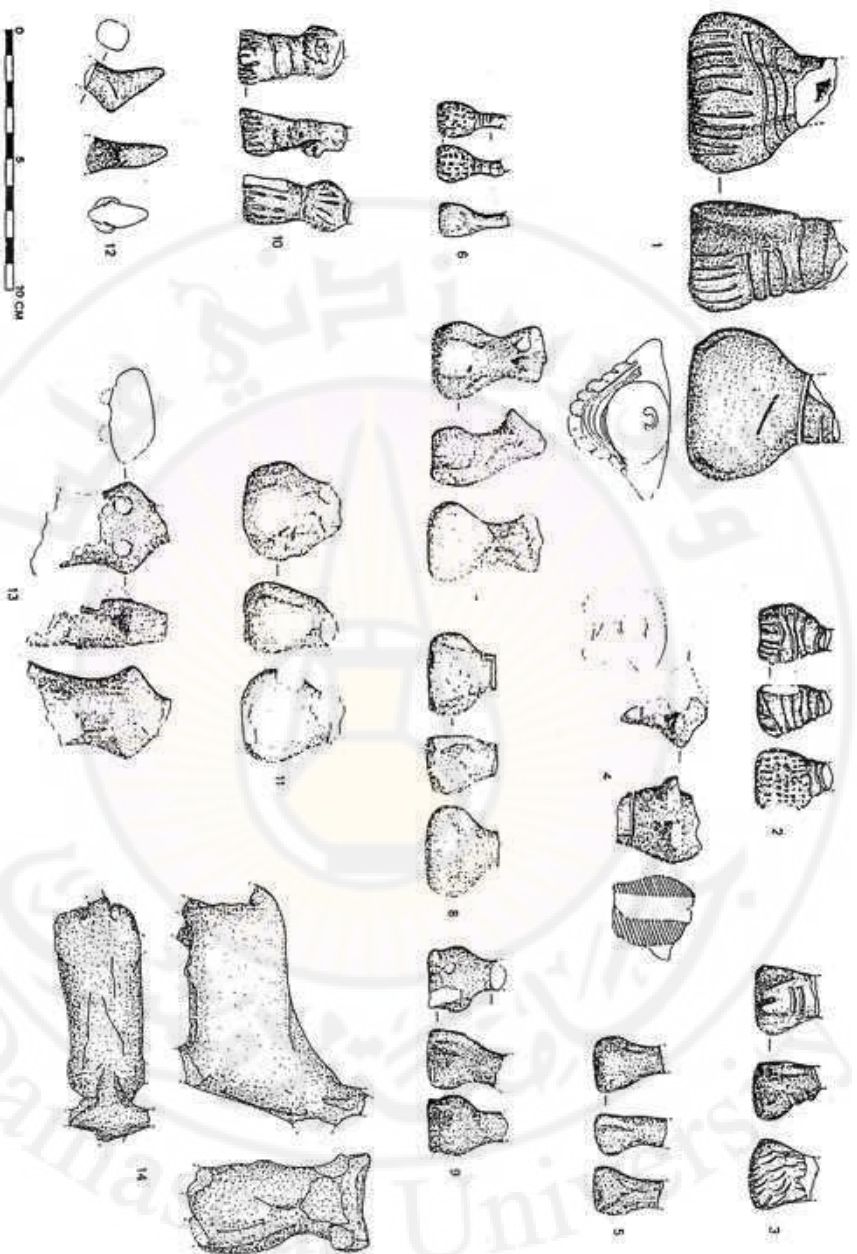
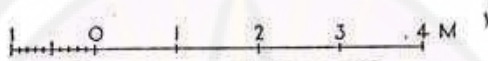
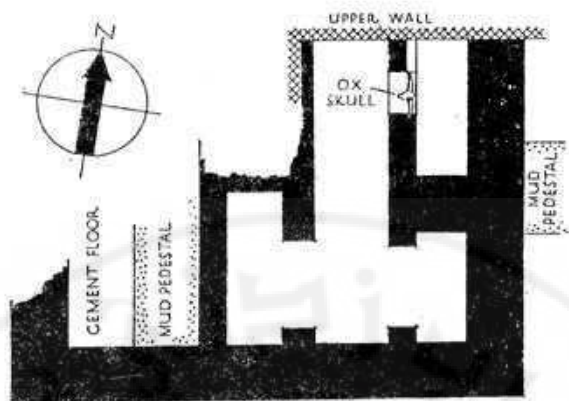


Fig 15. Selection of unbaked clay human and animal figurines from building II (room 6: 2-3, 5-8, 11), building V (room 7: 1, 4, 9, 12-13), and tholos VI (compartment 2: 10)

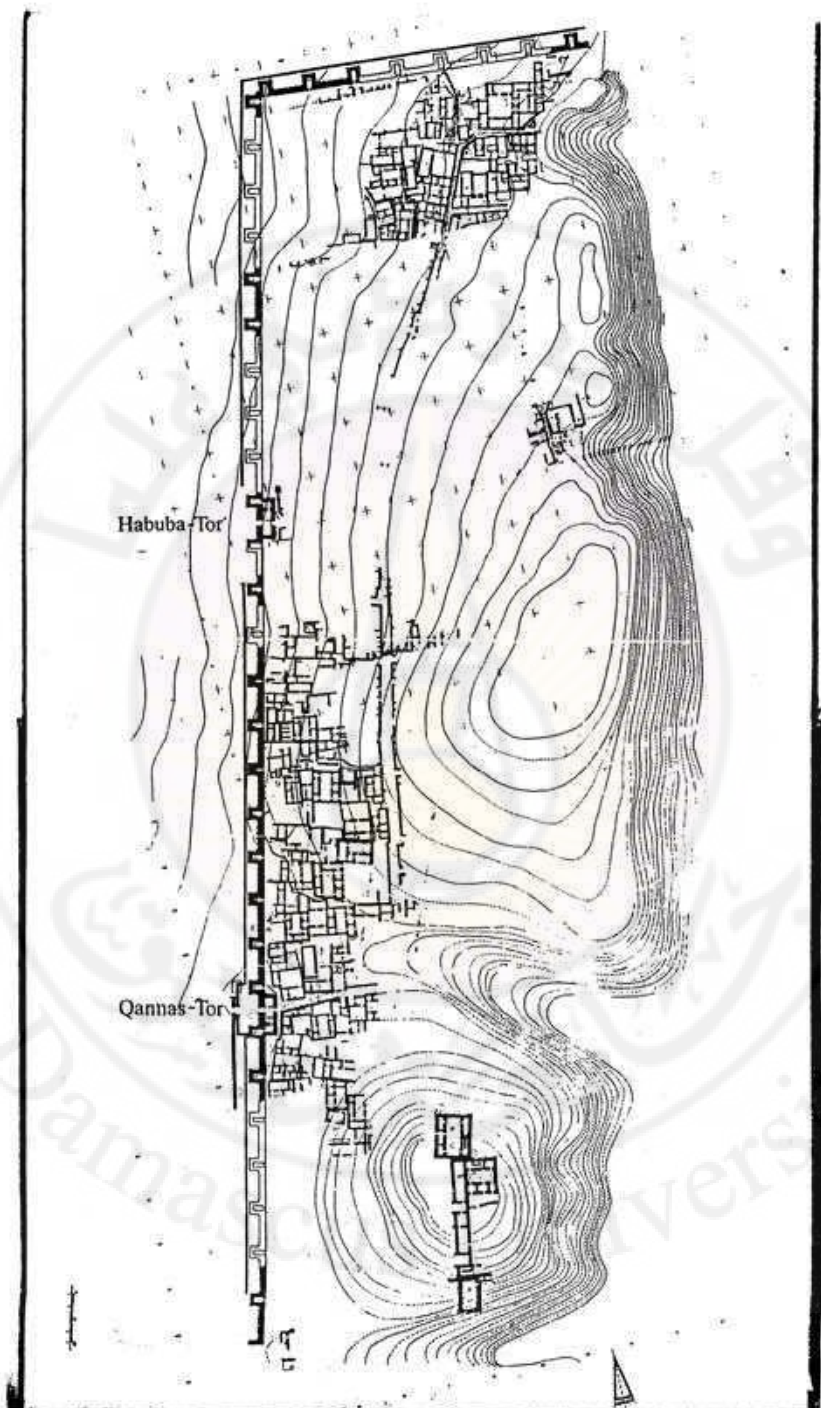
الشكل رقم : ١٠٩



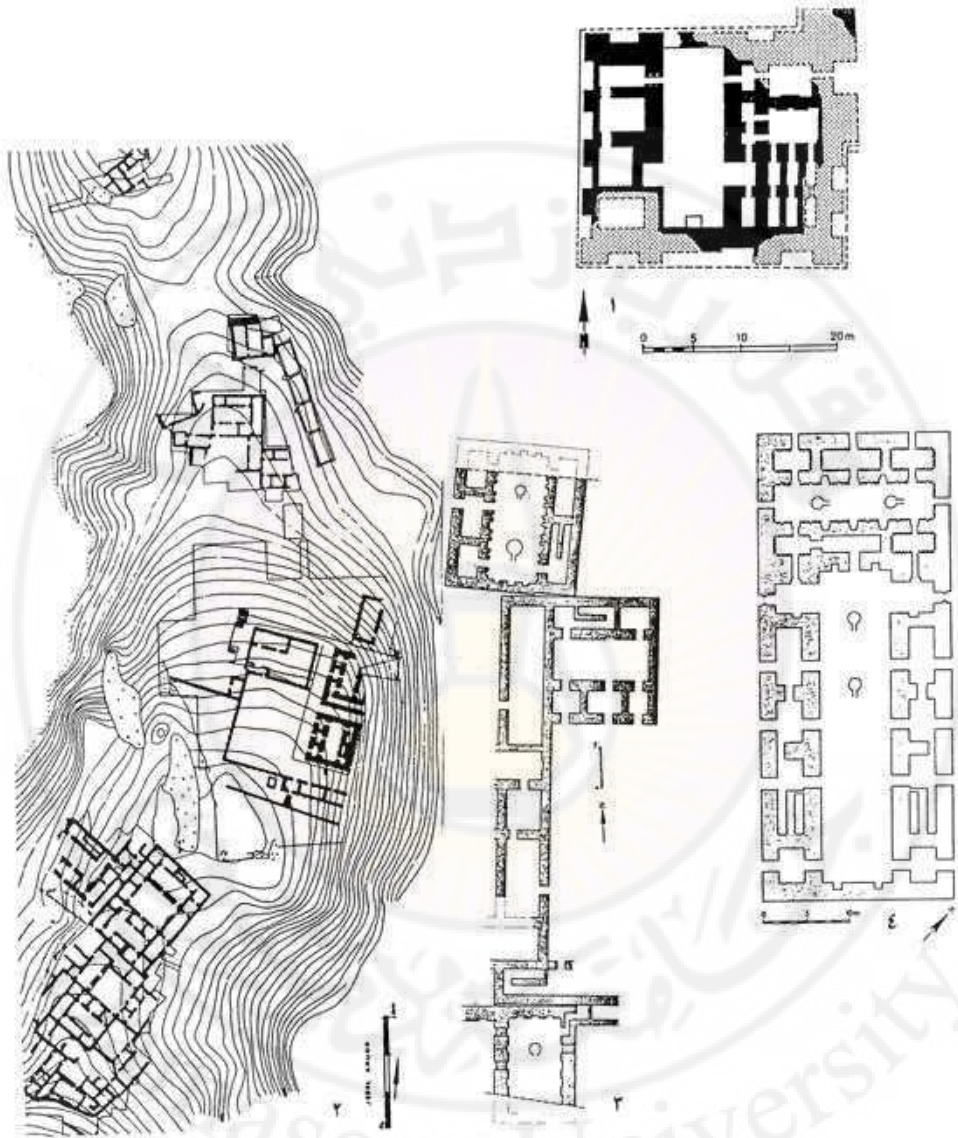
الشكل رقم: ١١٠



الشكل رقم: ١١١



الشكل رقم: ١١٢



الشكل رقم: ١١٣



الشكل رقم: ١١٤

المراجع

- المراجع الأجنبية -

- المراجع العربية -

المراجع الأجنبية

- Adams R.M, C, H.I. Nissen, The Uruk Country sides. Chicago 1972.
- A: Akazawa. T. Muhesen. S. 2002, Neanderthals burials: Excavation of Dederiyeh cave, Afrin. Syria. International center for Japanese studies. Kyoto, Japan.
- Akkermans. P.A, Fokkens, H. Waterbolk H. Stratygraphy Architecture and Lay-out of Bouqras "Colloque C.N.R.S Prehistoire du Levant, Lyon 1981.
- Aurenche. O, La maison orientale: L'architecture du Proche-Orient, des Origines au milieu du IV^e millenaire Paris 1981.
- Au Pays de Baal dt d'Astarté, 10 000 ans d'art en Syrie, Musée de Petit Palais, Paris 1983. (Catalogue).
- Aurenche, O, et Kozlowski S.K. 1999, La Naissance du Neolithique au Proche - Orient. France.
- Basançon. J. L. Copeland, F. Hours, et P. Sanlaville, The Palaeolithic sequence and Quaternary Formations of the Orontes river Valley, northern, Syria. A Preliminary report. Bulletin of the Institute of Archaeology of London 15: 149 - 70 1978.
- Basançon. J, L. Copeland, F. Hours, S. Muhesen et P. Sanlaville, Geomorphologie et Prehistoire de la Vallée moyenne de l'Euphrate. Comptesrendus de L'academie des Sciences. D. 290: 167 - 70. 1980.
- Basançon. J, H. de Contenson, L. Copeland. F. Hours. S. Muhesen et P. Sanlaville, Etude géographique et prospection archeologique des Plateaux de la region de Menbij (Syrie du Nord) Trav. R. C. P 438 II, PP. 1980.
- Basançon. J, L. Copeland, F. Hours, S. Muhesen et P. Sanlaville, Le Paleolithique d'el kowm. Paleorient, 7: 33 - 55. 1981.
- Basançon. J, L. Copeland, F. Hours, S. Muhesen et P. Sanlaville, Prospection Géographique et Préhistorique dans le Bassin d'el kowm (Syrie) Raport Préliminaire. Cahiers de l'Euphrate 3.9 - 26. 1982.
- Basançon. J, H. de Contenson, L. Copeland, F. Hours, S. Muhesen, P. Sanlaville. Etude Géographique et Prospection Archeologique des Plateaux de la Region de menbij (Syrie du Nord). L'Homme et le milieu au Proche-Orient. A.A.A.S. Vol XXXII. 211 - 232. 1982.
- Bielinski. P. Starozytny Bliski Wschod, Od Poczatku gospodarki rolniczej do wprowadzenia Pisma. Warszawa 1985.
- Binford. L (Editor) New Perspectives in Archaeology, Chicago 1968.
- Bordes. F. Typologie du Paleolithique ancien et moyen, 2 Vols Bordeaux: 1961.
- Bordes. F, Le Paleolithique dans le Monde. Paris 1968.
- Bordes. F, The old stone Age, World University Library, Newyork, Toronto 1972.

- Braidwood. R. I, L.S. Braidwood, Excavation in the plain of Antioch Chicago 1959.
- Braidwood R.I, Prehistoric man Chicago 1967.
- Braidwood. B, Howe, and others. Prehistoric Investigations in Iraqi, Kurdistan. Chicago 1960.
- Brézillon. M, La Denomination des objets de Pierre Taillée C.N.R.S, Paris 1977.
- Cahiers de l'Euphrate 1, edition du C.N.R.S, Paris 1978.
- Cahiers de l'Euphrate 2, edition du C.N.R.S, Paris 1979.
- Cahiers de l'Euphrate 3, edition du C.N.R.S, Paris 1982.
- Cahiers de L'Euphrate 7. 1993, Paris.
- Camps. G, Manuel de Recherche Préhistorique. Dion. Paris 1979.
- Cauvin. J, Religions Néolithiques de Syrie Palestine. Paris 1972.
- Cauvin, J, Les Premières Villages de Syrie Palestine du IX^{ème} au VII^{ème} millenaire A. J.C, Lyon 1978.
- Cauvin, J, at M.C Cauvin, D. Stordeur, Recherches Préhistorique à el kowm (Syrie) Première Campagne 1978, Cahiers di l'Euphrate, 2. 1979.
- Cauvin. M.C, E. Coqueugnion, M. Le Miére, S. Muhesen, M.C. Nierlé, Prospection Préhistorique a Mallaha Jayroud (Qalamoun, Syrie) A.A.A.S. Vol XXXII. 273 - 281. 1982.
- Cauvin, J. 1997, Naissance de divinté, Naissance de l'écriture, France.
- Chaline. J, Le Quaternaire, L'histoire humain dans son environnement, Dion, Paris 1972.
- Chaline Jean un million de generations, Paris. 2000.
- Clark. D, The Middle Acheulian Occupation Site at Latamne northern Syria. A.A.A.s. 16 (2) 1 - 120 1966. Two articles.
- Clark. G and S, Piggot Spoleczenstwa Prahistoryczne 1970.
- Clark. J. Desmond, the Prehistory of Africa London 1970.
- Clark. J.G.D, Prehistoric Europe: The Economic Bases. London 1971.
- Clark. G, World Prehistory, In New Perspective, Cambridge University Press, London 3rd edition 1977.
- Contenson. H, de, Troisième Campagne a Tell Ramad 1966. Rapport Preliminaire A.A.A.S. 17 (1967) 17 - 24.
- Copeland.L, the Middle and upper Palaeolithic of Lebanon and Syria in the Light of recent researches: in Wendorf and Marks (ed) Problems in Prehistory, North Africa and the Levent: 317 - 350. 1975.
- Courbin. P, Qu'est ce que l'archeologie, Payot. Paris 1982.
- Curtis. J, (editor) Fifty Years of Mesopotamian Discovery London 1982. The British School of Archaeology in Iraq.
- Del Odmolette J.L. Montero Fenollos (ed) 1999, Archaeology of the upper Syrian Euphrates. The Tishrin dam area. Barcelona.
- Dictionnaire de la Prehistoire. Paris 1994.
- Dunand. M, Byblos son histoire ses ruines ses legendes Beyrouth. 1953.

- Dunand. M, Fouilles de Byblos T. 2. 1933 - 1938. Paris 1958.
- Garrod. D, et D. Bate, the Stone age of Mount Carmel. L'Oxford 1937.
- A Fagan. M. B, People of the Earth, An Introduction to world Prehistory. Toronto 1983.
- Hanihara. K. et, T. Akazawa (ed) Palaeolithic Site of Douara Cave and Palaeogeography of Palmyra Basin in Syria, Part II. University Museum. Bulletin of the university of Tokyo 14. 1978.
- The Geography of Neandertals and modern humans in Europe and The Greater Mediterranean editor: O. Bar-Yosef and D. Pilbeam. Harvard University 2000.
- Geomorphologie et la Préhistoire de la Vallée de L'Oronte. BAR. England, 1993.
- Histoire de la Terre Notre Planète. Société Géologique de France 1984.
- Hole. F, and Heizer, R.F, An Introduction to the Prehistoric Archaeology, Newyork 1973.
- Hole. F, Study in the Archaeological history of Deh Luran Plain. The excavation of Chogha-Safid Ann-Arbor, University of Michigan 1977.
- Hours. F, Paleolithique et Epipaleolithique de la Syrie et du Liban, thèse de doctorat d'état, Présentée a l'Université de Paris I (Sorbonne). 1980.
- Hours. F, Les Civilisations du Paleolithique, Que sais-je. Paris 1982.
- Hours. F, Le Yabroudien d'el kowm (Sryie) et sa Place dans le Paleolithique du Levant Paleorient. 9/1 21 - 37 1983.
- Hours. F, J.M, Le Tensorer, S. Muhesen, I. Yalcinkaya, Premiers Travaux sur le Site Achéuléen de Nadaouiyeh I. Paleorient 9/2, 5 - 13. 1983.
- Hours. F, L, Copeland et O. Aurenche, les Industries Paleolithique du Proche-Orient. Essai de Correlation. Anthropologie, 1973.
- Jelinek. J, Encyclopédie Illustrée de L'Homme Préhistorique, Paris 1984.
- Khnyon. K, Digging up Jericho, London 1957.
- Kenyon. K.M, Excavations at Jericho Vol I (1960) British School of Anchaeology in Jerusalem.
- Kenyon. K.M, Excavations at Jericho Vol 2 (1964) British School of Archaeology in Jerusalem. C.N.R.S, Paris 1977.
- Kenyon. K.M, Archaeology in the Holy Land, London 1970.
- Kirkbride. D, Five Seasons at Pre-pottery Neolithic Village of Beidha, in Palestine Exploration Quaterly T. 98 N° 1, 1960.
- Land Des Baal, Syrien Forum der Volker und Kulturen. Mainz Am Rhein 1982 (Catalogue).
- Larouse, Dictionaire de la Préhistoire Paris 1969.
- L'Archeologie de L'Iraq, de début de L'époque néolithique à 333 Av. Notre ére. Perspectives et Limites de L'interprétation anthropo-logique des documents. Paris 13 - 15 Juin 1978, Paris 1980.
- La Préhistoive dans le Monde, Ouvrage Collectif Paris 1992.

- Le Tensorer et al 1997, Decouverts de restes. Humains dans les niveaux acheuleens de Nadaouiych. *Paleorient* 23/7.
- Leakey. L.S.B, Olduvai gorge 1951 - 1951 Cambridge University Press 1962.
- Leroi-Gouhran. A, Les religions de la Préhistoire Paris 1964.
- Leroi-Gouhran, A, Préhistoire de L'Art Occidental. Mazenot, Paris 1965.
- Leroi-Gouhran. A, Les Chasseurs de la Préhistoire, A-M. Métaillié. Paris 1983.
- Liere, Van, W.I, Observations on the Quaternary of Syria, *Berichten Von de Rijksdienst Voor het Oudeidkundig Bodemonderzoek* 10 - 11: 1 - 69. 1960 - 61, Reprinted by General Directorate of, Antiquities and Museums.
- Loon, M. Van, the oriental Institut Excavation at Mureybit Syria, *Préliminary Report on the 1965 Campaign*. I.N.E.S, 27, 1968, 265 - 90.
- Lunley (de). H. (editeur) la Préhistoire Française T.I, 2.C.N.R.S, Paris 1976.
- Mallowan. M.E.L, and I.C. Rose. Excavations at Tell Arbachiyah 1933. *Iraq*. II (1935) 1 - 178.
- Mallowan. M.E.L, Excavations in the Balikh Valley. *Iraq*. 8 - 111 - 152 1946.
- Mallowan. M.E.L, Excavations at Brak and Chagar Bazar Iraq, 9, PP. 1 - 266. 19.
- Mallowan. M.E.L, Twenty-Five Years of Mesopotamia Discovery the British School of Archaeology in Iraq: 1956.
- Mallowan. Max. E.L, Early Mesopotamia and Iran 1965. London.
- Margueron. I, (editeur) Le Moyen Euphrate Zone de Contacts et d'échanges. Colloque, Strasbourg 1977.
- Mellaart. J, The Earliest Civilisation of the Near East London 1965.
- Mellaart. J, Catal Huyuk London 1967.
- Mellaart. J, Excavation at Hacilar. Edinburgh 1970.
- Mellaart. J, the Neolithic of the Near East. London 1975.
- Muhesen. S, the Upper Acheulian in Syria, Colloque, Préhistoire du Levant 185 - 191. C.N.R.S, Paris 1981.
- Muhesen. S, L'Acheuleen Récent Evolué de Syrie, Thèse de doctorat Publiée par BAR International Series 248, Oxford 1985.
- Muhesen. S. Billan Sur la prehistoire de la Syria Syria. LXIX. 1992.
- Muhesen. S Le Paleolithique inferieur de la Syrie. *L'Anthropologie* 92-3/1988.
- Neuville. R, Le Paleolithique et Mesolithique du desert de Judée. 24 ème Mémoire des Archives de L'Institut de Paleonthologie Humaine de Paris Paris, 1951.
- Origine et Evolution de L'Homme, Laboratoire de Préhistoire de Musée de L'Homme Paris 1984.

- Perrot. J, Préhistoire Palestinienne. Supplement au Dictionnaire de la Bible. Paris 1968.
- Peobody Museum Bulletin 8, Harvand 2000.
- Ponikarov. V.P, the geological map of Syria. Scale 1/1.000.000
Department of Geological and Mineral Research. Damascus. 1964.
- Préhistoire du Levant, Chronologie et Organisation de L'espèce depuis les
Origines Jusqu'au VI^e millenaire. Colloque à Lyon 10 - 14 Juin 1980.
C.N.R.C. 1981. Paris.
- Redman. Ch. L, the rise of Civilization, From Early Farmers to Urban
Society in the Ancient Near East. San Francisco 1978.
- Rust. A, Die Holen Fund Von Jabrud (Syrien). K. Wachholtz, Neumunster.
1950.
- Sanlaville. P, Etude Géomorphologique de la Région Littorale du Liban. 2
Vol. 859 PP. Université Libanaise. Beyrouth. 1977.
- Sanlaville. P, (éditeur) Quaternaire et Préhistoire du Nahr El-Kébir
Septentrional, les débuts de L'occupation humaine dans la Syrie du Nord et
au Levant. C.N.R.S. Paris 1979.
- Semenov. S.A, Prehistoric technology London 1964.
- Solecki. R.A, Sketch of the Columbia University Archaeological
Investigation at Yabroud (Syria) Fruhe Menschheit und Umwel!
(Fundaments a 2) 199 - 212. 1970.
- Sonnevile - Bordes. D. de, L'Age de la Pierre Paris 1961.
- Strommenger. E, Habuba Kabira Eine Stad Vor 5000 Jahren, Mainz am
Rhein 1980.
- The Cambridge Encyclopedia of archaeology. 1980.
- Wanke. R.I, Patterns in Prehistory, Mankind's First three Millions Years,
Oxfors 1980.

ABBREVIATIONS

- A.A.A.S. : Annales Archaeologiques Arabes Syriennes (Damas).
- A.A.S.O.R. : The Annual of the American School of the Oriental Research. New Haven.
- Archaeologia : Archaeologia Warszawa. Rocznik Instytut History Kultury Materialnej Polskiej Akademi Nauk- Warszawa.
- Archaeology : Archaeology. A Magazine Dealing with the Antiquity of the World. American Institut of Archaeology. New York.
- A.D.A.I. : Annual of the Department of Antiquities of Jordan, Amman.
- L'Anthropologie : Institut de Paleontologie Hamaine, Paris.
- Berytus : Archaeological Studies. The American University of Beirut.
- B.M.B. : Bulletin du Musée de Beyrouth.
- B.A.S.O.R. : Bulletin of American School of Oriental Research (Chicago).
- B.S.P.F. : Bulletin de la Société Préhistorique Française. Paris.
- C.N.R.S. : Centre National du Recherche Scientifique, Paris.
- Gallia Préhistoire : Edition. C.N.R.S. Paris.
- Hannon : Revue Libanaise de Géographie.
- Iraq : British School of Archaeology in Irap. London.
- J.A.N.E.S. : The Jornal of the Ancient Near Eastern Society of Columbia University (New York).
- M.U.S.J. : Mélanges de L'Université Saint-Jpseph. Beyrouth.
- R.A. : Revue d'assyrologie et d'archaeologie Orientale (Paris).
- Sumer : Sumer, A Jornal of Archaeology in Iraq. Directorate General qI Antiquities. Baghdad.
- Syria : Syria. Revue d'Art Oriental et d'Archaeologie, Institut Français d'Archaeologie du Proche-Orient. Paris.
- Paleorient : Revue Pluridisciplinaire de Préhistoire et Protohistoire de l'Asie du Sud-Ouest, Editions du C.N.R.S.
- P.P.S. : Proceeding of the Prehistoric Society. England.
- Quaternaria : Roma.

المراجع العربية

- الحوليات الأثرية العربية السورية، مجلة تبحث في آثار سورية وتاريخها والوطن العربي. المديرية العام للآثار والمتاحف دمشق. وفي كل أعدادها تقريباً تقارير أولية باللغة الأجنبية عن معظم أعمال التنقيب التي جرت في مواقع ما قبل التاريخ في سوريا. في القسم العربي من كل عدد هناك ملخص مترجم، لهذه التقارير كما نشر عدد خاص عما قبل التاريخ هو العدد ١٩٦٦، المجلد الثاني.
- أطلال. حولية الآثار العربية السعودية. دائرة الآثار والمتاحف بوزارة المعارف في السعودية، الرياض.
- الآثار السورية. بلاد بلع سورية ملتقى الحضارات والشعوب، دليل معرض الآثار السورية ترجمة الدكتور نايف بلوز. مؤسسة البريد الدولي للصحافة والنشر، فيينا ١٩٨٥.
- إيف كوينس، أفريقيا وقصة الإنسان. ترجمة سلطان محسن. دمشق ١٩٧٧.
- ألفرد روست: مكتشفات مغاور يبرود. ترجمة محمد قدر دمشق ١٩٨٨.
- تشارلز داروين. أصل الأنواع ترجمة إسماعيل مظهر. بيروت، بغداد ١٩٧١.
- جورج ضو. تاريخ علم الآثار ترجمة بهيج شعبان ١٩٧٠.
- جاك كوفان. الوحدة الحضارية في بلاد الشام بين الألفين التاسع والسابع ق.م. ترجمة قاسم طوير. دمشق ١٩٨٤. دار المجد.
- جاك كوفان، ديانا العصر الحجري الحديث في سوريا وفلسطين، ترجمة سلطان محسن. دمشق ١٩٨٨.
- جاك كوفان، ولادة الألوهية ولادة الزراعة. ترجمة دمشق ١٩٩٩.
- حولية دائرة الآثار العامة: دائرة الآثار العامة عمان. الأردن.
- زيدان كفاقي. الأردن في العصور الحجرية. الأردن ١٩٩٢.

- سلطان محيسن . آثار الوطن العربي القديم . منشورات جامعة دمشق ١٩٨٨ .
- سلطان محيسن . بلاد الشام في عصور ما قبل التاريخ . الصيادون الأوائل ، دمشق ، ١٩٨٩ .
- سلطان محيسن . بلاد الشام في عصور ما قبل التاريخ . المزارعون الأوائل ، دمشق ، ١٩٩٥ .
- سلطان محيسن : نتائج التنقيب في القرماشي ، الحوليات الأثرية العربية السورية مجلد ٣٣ (جزء ثاني) ١٩٨٣ ، ١٠٥ - ١٢٢ .
- سلطان محيسن : الأنتروبولوجيا وما قبل التاريخ ، نوبة لطلاب دبلوم التأهيل والتخصص في الآثار ١٥٦ صفحة قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة دمشق ١٩٨٤ .
- سلطان محيسن : ما قبل التاريخ في سورية على ضوء المكتشفات الجديدة مطبوعات وزارة التربية ، مديرية التدريب ، الكراس الرابع ص ١ - ٣٧ دمشق ١٩٨٣ .
- سلطان محيسن : عصور ما قبل التاريخ في القطر العربي السوري ، مجلة الفكر ، العددان الستون والواحد والستون . ١٩٨٤ . ص ١١١ - ١٢٦ .
- سلطان محيسن (بالاشتراك مع آخرين) دراسة جيومورفولوجية ومسح أثري في السهول المرتفعة لمنطقة منبج شمال سورية . الحوليات الأثرية العربية السورية ، المجلد ٣٢ ص ١٩١ - ٢٠٠ / ١٩٨٢ .
- سلطان محيسن : (بالاشتراك مع آخرين) آثار ما قبل التاريخ في منطقة جبرود ، الحوليات الأثرية العربية السورية المجلد ٣٢ ص ٢١١ - ٢١٣ / ١٩٨٢ .
- عدنان البني : التنقيب الأثري الحديث ، دمشق ١٩٧٦ . منشورات المديرية العامة للآثار والمتاحف .
- علي أبو عساف : فنون الممالك القديمة ، دار شمال ، دمشق ، ١٩٩٣ .
- عادل عبد السلام : جغرافية سورية . دمشق ١٩٧٣ . جامعة دمشق .
- عادل عبد السلام . الأقاليم الجغرافية السورية ، جامعة دمشق ١٩٩٠ .
- علي جباوي : جغرافية السلالات البشرية . دمشق ١٩٨١ . جامعة دمشق .

- فوزي عبد الرحمن الفخراي: الرائد في فن التنقيب الأثري. جامعة قاريونس / ١٩٧٨ ليبيا.
- فرنسيس أور، حضارات العصر الحجري القديم. ترجمة سلطان محيسن ١٩٩٥.
- لويس دوبرتري: جيولوجية سورية ولبنان، ترجمة الدكتور ميخائيل معطي ١٩٧٠. مطبعة طربين - دمشق.
- مقدمة ابن خلدون، بيروت ١٩٨٤.
- هاري ل. شايفرو، الإنسان والحضارة والمجتمع، ترجمة عبد الكريم محفوظ، وزارة الثقافة / ١٩٧٨.
- هنري نرانكفورت: فجر الحضارة في الشرق الأدنى ترجمة ميخائيل خوري / ١٩٦٠ بيروت.
- هشام صفدي: علم الآثار الشرقية ١٩٨٢ جامعة دمشق.
- ول ديورانت: قصة الحضارة الجزء الأول، نشأة الحضارة ترجمة الدكتور زكي محمود، القاهرة ١٩٤٩.
- مجلة الشرق القديم / Paleorient وهي مجلة نصف سنوية يصدرها مركز البحث العلمي الوطني في باريس / CNRS وبخاصة الأعداد التي صدرت بعد عام ١٩٨٠. وتضمنت العديد من المنشورات عن أعمال التنقيب الحديثة في سورية والشرق الأوسط.
- مجلة الوقائع الأثرية (Chroniques Archeologique) التي تصدرها المديرية العامة للآثار وقد صدر منها حتى الآن العددان الأول والثاني.
- كاتالوج: مجموعة من الكتب التي رافقت المعارض الأثرية السورية في الخارج وأهمها كاتالوج سورية ذاكرة وحضارة، باريس ١٩٩٣. وسورية مهد الحضارة. كندا ١٩٩٩.

فهرس الجداول والأشكال والصور

- ١ - موقع الرباعي في التاريخ الجيولوجي للأرض ، سلطان محيسن .
- ٢ - جدول كرونولوجي مقارنة لأهم حضارات الباليوليت (البليستوسن) في العالم ، سلطان محيسن .
- ٣ - جدول كرونولوجي مقارنة لأهم حضارات الميزوليت والنيوليت (البليستوسن الأخير والهولوسن) في العالم . سلطان محيسن .
- ٤ - التشكلات الجيومورفولوجية الرباعية :
 - ١ - الشواطئ البحرية .
 - ٢ - المصاطب النهرية . سلطان محيسن .
 - ٥ - نماذج إنسان العصر الحجري القديم :
 - ١ - الأسترالوبيثك (الهوموهاييل)
 - ٢ - الهومو اركتوس .
 - ٣ - النياندرتال .
 - ٤ - الإنسان العاقل .
 - ٦ - ١ ، ٢ : الطرائق غير المباشرة في تصنيع الأدوات الحجرية :
 - ٣ : الصفات المميزة في القطعة الحجرية الملونة ،
 - a - سطح الطرق ، b - نقطة الطرق ، c - حدة الطرق ، d - تكسّر الطرق ، e و f - خطوط الطرق الطولية والعرضية ، عن بورد ١٩٧٢ .
 - ٧ - الطرائق المباشرة في تصنيع الأدوات الحجرية :
 - ١ - استخدام المطرقة الحجرية .
 - ٢ - ٣ : استخدام المطرقة العظمية أو الخشبية عن بورد ١٩٧٢ .
 - ٨ - أنواع التشذيب (Retouche) على الأدوات الحجرية :
 - a ، b - تشذيب على شكل حراشف السمك ،

- d, c - متواز ،
 e - حراشف متدرجة .
 f - أورنياسي ،
 g - هامشي قصير ،
 h - حاد عادي ،
 i - حاد متصالب ،
 j - مسطح محدب ،
 k - كامل متواز ،
 l - كامل مائل ،
 m - كامل متعرج ،
 n - كامل غير منتظم ،
 o - كامل متقطع ،
 p - مقلوب ،
 q - متبدل ،
 r - متبادل ،
 s - ممتد ، عن برازيون ١٩٧٧ .
 ٩ - أدوات قاطعة :

- ١ - أرض حمد في حوض نهر الأبرش ، طرطوس ، عن سلطان محيسن ١٩٨٥ .
- ٢ - مشيرفة الساموك في حوض نهر الكبير الشمالي ، عن سانلا فيل ١٩٧٩ .
- ٣ - موقع الدوفاي في تانزانيا ، عن ليكي ١٩٦٢ .
- ١٠ - مراحل تطور الأدوات القاطعة إلى فؤوس :
 ١ - أداة قاطعة ، ٢ - أداة قاطعة متطورة ،
 ٣ - ٤ : فؤوس يدوية بدائية ،
 ٥ - ٦ : فؤوس يدوية متطورة ، عن بورد ١٩٦٨ .
 ١١ - أدوات آشولية :

- ١ - فأس لوزي ، ٢ - فأس مثلث ،
- ٣ - فأس على شكل قلب ، ٥ - ساطور ،
- ٦ - فأس ميكوكي ،
- ٢ - قاطع من موقع العبيدية ، عن موسوعة ما قبل التاريخ ١٩٦٩ .
- ١٢ - ١ - مختلف أشكال الفؤوس الحجرية ،
- ٢ - فأس ميكوكي ، عن بورد ١٩٦١ .
- ١٣ - نوى حجرية مختلفة :
- ١ - نواة موشورية الشكل لاستخراج النصال ،
- ٢ - نواة شبه دائرية الشكل لاستخراج الرقائق ،
- ٣ - نواة بيضوية لفلوازية لاستخراج الرقائق للفلوازية ،
- ٤ - نواة لاستخراج الحراب للفلوازية ، عن بورد ١٩٧٢ .
- ١٤ - آثار بيت لإنسان النياندرتال من موقع مولودفا في أوكرانيا ، عن بورد ١٩٧٢ .
- ١٥ - ١ - جمجمة نياندرتال منزوع دماغها ومحاطة بالأحجار ومدفونة في مغارة عميقة في منطقة مونت سيرسو في إيطاليا .
- ٢ - جمجمة طفل نياندرتالي محاطة بقرون الماعز الجبلي من موقع تيشك تاش في أوزباكستان ، عن شالين ١٩٧٢ .
- ١٦ - ١ - مكاشط أورينياسية ذات جبهة عريضة ،
- ٢ - ٢ : أزامل ،
- ٤ - مخرز من حضارة قفصة في تونس ، عصر الميزوليت .
- ٥ - مخارز .
- ١٧ - ١ - نصلة شاتلبيرونية ،
- ٢ - نصلة غرافيتية ،
- ٣ - نصلة أورينياسية ،
- ٤ - نصلة مخنصرة ، عن برازيون ١٩٧٧ .

١٨ - حراب سولوترية على شكل ورقة الغار أو الصفصاف من فرنسا، عن شالين ١٩٧٢.

١٩ - أدوات متنوعة من الحضارة المجدلانية، الصف الأعلى، عن موسوعة ما قبل التاريخ ١٩٦٩، الصف الأدنى عن كامبس ١٩٧٩.

٢٠ - ١ - حربة من نوع لينغبي، عن برازيون ١٩٩٧،

٢ - قدوم المربط، عن كوفان ١٩٧٨،

٣ - حربة من النوع العطري،

٤ - نصلة من نوع الأميرة، عن برازيون ١٩٧٧.

٢١ - نصال من الحضارات الهندية القديمة:

١ - نوع فولسوم،

٢ - سانديا،

٣ - كلوفيس، عن برازيون ١٩٧٧.

٢٢ - فينوس العصر الحجري:

١ - موقع ليزبغ في فرنسا،

٢ - موقع براسمبوي في فرنسا،

٣ - موقع دولني - فيستونيتسي في تشيكوسلوفاكيا ليزبغ عن غوران ١٩٦٥.

٢٣ - رسوم جدارية مجدلانية:

١ - ٢: كهف التاميرا في إسبانيا.

٣ - ٤: كهف لاسكو في فرنسا، عن غوران ١٩٦٥.

٢٤ - أدوات ميكروليتية - هندسية كبارية:

١ - ٢: نصلة الكبارا.

٣ - ٤: نصالات مظهرة،

٥ - ٧: مقاحف،

٨ - ٩: نوى موشورية لاستخراج النصالات عن جاك، ماري كلير كوفان،

ستوردور ١٩٧٩.

٢٥ - أدوات ميكروليثية هندسية نطوفية من الكوم :

١ - ٥ : أدوات هندسية ،

٦ - ٧ : مكاشط عن جاك ، ماري كلير كوفان ، ستوردور ١٩٧٩ .

٨ - أهم الأدوات النموذجية النطوفية :

١ - منجل ، ٢ - نصلة ،

٣ - أداة هلالية تشذيب حلوان ،

٤ - أداة مثلثة ، ٥ - مكشط ،

٦ - رأس نبله من نوع حلوان ،

٧ - سنارة ، ٨ - خرز ،

٩ - مخرز ، ١٠ - خطّاف ،

عن موسوعة ما قبل التاريخ ١٩٦٩ .

٢٦ - موقع عين الملاحه :

١ - بيوت دائرية من العصر النطوفي ،

٢ - أدوات ميكروليثية وأواني حجرية ، عن بيلنسكي ١٩٨٥ .

٢٧ - فنون نطوفية :

١ - ٢ : وجوه إنسانية مختزلة من عين الملاحه ،

٣ - دمية من عين الملاحه ،

٤ - تمثال «غرامي» من موقع عين صخري ،

٥ - وجه إنسان من مغارة الواد ،

٦ - قبضة أداة على شكل رأس غزال من مغارة الواد ،

٧ - قبضة أداة على شكل رأس غزال من مغارة الكبارا ،

٨ - ٩ : دمي حيوانية من ناحال أورن ،

١٠ - دمية حيوانية من أم الزويتينة ، عن كوفان ١٩٧٢ ،

١١ - قرط على شكل وجه رجل من الحجر ، عن كوفان ١٩٧٨ .

٢٨ - المربط :

a - أدوات ميكروليثية هلالية .

- b - فأس (المربط I)،
c, e, d - أمشاط عظيمة (المربط II).
f - دمية مختزلة من الحجر الكلسي (المربط II).
g, h - أواني حجرية (الطبقة VIII - X)،
i - إبرة من العظم (الطبقة VII)،
j - خاتم من الحجر الأخضر (V - II)،
k - أحجار محززة (VII)،
l - جرن (VII)،
m - إناء حجري (XVII)،
o - جاروش (VII)، عن ميلارت ١٩٧٥.
٢٨ (I) - ١ - حضارة ماغلاموزي:
١ - ٣: أدوات مزخرفة،
٤ - قدوم من الحجر وله قبضة عظمية من قرن الغزال،
٥ - مكشط،
٦ - ٧: أدوات ميكروليثية،
٨ - بلطة،
٩ - سنارة،
١٠ - ١١: خطاف،
٢ - حضارة أرتبولي:
١ - آنية فخارية، ٢ - مكشط،
٣ - خطاف، ٤ - ٩: أدوات حجرية.
٣ - الحضارة الأزيلية:
١ - ٥: أدوات حجرية أزيلية،
٦ - حصى ملونة، ٧ - ٨: خطاف.
٤ - حضارة تاردنواز: أدوات حجرية عن موسوعة ما قبل التاريخ ١٩٦٩.

٢٩ - تطور أشكال النبال في بلاد الشام في النيوليت :

- A - نبال الحيام ، النصف الأول من الألف التاسع ق . م ،
 - B - نبال حلوان ، النصف الأول من الألف الثامن ق . م ،
 - C - نبال مفرضة ومجنحة ، النصف الأول من الألف الثامن ق . م ،
 - D - نبال ذات ساق ، النصف الثاني من الألف الثامن ق . م ،
 - E - نبال أريحا ، النصف الثاني من الألف الثامن ق . م ،
 - F - نبال العمق ، من الألف السابع ق . م ،
 - G - نبال جبيل ، من الألف السابع ق . م ،
- عن بيلنسكي ١٩٨٥ .

٣٠ - المربيط السوية الثالثة :

- ١ - بيوت مستطيلة عن فان لون ١٩٦٨ ،
- ٢ - بيوت دائرية مقسمة من الداخل ، عن كوفان ١٩٧٨ .
- ٣١ - تمثال «للربة الأم» من حجر الكالسيت السوية الثالثة في المربيط الألف الثامن ق . م ، تنقيب كوفان ، تصوير مروان مسلماني .
- ٣٢ - أواني فخارية صغيرة من السوية الثالثة في المربيط ، الألف الثامن ق . م ،
- ١ - فنجان ،
- ٢ - فنجان مزخرف بالحزوز ،
- ٣ - صحن ، عن كوفان ١٩٧٨ .
- ٣٣ - الأبنية الدفاعية في أريحا في الألف الثامن ق . م ،
- A : ١ - الأرض الصخرية ، ٢ - الخندق ،
- ٣ - الجدار ، - البرج ، عن بيلنسكي ١٩٨٥ .
- B : مخطط البرج الدائري عن ميلارت ١٩٧٥ .
- ٣٣ (آ) - عصر النيوليت ما قبل الفخار (ب) موقع الغدير في منطقة الكوم :
- ١ - ٢ : مكاشط .

- ٣- ٤- ٥ : مناجل صوانية، عن كوفان : دراسة لاورانج، وكوفان، عن أوراق الفرات / ٣ / ١٩٨٢ .
- ٣٤- بناء منظم ومتطور من بقرص، عصر النيوليت ما قبل الفخار (ب)، عن أكرمان، فوكن، وتربولك ١٩٨١ .
- ٣٥- الأواني البيضاء من الكوم، دراسة، كلودين مارشال، أوراق الفرات / ٣ / ١٩٨٢ .
- ٣٦- دمي حيوانية من تل أسود في حوضه دمشق النيوليت ما قبل الفخار (ب)، تنقيب هـ . دي كونتنسون، تصوير مروان مسلماني .
- ٣٧- الربة الأم من تل أسود في حوضه دمشق النيوليت ما قبل الفخار (ب) تنقيب هـ . دي كونتنسون، تصوير مروان مسلماني .
- ٣٨- دمي كينية من منهاتا، النيوليت ما قبل الفخار (ب) : ١ - ٢ - ٣ : أشكال إنسانية، نسائية مختزلة، ٤ - حيوان، عن كوفان ١٩٧٢ .
- ٣٩- دمي طينية من البيضاء. النيوليت ما قبل الفخار (ب) :
١ - امرأة جالسة، ٢ - تيس جبلي،
عن كيركبريد ١٩٦٦ .
- ٤٠- جماجم منهاتا وتماثيل تشير إلى «عبادة الأجداد». نهاية النيوليت ما قبل الفخار (ب)
١ - أريحا، عن كينون ١٩٥٧ .
- ٢ - تل الرماد، السوية الأولى، عن هـ . دي كونتنسون، ١٩٦٧ .
- ٤١- دمي حيوانات من الطين من تل الرماد، نهاية عصر النيوليت ما قبل الفخار (ب) تنقيب هـ . دي كونتنسون، تصوير مروان مسلماني .
- ٤٢- أوان فخارية وحجرية من تل الرماد :
١ - أواني فخارية من مطلع الألف السادس ق.م،
٢ - إناء مرمرى من نهاية الألف السابع ق.م تنقيب هـ . دي كونتنسون، تصوير مروان مسلماني .
- ٤٣- فنون من بقرص، من عصر النيوليت ما قبل الفخار (ب) :

- ١ - تمثال من الحجر الكلسي لامرأة جالسة ،
- ٢ - رأس رجل من الطين ،
- ٣ - رأس غزال من العظم ،
- ٤ - رسوم جدارية ملونة تمثل طيور نعام ،
- ٥ - أوان صغيرة لها قواعد من المرمر ، عن بلاد بعل ١٩٨٢ .
- ٤٤ - أختام حجرية مسطحة من رأس الشجرة السوية الخامسة ، نهاية الألف السابع ق.م . تنقيب هـ . دي كونتنسون ، تصوير مروان مسلماني .
- ٤٥ - مخطط بناء ديني (معبد) من أريحا ، عصر النيوليت ما قبل الفخار (ب) ، عن كوفان ١٩٧٢ .
- ٤٦ - بناء بيت منظم من جارمو ، الألف السابع ق.م ، عن ميلارت ١٩٧٥ .
- ٤٧ - آثار مختلفة من جارمو ، عن ميلارت ١٩٧٥ .
- ٤٨ - أواني فخارية مزخرفة :
 - ١ - مرحلة محمد جعفر ،
 - ٢ - موقع تبه غوران ،
 - عن بيلنسكي ١٩٨٥ .
- ٤٩ - تشايونو :
 - ١ - بيوت حجرية ،
 - ٢ - مجسم بيت طيني ، عن ردمان ١٩٧٨ .
- ٥٠ - ١ - أوان فخارية مصقولة من العمق : آ - ب .
 - ٢ - العمق س ، ٣ - نصال كنعانية ،
 - عن بيلنسكي ١٩٨٥ .
- ٥١ - ١ - فخار ملون من العمق س وفيه تأثيرات حلف ،
 - ٢ - فخار ملون من مرحلة العمق ب ، عن بيلنسكي ١٩٨٥ .
- ٥٢ - ١ - بيوت مقببة (تولوس) من عصر حلف :

A. تل يونس ، B, C. العريجية عصر حلف الأوسط . تحتها : زخارف على الأواني الفخارية على شكل رأس الثور من تل يونس عصر حلف الأوسط .
عن ميلارت ١٩٧٥ .

٥٣ - ١. أوان فخارية من موقع منهاتا ، الحضارة اليرموكية ،
٢. رأس طيني من موقع شعارها غولان الحضارة اليرموكية .
٣. أوان فخارية من موقع عين جربا من عصر أريحا الفخاري (ب) (حضارة وادي رباح) ، عن بيلنسكي ١٩٨٥ .

٤. دمي طينية من تل الرماد ، عن ميلارت ١٩٧٥ .
٥٤ - أوان فخارية من أريحا :
١. عصر أريحا الفخاري (أ) ،
٢. عصر أريحا الفخاري (ب) .

٥٥ - موقع شاتال هويوك ، من عصر النيوليت ما قبل الفخار
١. بركان ثائر على خلفية مدينة . وتحت مشهد صيد ،
٢. عقبان تأكل رؤوس بشر ،
٣. خنجر من الصوان المستورد من سورية له قبضة عظمية على شكل رأس حية ،
عن ميلارت ١٩٦٧ .

٥٦ - شاتال هويوك ، عصر النيوليت ما قبل الفخار :
a. قرون ثيران مغروسة في المصاطب ،
b. «المرأة الإلهة» تلد ثوراً مقدساً ،
c. ثور مقدس مزدوج ،
d. «المرأة الإلهة» في حالة الولادة فوق ظهر حيوانين . عن ميلارت ١٩٦٧ .
٥٧ - أم الدباغية :

١. رسوم جدارية تمثل صيد حمار الوحش ،
٢. بيوت السويات ٣ - ٤ عن كورتس ١٩٨٢ .

- ٥٨ - أبنية فخارية ومستودعات منتظمة من أم الدباغية، السويات ٣ - ٤ (الدنيا)،
الألف السادس ق. م، عن كورتس ١٩٨٢ .
- ٥٩ - ١ - قبور من تل الصوان (حضارة سامراء)،
٢ - تماثيل من المرمر من تل الصوان،
٣ - أوان فخارية ملونة ومزخرفة من تل حسونة (حضارة حسونة).
٤ - دمي طينية من موقع ياريم تبه (حضارة حسونة).
٦٠ - سور دفاعي لـ تل الصوان من عصر سامراء، عن ميلارت ١٩٧٥ .
٦١ - أواني فخارية من عصر سامراء:
a - g : تل الصوان، عن ميلارت ١٩٧٥ ،
h - m : تل حسونة، عن ردمان ١٩٧٨ .
٦٢ - فخار حلف الباكر من العرجية، عن ملوان ١٩٣٣ .
٦٣ - أوان فخارية مزخرفة من عصر حلف:
١ - أوان من ياريم تبه II عصر حلف الأوسط عن بيلنسكي ١٩٨٥ .
٢ - زخارف طبيعية من عصر حلف الباكر، العرجية عن ماكس وروز مالوان
١٩٣٥ .
٦٤ - حضارة حلف:
١ - اختتام مسطحة من تل العرجية، حلف الباكر، اختتام مسطحة من ياريم تبه
II . حلف الأوسط .
٢ - صحاف من عصر حلف الأخير، عن بيلنسكي ١٩٨٥ .
٦٥ - ١ - أوان فخارية من أريدو عصر عبيد الباكر عن ميلارت ١٩٧٥ ،
٢ - الأنية الناقوسية من عصر الوركاء، عن ردمان ١٩٧٨ .
٦٦ - الأواني السلحفائية من أريدو من عصر العبيد الثالث، عن بيلنسكي ١٩٨٥ .
٦٧ - معابد عصر العبيد الرابع:
١ - أريدو السوية VII ، ٢ - تبه غورا السوية XIII .
٦٨ - المعابد ذات المخطط «الثلاثي العناصر» في مدينة الوركاء:

- ١ - المعبدان المسميان C, D ،
- ٢ - المعبد الأبيض ، عن ردمان ١٩٧٨ .
- ٦٩ - تطور الكتابة التصويرية ، عن ردمان ١٩٧٨ .
- ٧٠ - جدول كرونولوجي للرباعي السوري ، سلطان محيسن .
- ٧١ - مقطع جيومورفولوجي للمصاطب النهرية في حوض العاصي عن بيزانسون ، كوبلاند ، أورس ، سانلافييل ١٩٧٨ .
- ٧٢ - فؤوس حجرية بدائية جداً ، يقدر عمرها بحوالي مليون سنة وهي أقدم أدوات حجرية عثر عليها في سورية ، موقع ست مرخو في حوض نهر الكبير الشمالي (الآشولي القديم) عن سان لافيل ١٩٧٩ .
- ٧٣ - فؤوس حجرية آشولية قديمة متطورة من موقع الشيخ محمد في حوض نهر الكبير الشمالي ، عن سان لافيل ١٩٧٩ .
- ٧٤ - فؤوس حجرية مدبية ، من اللطامنة ، عصر الآشولي الأوسط ، عن كلارك ١٩٦٦ .
- ٧٥ - فؤوس حجرية بيضوية ، من خلاله ، في حوض نهر الكبير الشمالي ، عصر الآشولي الأوسط عن سانلافييل ١٩٧٩ .
- ٧٦ - أرضية سكن موقع اللطامنة وتظهر فيها الأحجار الكبيرة ، بقايا الكوخ القديم ، عن كلارك ١٩٦٦ .
- ٧٧ - فؤوس حجرية من موقع الميرة ، عصر الآشولي الأوسط .
- ٧٨ - فؤوس حجرية على شكل القلب واللوزة من القرماشي ، عصر الآشولي الأعلى ، عن سلطان محيسن ١٩٨٥ .
- ٧٩ - أرضية سكن موقع القرماشي كما ظهرت أثناء التنقيب ، الأحجار الكبيرة تشير إلى بقايا الأكواخ التي بنيت هناك ، عن سلطان محيسن ١٩٨٣ .
- ٨٠ - فؤوس حجرية من موقع الندوية ، عصر الآشولي الأعلى .
- ٨١ - فؤوس حجرية آشولية ومقحف بيرودية من موقع الندوية .
- ٨٢ - عظم جمجمة إنسان الهومو هاركتوس من موقع الندوية .

- ٨٣- مقاحف من النوع البيروودي ، من موقع بئر الهمل - عن أورس ١٩٨٣ .
- ٨٤- الحراب الهملية من موقع بئر الهمل عن بيزانسون كوبلاند ، أروس ، محيسن ، سانلافييل ١٩٨١ .
- ٨٥- حراب موسستيرية من موقع بئر الهمل في البادية (الكوم) ، عن جاك ، ماري كليير كوفان ، أوراق الرات ٢٠ ، ١٩٧٩ .
- ٨٦- أدوات اللفلوازية موسستيرية من موقع أم التلال .
- ٨٧- مقحف يحمل آثار القار من موقع أم التلال .
- ٨٨- فقرة حمار الوحش وفيها جزء من رمح صيد مكسور / أم التلال / .
- ٨٩- مغارة الديدرية .
- ٩٠- أدوات حجرية لفلوازية - موسستيرية من موقع الديدرية .
- ٩١- الهيكل العظمي ، الطفل الأول ، من مغارة الديدرية .
- ٩٢- الهيكل العظمي ، الطفل الثاني ، من مغارة الديدرية .
- ٩٣- بيوت متطورة ، ذات وظيفة عامة ، من موقع جرف الأحمر .
- ٩٤- بقايا أبنية من موقع جرف الأحمر .
- ٩٥- لوحات تحمل إشارات تصويرية من موقع جرف الأحمر .
- ٩٦- رأس حجري من موقع جرف الأحمر .
- ٩٧- بقايا بناء وأحجار عليها إشارات من موقع جعدة المغارة .
- ٩٨- لوحة محززة وفير من موقع جعدة المغارة .
- ٩٩- بيوت من موقع حالوله .
- ١٠٠- جدار ضخمة من موقع حالوله .
- ١٠١- رسوم تمثل نساء راقصات من موقع حالوله .
- ١٠٢- أبنية ، تولوس ، من موقع حالوله .
- ١٠٣- أبنية من موقع الكوم .
- ١٠٤- أدوات حجرية من موقع الكوم .
- ١٠٥- رأس فأر وبقايا صنع السلال من موقع الكوم .

- ١٠٦ - مخططات الأبنية في موقع تل الصبي الأبيض .
- ١٠٧ - أوان فخارية من موقع تل الصبي الأبيض .
- ١٠٨ - طبقات أختام وأشكال طينية مختلفة من موقع تل الصبي الأبيض .
- ١٠٩ - دمي إنسانية وحيوانية من موقع تل الصبي الأبيض .
- ١١٠ - فنون منوعة ، من عصر حلف ، موقع شاغاربازار ، دمي نسائية وحيوانية وطيور وأختام مسطحة عن مالوان ١٩٤٧ .
- ١١١ - ١ - معبد تل أسود من عصر حلف ،
- ٢ - دمي من معبد العيون في تل براك عن مالوان ١٩٥٦ .
- ١١٢ - مخطط مدينة جبوبة الكبيرة الجنوبية ويظهر فيه السور والبوابات والأبراج ، عن شرتومنز ١٩٨٠ .
- ١١٣ - العمارة الدينية في عصر الوركاء :
- ١ - معبد العيون في تل براك ، عن مالوان ١٩٤٧ .
- ٢ - ٣ : معابد تل قناص ،
- ٤ - المعبد C في الوركاء ، عن شرتومنز ١٩٨٠ .
- ١١٤ - اللوحات الطينية للكتابة التصويرية الأولى وعليها طبقات أختام أسطوانية :
- ١ - جبوبة الكبيرة
- ٢ - جبل عروده ، عن بلاد بعل ١٩٨٢ .

فهرس الخرائط

- ١ - أقصى امتداد للجلید فی البلیستوسن عن لاروس ، معجم ما قبل التاريخ ١٩٦٩ .
- ٢ - أشهر مواقع العصر الحجري القديم (الباليوليت) فی إفريقية وآسیا . سلطان محیسن .

١ - سیدی عبد الرحمن

٢ - قفصة

٣ - بئر العطر

٤ - سیدی زین

٥ - ستان بوش

٦ - تاونغ

٧ - كالامبوفالس

٨ - الدوفاي

٩ - شيسووانجا

١٠ - اومو

١١ - ملكا كونتوري

١٢ - السبیل

١٣ - الواحات الخارجية

١٤ - مغائر جبل الكرمل (مغارة السخول ، الطابون ، الزطية) .

١٥ - كسار عقيل

١٦ - سولو

١٧ - شوکوتین .

- ٣ - أشهر مواقع العصر الحجري القديم (الباليوليت) فی أوربا . سلطان محیسن .

١ - تورالبا

٢ - التاميرا

٣ - أراغو

٤ - أورنيك

٥ - مواقع منطقة الدودون :

- لاسكو

- لومستير

- بيريفو

- كرومانيون

- لافراسي

- لامادلين

- تايك (ميكوك)

- ريغوردو

٦ - لاكينا

٧ - سولوتر

٨ - شاتلبيرون

٩ - آرسى سور كور

١٠ - بان سوفنت

١١ - لفلواز

١٢ - سان آشيل

١٣ - أبفيل

١٤ - كلاكتون

١٥ - وادي نياندر

١٦ - لرنجين

١٧ - لينغبي

١٨ - لازارية

١٩ - تيرا أماتا

٢٠ - غريمالدي

٢١ - مونت سير سو

٢٢ - كرايينا

٢٣ - فيرتشولوس

٢٤ - مولودوفا

٤ - أشهر مواقع العصر الحجري الوسيط والحديث (الميزوليت والنيوليت) في المشرق العربي القديم «سلطان محيسن» .

- | | |
|-----------------------------|-----------------------------|
| ١ - الفيوم | ٢٤ - تل يونس |
| ٢ - حلوان | ٢٥ - تل الشيخ حسن |
| ٣ - هار هاريف | ٢٦ - تل المربط |
| ٤ - البيضا | ٢٧ - تل أبو هريرة |
| ٥ - روش زين | ٢٨ - الكوم |
| ٦ - الحيام وأم الزويتينة | ٢٩ - تل بقرص |
| ٧ - أبو غوش | ٣٠ - تل أسود (الجزيرة) |
| ٨ - وادي النطوف | ٣١ - تل حلف |
| ٩ - أريحا | ٣٢ - تشايونو |
| ١٠ - تليلات الغسول | ٣٣ - شاغاربازار |
| ١١ - مغارة الكبارا | ٣٤ - ياريم تبه |
| ١٢ - مغارة الواد | ٣٥ - تل المغزاليا |
| ١٣ - عين الملاحه | ٣٦ - أم الدباغية |
| ١٤ - ناحال أورن | ٣٧ - تل حسونة |
| ١٥ - بيسامون | ٣٨ - تل العرجية |
| ١٦ - عين جيف | ٣٩ - تل المعلقات (المليجات) |
| ١٧ - هاغو شيرم | ٤٠ - تبه غورا |
| ١٨ - تل أسود (حوضه دمشق) | ٤١ - زاوي شمسي (شانيدار) |
| ١٩ - تل الرماد | ٤٢ - تل شمشارا |
| ٢٠ - أرض تليله | ٤٣ - زارزي |
| ٢١ - جيل | ٤٤ - كريم شاهير |
| ٢٢ - رأس الشمرة | ٤٥ - جارمو |
| ٢٣ - سهل العمق (تل الجديدة) | ٤٦ - سامراء (تل الصوان) |

- ٤٧ - شوغاما هي
٤٨ - تل العقير
٤٩ - جمدة نصر
٥٠ - الوركاء (أوروك)
٥١ - تل العبيد
٥٢ - أبو شهرين (أريدو)
٥٣ - علي كوش
٥٤ - تبة غوران
٥ - أهم مواقع عصور ما قبل التاريخ في سورية سلطان محسن .
١ - ست مرخو
٢ - الشيخ محمد
٣ - المشيرفة
٤ - مشيرفة الساموك
٥ - الشير
٦ - بكسا
٧ - هنادي
٨ - بانياس
٩ - تبة الحمام
١٠ - أرض حمد
١١ - موقع الحامي
١٢ - اللطامنة
١٣ - خطاب
١٤ - القرماشي
١٥ - تلؤل الدفاعي
١٦ - الرستن
٥٥ - جانجي داره
٥٦ - تبة جيان
٥٧ - شاتال هويوك
٥٨ - خان حسن
٥٩ - هاتشيلار
٦٠ - بلديبي
٦١ - بلباشي
٦٢ - منهاثا
١٧ - يبرود
١٨ - جيرو
١٩ - صيدنايا
٢٠ - تل الغريفة
٢١ - تل الخزامي
٢٢ - تل أسود
٢٣ - تل الرماد
٢٤ - الجامع
٢٥ - الطيبة
٢٦ - تل مردوخ (ابلا)
٢٧ - جبل عروده
٢٨ - جبوة الكبيرة
٢٩ - تل قناصر
٣٠ - تل أبو هريرة
٣١ - تل المربط
٣٢ - شمس الدين طنيرة

- ٣٣- أم التلال
٣٤- الندوية
٣٥- بئر الهمل
٣٦- الكوم
٣٧- كهف الدوارة
٣٨- جرف العجلة
٣٩- أم قبيبة
٦- مواقع التنقيب الحديث في سورية .
١- القدير
٢- الندويه
٣- أم التلال
٤- الكوم
٥- الميرا
٦- المشنقة
٧- الصبي الأبيض
٨- جعدة المغارة
٩- حالولة
١٠- جرف الأحمر
١١- الديدرية
١٢- عين الكرخ
٤٠- تل بقرص
٤١- عين أبو جمعة
٤٢- شنيّة
٤٣- تل حلف
٤٤- تل عقاب
٤٥- شكر بازار
٤٦- تل براك

المدقق اللغوي: الدكتور حسين جمعة

حقوق الطبع والترجمة والنشر
محفوظة لمديرية الكتب والمطبوعات